الإشراف الفني زهير الحمو

أراغـــون

أَجراسُ بالْ

ترجمة:
صَيَّاح الجهيّم

منشـــورات وزارة الثقـــافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٧

العنوان الأصلي للكتاب:

ARAGON
Les Cloches de Bâle
DENOEL

أجراس بال = Les claches de Bâle/ أراغون؛ ترجمة: صياح الجهيم. - دمشق: وزارة الثقافة، ١٩٩٧. - ٣٧٦ص؛ ٢٤سم. - (روايات عالمية؛ ٦٣)

١- ٨٤٣ ف أ ر ا أ ٢- العنوان ٣- العنوان الموازي
٤- أراغون ٥- الجهيم ٦- السلسلة

مكتبة الأسد

الايداع القانوني: ع -٢٠٤٥/ ١١/ ١٩٩٧

روايات عالمية
« ٦٣ »

إلى «ايلزا تريوليه»
التي لولاها لصمتُّ

القسم الأول

«ديان»

- ١ -

عندما دعا «غي» السيدَ «رومانيه» بابا، لم يُضحك ذلك أحداً. كان ذلك قبل العشاء، قرب أزهار السلبوت، حول الطاولة المزدانة برسمٍ يُرى فيه صيّادُ قريديس يلعب بالكرات مع عارض دبّ، وقد زخرفه فنانٌ دانمركي، كما يبدو (مثل كلب الدارة الخضراء) لكي يدفع حسابه أو ينتهي من دفعه. الأمر كذلك دائماً. ومع ذلك فقد ضحك الجميعُ عندما قال طفلُ النسوة ذوات الثياب المربّعة الخطوط: بابا، لصاحب الفندق الذي يشبه عارضَ الدب، لكن بشاربين، وبعينين مختلفتين تماماً. لم يكن أحدٌ، والحق يقال، متأكداً جداً من أنه لن يغلط وهو يتحدّث الى جاره. ففي المصيف يحتاج المرءُ الى وقت غير قصير ليعلم أن فلاناً هو فلان. والرجال بخاصة: ليسوا على شاطىء البحر عندما نلقاهم على ماعهدناهم عليه في المدينة.

من البديهي أنه لو أمكن انفاق سبعة فرنكات أو ثمانية يومياً في فندق مثل «البارك» لما كان «لديان» ان تتحمّل حديث امرأة مثل السيدة «لورد» التي كانت تُخفي بالتأكيد شيئاً يتصل بالتجارة التي لعلها تزاولها في «البيف». وعلى كل حال كانت «ديان» تأبى أن تصدّق ماكان يقال. لكن كان لابدّ في النهاية من الاختيار: إما أن تسكن في «البارك» وحدها مع «غي»، وحينئذ كيف تفسر حضور السيّد «دورو مانيه»؟ وإما في «الحمّامات» مع أبيها وأمها ولاسيما أن «روبير» الذي يؤدي خدمته العسكرية مع «الخيّالة»، روبير العزيز سيحصل على إجازته، ولن تكفّ، مع ذلك، عن الاهتمام به، وهو بأمسّ الحاجة الى حمّامات البحر مع كل تلك البثور التي طلعت له.

«ثلاثة فرنكات بالشخص، لأبيك ولي، هذا كل ما نستطيع أن نحلم

بتخصيصه للنفقة». كانت السيدة «دي نيتنكور» تتنهد، وكانت «ديان» على علم بما سيتلو ذلك: الأسف على الزمن الذي لم تعرفه والذي كان فيه أبوها وأمها يعيشان عيشة أصحاب القصور في «التورين»، في «نتينكور»، وعلى كل نافذة «هورتنسيا» وكان لسيدنا غرفته الجاهزة دائماً، وما كان آنق أباك في ثياب الصيد! وعندما كنا نصل مكاناً لايبقى أحدٌ إلا التفت. كانت السيدة «دي نيتنكور» تُصرّ على أن يعدّهما الناس أخاً وأخته، فكلاهما طويل ولونهما واحد. وكانت «ديان» تتذكر مع ذلك أنه كان لابد من مرور السنين ليقترب شعرُ أمها من لحية السيد «دي نيتنكور». لم يكن ممكناً ايقاف تلك المرأة العزيزة إذا مابلغت موضوع المرابين. قالت «ديان»: «طيب، ثلاثة فرنكات وثلاثة أضعها تصبح ستة»، وإذن فقد استأجروا في «الحمامات».

كانت الأسابيع الأخيرة من تموز بغيضة دائماً لأن السيدة «والكر» كانت في الحمامات، وكانت «دينيز» تكتب من «سان جان دي لوز» أن باريس لاتطاق، وكانت السيدة «دي نيتنكور» منزعجة. لكن السيد رومانيه لم تكن له عطلةٌ في الوزارة إلا في أول اب، ولا يجوز ان يُطلبُ إليه الدفع عن الآخرين وهو في مكتبه، حيث كانت تُرى أشجار جادّة «سان جرمان». لكنها على كل حال ليست البحر. كانت السيدة «دي نيتنكور» تقول: آه! هذا المال، هذا المال!؛ وكانت تُسدل جميع الستائر قبل الظهر بحيث لم تكن الرؤية ممكنة، عندما يصل السيد «رومانيه» مع الورود، للبحث عن مزهرية الكريستال، وهو بالضبط ماكان يلزم.

كانت الرائحة المنبعثة من «مورنفيل» خبيثة الى حدٍ مُكرب، لكن فندق «الحمامات» كان يحتوي على مفاجأة. إذ كانوا يأكلون على موائد صغيرة، إلى جانب عقيد في الخيّالة، ويمكن لذلك ان ينفع «روبير». وصحيح ان السيد «رومانيه» قد آثار مشادّة على الفور، وأخذت ديان الآن تبذل قُصارى جهدها لكي لاتظل وحيدة مع العقيد الذي بلغ من فظاظته ان عرض على الأسرة شيئاً من صيده. غمغمت السيدة «دي نيتنكور»أنا أجد

هذا الضابط فاتناً، فهو يشبه سيّدنا قليلاً، ألا ترى ذلك يا «ادوارد؟ ديان، متى تنتهين من لكزي بقدمك! «ترك السيد «رومانيه» وهو شديد الحمرة المائدة معتذراً، حسكة. . وكانت ديان قمينة بأن تقتل أمها. وفوق هذا كل صالة الطعام التي كانت تنظر إليهم. كان في الفندق طائفةٌ من الأطفال، وكانت ديان تسكن في الطابق الأرضي. وقد روى الابنُ «لورد» الذي بلغ ثلاثة عشر عاماً، أنه رآها وهي عاريةٌ تماماً (وهي حسنة المظهر، يا صاحبي)! بينما كانت ترتدي ثياب الحمام، لأنه لم تكن من حاجة الى استئجار حجرة حمام بثلاثين أو أربعين فرنكاً في الشهر. دار هذا الحديثُ في الفندق كله، ونجم عن ذلك عدة مشادات عائلية، بسبب السبّاحين الذين كانوا يبتعدون مع «ديان» في البحر، سمكة حقيقية! أو بسبب الذين مدّوالها مئزرها عند الخروج.

١

كان «غي» أصغر من أن يُربّي لنفسه أصدقاء. وكان الناس يرثون له لأن أمه مطلّقة. في التاسعة عشرة! لقد أسرّتْ السيدة «دي نيتنكور» لسيدة ترتدي فستاناً مربع الخطوط أن صهرها القديم كان رجلاً فظيعاً يطلب من فتاة رُبّيت تربية مسيحية أشياء لايمكنها أبداً أن تمنحها إياه. الخلاصة أن ذلك كله كان من الماضي، مع أن البائس من أسرة ممتازة، نبالة الامبراطورية فقط، لكنها نبالة في نهاية الأمر.

كان الناس يميلون الى التفكير على العموم، أن «ديان» تتلقى من زوجها السابق نفقةً تفسر أناقتها.

واتفق في «البارك» ان شخصاً مهماً جداً، ان لم يكن رئيس السيد «رومانيه» جاء للقاء امرأته، وهي اميركية، وقد ذهب السيد «رومانيه» مرة أو مرتين للغداء معهما. وجعلت محفظته في مكانها الفارغ الفندق كله يتحدث في ذلك. ورأت السيدة «لورد» أن هؤلاء الناس كان عليهم في الحقيقة، أن

To: www.al-mostafa.com

يدعوا «ديان». وسأل العقيدُ: والسيد والسيّدة «دي نيتنكور»؟ من البديهي ان ذلك كان فوق الحدّ.

تعود العقيد ان يأتي ويتبادل الأحاديث مع السيد والسيدة «دي نيتنكور». وفي غياب ديان، كانت «كريستيان» أمها ماتزال تُرضي في حديثها، محدثها، . ثم إنها كانت هي أيضاً تفكرّ في مصالح «روبير». ولعلها تأسفت في مناسبات شتى على أن «ادوار» زوجها لم يكن في الجيش. عندنا بطاقاتنا لسباق الخيل. ينبغي أن ألا نفكرّ في ذلك بعد الآن. كانوا يأخذون أدوار للديكور. وعندما كانت أحاديث العقيد تتجاوز قليلاً مايسمح به لطفُ المعاشرة، فالعسكريون رأوا أشياء كثيرة، كانت اللحيةُ التي أُحسن تشذيبُها والتي ترك لها السنُ تلك الحمرة الضرورية، تتبع ذقن السيد «دي نيتنكور» وكأن السعال سينتابه. لكن العقيد لايلبث ان يعمّم وكان كل شيء إذن يظلّ ارستقراطياً.

من العقيد «دورش» علم الفندقُ بوجود قصر «دي نيتنكور»، وأزهار «الهورتنسيا» وغرفة سيّدنا. ومنه انتشر نبأ خطبة «ديان» على« السيد «رومانيه» من طاولة الى طاولة، مما سرّى أعظم تسرية عن الآنستين «فيبير» من «بونت آموسون»، وعن الزوجين «ميلازي» اللذين ستأتي ابنتهما عما قريب الى «مورنفيل». ومن ناحية أخرى أخذ كلُّ شيء يستقيم عندما علُم ان السيد «رومانيه» الذي كانت وظيفته في وزارة الحرب مهمة الى أبعد الحدود، ينتظر أيضاً ابنته.

سألت العقيد كبرى الآنستين «فيبير» وهي التي كانت تعزف على البيان «ماعسى ان يكون عمرُ السيد رومانيه؟

«هيه ياآنسة، كيف أقول لك؟ السيدة «دي نيتنكور» تعطيه اثنين وأربعين عاماً».

جاء السيد «بيسونو»، وهو الشخصية المهمة التي تُقيم في «البارك»،

ليسلم على هؤلاء السيدات، ذات يوم بعد الحمام. كان رجلاً حسناً الى أقصى حد، برأي الجميع. عقدة وردية، شارب أسود مدبّب لم تكد تصبغه الخيوطُ الفضيّة. وقد لوحظ أنه جاء وحده. أوضحت السيدةُ «دي نيتنكور» للعقيد أن السيدة «بيسنو» كانت موجوعةً هذا اليوم. سمعت الآنسة «فيبير» الصغرى مصادفة جزءا من هذا الحديث عندما رافق السيدُ رومانيه السيد «بيسونو» الى الطريق. كان السيد «بيسونو» يقول: «وإذن فأنت. ياعزيزي رومانيه» مثل «فيفياني»[1] تماماً: فهو لم يكن يطيق القشدة بالبيض. ونُقلت هذه الكلمة على عجل الى السيدة «بوجو» صاحبة الفندق، وقد أدى ذلك الى إلغاء حلواها في هذا المساء.

أصبح العقيد دورش أبوياً تماماً إزاء «ديان». في الحقيقة كان ينبغي أن يكون المرءُ وحشاً في غيرته ليستاء من ذلك.. وأدى ذلك الى استيضاحات طويلة بين «ديان» وأمها، «بما أني أقول لك، ياماما، إن عقيدكِ لايمكنه ان يطيقه».

– عقيدكِ، أولاً، قلتُ لك مئة مرة أن تدعيني «كريستيان»، لا «ماما»، وهو شيء مضحك أمام الناس بهذه الهيئة التي لي.. –لكن ليس هنا من أحد – أعلمُ ما أقول، ولو كان هاهنا ناس لكان الأمرُ واحداً. ثم إن ما أقوله لك هو لمصلحتك. لاتظني أنني خائفة في أن يكبّرني ذلك. الحقيقة أنه سيأتي العمر الذي يغدو فيه التصابي مضايقاً.

لكن الناس على علم كافٍ بأنني أمكِ، وما من حاجة للتذكير به في كل وقت. ماما، ماما هنا وهناك. حتى أن شيئاً من المخاطرة في هذا التذكير بأشياء الطبيعة – الحاصل كريستيان، إن السيد «رومانيه».. – ماذا، مادخله في ذلك، السيد رومانيه؟ ثم إنك تسخرين مني عندما تدعينني «كريستيان» في غير محلها! ماذا كنتُ أقول؟ آه نعم، إذا كنتِ تعتقدين أن من اللائق ان

---

(١) أحد رؤساء الوزارات – المترجم

تُذكري في كل مناسبة بأن لك أما! هذا يظهرك بمظهر العهر، بمظهر العهر! عندما يسمعك الإنسان قد يظن ان من غير العادي ان يكون للمرء ام. هذا امر عامٌ تماماً. وهو منتشر جداً بل انه سوقي -لكني أقول لك، في النهاية ياماما، أن السيد «رومانيه». . آه حقاً، ديان هل تهزئين بي؟ أنهكتُ نفسي وأنا أقول لك، وأنا أشرح لك كيف ينبغي للمرء الذي في وضعنا ان يعبر عن نفسه وها أنت تعودين الى الثُغاء: ماما، ماما! حَمَلٌ حقيقي! لو كنا نعيش في عصرٍ آخر لطلبت إليك، أتسمعينني جيداً؟ لطلبت إليك ان تقول مايلي: سيدتي لكن ذلك قد يبدو في أيامنا، تصنّعاً، وإذن كريتسيان. . .

-كل ذلك لطيف جداً، لكن إذا ظللتِ تأتين بالعقيد «دروش». .

-دورش، إذا شئتِ، العقيد «دورش». اسم ألزاسي.

-. . الحاصل، العقيد، ليتناول القهوة معنا، ستقع مشادةٌ بيني وبين موريس، وسيحزم أمتعته وينصرف.

- حسناً، لينصرف، ياللفاجعة! لا، لا، وليحزمْ أمتعته: رجل في سنّه، ويسمح لنفسه ايضاً بأن يغار!

-أولاً إن موريس ليس مُسناً الى هذا الحد، ثم إن ذلك بالضبط. . لكن إذا ما انصرف موريس. .

-رجوتك بكل اللهجات ألا تسمّيه سوى السيد «رومانيه» ما دامت الأشياء، لم تتّخذ طابعاً نهائياً أكثر من ذلك. .

- بالاختصار، إن انصرف السيد «رومانيه» فسوف تأخذ الأشياء صيغتها النهائية، وفي غضون ذلك مَنْ الذي سيدفع حساب الفندق، أنت؟

- نحن نعطيك أبوك وأنا ستة فرنكات يومياً، ولا أدري كيف تدبرين أمورك. فأنا لم أفهم قط شيئاً في شؤون المال.

- هذا مريح. والآن سوف تعدينني بألا تأتي بالعقيد دروش. .

- دورش . .

- . . إلى مائدتنا لتناول القهوة، لأنني لا أشتهي أن أغاضب بسببك السيد «رومانيه» وأن السيد «رومانيه» . .

-السيد رومانيه! اوه! في النهاية، أنت تحملينني على الفوران أنت والسيد «رومانيه»، هو على لسانك طوال الوقت، السيد رومانيه! أية سفاهة! أليس في عروقك دم، حتى يجعلك هذا السيد تسيرين هكذا؟ لا، لا، انظري قليلاً الى أبيك: آه! كان الأمر غريباً لو منعني أبوك من تقديم بطة للعقيد! .

في عيد ميلاد «غي» الثالث، وصلت الآنسة «جوديت رومانيه» الى «مورنفيل» وحملت للصغير حلوى معطرة بالقهوة وثلاث شمعات وكتابة بالقشدة: أنا صبّي كبير». وعندها استولت على قلب الفندق بأسره الذي جعل منها صورة رومانسية. كانت ترتدي ثياباً سوداء، حداداً عل أمها، بالتأكيد (واكتُشف فيما بعد ان السيد «رومانيه» كان مطلقاً)، وكانت تنانيرها قصيرة شيئاً ما بالنسبة الى سنيها الست عشرة. وكانت شديدة الشحوب مع هذا وأقرب الى القوة. وما أسرع مالاحظت الآنستان «فيبير» أنها كانت تنظر بحزن الى زوجة ابيها المقبلة .

وعندما علُم أن «جوديت» تتهيأ لجائزة روما للنحت، مع أبٍ مثل أبيها، اصبحت محطّ أنظار جميع السيدات. وأرادت السيدة «لورد» ذاتها ان تعلّمها تطريزاً من تطريزات السنارة، جميلاً جداً، لصنع كمم المصابيح. وحشرتها السيدة «ميلازي» التي كانت في فلورنسا في ١٨٩٠ (لا يذهبْ بك التصورّ أنني إيطالية؛ اسم «ميلازي» قد يوهم بذلك، لكن الأمر هكذا ببساطة) قرب حجرات الحمامات وقالت لها ان ابنتها التي ستأتي، لها أيضاً ميولها الفنّية، وستكون سعيدة حين تجد صاحبةً في عمرها. وهي الآن في انكلترا، تسكن مقابل خدمات تؤديها حتى ١٥ آب لدى قسّ. وكانت تتقدم تقدماً لا يُصدق في اللغة الانكليزية نعم. وكانت تكلم جميع رجال

الشرطة. رائعون، رجال الشرطة، لكن هذا يبعدنا عن النحت، هل تحبين «رودان»؟ أنا أجده فظيعاً!

كانت «جوديت» تحبّ رودان.

– المفكر[1]؟ الحاصل، ياولدي، لا أود أن أحدثك أحاديث. . مسرفة الخلاعة، لكن، بيننا، ألا يبدو كأنه. . نعم، هذا المفكر؟ آه! حدّثيني عن «انتونان ميرسييه»! لا؟ ألا تجدين «ومع ذلك» رائعاً؟ ألزاسية التويليري؟ بالحركة والتعبير والعاطفة! كيف تستعيد بندقية الميت! والميت؟ لكن الصحيح انك أصغر من أن تحسي بما في طريقة الموت هذه من بساطة مؤثرة! ومع ذلك!.

كان والد السيدة «ميلازي» قد قُتل في «غرافيلوت». وكانت ابنة عمّ لها قد راقصت «انتونان ميرسييه». أو لعلها لم تراقصه بالضبط، في حفلة خيرية. لكن ما الذي كانت تقرؤه الآنسة «جوديت»؟ كانت الآنسة جوديت تقرأ في «اوسكار وايلد». ترددت السيدة «ميلازي» قليلا. اوسكار وايلد. . لم تكن متأكدة جداً لكن لاينبغي ان يكون هذا لمطالعة الفتيات. وفجأة تذكرت، وايلد، ، آه! تماماً «سالومي» لورد، ، . . مهلا، ماسمُ ذلك اللورد؟ كان سيئاً. وأنا التي ظننت انها تصلح رفيقة لـ«ماري جان».

لم تكن السيدة «ميلازي» تعلم كثيراً علام تعقد العزم، أتشرح للآنسة «جوديت» أن مثل هذه المطالعات لايمكن الا أن تسيء إليها، أو تسكت وتكتفي بالسهر على الصغيرة عندما تكون هنا، . لكن المذنب، والحالة هذه، ألم يكن ذلك المذنب غير المبالي، المنهمك في مغازلة هذه السيدة «ديان» التي كان يمكن ان تكون أخت ابنته؟ وشعرت أم «ماري جان» تؤدي بعزم خدمة للفتاة الشديدة الشحوب والتي تأكّلها الحزنُ (كانت منتفخة سُمنتها غير صحّية).

(١) المفكر: تمثال صنه رودان. المترجم

- «ستقولين لي، يا آنستي العزيزة «جوديت» أنني أتدخل فيما لا يعنيني. لكن، تعلمين أنني أم، ولما كنت بنتاً مسكنية، فأنا أعلم ماينقصك. ولا أريد أبداً، بالطبع، أن تستنتجي من كلامي لوماً من أيّ كان، وفي أي شيء كان. أنت صرت كبيرة، والحياة (تتنهّد) هي كما هي. يجب ان نتحمل كثيراً، وأن نفهم، أن نفهم على الخصوص! وأن نصفح. ولعل ذلك ما يصنع عظمتنا، نحن النساء، أو على الأقل حكمتنا. بيد أن علينا، ونحن بما نحن عليه من التعرض لجميع أنواع المخاطر التي أقلها ليس الرأي الذي يكوّن بسرعة فائقة عنا، ألا نكون طعمة للاغتياب والقسوة. وإن فتاةً، بل طفلة، اسمحي لي؟ إني أفكر في «ماري جان» طفلة توسخ عينيها وخيالها بمثل هذه الكتب، هؤلاء المؤلفين الذين لاتجرؤ أن تذكر أمام أحد الاسم المرادف لـ. . الحاصل لجملة من الأشياء. .

-اوسكار وايلد.

نظرت السيدة «ميلازي»، وهي ذاهلة، الى جوديت. استأنفت هذه قراءتها، وهي مستندة الى حجرة حمامٍ صغيرة بلون الشوكولا.

انقطع نَفَسُ السيدة ميلازي. آه عجباً! و ابتعدت على عجل لأن الكلام على ذلك قد يطول.

- ٢ -

لم يتمّ زواج «ديان دي نيتنكور» والسيد «رومانيه» هذا الخريف، لكن ديان وذويها استأجروا شقة في «باسي» مع غرفة في الطابق السادس لروبير الذي سُرح من الخدمة في هذا الوقت بالذات. كان السيد «دي نيتنكور» يقوم بجولة صغيرة في «المييت» ليشتري منها «الفيغارو» نحو الساعة الحادية عشرة. كانت هذه هي حياته الشخصية. وعند الظهر يعود ويساعد

«كريستيان» على لبس مُخصرها . وكان السيد «رومانيه» يأتي للغداء أحيانا . وكانت ديان تأخذه في الأغلب، الى الوزارة .

خلاصةُ الأمر ان ديان وهبت أخاها دراجة نارية . كان روبير صورة عن أبيه، مع أنه لم يربّ شاربا . كان يضع ربطة عريضة لانه مايزال مصاباً بالبثور . وكانت السيدة «دي نيتنكور» تقول : قاسٍ جداً سلاحُ الفرسان .

بعد ذلك تباعدت زيارات السيد «رومانيه» فيما بينها، وكثر خروج ديان . كانت منهمكةً جداً . وغيّرت عطرها . وعندما غيّرت عطرها ذُعرت أمها . وقالت ذلك لزوجها : «ادوار، كلما كنتُ أُغير عطري، فمعنى ذلك كما تعلم، أن هناك شيئاً!» لم يجب ادوار بشيء على الإطلاق . لم يكن ادوار، على كل حال يجيب بشيء .

أين تعرفت «ديان» على السيد «جيلسون كيسنيل»، صانع السكر الكبير، هذا مالم تستطيع السيدة «دي نيتنكور»أبداً أن تتذكره جيداً، مع أن ديان قالت لها ذلك ثلاث مرات أو أربعاً . لم يكن عمر السيد «جيلسون - كيسنيل» سوى أربعين عاماً؛ كان صديقاً حميماً للحكومة بأسرها ولم يطلب إلا إدخال «روبير» في الإدارة مع أن الأمر لم يتمّ على هذا النحو أو ذاك، بصورة ممتازة إذ أن روبير كان يفضل ان يذهب ليتسلّق سفح «البيكاردي» بالدراجة النارية؛ وأخيراً كان السيد جيلسون - كيسنيل» يعطي «غي» لعباً ميكانيكية، عجائب . وفي ذات يوم ارتبكت فيه السيدةُ «دي نيتنكور» أمام هذا الاسم المزدوج لهذا الضيف الفاتن الذي لم يكن يأتيهم دون بنفسج أو دون زنبق الوادي بحسب الفصول، قال لها هذا بمرح : «سمّيني صهرك، ولندع الكلام على ذلك!» وعلى اثر ذلك اعتبر شيئاً متفقاً عليه أن «بول (جيلسون -كينسيل) هو خطيب ديان، ولم يتطرق بعدها أحدٌ الى ذلك .

ومع ذلك ففي ذا ت يوم، وجدت السيدة «دي نيتنكور» مناسبة لتسأل ابنتها عن السيد «رومانيه» . وكانت مناسبة مزدوجة : حدث تغيرٌ في

الوزارة ونال جائزة روما للنحت شابٌ ذو مستقبل عظيم هو ابن أخي شخصية هامة. وكان السيد «رومانيه» برأي «ديان» غيوراً مسرف الغيرة: «لم يكن يفهم ماحاجات امرأة في سنّي. عدا انه لايملك الشعور العائلي».

قاطعتها كريستيان:

– آه! قلت هذا دائماً.

كان «بول» يقدم لديان أصدقاء كثيرين. بل إنه كان يأخذها الى أعشية الأعمال، عند «لارو» في مقهى «باريس». وكان يقول: أنت، ياصاحبتي العزيزة، الزهرة التي تبهج أعشية الرجال هذه، ولولاك لانقلب كلّ شيء الى دعابة ماجنة إن لم ينقلب الى الضجر القتال.

قال السيد «دي نيتنكور»:

– الدعابة الماجنة مضجرةٌ هي أيضاً، في بعض الأحيان.

تعجّبت كريستيان:

– آوه، أنت!

كان ذلك في صالون «دي نيتنكور»، وكانت على الجدار ثلاث صور فوتوغرافية في إطاراتها للقصر العائلي.

تابع السيد «جيلسون كيسنيل» وهو يتلفت الى الأم:

– ديان، ياسيدتي العزيزة، تضعُ في هذه الاجتماعات الروح الأنثوية التي لانستطيع الاستغناء عنها.

قال «روبير» بفظاظة بالغة.

– حِمْ! «ديان» مقلة في كلامها.

أجاب بلهجةٍ قاسية الصناعيُّ الدمثُ:

–حتى عندما تصمت فإن لبسمتها روحاً لا تقاوم إذ انها تنير الأحاديث، حتى أكثرها إملالاً.

ابتسمت ديان عندئذٍ بمعظم وجهها.

كانت «ديان» المثل الأعلى بعينه في صفحات المجلات الأولى. كانت طويلة جداً، شقراء جداً، سوداء العينين، بيضاء الجلد، كانت جمالاً رائعاً. لكن السيد «جيلسون – كيسنيل» كان متزوجاً.

عندما تبيّنت السيدة «دي نيتنكور» الأمر، إذ نبهتها إحدى صديقاتها الى ذلك، هي السيدة «ميـيليه» التي كانت لها صلةٌ مابآل «ميـيليه» في فرساي، وابن عمها رئيس محكمة. حدثت ضجةٌ ليليةٌ عظيمة. وحقاً كان لدى «ديان» فرو جديد، وطوق من الفرو، وكانت متعبةً، الشقيقة..

وفجأة قطعت كل تلك القصة بأربع كلمات:

«أنا أضاجع من أشاء!».

في اليوم التالي، في المقهى، وضع السيد «دي نيتنكور» على حافة الطاولة عدد «الفيغارو» المطويّ بعناية، وقال بوقارٍ كبير: «أنا أيضاً أفضل أن أسارع الى الضحك من ذلك بدلا من أن اضطر الى البكاء منه!».

هذه الجملة التي من البديهي أنه فكّر فيها طوال الليل أثارت غضبَ «روبير». «ادوار» إنك تطالع مطالعات سيئة». لكن السيد «دي نيتنكور» لم يُعر ماقيل أذناً واعية، وأضاف: «نعم»، من البكاء عليه، وصمت. كان الجميع ينتظرون. أغرق رئيس الأسرة وجهه في يديه الارستقراطيتين. نظر روبير بحسدٍ الى خاتم الشعارات في أصبع أبيه، الذي كان يحمله على مرّ السنين. كانت «ديان» ضجرة أكثر منها متحيرة، فقد شهدت مشاهد اخرى من هذا النمط.

وأخيراً رفع النبيلُ رأسه وقال: «أرسلوا هذا الصبي يلعب في غرفة أخرى». صمتٌ. «ياللطفل البريء!» لكن «غي» أبى أن يسمع شيئاً، فقد

أقام قبل قليل خطه الحديدي بين قوائم الطاولة. صرخ وخبط برجليه. أعطاه روبير سكرة، ودعاه «ياحبيبي» ثم أمسك به من زناره، وحمله، وهو يدحضُ برجليه، الى الصالون حيث سُمع بعد قليل صوتٌ متكوم لبورسلين محطمّ.

لكن المسألة لم تكن هنا. فقد تناولت السيدة «دي نيتنكور» الكلامَ: «أراد أبوك ان يقول، ياديان العزيزة: إننا وإن نكن من عصر آخر، كما تُشعريننا غالباً بذلك، إلا أن هناك أشياء لايجوز ان يتحملها أحدُ أبناء «نيتنكور»، ولن يتحملها. لايجوز، لا. كان روبير فاغراً فاه.

أضافت «كريستيان»:

- نعم لقد قبلنا أن نغطّي نزوات جنونك الواحدة بعد الأخرى. نعم، وأغمضنا عيوننا عن طلعاتك. نعم، استقبلنا أصدقاءك هنا. نعم، لكن أباك (أباك!) لايتحمل ان تكلميني بتلك الطريقة!

قهقه روبير:

- اشرحي لنا، لأنني أود ا أعرف ما الذي لايستطيع أحد أبناء «نيتنكور» أن يتحمله:

- اسكت، يابني. أبوك هو الذي يتكلم (وأشارت السيدةُ دي نيتنكور بحركة إليه). هذه قضية بين أبيك وديان، ولايستطيع أحدٌ، أتسمعني جيداً؟ لايستطيع أحدٌ أن يتدخل فيها.

قالت ديان:

- سيدوم ذلك طويلاً؟

- لن تقطعي مع ذلك، كلام أبيك؟

وبالاختصار نجم عن هذه القضية أن السيد والسيدة «دي نيتنكور» قصدا الانتقال من منزلهما، لكن عائداتهما لاتسمح لهما باستئجار الشقة

الصغيرة التي زارها قبل أيام. وبألف وخمسمئة فرنك تدفعه ابنته لهما، تستطيع أن تتخلص منهما.

– «لستُ أملكها، لكني أرجو أن تصدقا أني سأقول كلمةً له عن ذلك..

قاطعها السيد «دي نيتنكور» بوقار:

– هذا شأنك. ولن أتدخل لا أنا ولا أمك، في أحاديثكما.

تناول من جديد عدد الفيغارو وخرج بجلال.

–سأل روبير: – حسناً. وأنا؟

أجابت أخته وهي تهزّ كتفيها:

–أنت لك غرفتك هنا.

وكانت السيدة «دي نيتنكور» في الصالون قد أخذت تكتب رسائل لتخبر أصدقاءها بتغيير عنوانها.

اغتبطوا من ناحية أخرى من هذا الانقلاب في عاداتهم عندما سافر السيد «جيلسون – كيسنيل» مع ديان الى ايطاليا. وقالت «كريستيان» لابنها:

– ماكنا نستطيع ان نتجاهله لو كنا هنا.

لم يمنعها هذا من أن تُري صديقاتها البطاقات البريدية من «بيز»، من «فيسنس»، من «فينيسيا»، من «فيرونا»، وعلى هذه البطاقات كان يوقع: «بكل احترام» جيلسون – كينسيل» كانت السيدة «دي نيتنكور» تبتسم: «نبالة جمهورية، لكنها مع ذلك..»..

عند العودة من ايطاليا، كان في اصبع ديان ماسةٌ، لكن لم يبق من ذكرٍ لجيلسون –كينسيل. في مكانٍ ما، قرب «اريزو» ان لم يكن في باريس قبل السفر، في إحد أعشية الأعمال لصناعي الكبير، تعرفت ديان على

«جورج برونيل» وهو رجل جد عادي، قصير، أسمر، جنوبي لكنه قريب الى القلب. رجلٌ استحوذ فوراً على الثقة حين تقبّل مافي دالّتهم عليه من إفراط.

أخذت السيدة «دي نتنكور» تشرح لصديقاتها أن السيد «برونيل» رجلٌ عصاميّ، يعقد صفقات عظيمة؛ كانت بداياته قاسية جداً، وكان غنياً على نحو هائل، هائل طبعاً بشرط ان يستمر في العمل. ولو توقف غداً لما بقي له شيء. كان عمله ضرباً من الحكم بالأشغال المضنية. في أمريكا أمثلةٌ على ذلك، في أمريكا وحدها.

كان السيد «برونيل» في غاية المرح. وكان يحب الأسرة، لاكالآخرين، . عاد آل «نيتنكور» الى الظهور عند ابنتهما وكانا قد كفا عن الذهاب الى منزلها. كان هناك أعشية، ولعبٌ بالبوكر مساءً. وكان روبير يخسر بشكل فظيع. لكن برونيل كان يشدّ أذنه وهو يضحك ويقوده الى الشرفة ليدخن سيجاراً. وبعد ذلك كان روبير يعود ليخسر خسارةً أشد.

سرعان ماتخاطَبَ السيدُ «برونيل» والسيدةُ «دي نيتنكور» بجورج وكريستيان. وكان جورج إذن، يناكدها بقوة شديدة قائلا: انه لايعرف من يختار، أيختارها ام يختار ابنتها، وأن ديان، آه آه! لابأس بها، لكن كريتسيان أرشق. وكان السيد «دي نيتنكور» يتجهم قليلا من أجل الشكل، وكانت كريستيان تصرخ بأقصى صوتها أن هذه أول مرة تشاهد حقاً، حقاً «ادوار» غيران بعد أربع وعشرين سنة من زواجهما!

غاب ديان وجورج ثلاثة أسابيع، وعند عودتهما أعلنت السيدةُ «دي نيتنكور» أن الزواج تم في ايرلندا. لماذا في ايرلندا؟ شرحت ذلك بكثير من اللبس، وهو أن القوانين الايرلندية تسمح بإجراء ذلك في زمن أسرع كثيراً، وأن في فرنسا عقبات. وأخيراً ظلت هذه النقطة من القصة غامضة جداً على

مايظهر. لكن الزوجين «برونيل» أخذا شقة رحبة مع مشغل في حي «باب مايو» فوق السكة الحديدية، قرب منزل «ريمون بوانكاريه»[1] الذي كان لجورج معه حديث عند عودته من ايرلندا حول مسائل تستهدف مصالح فرنسا، كما اكدت كريتسيان للعقيد «دورش» الذي جاء ليراها في شقة «ديان» القديمة التي عاد إليها آل «نيتنكور».

عندما خلّص «برونيل» قصرَ نيتنكور بثمن زهيد، أطنبت كريتسيان في الثناء على الديمقراطية. كان جورج زبدة الأصهار، وكان يحمل دائماً سجائر «هافانا» لإدوارد. وكان في نادي شارع «فولني» وكان يشتري من حين الى آخر لوحات شعبية، فيها نساء عاريات ضمن مناظر طبيعية. وكان يعاشر العالم العسكري ويجد الحكومة مفرطة اللين في قضية مراكش.

كان عمر «غي» خمس سنوات في الصيف عندما دنت الحربُ وعاد جورج على عجلٍ من «ايكس ليبان» الى باريس، لأن عليه، كما قال ان يضع نفسه تحت تصرف الحكومة. كان «غيْ» متفاهماً على أحسن وجه مع «أبيه». كان يرتدي لباساً من الساتان الأبيض مع قبعة بحار انكليزي. كان يتعلم العزف على الكمان، ويُلقي الأشعار، وكانت امة تقول: سيكون أعجوبة، فيقول جورج وهو يطرف بعينيه: «مثل أبيه».

أصبح العقيد «دورش» من المترددين على الزوجين الجديدين. والتقى لدى «برونيل» هو و «وسنر» صانع السيارات. وفُتن «وسنر» بالعقيد دورش، فُتن به حقاً. كان ذلك بالضبط عندما رُقّع العقيد الى مرتبة لواء. ولم تستطع السيدة «دي نيتنكور» أن تتمالك نفسها من الفرح. لم تكن تتحدث إلا عن اللواء. لم يعد يُرى سوى اللواء.

أمام «وسنر» مأدبة غداء كبيرة لدى «فويو» دعا إليها ديان وجورج واللواء وضابطاً أميركيا، العقيد موريس. تحادث اللواء والعقيد معاً طوال الوقت تقريباً. وكان السيد «وسنر» مهتماً بديان على الخصوص.

ثم إن اللواء «دورش» جعل السيدة برونيل قيّمة على الصندوق في

---

(١) ريمون بوانكاريه: رئيس الجمهورية الفرنسية في الحرب العالمية الأولى. المترجم

إحدى حفلات الإحسان، السيدة برونيل الجميلة. حتى كان يُقال في الأركان إن الجنرال يغضب عندما يطرق ذلك مسامعه: «أنت تمزح، أنا صديق أمها، السيدة «دي نيتنكور»، قصر جميل في «التورين»!

سيارة السيدة برونيل هي التي حازت جائزة معركة الزهور في «كان» هذه السنة. وقد صوّر اللواء «دورش» بجنبها وأُعيد نشرُ الصورة في «فيمينا» بجنب صورة «موريس باريس» وهو يحدث اميرة من بيت بلجيكا.

كان الموضوع إدخال روبير في إحدى السفارات. انتقل الزوجان «برونيل» الى شارع «اوفيمون» حيث ابتاعا قصراً واتخذا خادماً، وسيارة بالأجرة الشهرية. كانت آنية زينة ديان من الذهب فعرضت في البهو. وكان يُفترض ان ديان تغتسل في بورسلين حجرة الزينة.

كان هناك كمية وفيرة غير عادية من الأغراض الكنسية الثمينة المتناثرة في أرجاء البيت. وكانت الإحرف الأولى لأكبر بيوتات فرنسا على كثير من الأشياء المتداولة؛ وعلى حين غرة أخذ الزوجان «برونيل» يستخدمان آنية جديدة للمائدة من بضع مئات من القطع. وجاء عددٌ من حلل القدّاس لتسترخي على أحد البيانات الثلاثة.

كان جورج وديان أشدّ الأزواج اتحاداً. وأخذ «غي» يعزف مقطوعة صغيرة على الكمان. وكان الضباطُ الألوية، ورؤساء الأقسام في الوزارات والنواب، والدبلوماسيون، وأصحاب المصارف، ورجال الأعمال الكبيرة، يصغون بافتتان، في المساء بعد العشاء، لهذا العزف غير المتقن لموزار الفتي، كما كان يُدعى بين الخلصاء. وكانوا يصفقون له.

كانت ديان تعرف كيف تأتي وتضع على رأس الصبي يداً أمومّية تؤلف مع طرف ذراعها العارية حركة لم تكد تتكلفها: «يجب أن تذهب الى النوم، ياولدي» كانت الأم الواقفة على هذا النحو، مع هذه الأعجوبة الصغيرة ومع الكمان، لاتُقاوَم. وقد عمل الرسامُ «رول» صورتها التي عرضت في «الفنانون الفرنسيون».

غدت السيدة «دي نيتنكور» ذات حمرة براقة. وكانت تقول: ان جورج سيكون وزيراً، وأن من المضجر ان يُنتخب نائباً قبل ذلك؛ ثم إنه لاشيء يمنع أن يكون المرء وزيراً دون ان يكون نائباً. سيكون أول من يُبطل ذلك التقليد السخيف، هذا كل شيء. وهل كان «ريشيليو» نائباً أولاً؟ لا. ولقد أدار شؤون فرنسا إدارة رائعة. وفي «نيتنكور» حيث قضى ليلةً، صفيحةٌ تذكارية في الغرفة ذاتها المخصّصة لسيّدنا.

والواقع انها لم تعد تُخصَص لسيدنا، لأن أصدقاء جورج السياسيين ماكانوا ليفهموا ذلك. وعلى المرء ان يسير مع زمنه.

كانت ديان تتنهد حامدةً! لم تكن حريصةً على أن يكون جورج في الحكومة. الآن وفي هذه الحالة كان مشغولاً جداً. كان يُراد موتُه. لقد أهداها قبل حين عقداً من الزمرد. الله أعلم كم كلفه ذلك من سهرٍ هذا المجنون! هي وحدها تعلم كم كان يشتغل جورج ليعيشا هذا النمط من المعيشة. وكانت قمينة بأن تستغني حقاً عن ذلك كشيء «لا أبالي به».

وكانت السيدة «دي نيتنكور» تقول باعتزاز: «أما أنا فلا!».

– ٣ –

دخل «روبير» آخر الأمر في أعمال صهره. وكانت السيدة «دي نيتنكور» لاينضب معين كلامها على ذك:

– هذا يغيّره الى حدّ كبير، إنه يعمل. بيننا، لست غضبى. على الشاب، اليوم، ان يكسب عيشه. إدوار الذي لم يفعل شيئاً في حياته.. لكننا ايضاً من عصر آخر ثم إننا عندما التقينا، كان هناك «نيتنكور» حيث كان ينبغي لادوار ان يحافظ على مقامه، والكلاب، والجياد، وعلاقاتنا. الخلاصة، كان لي مهرٌ ما. اوه! ليس باذخاً. لكنه مع ذلك كان كافياً لإعاشتنا عدة سنوات. ثم كان هناك المرابون...

كان اللواءُ «دورش» يعرف القصة من قبل، لكنه هو ايضاً كان مرتاحاً جداً لأن روبير أخذ يشتغل: فتى كان بوسعه ان يكون خيّالاً رائعاً. وتستأنف كريستيان: «نعم، إن ادوار كان في طريقه الى أن يصبح بتؤدة عالة على غيره. ولا شك أن جورج كريم جداً، لكنه إنما يفعل ذلك من أجل ديان، أليس كذلك؟ لاحظْ ان قصر نيتنكور إنما وهبها إياه. اوه! الأمر واحد، عندنا. وكذلك قصره في شارع «اوفيمون». آه! أأنت لاتعلم، أيها اللواء! لقد ابتاعه لها. بل يمكن القول ان رجلا لايدين بتربيته إلا لنفسه مثل صهري، لان جورج -والكلام بيننا- من منبت وضيع، تُعد دماثته غير عادية. وطبعاً «لديان» يدٌ كبرى في ذلك. طبعُ النخبة. أنت تعلم كم تُقلّ من كلامها. لكنها بشيء تافه، بابتسامة، ترده الى جادّة الصواب عندما لايتصرّف كما ينبغي، وما أذكاه. . . ولاشك ان اللطف الطبيعي هو الذي يبرز فيه. وهو يعطيها كلّ شيء، كل شيء. وهكذا ففي ذات يوم حمل اليها عند العشاء، كما تُحمل الزهورُ، وكنا نتناول الحلوى، ليس لديه ساعات معينة، جورج مع ماله من أعمال، سفطاً من أسهم «السويس» كوكو!

دُهش اللواء «دورش»: «كوكو»؟

- نعم. ذلك سوقي. لكن ماذا تريد، عشرة أسهم تستحق هذه السوقية! وكان جورج قد وصل بلا ضجة خلف ديان ووضع الأسهم كالعصابة على عينيها. . أنت زرت السويس، ايها اللواء؟

زار اللواء السويس. آه! كان الانكليز أمكر منا في «الباناما»! لا، لم تعرف السيدةُ «دي نيتنكور» آل «دي ليسيبس». رأتهم أحياناً في غابة «بولونيي» كلهم على الخيل، بالردنجوت، خلف أبيهم. ثاقب البرزخ كان وجهاً عظيماً، وجهاً عظيماً ولم يفهم شيئاً بالتأكيد من الاتجار الذي كان يدور من حوله. لكن ما أعطاه جورج لها كان أسهماً، أسهماً، لا فضل لأحد فيها. جورج هذا، قلبٌ ذهبي، هذه هي الكلمة المناسبة.

«الواقع أن ديان اضطرت الى صرف المربية الانكليزية. نعم، وُجدت مع الخادم في غرفة جورج».

اغتاظت، في الواقع، ديان، بل أصابتها من جراء ذلك أزمة عصبية. في بيتها. حاول «روبير» الدفاع عن الانكليزية. مع ذلك ماذا كا يُراد من المربية ان تفعل؟ ان ترتبط برجال في الشارع وأن تذهب الى فندق مؤثث؟ عنفت ديان أخاها تعنيفاً شديداً. مامعنى هذا الكلام الآن؟ ماكان عليها إلا أن تتدبر أمرها، هذه الفتاة، وهي في خدمتها. أولاً ألاّ يُعلم شيءٌ من ذلك. فعندما نقبض مالَ الآخرين، هناك أشياء نستغني عنها. أما الخادمُ فاحتُفِظ به بعد أن وبخ. ثم إن «غي» كان اكبر من أن تكون له مربية.

وصاحت ديان: «ثم إني لا أريد ان يغدو بيتي ماخوراً»!

وعندما روت كريتسيان الحادثة لأصدقائها قالت: «بيتاً سيّء السيرة».

الآن أصبح روبير وجورج متلازمين. كانا يُريان معاً في حلبات سباق الخيل، ولدى «مكسيم». كان جورج يرتدي صدرات تسترعي الانتباه ويسوق سيارته في «لونشان» واستُقبل في جادة «الغابة» لدى آل «كاستلان» بسبب امريكية اصطحبها للعشاء في بيت أخته وكانت تدعوه «الفيكونت». دهش جورج أول الأمر ثم أعجبه ذلك. وغدا روبير «الفيكونت». وعلى أثر ذلك، وكأنما بترفيع ذي مفعول رجعي صاروا عندما يتكلمون عن ادوار يقولون: الكونت دي نتينكور، وأضافت كريستيان بفطنة أكليلا «كونتيّاً» صغيراً على شارة بطاقات الزيارة. وكانت تقول: كانت الشارة، بلا لقب، تصنعاً. كانت معلمةُ «غي» سيدة أصيبت بنكسات هي السيدة

«دي ليران» أرملة ضابط، وقريبة وزير في الامبراطورية الثانية. كانت تصطحبه الى حديقة «مونسو» وتدرّبه على كمانه. وقد تعلم القراءة والكتابة فقط، لكنه تعلم أيضاً المقاطع الشعرية، مقاطع النسيم في «مهرّجي»

ميكيل زاماكاويس وسيرينادا «عابر السبيل». ولم تكن السيدة ليريس تحب «كوبيه». كانت تجده تافهاً.

حوى السيد «دي ليران» جميع الفضائل. كان ضابطاً في الجيش الاستعماري وقد مات وهو شاب نسبياً، لكنه كان أكبر سناً بكثير من أرملته. ولم يتسرب شيء عن شبابه وزواجه الى القصص التي لانهاية لها والتي كانت تلقيها السيدة «دي ليران» على تلميذها، وكأنما بدأت حياتها مع الترمّل. وحوالي زمن معرض ٨٩ إنما أخذت السيدة «دي ليران» تؤجر غرفة أو غرفتين من شقتها، لا للدخل بقدر ما هو بسبب استفظاعها للوحدة. كان لديها بعض الأثاث وبعض المال، وخزفيات جاء بها النقيب «دي ليران» من الهند الفرنسية، أي من «بونديشيري»، وزمردة ورثتْها عن أمها.

لم يفهم «غي» شيئاً من قصص الإرث الكثيرة التي أفسدت مابينها وبين أخوات زوجها وأبناء عمومته. وأخيراً كالت الذم للعائلة مع أن من المؤسف ان يَلجأ الانسان الى أكل خبز الآخرين وألا تكون له علاقة إلا مع الغرباء.

وحينئذ ظهر السيدُ والسيدة «دي منشبور». هذان الزوجان، كم كان سيدفع «غي» ليحصل على صورة لهما! زوجان تحفّ بهما الأسرار مثل مشدّ السيدة «دي ليران» المقلم باللون القرمزي واللون الأصفر. كان للسيدة «دي ليران» ضرب من البشاعة البوربونية التي شرحتها مؤكدة انها عندما كانت شابة كانت تشبه ماري انتوانيت. لم يكن «غي» يشك لحظة أن الزوجين «دي منشبور» مجرمان من هؤلاء المجرمين المعدودين في القضايا المشهورة وأن الذي خلصهم هذه المرة، من الجلوس على مقعد العار إنما هو عمي الشرطة، ودعم ملحدٍ من أعضاء مجلس الشيوخ عمل على إلقاء الراهبات خارج فرنسا.

ماعمله السيد والسيدة «دي منشبور» بالضبط للسيدة «دي ليران» كان عسير الفهم جداً. من المؤكد ان هذين المستأجرين للغرفة الوردية الظريفة قد ابتزا صداقة السيدة «دي ليران» التي كانت تسرّي عن السيدة «دي منشبور» عندما كان يذهب ليجري وراء النساء. لأنه كان يجري وراء هن. ثم لم يدفعا الأجرة بعد ذلك. وأخيراً فإن السيد «دي منشبور» ساعد السيدة «دي ليران» في توظيف أموالها. ساعدها في توظيف أموالها ها، ها ها! كانت السيدة «دي ليران» تنهض وتمشي في غرفة الدراسة وهي أشبه بماري انتوانيت من أي وقت مضى. وأفظع ما في الأمر موقف السيدة «دي منشبور». كان هو نزّاء. أما هي فلا أقول ماذا كانت.

كان هناك ايضا صندوق بلغ من وقاحتهما أنهما جاءا يطالبان به على إثر ذلك. وقد هددت المرأة «منشبور» بأنها ستأتي بالبواب. وتلك ثالثة الأثافي.

ولذلك فإن السيدة «دي ليران» أجّرت بعد ذلك ضابطاً هو السيد «دي فلوري» -وليقل الناس ماشاؤوا- وكان ممتازاً، كريم الشمائل. ملازم له مستقبل حسن. آه! دون نساء، لا، دون نساء! إنهن شرسات! لاخير إلا في الرجال.

ها هنا سرٌ جديد. لقد بكت السيدة «دي ليران» كثيراً. فالسيد «دي فلوري» مدينٌ لها بالمال. وقد استقبل لديه أناساً ماكان ينبغي أن يستقبلهم. فكر «غي»: لعلهم قطاع طرق. وأخيراً كان لابد أن تتكلم بحسمٍ، فهذا الملازم لم يكن سوى مجرد قوّاد. لم يكن «غي» يعلم ماذا تعني الكلمة بالضبط، لكنه كان يتخيّل.

«عندما أفكر كيف كان يتكلم عن مهنته! عن العَلَم مرة وعن فرنسا مرة أخرى. وكان يقول: إنه يأسف لانه لم يعش في عهد الامبراطورية الأولى. آه لا لا! النذل، النذل!

ومن المؤكد ان وكيل الدعوى اتفق مع السيد «دي منشبور» عندما لاحقته في القضاء. ولا حاجة الى الكلام على انهيار الاتحاد المالي الذي ذهب بكل ماعندها من وفر. فاضطرّت الى أن تبيع معظم أثاثها وأن تعمل كوصيفة.

فاجأت «ديان» ذات يوم السيدة «دي ليران» وهي تحرّك عرائس الأطفال لـ «غي» المشدوه الجاحظ العينين. وعندما دخلت كان العريس يمسك برأس العروس تحت ذراعه بينما كانت «روزالي» تصفّق وتضربه ضرباً شديداً موقّعاً على مغناة فريدة: «آه! يا خنزير «منشبور» ! سأعلمك أنا كيف تنهب الأرامل! وعاهرتك سأعمل على حبسها في «سان لازار»! وكان «غي» وهو في أوج تحفّزه، يصرخ من موضعه: «في سان لازار»! وهو يصفّق بيديه، كأنه أمام مشهد قد مُثّل عدة مرات. لم تجرؤ ديان أن تبدي ملاحظاتها على السيدة «دي ليران» لأن هذه كانت تُعَدُّ خبيثة اللسان، ولأن ديان لا تشتهي ان تغدو بطلة تمثيلية في عرائس الأطفال عندما تذهب السيدةُ «دي ليران» لتمثل ذلك في مكان آخر. ولم تفهم شيئاً مما حدثّها به «غي» بعد أن سئل – عن السيد «دي فلوري» وعن انهيار الاتحاد المالي.

كانت هناك ايضا حكايات طويلة عن طبع السيدة «تروكر» السيء، وهي التي كانت السيدة «دي ليران» وصيفة لها، والتي تركتها عشر مرات لتعود إليها عشر مرات. وبما أن ابنة السيدة «تروكر» كانت تسكن «اوديسا» فالبطاقات البريدية الروسية التي كانت ترسلها، والمحفظة الجلدية من جلد روسيا التي أعطتها السيدة «دي ليران» في سفرها الأخير، كان غي يطلب أن يراها. كان يعشق رائحة جلد روسيا.

كان هناك، فضلاً عن ذلك، «بول» الصغير. كان «بول» الصغير ابن السيد «روفال دامبواز» وكان السيد «دوفال دامبواز» ابن السيدة «سبورجي». وعند السيدة «سبورجي» كانت السيدة «دي ليران» وصيفة ومعلمة لبول

الصغير في آن واحد. ودّ «غي» كثيراً لو يعرف «بول» الصغير الذي كان حسن الخطّ، بارع الذكاء، ذا لعب كهربائية. ثم إن السيدة «سبورغي» أدخلت السيدة «دي ليران» لدى السيدة «دي فيرسي» زوجة «دي فرسيي» الشهير والتي كانت عشيقة السيد «ديفال دامبواز». بالطبع ماكان ينبغي أن يُقال ذلك، لكن «جينفييف» ابنة السيدة «دي فيرسيي»، وأصغر أولادها، كانت ابنة السيد «دوفال دامبواز». ما أروعه، وما أميزه من رجل السيد «دوفال دامبواز! وهو ثري. كانت المهنة الدبلوماسية تبعده على العموم، من السيدة «دي فيرسيي». وكانت السيدة «دي فيرسيي» تروي للسيدة «دي ليران» دون ان تقول بالطبع الأشياء مباشرة، أي كائن استثنائي، أي نبيل، بالمعنى المليء لهذه الكلمة، أي نبيل، كان السيد «دوفال دامبواز». كان هو الذي يدفع كل ما يتصل «بجينيفييف»، ، لم تكن هذه لترتاب في شيء.

لم تكن السيدة «دي ليران» تحب الانكليز. وكان يقع في تمثيليات العرائس التي ترتجلها لـ «غي» ان السيد «دي فلوري» أو السيد «دي منشبور» يتجسّسان لمصلحة «البيون» الغدّار. وقد أظهرت «فاشودا»[1] من ناحية أخرى ماحقيقة هؤلاء الناس. كان «غي» يودّ لو يعرف بعض التفاصيل عن «فاشودا»، لكن عندما قالت السيدة «دي ليران» إنها في إفريقيا وأن النقيب «مارشان» كان عظيماً، لم يبق لديها ماتقوله. وكان «غي» يفكّ الرموز. واستقرت في رأسه فكرةٌ غامضة وهي أن لذلك علاقة بانهيار الاتحاد المالي. وفي المساء، نام وهو يفكر في «بول» الصغير، وفي جينيفييف، وفي أنه كم كان محزناً ان تنفصل السيدة «دي فيرسيي» عن السيد «دوفال دامبواز.

كان هناك دائماً وجوهٌ جديدةٌ تفد الى المنزل. كان «غي» يحب أن يظل في ركنٍ من البهو الكبير، إذا كان ثمة ناسٌ، وأن ينظر الى المجهولين. كان هناك ناسٌ من أنواع شتى. وذا يوم جاء صيني. وإن لم يلبس اللباس الصيني. جاء بالثياب الرسمية: كان ذلك للعشاء.

(١) فاشودا: المدينة السودانية التي أخفق عندها القائد الفرنسي مارشان... المترجم

في النهار، كان جورج يستقبل أصدقاء أوناساً من أجل شؤونه. كان ينفرد بهم في مكتبة. وكان روبير يحضر أحياناً. كان يُسمع في الغالب عبر الباب ضجةٌ مبهمة لشجار، أصوات غاضبة، مهددة، وضحك جورج على العموم، ذلك أن شؤون جورج شؤون بالغة الخطورة.

وذات مرة، رأى جورج شيخاً طويلاً شاحباً الى أقصى حد، وهو يصرخ: «انها لحقارة، إنها لحقارة!» وكان جورج يدفعه باحترام الى الباب وهو يقول: «لاترفع صوتك الى هذا الحد، سيدي الوزير، لاترفع صوتك الى هذا الحد، فقد يسمعونك!».

ماكان يحبه «غي» أكثر من كل شيء آخر هو عندما كان جده يأتي ليأخذه الى الغاية. لم يكن ادوار يوجه الكلام الى حفيده على مدى ساعات. حينئذ كان «غي» حراً لأن يفكر في كل شيء، في «فاشودا»، في زمرد امه، في السيد «دي فلوري» وهو يغازل السيدة «دي ليران». كان ذلك طريفاً. لم يفكر «غي» قط في مغازلة السيدة «دي ليران». «قلْ لي، ياجدي، كيف كانت ماري انتوانيت؟».

فكرّ ادوار، الذي غدا الكونت «دي نيتنكور» ببركة السيدة «باج»؛ فكرّ لحظةً بلحيته الجميلة، لحية صاحب القصر، ثم أجاب ببساطة إقطاعية: أقرب الى القبح».

– ٤ –

إن صانع السيارات «وسنر»، وسنر العظيم الذي حولّ صناعات السيارات الفرنسية، رابح جميع السباقات القارية، بدأ هو نفسه كمتسابق.

وقد احتفظ من جراء ذلك بأفكار متقدمة، وقد نوقشت كثيراً مبادرته، وأنحي باللوم كثيراً عليها عندما أرسل إلى «جوريس» في اليوم التالي لخطبته بطاقته مع تهانيه، وكان يقول للجنرال دورش: «أنا اشتراكي

في أعماقي، بم افتتاح اللعب؟ اشتراكي واقعي. بزوجين؟ فتحت؟ إن ذلك يضعني أحياناً في مواقف فريدة. أضاعف. لكني اجرؤ على القول ان مصالحي لا تنسيني مصالح الجميع. هكذا. إذن نكشف أوراقنا؟ توحيد المصلحة الخاصة مع مصلحة الجميع هو مايسمح لنا باللقاء طويلا ضمن حدود العدالة الدقيقة. أنا معي ثلاثة أسوس، سيدي اللواء، مع أسفي.

في كل مساء، في شارع «اوفيمون» كان يلتقي للبوكر وسنر، ودورش وصحفيان أو ثلاثة والسيدة «باج» وقريب لآل نيتنكور وأميل برويير الذي كان له موقع رفيع جداً في وزارة المستعمرات وكثير من الضباط مع زوجاتهم، وأميرة يونانية، وقد قالت ذات يوم امرأة ملازم للواء دورش: «لكن منزل آل برونيل مقمّرة!» سيدتي العزيزة الشابة، لو رأيت كيف يعرف كيف يخسر ربُ المنزل لما قلت ذلك. والواقع أن جورج يعرف كيف يخسر أيضاً. وكانت «ديان» تربح بانتظام من «وسنر».

أسرّ ذات يوم «برونيل» للواء: «إن كان لك أصدقاء يحبون «الموم» فأتِ بهم غداً. سوف يصلني عشرة صناديق، نعم، عشرة. هذا الحديث القصير كان ينتهي بالحركة المعهودة في السينما للإشارة الى النساء الجميلات: الأصابع مضمومةٌ، ويد تدور حول وجه الممثل لتنفتح على قبلة من الشفتين.

قال دورش: حسناً، سآتي بـ«سابران».

وجد النقيب «جاك دي سابران» «الموم» ملائماً جداً لذوقه بحيث شوهد في كل الأيام لدى «برونيل». وعندما جاء احتفالُ«سان سير»[1] حيث كان له أخ، قدّم النقيب لآل برونيل الدعوات.

جاءت «ديان» الى سان سير في زينة أثارت استنكاراً. كان ذلك بدء الفساتين اللاصقة. كان يرى فيها كل شيء وكأنها خارجة من الحمام. وقد

---

(١) سان سير: مدرسة الضباط... المترجم

بُهر به بوضوح الملازمُ «دي سابران» الذي قدّمه أخوه للسيدة «برونيل» الجميلة ، وأوشك ان تُفك عنقُه وهو يمر أمامها ، واقفاً على جوادين ، أثناء مشاهد عروض المدرسة العليا. لأنه حيّاها التحية العسكرية.

بيد أن الملازم لم يصبح مثل أخيه أحد روّاد مجالس البوكر في شارع «اوفيمون». كان له علاقة ، على مايبدو ، بممثلة معروفة جداً.

أخذ الكلامُ يكثر على زواج السيدة «باج» و «روبير» ، وهي صفقة كبيرة جداً. لم تكن السيدة «باج» فقط أرملة «باج» شيكاغو ، بل كانت ابنة «ماك هيدريك» الذي أنشأ قبل حين مجمع شركات النقل. لم يكن الزواج في الكيس تماماً. الحاصل ان السيدة «باج» كانت تبدو مشغوفة جداً.

قالت كريتسيان للسيدة «بلان» امرأة الجوهري في شارع السلام التي لقيتها في الصيف السابق في «اورياج» : وإذن ، ياسيدتي العزيزة ، أنت ، ألم يحركك الفضولُ لمرافقة السيد «بلان» الى الولايات المتحدة في إحدى سفرات أعماله؟

- لا . ذلك لم يحدث .

- باللخسارة ! ياللخسارة حقا ! لا لأنني شديدة الرغبة في الذهاب الى أمريكا . لا . بل إن فلسطين تجذبني أكثر منها . الأماكن المقدسة . لكن إذا ما سنحت الفرصةُ . . أوه ! إنني أقول ذلك دون تفكير ، ليس لدي أدنى مشروع ، لكن إن سنحت الفرصة أخيراً فلن أزدريها .

- لو أني لا أخشى أن أكون غير متحفظة . .

توقفت السيدة بلان لتنظر الى خواتمها : . . . «لسألتك ، اوه ! بالطبع دون إصرار ، إن كان الخبر الذي شاع والذي يتعلق بالفيكونت . .

- روبير ؟

- . . . السيد ابنك ، له أساس من الصحة؟

- الخبر؟ روبير؟ أنت لاتأخذينني على غرة، ياسيدتي العزيزة «بلان»، وأنا أجهل مايُقال على الإطلاق، . ففي باريس الكثير من الثرثرة.

- نعم ثرثرة. أنا أعتقد ذلك ايضا. غير أنه يُقال باستمرار ان الفيكونت سيرتبط بالسيدة «باج».

- خبر جديد. لكن ما الذي جعلك تقولين ذلك. آه! لأني تكلمتُ عن السفر الى أمريكا. مهلاً، كان ذلك دون تفكير، دون تفكير تماماً.

-نعم. كنتُ أقول ذلك لنفسي. فالفيكونت أصغر بعشرين سنة من السيدة «باج» وهي إحدى زبوناتنا، من ناحية أخرى.

كانت السيدة «دي ليران» من جهتها ساخطة. كانت تحدث «غي» دون توقف عن فروق العمر بين الأزواج. ولاشك أن النقيب «دي ليران» كان أكبر منها بكثير. لكن ذلك شيء آخر تماماً. كان شيئاً لايُغتفر حقاً أن رجلاً وسيماً مثل روبير يذهب هكذا، من أجل المال. لأن ذلك في النهاية، من أجل المال. لا، لا، لا فائدة من محاولة الزعم بأن ذلك ميلٌ لايُقاوم، كيف يُقال ان هذه السيدة ««باج» ذكية؟ كانت غبية تماماً. لعل القدوة التي برمت رأس روبير هو «بوني دي كاستيلان». آه! عندما نفكر في النساء اللواتي لايتيسر لهن الزواج واللواتي يكن مع ذلك.. لاحظ، يا صغيري، «غي»، إنني لا أقول هذا من أجلي أنا، فقد تجاوزت السن، نعم، نعم، لايمكنك أن تتبين ذلك، لقد تجاوزت السن. الحق أني كنتُ عندما مات «بيير» في كامل تفتحي. وأخيرا ما الذي يمكن أن نرجوه من «روبير» في نهاية المطاف؟ كيف عاش دائماً؟ عالةً على أمك أو على السيد برونيل. انه وقح. ألفونس[1] الفونس حقيقي.

لم يكن «غي» مسروراً من السيدة «دي ليران»: لماذا تنتحل لوربير هذا الاسم المضحك؟ لقد أريد له أن يتعلم شيئاً من «الفونس دوديه» (رائعته!

---

(١) أي يعيش على حساب عشيقته... المترجم

نائب المحافظ في الحقول!) ولم يتمكن قط من استظهار شيء من الدرس. لم تكن ذاكرته صالحة لحفظ النثر.

كانت السيدة «باج» على تفاهم تام مع «ديان». لقد أعطتها كثيراً من «الدنتيلا»، كيلومترات من الدنتيلا. ولقد فصّلت ثياباً منزلية، منها، لكنها لم تكن تستقبل أثناء النهار إلا بالفالانسيّة الدقيقة التخريم. وبما أنها لم تكن تضع مشداً في البيت، فإن السيدة «بلان» زمّت شفتيها قليلاً وهي تروي للسيد «بلان» كيف يبدو ذلك. لكن السيد بلان، المشغول جدا تدبر أمره بناء على ذلك، في المرة التالية ليأتي بالسيدة «بلان» بعد الشاي، الى شارع «اوفيمون».

بينما كان السيد «بلان» يروي بالتفصيل لديان كيف يمّم شطر شيكاغو ومعه عقدٌ من الماس للسيد «ماك هندريك» والد السيدة «باج»، وكيف دخل مجهولون حجرته على الباخرة، وسرقوا العلبة التي لم تكن تحتوي إلا على نسخة من الحلية، في حين كان العقد الحقيقي في منديله، هنا، في بنطالي، سألت السيدة بلان في ركنٍ كريستيان :

- «ألايغار السيد «برونيل» قليلاً على السيدة «برونيل»؟

-العكس تماماً، ياسيدتي العزيزة، إن صغيرتي المسكنية «ديان» هي التي حل بها الضنى بسبب صهري. الأمرُ خارق للعادة

إذ يكفي ان نراهما، لا أريد أن أذم بنية جورج الجسدية، وهو حيوي جداً، وديان ابنتي. . إنها مجنونة بزوجها، بل أن ذلك غير معقول. الرجال الآخرون غير موجودين بالنسبة اليها. وهو يسبب لها هموماً. وهي تتعذب، مع كل هؤلاء الممثلات اللواتي عليه أن يراهن في مهنته. وهو يتأخر كثيراً خارج البيت في بعض الأحيان. . آه! الممثلات؟ ديان لايمكنها أن تسمع الناس يتحدثون عن الممثلات.

– لكن ألا يجد السيد برونيل اعتراضاً على . . الثياب الداخلية للسيدة «برونيل»؟

– هو؟ هذا ذوقه . وديان التي ليس هذا من طرازها قد فصلت هذه الملابس بتخريمات عتيقة كانت عندنا في العائلة فقط لمنافسة الممثلات، لاستبقائه .

عندما عاد الزوجان «بلان» إلى بيتهما تبادلا انطباعاتهما . «ماذا كانت تعني الأم بقولها : مع هؤلاء الممثلات اللواتي عليه ان يراهن في مهنته؟ قال السيد بلان : أنا ، على يقين أنه يمارس تجارة الرقيق الأبيض . أما «ديان» فهي امرأة جميلة ، لكن يجب ان نعلم كم تكلف» . ولاحظت عليه السيدة «بلان» أنه تكلم بكثير من الحيوية . «كان ذلك واضحاً ، ياصاحبي ، كان واضحاً» . والسيد «بلان» هو الذي ثارت ثائرته .

في الإعادة النهائية لمسرحية «بيرنشتين» كان «وسنر» في مقصورة آل برونيل مع روبير والسيدة باج . في الاستراحة ، أخرجت السيدة «باج» من محفظتها اللؤلؤية رسالةً مدتها الى «ديان» التي قرأتها فتعجبت : ياللفظاظة! وناولت الرسالة جورج . ابتسم جورج ابتسامته الطيبة ، وسأل السيدة «باج» إن كانت أرتْها «روبير» . قالت السيدة باج : قد فعلتُ .

فاستأنف جورج : إذن ماعليك إلا أن تناوليها «وسنر» .

بدرتْ من «ديان» حركةٌ غريزية لايقاف الرسالة ، لكنها كانت حينئذ في يدي صانع السيارات . تردد هذا ، وسأل السيدة «باج» بعينيه ، فوافقت السيدةُ «باج» . كانت الرسالة تقول :

أيتها البلهاء العتيقة ، أنت على وشك ان ترتكبي حماقة . ستعضّين أصابعك ندماً عليها . إذا تزوجت السيد روبير «دي نيتنكور» وهو ليس بفيكونت أكثر مني ، فستكونين زوجةً مخدوعة منذليلة العرس الأولى . إن

له صاحبة يحمل إلها بقايا الحلوى التي تؤكل عند صهره، هي الآنسة «لولو». إن كنت تعتقدين لحظة أنه يتزوجك من أجل جمال عينيك فأنت في غاية الغباء. روبير لن يتزوجك إلا من أجل مالك. قد يشقّ عليك تجرعُ ذلك ، ياصاحبتي، لكن ينبغي لك أن تتعودي هذه الفكرة. إن قدوته «بوني دي كاستلان» هو الذي فتل له رأسه. ألا تظنين ان في فرنسا مايكفي من النساء الذكيات والجميلات والناعمات اللواتي يُسعدن رجلاً مثل روبير؟ هيا، ليس لك أن تأسفي عليه: إنه لايصلح لشيء، إنه عالةٌ عليك، لقد عاش دائماً عالةً على أخته، وهي عاهرة، أو عالة على صهره، وهو مرابٍ. صدقيني أن من الأفضل لك ان تحملي كل ماتملكين وأن تمضي الى شيكاغو دون ان تلوي على شيء. «مشفقٌ يقزه ذلك كله».

ظل وسنر لحظة ساكناً مذهولاً، والورقة بيده. وفي النهاية عبّر عن فكرته: حسناً، عادت الأمورُ الى نصابها.

تنهدت ديان: يالها من فظاعة.

قال جورج: إني أجد ذلك مضحكاً الى أقصى حد، بالطبع.

لكن روبير بدا عليه شيءٌ من العصبية: «ينبغي أن نسأل نيلي» عن رأيها في ذلك، يظهر لي..

- إني أجد دلك فرنسياً جداً، شائقاً جداً، وسأرسل الرسالة الى أبي لمجموعاته التاريخية. عزيزي روبير، هناك من يحيينا. استدارت الرؤس. قال روبير البادي الانهماك، بصوتٍ عالٍ: «إني أتساءل من يمكن أن يكون هذا.. غلط جورج في فهم السؤال: «هذا «سابران» الصغير مع صاحبته، مارت س... من البالية رويال.

نظرت ديان الى الممثلة متشوقة غاية التشوق. فتاة جميلة. هتف «وسنر» السليط اللسان: «لابأس بها، من غير شك، على السرير.. في الفصل الأول!».

– ٥ –

كان «غي» يعزف «الصلاة» من «التوسكا» على كمانه. بلغ التاسعة لكنه لم يدخل المدرسة. كانت السيدة «دي ليران» كافية، وكانت «ديان» ترى أن من غير المفيد إرساله الى المدرسة حيث يُعلّم الأولاد «دروس الأشياء» والرياضيات، وهي لاتنفع الفنان على الإطلاق. لأن «غي» سيكون فناناً.

كان ولداً جميلاً جداً، سميناً جداً مع عيني أمه السوداوين، والشعر الأشقر. كان خداه المدوران والرخوان قليلاً اللذان تركز لونهما في الوجنتين يبدوان كأنهما مصنوعان من حساء الشعير الذي كان يُقدم له صباحاً. كانت تنبعث منه رائحة مربى البرتقال. وكان يرتدي على العموم ثلاث قطع صغيرة، السترة اليمنى والبنطال النازل الى ماتحت الركبة من المخمل الأسود أو الأزرق وصدرة الساتان الأبيض. فكأنه «فانديك» كما كانت تقول السيدة «دي نيتنكور». أما الشعر فمقصوص لدى «ادوارد».

كان يخرج ايضاً في جميع الأيام مع السيدة «دي ليران». لكن لم يكونا يذهبان الى «حديقة مونسو» حيث كان الكثير من المربيات والصبية. وبالطبع سر هده النزهات كان يظل بين السيدة «دي ليران» و «غي». جولات في المخازن الكبرى التي فيها الكثير مما يُتفرج عليه. كانت السيدة «دي ليران» تجرب القبعات الصغيرة والكبيرة. القلنسوات البنفسجية، والقبعات الرعوية. «انظر، ياغي، ماذا يُصنع الآن. أنا أجد ذلك مضحكاً تماماً. ونحن نتساءل أين رؤوس هؤلاء المتصنعات في أيامنا. .

كانت البائعة تقول:

– هذا يلائم السيدة جداً.

- صحيح. كلا. لا أجرؤ على الخروج بها في الشارع.

-تعلمين ، ياسيدتي، اننا نتعوّد. وإذا كانت مناسبة حقاً. .

ماكان مريحاً الى أقصى حد في تلك الفترة، أنه كان من الممكن ان يُطلب إرسال مانشاء الى المنزل والاحتفاظ به دون دفع. كانت السيدة «دي ليران» توصي أن ترسل إليها كمياتٌ غير عادية من الأشياء. وتعيدها في مدى ثمانية أيام الى المخزن. غدا ذلك رياضة ، وكان «غي» الذي خجل قليلاً في البدء يلعب ايضاً لعبة الاختيار:

- «اسمعي، ياسيدتي، ليتك تطلبين أن ترسل إليك هذه الغدّارة»؟

- غدارة؟ ألست مجنوناً؟

ولم تشأ قط أيضاً ان تجرّب أمام «غي» الفساتين المكشوفة الظهر كما كان يرجوها. وبالمقابل، كانت تساوم على الجواهر في شارع السلام، خلافاً لكل احتمال، برغم ضجر الجوهري الشديد، الذي كان يقف بحذاء العلب ويجيب بجفاف وهو يوشك أن يُرجع كل شيء الى مكانه.

ولأن الأنسة «تينار» استاذته في الكمان انتقلت وجاءت لتسكن في شارع «دي كورسيل» قريباً جداً من آل «برونيل»، إنما سُمح لـ «غي» ان يذهب وحده إليها، وقد نُبه الى ان البيت سيتصل هاتفياً بالآنسة تينار، وأن الأنسة «تينار» ستتصل هاتفياً عندما يذهب بُحيث لايمكنه ان يتأخر في الطريق.

لم تكن «ديان» لتخاف العربات بقدر ما تخاف المعارف الذين يمكن أن يتعرف عليهم في الشارع.

ولقد أوصت الآنسة «دي ليران» ألف توصية، بصدد حديقة «مونسو». لسنا ندري أبداً بمن يرتبط الطفلُ. أولادُ سوقيون تماماً، ثم أن الصغير قد يتفوه فجأة بألفاظ بذيئة هذا عدا ما يمكن أن يعلموه إياه. كانت

السيدة «دي ليران» توافق على ذلك. وكان رأيها أننا يجب الا نضع تحت أعين الأطفال إلا القدوات التي ينبغي ان يقتدوا بها.

الواقع ان «غي» لم يكن له صديق. كان يقضي الصيف في «نيتنكور» حيث كان يُحرم عليه أن يلعب مع الصغار الفلاحين. وعندما كانت جدّته تذهب الى المياه للاستشفاء، كان تتركه تحت حراسة السيدة «دي ليران» التي كانت تدعى لمدة أحد وعشرين يوماً، زمن المعالجة. أما الزوجان «برونيل» فكانا مسرورين جداً أن يغدوا حرين في تصرفهما. في «دوفيل» أو في «باري بلاج». وكانت «ديان» تقول: «جورج بحاجة الى عطلاته. ولا أود ان أفرض عليه الصغير أثناء الصيف والحق أن جورج انتهى بالاعتقاد ان «غي» ابنه الخاص. وهو مدهش مع «غي».

كان «غي» يُدعى بين الحين والحين الى حفلات الأطفال عند أصدقاء جورج. لكن ذلك لم يكن يبدو أنه يستقيم، على نحو أو على آخر. كان الأولاد الأخرون يخوّفون «غي». وكانت جدته تفسر ذلك بقولها: «هو غير بشوش». وفي كل سنة كان يُردّ بالجملة على تلك الدعوات في عيد الميلاد. كان في البهو صنوبرة ضخمة مضاءة كلها بالكهرباء، وكان يقام احتفالٌ للكبار والصغار في الوقت نفسه. كان الرجال والنساء يضعون على رؤوسهم زينات من الورق، ويطلقون المفرقعات ويرقصون رقصة «الكوتيون» عبر المنزل كله، وكان جورج يتزيا بزي «بابا نويل» وكان في الشجرة عسكريون من المقوى العجيني وفي السلالم أحياء آخرون. وعندما كان الناس يمرون تحت كبّة الهدال عند المدخل، كانوا يتعانقون. ، لم يك هذا النهار ليفوت الجنرال «دورش». وكانت «ديان» تضحك كثيراً، ولم يكن يبدو على السيد «وسنر» أنه يتسلى على الإطلاق.

كان «غي» في سائر الوقت، وحيداً جداً. كانت أمة تكلّمه، على العموم، بالانكليزية، لكنه أخذ ينسى قليلاً هذه اللغة منذ رحيل المربية. كان

إذ ذاك لايُعطى للمطالعة سوى كتب انكليزية تعجب «ديان»: أليس في بلاد العجائب» مع مصورات «»راكام». و «كتاب الأدغال» وطرزان. وكان الجنرال «دورش» يظهر فكرته الصحيحة بهذا الصدد، وذلك بأن يهدي «غي» في أول رأس السنة، كتاباً للنقيب «دانريت»: الحرب المحتومة، الفارون من الجو، الخ.

وذات يوم كان فيه «غي» خارجاً من عند الآنسة «تينار» في شارع «كورسيل» رأى صبياً صغيراً من سنه تقريباً مقبلاً من بعيد. صبياً من أبناء الشعب يدفع أمامه سلة من سلال الخبز الكبيرة التي يوزّع فيها الخبازون خبزهم وكانت السلة فارغة، وكان الصغير يدفعها بسرعة كبيرة أمامه. لم يفسح «غي» مكاناً لها عن سوء منه، أو لم يفسح الا قليلاً بحيث جاءت السلة وصدمته. كان الصبي الآخر المدهوش، قد أرخى السلة واضطر للركض وراءها لان السلة المنطلقة ستسقط جانباً. ظل «غي» يتابع طريقه بكل براءة عندما أحس الصبي آتياً خلفه. فحثّ الخطا بصورة غريزية لكن ذلك لم يكن كافياً ليتفادى ركلةً قوية في مؤخرته: «ما أسوأ الصبية الذين من نوعك! أما كان بإمكانك ان تتنحى، أيها القرد العالم؟ تبّاً لك. . انظروا لي إليه أيّ لباس يلبس!».

كان غي لابساً على نمط «فان ديك». كانت هذه اول ضربة في مؤخرته. لقد تعرف على البروليتاريا ومضى لايلوي على شيء.

***

لم يكن ينقص سوى ثلاثة موتى حتى يصبح الكونت «ديفرو» ملكاً لفرنسا. وكان في العائلة الملكية كثير من السلّ، كما يقال. . لا لأن السيدة «دي نيتنكور» تتمنى موت صاحبات السمو، لا ، لكن دوق اورليان كان يملك منذ زمن بعيد، ولو مات لما أحدث موتُه تغيّراً كبيراً. وتسمين هذا

ملكاً! ولم يكن فيليب الثامن صالحاً إلا لأكل الخبز المحمّص في انكلترا. على أنه كان ثمة فرصٌ ليظهر فيها قوياً.

«ما أقوله أنا، يابولين العزيزة، لايعني أنني ملكلية حقاً. ولا يمكن ان يكون موقعي في مثل.. في مثل هذا التطرف الجديد بأن يفصلني عن أولادي. ذلك ان ديان، كما تعلمين، أصبحت ليبرالية تماماً، جمهورية منذ زواجها، وجورج، في نهاية المطاف، هو ابني نوعاً ما... لا. لكن من جهة أخرى كيف أنسى كلياً أصولي؟ أنا «ساسنجيّه» من «بيارن»، وإذن فأنا أهتم بأسرة اورليان أنسانياً، لا سياسياً، أإنها تمثل ماضياً برمته..

قالت السيدة بلان صافرةً:

– ... ماضياً ليس له كبير حظ بالعودة دون هرج ومرج عظيمين.

– ... ولست أتمناهما، يا الهي! نحن نعيش عيشةً حسنة، فلنترك الكلامَ على الكارثة! إذن لو أن فيليب الثامن مات لحرك ذلك بكل بساطة التاريخ قليلا. لاشيء يُملّ مثل هذه الحقب التي لا يتغير فيها الملوك. هذا كأني أعيش شهراً بقميصي. لا، لست أحب العهود الملكية الطويلة. من المريح، كما تعلمين ان نتمكن من القول، كما كان يفعل أجدادنا: «عندما انتقلنا من بيتنا في عهد «لويس فيليب» أو «إنما وُلدت الصغيرة في عهد شارل العاشر». بدلاً من الحساب بالسنوات، مامعنى هذا؟

مطبخ حقيقي. ولايمكنك ان تقولي في عهد «فيليكس فور، في عهد «لوبيه»[١]! مامعنى هذا؟

كانت السيدة «بلان» ترى ان الحديث بدأ يشرد. لماذا تهتم السيدة «دي نيتنكور» الى هذا الحد بالكونت «ديفرو» وبحقوقه في العرش؟ لم تكلف نفسها سؤالها.

«هذا من توارد الخواطر، لأننا كنا نتكلم عن «غي». وقد اصطفى غي

---

(١) فيليكس فور أحد رؤساء الجمهورية الفرنسية، وكذلك «لوبيه».. المترجم

صديقين له عند معلمة الكمان، من آل «سكريابين»، «انتوان» ودميري سكريابين. لا، لا أعتقد أنهما من أقرباء الموسيقي، لكن أمهما كوبيّة. امرأة ليست أبداً من طراز «ديان» لكنها مع ذلك رائعة الجمال. الارستقراطية الاسبانية التي نُقلت من موطنها الى العالم الجديد. ياعزيزي، لايجب ان تُريها السيد «بلان»!

– أتظنين ذلك؟ والكونت ديفرو!

– السيدة «لوبيز» مطلقة.. لا، منفصلة.. لأنها مؤمنة.. عن السيد «سكريابين». وهو يأتي من وقت الى آخر ليأخذ الأولاد وليذهب بهم الى «الاوديون».

– والكونت «ديفرو» كريستيان؟

– سأصل إليه، لاتستعجليني، بولين. في حياة السيدة «لوبيز» التي لها قصر خاص رائع في «نويي»، محبةٌ عظيمة، عاطفة ليست من أمس. إن صداقة الكونت «ديفرو» لايمكن الا أن تشرّف من تتعلق به. لا شك أن ديان ماكانت لتترك ابنها يذهب الى منزل فيه شيء غير سويّ. لكن مزيّة سموه هنا تغير كلّ شيء. بالطبع. فالكونت لا يستطيع ان يتزوج السيدة «لوبيز» بسبب واجباته، لكننا في النهاية، كنا سنتردد على السيدة «دي مانتينون»! إذ ذاك. ومن جهة أخرى فإن الطابع الاستثنائي في موقعه يجبر السيدة «لوبيز» على التشدد في سلوكها وهو تشدد تبحثين عنه في العالم البرجوازي ولاتجدينه.

هنا، تنهدت السيدة «دي نتينكور». تحدثت عن طرد[1] الكونت «ديفرو». فقد تصرف في الهند الصينية وفي كندا كما يتصرف الفرسان. وصوّر مع كومات الوحوش التي أرداها. وله املاك في كل مكان مر به،

الطرد: مزاولة الصيد.. المترجم

وكذلك السيدة «لوبيز» كانت السيدة «بلان» قاسية جداً في حكمها على النساء اللواتي ينفق عليهن عشاقُهن: وليس الأمراءُ بعذرٍ.

وإذن فقد ذهب «غي» الى «نويي» الى الحديقة ليرى الأخوين «سكريابين». وقد رافقته السيدة «دي ليران» مشياً على قدميها. لأن عليها أن تنشط قليلاً. مراً بـ«التيرن» حيث تسكن السيدة «تروكر» وحيث ستضع السيدة «ليران» سفطاً لدى السيدة «تروكر». كان «غي» مسروراً لأنهما سيمران ببالون «التيرن». وكان يحب هذا البالون لأنه بناءٌ ليس كغيره من الأبنية.

على جادة «انكرمان» كان صبيةٌ يتزلجون على دويلبات، بمزلج واحد في القدم، لأنهم أعاروا المزلج الآخر من المزلجين رفيقاً لايملك مزلجاً. كان ذلك يحدث ضجيجاً أعرج ايقظ في «غي» ضرباً من الضغينة على أمه التي أبت أن تشتري له مزالج بدويلبات خوفاً من ان يكسر ساقيه.

فكر «غي» أنه لو كان يملك مزلجين لاحتفظ بهما لكي يكون أسرع في تزلجه. كانت السيدة «دي ليران» قد اشترت سندات يانصيب مدينة باريس، ولم تكن تعلم بسبب ذلك كيف تسدد قسطها، لكنها لو ربحت جائزة المليون.. كان «غي» يرى بينه وبين نفسه ان من الظلم الفاحش ان تربح السيدة «دي ليران» جائزة المليون: كانت طاعنة في السن وقبيحة، فما حاجتها الى المال؟ كانت تقول: «مايغيظ هو ألا يربح الإنسان سوى خمسين الف فرنك»!.

فجأة عبرت الجادة سيارةٌ مسرعة، وكانا في ركن من شارع «القصر»؛ كانت سيارة مكشوفة آتية من باريس، وعليها عدة رجال، ومن ورائها، غير بعيد عنها، وصلت عدةُ سيارات وكأنها في سباق. لكن عربة حلاّب نفذت الى جادة القصر وأجبرت المطاردين على التمهل. شبّ الجواد وتوثب أمام

السيارات؛ في أثناء هذا الوقت كان المسرعون الأول قد اختفوا. كان من المتعذر معرفة الى أية جهة انعطفوا.

كان ركاب السيارة التي في المقدمة، وهي سيارة وسنر، يضطربون على نحو يائس ويشتمون الحلاب. أيها الغبي، كانت السيارة الرمادية!..

عندما سمعت السيدة «دي ليران» ذلك، همست لـ «غي» «النَجرِ!» ومضت نحو جادة «بينو» وهي ترفع تنورتها. ولم تقف إلا عند باب السيدة «لوبيز». لم يكن غي يفهم شيئاً من ذلك، لكنه جرى وكأنما كان ذلك قاعدة اللعبة. وفي منزل السيدة «لوبيز» ادرك مفتاح السر. كان «بونو» وأصحابه هم الذين شوهدوا يمرون! لقد نجوا من خطر داهم. كيف، لم يكد غي يفهم ذلك، لكن كانت تلك، على كل حال، قصة، جديرة بأن تُروى. والدليل على ذلك أن السيدة «دي ليران» أعطيت دواء يهديء من انفعالاتها.

- ٦ -

أُرسل اللواءُ «دورش» إلى موقع على بعد ثماني ساعات من باريس ليقوم بوظيفة قائد لواء، ولم يكن يُرى سوى مساءين أو ثلاثة في الشهر، في شارع «اوفيمون». كان يُرسل طروداً من فواكه المنطقة، مستغلاً سفر مرؤوسيه الى باريس، وكان الجنود الوصفاء يظهرون في الصباح ومعهم قفف من القش على باب الخدمة.

كانت السيدة «باج» في أمريكا ، وكان روبير يبدو شديد التجهم مع أنه كان في جميع احتفالات الإحسان وأن الناس أخذوا يقولون بأنه قد يصبح من طراز «اندريه دي فوكيير». لم يكن ذلك ليرضي السيدة «دي نتينكور» التي كان تجيب بأن روبير لن يصبح مسّلياً أبداً.

كثرت طلعاتُ جورج، وتباطأ البوكر جداً، الى جانب ذلك، أي ان

اللعب كان يجري دائماً في وقت متأخر جداً، بعد المسرح وعندما يعود جورج . فإذا عاد أقبل على وسط اللاعبين، وطبع قبلة على الكتف العارية لديان، وفرك يديه : «إذن هل نلعب جولة صغيرة؟» فيلز بعضهم بعضاً ليفسحوا مكاناً له، وينتعش اللعبُ.

إضافة الى ذلك، تألفت ، ولايُدرى كيف، في ركن من البهو على مائدة قمار فلورنسية كانت السيدة «دي نتينكور» تؤكد خلافاً لكل الناس أنها من عَمل «بنفينيتو سيليني» (مهلا، كريتسيان ليس لما تقولينه ظلٌ من الاحتمال)، جماعةٌ صغيرة كان أعضاؤها يتغيرون، لكن السيد بلان كان فيها دائماً، وكان يهجر البوكر للبريدج بالمزايدة، كان حينئذ شيئاً جديداً تُلعب فيه النقطة بالفرنك مما يسمح بالتصاعد السريع للمبلغ. وكان السيد «بلان» لايُقهر.

كان يقول لامرأته التي لم تكن تلعب والتي كانت تجد عادات زوجه الجديدة هذه سيئة جداً «لقد اعتقدتُ، أول الأمر، أن «برونيل» تاجرٌ من تجار الرقيق الأبيض. الحق أني كنتُ مخطئاً: إنه محبٌ للذات العيش، هذا كل شيء. إذا أخطأ المرء فعليه أن يعترف بخطئه.

– تستطيع ، يا صاحبي، أن تُنصف السيد «برونيل» دون أن تندس في كل الأمسية[1] عند زوجته.

– آه! هذه هي نقطة ضعفك! يامحبوبتي!

كان هناك أمسيةٌ لايظهر فيها جورج في البوكر، مع أن اللاعبين كانوا يمدون اللعب طويلاً في الليل. وفي اليوم التالي، كان يقول عرضاً: إنه عاد، في الواقع، في ساعة مبكرة، ودخل خلسة من باب الخدمة وأنه مضى الى سريره واضطجع دون ان يقول شيئاً لأحد. «وعندما صعدت «ديان»

(١) أمسية ، بفتح أولها، جمع مساء.

قلتُ لها: هو! لم تكن ديان تضحك أكثر من اللازم وكانت ترجوه ألا يذكر التفاصيل.

تعلّقت ديان بما رغريت دي سابران، زوجة النقيب، الحديثة الزواج. كانت مارغريت طائشة تماماً: كانت على جانب من الجمال لكنها لم تكن مفرطة الجمال. وهي لم تكد تفارق أمها، في مكان ما في الجنوب. وكانت تجد مشقةً كبيرة في إخفاء لهجتها وهي تتكلم اللهجة الباريسية. ولذلك لم تكن قارصة اللسان على الإطلاق، وكان ذلك مصدر راحةٍ لديان. كانتا تذهبان معاً الى «رمبيلماير» في «ميرابو». وكان جاك دي سابران في الأركان، لكن كان يمكن ان يُرسل بعيداً في كل وقت. كانت مارغريت تقول: إنها لاتستطيع ان تستغني عن باريس.

كان «وسنر» يأتي أحياناً ليلقاهما فيذهبون معاً الى «الغابة»، الى ارمينونفيل» أو الى «الكاسكاد»، أو الى أبعد من ذلك، بحسب الفصول، الى «الجناح الأزرق» أو الى «بيل سيكليست». كان «وسنر» يملك «مرسيديس» أعجوبة. وكان الناس يجدون ذلك غريباً بالنسبة إليه، لكنه كان يقول إن هذه، على الأقل، لايمكن ان يتُهم بأنه لم يدفع ثمنها.

«المرسيديس» كما ذكّر جاك امرأته، تساوي نحو مئة ورقة من ذوات المئة ويُقال ان القيصر هو الذي أعطاه إياها. بيد أني لا أصدق شيئاً من ذلك. ومع ذلك فأنا لا أحب كثيراً «وسنر» هذا. إن له أفكاراً اشتراكية.

–اعترضت مارغريت:

– انه لطيف جداً، أؤكد لك. وهو ممتاز مع «ديان».

– يقال ذلك أيضاً.

–أوه! على الفور. ثم مَنْ عرفني عليه، ديان؟ أنت بالذات. لم يكن أحد يفهم لماذا يصر آل «برونيل» ألا يملكا سيارة لهما. مع نمط الحياة التي يحييانها كانا سيتأجران سيارة «ليموزين» شهرياً، وبالطبع ليست سيارات

الأجرة هذه من آخر طراز. كانت ديان تقول إنها تفضل العربات القديمة قليلاً لأنها تكره السرعة، والحقيقة انها كانت تنسى هذا التفضيل في «مرسيدس» وسنر.

من ناحية أخرى كان جورج على العموم يأخذ السيارة. واتفق لهما أنهما لم يستأجرا سيارة طوال شهرين. فأخذ الناس يتهامسون ان أعمال «برونيل» لابد أنها تسوء. وحيئنذ استأجر سيارة جديدة يقوم ترفُها على طائفة من الزهريات التي يضعان فيها الزهور دون اكتراث للفصل.

لاحظت ديان أمام مارغريت:

– لم نر أخا زوجك الصغير، أهو يهرب منا؟

–أوه، «بيير» لايصاحب إلا عالم الغانيات وهو لايُحتمل! ذلك مؤسف لأنه طريف جداً.

–طيب، ياعزيزي، وهل نحن متصنعون الى هذا الحد حتى نخيفه؟ لا يهم ان غضب النقيب، كما تعلمين! لكن إن شاء الملازم «دي سابران» أن يأتي معه بكل «الباليه رويال» فلستُ أرى مانعاً من ذلك. ولسوف يبدلنا ذلك من السيد «بلان».

– «الباليه رويال» انتهى. وقد مال الى الاوبرا كوميك. .

– مالك، أيتها الريفية الصغيرة! ما الذي تقولينه عن عالم الغانيات! ذلك حي «سان جرمان»!

– ومع ذلك لم يأتِ «بيير دي سابران» الى شارع «آوفيمون». لم يبد على ديان أنها لاحظت ذلك، لأن كثيراً من المترددين الجدد ظهروا. كان عزاء لمارغريت ان أجابها «بيير: «عندما تكون المرأة عاهرة فأنا أحب أن يُقال ذلك!» وانحدرت المرأتان نحو اللواء «دورش» في سيارة وسنر. وقد نظم اللواء لهاتين السيدتين عرضاً مرتجلا للموقع.

كان لوسنر مصالح في البلقان. لم تكن مارغريت تفهم جيداً. يقال

إن الطرق جدّ سيئة، هل يشترون كثيراً من العربات هناك؟ كلا، لاعلاقة لذلك بالسيارات. في بلاد الصرب مناجم. وقد أضاف وسنر بفخر: «أنا إنما أقرض الملوك المال...».

كان ملك الصرب «بيير» قد جاء الى باريس هذا الشتاء، وأخذت جماعة من موظفي سفارة الصرب، والملحق العسكري، يلازمون الآن قصر شارع «اوفيمون» وكلهم قتل، على نحو ما، الملكة «دراغا» وزوجها. وكان أحدهم في السجن، في عهده في نوع من الآبار، كما يبدو. كانت «ديان» تغازل قليلاً أمين سر في السفارة يدعى ميلان الفلاني، وهو فارس وسيم جدا، ذو عينين سوداوين كبيرتين. ويبدو أنه هو الذي القى الملكة من النافذة. وكان يحسن التزلج. وكان هو وديان ومارغريت قد زاروا «قصر الجليد». وكان يشرح لمارغريت وهما يتزلجان زوجياً (كان شديد الحرص على ان يراوح بدقة في التزلج مع ديان ومع مارغريت) أن العاهلين المتوفين كانا في الحقيقة مخلصين كل الإخلاص لألمانيا. ولم تُفلح مارغريت قط في تذكر من كان من أسرة «اوبرينوفيتش». ومن كان من أسرة «كاداجور غيفتش». ألحّ «ميلان» على مشايعة العهد الملكي السابق للألمان وحالة الشعب الدنيئة تحت سوط «دراغا ماشين» القامعة. لم يكن ثمة حريات. كانت صربيا مستعمرة ألمانية والآن اصبحت صربيا بلاداً ليبرالية وقد نفذت اليها روح الثورة الفرنسية مع العاهل الجديد الذي درس في فرنسا. وكان «ميلان» يرسم على الجليد رقم ثمانية على شرف فرنسا.

«المجتمع الصربي» أعظم ثقافة بكثير مما تعتقدين، ياسيدتي العزيزة. وأنا على يقين ان الناس في «ايكس» (كانت من ايكس؟) لا، من تولون) يقرؤون الأدب الجديد أقل مما يقرؤه الناس في بلغراد أو في أي مكان آخر في المقاطعات، في البيوتات الصربية. بورجيه، فارير، وحتى فرنسيس جيمس..

- آه! نعم. حتى فرنسيس جيمس؟

-تماما» كلارا ديليبوز».

تأثرت مارغريت كثيراً لأنها مغرمة بجيمس بالذات. كل ما يقوله جيمس عن الحمير الصغار فهو رائع، كان عندها حمار يسمى «توفو».

في الجولة الثانية سألها الصربي: «هل تعرفين السيد «وسنر» منذ زمن بعيد.

لقد عرفته عن طريق «برونيل» وهو رجل فاتن. أليس كذلك، وجد مرح؟ ثم كرجل أعمال؟

وهنا كان «ميلان» يستفيض في الكلام. واصطنع أخيراً لهجة الإسرار: أستطيع أن أقول لك إن السيد «وسنر» عمل عملاً ضخماً من أجل نفوذ فرنسا في صربيا، عملاً ضخماً، إن اسم «وسنر» عزيز على كل قلب صربي، على قلب كل مواطن صربي..

سألت مارغريت ولعلها سألت بطيش:

-لماذا؟

رسم «ميلان» رقم ثلاثة قبل أن يجيب، وأوشكت مارغريت ان تسقط.

قال أخيراً:

سيدتي العزيزة، هذا من التاريخ، من التاريخ!

كان «غي» يحب الصرب كثيراً لأنه بدأ مجموعة طوابع بريدية، وفجأة زخرت صربيا التي كان لها صفحة فارغة في «ألبومه»، بالطوابع من كل الحجوم. وكان ايثاره لطوابع الملك المقتول، وهي طوابع استخدمت في الأيام الأولى من عهد «بيير» الأول، مع ختم أسود على أسلحة صربيا يخفي رأس الملك الساقط.

وقد أرسل إليه اللواء دورش رزمة من طابع المستعمرات الفرنسية، هامة جداً، بمناظرها الخضراء اللوزية في أطر كشمشية اللون، أو النمور الأمريكية المرقطة التي يحيط بها اللون النيلي، زنوج «آويوك»، زنوج «دجيبوتي»، حكام «مدغسقر» المحمولون على ظهور الرجال في كراسي نقالة، بل وزرافة انكليزية في «نياسا»، كل ذلك كان يوقظ في رأس «غي» ذكرى الحكايات التي سمعها على المائدة عندما كان يروي قريبه «بروبير» كيف كان ضرورياً في السينغال، إذا شاء المرء البقاء محترماً، أن يعمد، حين يلتقي أحد السكان المحليين على الرصيف، الى انزاله عنه بضربات السوط: وإلا لأصبحوا من ذوي الدالة. وكان قريبه «بروبير» قد أكثر من تقليب حدبته[1] كما يقول الجدُّ.

الحق أن «غي» لم يكن يفهم كيف يجوز أن يقال هذا عن قريبه «بروبير»، أولا إنه لم يكن أحدب ثم انه لم يُرَ وهو يتقلب كالمهرج. كان رجلاً شديد القسوة له نظارة أنيقة وصوت جاف. ووسام جوقة الشرف. وكان يُقال إنه، في مدغسقر، حيث ذهب بعد الحملة حاكما، قد لعب أكثر من لعبة على الانكليز. وأخذ «غي» يحاول وهو ينظر الى طابع من مدغسقر بـ ٣٥ سنتيماً، أن يتخيل القريب «بروبير» على كرسي نقالة، بنظارته الأنفية.

بينما كان يُلصق طوابعه بكثير من الفطنة عثر فيما أرسله اللواء «دورش» على طابع من «سان بيير اي ميكليون»، ولم يكن عنده أي طابع بالذات من «سان بيير اي ميكليون»، بيد ان صوت فرقعة في البهو كالذي يجري في عيد الميلاد حمله على ترك غرفة الدراسة.

ومن الرواق الذي يشرف على البهو، رأى «جورج» عند طرف البيان، منحنياً الى الأمام وباب صدر البهو ينفتح، وديان في مفضلها، وعلى رأسها قبعة من الدنتيلا وقد بدا الفزعُ عليها، وهي تصرخ من عتبة

(١) أي كان كثير الأسفار . . . المترجم

الباب: «بالله، ياجورج. مَنْ أطلق النار؟ والخادم يدخل من الجهة الأخرى، ولم ينتبه أحدٌ لـ «غي» الذي كان ينزل الدرج وبيده طابع «سان بييراي ميكيلون» والذي كان بحذاء جورج قبل ان يراه أحد آتياً.

كان على الأرض رجلٌ، بين الكرسي المنجد الواسع والنمرقة، على السجادة الفارسية. كان الرجل واقعاً على قفاه، ورأي «غي» وهو يدنو أن حوله كمية لاتصدق من الدم. كان جورج ينظر إليه بكثير من البلاهة. وكان الرجل الواقع مايزال يحمل مسدّسه. ولم يكن يرى إن كان شاباً أوعجوزاً، لأنه أطلق النار في رأسه وأن وجهه قد تفجر مع دماغه الذي كان يسيل تحت الشعر الشديد الشقرة.

لم ير «غي» ميتاً قط. لم يكن خائفاً. بل أُثير اهتمامه بشكل هائل. ولم ينس أنه يحمل طابع «سان بييراي ميكليون»، فشدّ عليه بقوة بين ابهامه وسبابته اليسرى، وهو يلاحظ أن الحلة الكنسية التي جاءت من دير «سيتو» والتي كانت ملقاة على البيان قد تناثر عليها الدم بشكل بشع جداً.

رفع جورج رأسه ورأى الولد فقال لديان بصوت غريب متغير كلياً: «خذي الصغير. إنه «بيير دي سابران» لاتلمس شيئا، ياجوزيف، ولاتدع أحداً يدخل. يجب أن ترى الشرطة كل شيء كما هو الآن.

هذا كل ماسمعه «غي» لأن «ديان» التي كانت حنجرتها تضطرب بشكل هيستيري، أخذته بين ذراعيها وكأنه رضيع لايحسن المشي. أحس بثديي أمه قريبين منه، فلم يتخبط.

كان يشدّ على طابعه. وعندما وضعته ديان، دفعة واحدة، وكان ثقيلاً، في غرفة الدراسة في الطابق الأول، داعبته كما لم تكن تفعل قط وسألت:

«ياعزيزي المسكين! أنت لم تر شيئاً أليس كذلك؟

أدرك «غي» أنها ترغب في ألا يكون قد رأى شيئاً فلم يعارضها. ألقى

سؤالاً جانبياً نوعاً ما وهو يحمر: «مَنْ ذلك الرجل الواقع؟» تنفست ديان. لم ير شيئاً! «دعك من هذا ياصغيري، إنه رجل لاتعرفه.. كل ذلك سوف يُسوّى. إذن العبْ. أليس كذلك؟ سوف أكتب رسائل».

كان يعلم أنها عائدة الى البهو. لم تعد الطوابع تهمه. ألصق بحركة آلية طابع «سان بييراي ميكيلون» وأمام «الألبوم» المفتوح كان يفكر في الدماغ. إنه لم يتطلع كما ينبغي..

- ٧ -

سُوّيت الأمور جيداً من وجهة نظر القضاء. فالانتحار لايمكن ان يُجادَل فيه. وعن الدوافع، ألقى تصريح من السيد «برونيل» قُرِّر ان يظل مكتوماً، جميعَ الأضواء المرغوب فيها.، في الأيام الأولى اقتصرت الصحف على خبر جد مبهم. قتل الملازم «دي سابران» نفسه برصاصة في الرأس لدى صديق، لأسباب ذات طابع شخصي حميم. وأوقف البحث في القضية.

لكن آل سابران كانوا مرتبطين بكل مافي فرنسا الجمهورية من معاقل وحصون. فلم يرضوا عن هذا الصمت الذي عُزِي الى علاقات «برونيل» السياسية. وأية علاقات! «فيفياني» الرجلُ الذي يطفىء النجوم، كما كان يُقال، «كلوتز» وسنر، حفنة من اليهود. كان الرد على ذلك أن «وسنر» ليس يهودياً. وقد ظهر «برونيل» علناً. مع السيدة «برونيل الجميلة» في «كونترفيل». نعم، نعم. وتدخلت «الاكسيون فرانسيز»[1] في القضية.

نظرت في القضية على أساس أنها اغتيال. إن «بيير دي سابران» الذي اجتذبته «ديان» الى حبائل زوجها، قد رفض عروض التجسس لحساب ألمانيا التي نقلها إليه «برونيل» الذي يعمل لوسنر، وكلوتز، وبريان. وعندما

---

(١) صحيفة فرنسية شديدة المحافظة كان يديرها شارل موراوليون دودية. المترجم

رأى «برونيل» أنه لاحيلة له وأن الملازم المقدام سيكشف النقاب عن سرّ القضية، قتل ببرودة «بير دي سابران». ثم إن «فيفياني» استدعى الى مكتبه قاضي التحقيق وبلّغه أوامره. واشترى وسنر الصحافة كلها، بشيكات موقعة باسم كلوتز.

لم يعد ممكناً تفادي الفضيحة. كانت الصحافة صدى متحفظاً لأحاديث «شارل مورا» الذي أكد أن قصر شارع «اوفيمون» كان مركزاً لمؤامرة معادية لفرنسا روحُها «اريستيد بريان». وأعلن «ليون دوديه» أنه إن قُتِل في الأيام التي ستأتي فينبغي النظر الى ناحية حديقة «مونسو» للبحث عن القاتل: «الرصاصة التي ستقتلني ستخرج من المسدس الذي قتل الملازم «سابران». عُقدت في مجلس النواب جلسةٌ ألهمت وزير العدل الذي أُقحم هو وزميله ووزير المالية، نبرات دوّت في كل البلاد، لقد هتف قائلاً:

إن أعداء النظام يريدون ان يستحوذوا على مأساة من الحياة الخاصة، فجعت أسرتين معاً، أسرة الميت والأسرة التي اختار منزلها إطاراً لحركته الفاجعة. يريد أعداء النظام ان يجعلوا من هذا الانتحار المؤثّر حتماً وان كان تافهاً على الإجمال، حلقة في خيانة هائلة، ومرحلة من جريمة قتل أفظع من الجريمة نفسها، جريمة من فرنسيين ضد فرنسا! ومن أي فرنسيين! من هؤلاء بالذات الذين تحترمونهم وتجلونهم جميعكم هنا، أيها السادة سواء أكنتم جالسين بجنب السيد «جوريس» أو بجنب السيد «بودري داسون»، كأخلص أبناء فرنسا هذه التي طالما تفرّق شملُها، وطالما وقف ابناؤها بعضهم ضد بعض! ان الحكومة تحرص على القول إنه ليس في هذه الاتهامات الفظيعة مايستحق ان يوقف عنده، مالايستحق ان يُنبذ بقدم الازدراء. بين يديّ إضبارةُ القضية، وأستطيع ان أقول لكم، دون أن أقدم غذاء من التفاصيل للجوعى الى الفضيحة، إنني لم أجد في هذه الإضبارة إلا وقائع تأمر باحترام الفرنسيين الذين في بيتهم قتل فرنسيٌ نفسه. ولو علم ذلك الشاب التعس، لو أمكنه ان يتنبأ أيّ طوفان من الوحل والبغضاء سيُطلقه فعله على

أصدقاء لم يكنّ لهم سوى التقدير، بل وربما ما هو أفضل من التقدير، من يدري؟ فلربما ثناه ذلك عن عزمه المأساوي! لكن وراء هذه المأساة الخاصة التي لاتُعرّض للخطر سوى أشخاص لايشاركون في إدارة الدولة، محاولة للنيل من شخصيات لا حق لأحد في الشك فيها! (ضوضاء من أصوات شتى) نعم، أيها السادة، إني لأجرؤ على القول إنه لايحق لأحد الشك فيها. من يزعم انه يرتاب في نزاهة السيد «كلوتز..».

قابل المجلس وزير العدل بتصفيق شديد أعطى «برونيل» الحق في ان يقول: «لقد أنصفتنا فرنسا!».

لكن لم يكن ممكناً، في حلقة أصغر، القبول بهذه التفسيرات البالغة العمومية، وهذا التكريم المفرط لم يُعفِ ديان وجورج من سلسلة كاملة من التفسيرات المؤلمة للغاية والتي كان يمكن ان يستغنيا عنها.

وصل النقيب «دي سابران» في بزّته الى شارع «اوفيمون» على الفور بعد الحادث الرهيب، بناء على مكالمة هاتفية من جورج نفسه. اعتذر بشيء من الجفاف أنه لم يغير ملابسه، وبدا مقتصداً الى أقصى حد بحركاته وأسئلته شأن الرجل الذي يتوقع كل شيء والذي يعرف ماذا سيفعل. وبدت تفسيرات جورج السريعة كأنها لاتعنيه إطلاقاً. والواقع أنه كان بكل بساطة مذهولاً جداً مما جرى هنا حتى إنه كان يحسّ بنفسه عاجزاً من أن يفكر في أي شيء إلا في كرامته كضابط، وكان مستعجلاً عجلة صبيانية في أن ينتهي من ذلك لأنه كان يخاف من أن يأخذ في النحيب فجأة هنا لدى آل برونيل.

بعد ذلك كان من الصعب جداً عليه، بالطبع، أن يتراجع عن هذا الموقف. واستولى الذعرُ على مارغريت فلم تشأ ان تلتقي ديان على الإطلاق: كانت تخاف محادثتها، وسدّت ديان، من جهتها، بابها، بحجة أنها مريضة، وهو مالم يصدقه أحد وإن كان صحيحاً مع ذلك. كانت مصابة بأزمة طفيفة في الزائدة الدودية ووُضع الثلجُ على بطنها.

عندما بدأت «الاكسيون فرانسيز» في خلط الأوراق، غدا من البديهي أنه لايمكن بعد الآن الاكتفاء بتصريح جورج وحده للقضاء . كان يجب ان يروي حكاية الانتحار لبعض خلصائه. ولم يكن جورج يخفي أن هذه القصة يمكن أن تكون لها آثار مدّمرة على أعماله: كان يعلم جيداً، من ناحية أخرى ممن تصدر هذه الحملةُ كلها. كانت من منافس لايمكن ان يُرفض له شيءٌ عند «دوديه» لأنه كان «يُمسك» بدوق «اورليان» . ديان، من جهتها لايمكنها أن تظل مضطجعة طوال العمر، وأخد الجليد يذوب.

لكن ««روبير» على الخصوص، كان شديد القلق. كان يبدو من الصفوة المختارة في المدة الأخيرة، وكان هناك أناس أدارو له ظهورهم. وبما أنه لم يكن يستطيع ان يصفع جميع الناس وأنه وجد، من ناحية اخرى، ان المبارزة كانت شيئاً غير معقول، فإن الدرب الذي سلكه كاندريه دي فوكيير» قد تعرّض للخطر على نحوكبير. وأجهزت عليه برقية من السيدة «باج»تعلن فيها زواجها من عظيم اسباني، فصرح لصهره: «يجب أن تفعل شيئا ما».

كانت السيدة «دي نيتنكور» الأقل ارتباكاً في الأسرة. عندما تسوء الأمور تغيب عن الأنظار: كانت تلك طريقتها. وفي الوقت الحاضر، كانت تقضي أيامها في «سان توما داكوان» حيث كانت تعرض مشهداً للتقى التهذيبي. كان في هذه الكنيسة كاهن جديد، وكانه «سانت داغستان» حقيقي. كان شاحب اللون، عميق العينين، دافىء الصوت، حسن التفهم في محكمة التوبة بحيث تستطيع كريستيان الاعتراف ثلاث مرات في الأسبوع. ثم إنه أصغر أبناء أسرة من أفضل أسر «بواتو» (لقد تخلى عن اسمه باعتباره أحد أباطيل الأرض لكيلا يُدعى إلا الراهب غابرييل) وكانت كريستيان تتحدث عنه بحرارة شديدة حتى «ادوار» قال لها: هلا دعوته إذن الى العشاء».

في غضون ذلك، تلقى جورج رسالة من اللواء «دورش»: عزيزي برونيل، لولا الالتزامات الصارمة لمهنة لاتسمح لي بتقديم الصداقة عليها، حتى في مثل هذه الظروف المؤلمة، لهرعت الى باريس، لدى سماعي نبأ موت هذا البائس سابران، لأكون بينكم في هذه اللحظات الشاقة (كانت كلمة شاقة مكتوبه فوق «مؤلمة» التي شُطبت).

إن واجبات مهمتي وكذلك احترام النجوم التي أحملها تجبرني على التزام التحفظ الذي أتألم منه عندما لا أرى أحداً يشاركني إياه.

وفوق ذلك فأنا أتذكر أنني أنا الذي اصطحب جاك دي سابران» الى منزلكم ،وعن طريقه عرفتم «ببير» . وإذن فإن عليّ شطراً من المسؤولية فيم حدث، على نحو غير مباشر دون شك، وذلك يستتبع بالنسبة إلي التزامات ملحة، ويعطيني الحق في ان أعرف الحقيقة لا أن أطالب بها.

لا تعتقد أنني أنساق هنا للفضول ولا لعاطفيّة لاتليق برجل من شاكلتي. أستطيع ان أقول، في نهاية المطاف، ودون مبالغة، أنني كنت أحد المترددين على ذلك القصر في شارع «اوفيمون» الذي تهتمّ به الصحافة كافة. والواقع أنه لم يتنبه الى ذلك أيُّ صحفي حتى الوقت الحاضر. حتى الوقت الحاضر. لكني أتوقع في كل يوم، وأنا أفتح صحيفتي، أن أعلم أن أحد الصحفيين الفاشلين، أحد الاشتراكيين مثلا، صديقاً لهذا الشهم «وسنر» الذي لا أشاركه أفكاره البتة، قد تذكر فجأة صورة في «فيمينيا» حيث يسهل التعرف علي تماماً، في البزة الرسمية، مع سبعة وأربعين وساماً، بجنب عزيزتنا «ديان» (التي لاشك أنها مبتلاةٌ في ذلك كله، والتي أقبّل يدها بكل احترام).

لا، ليست فكرة الحياة التي حُصدت في زهرتها هو ما يجعلني ألتفت إليكم اليوم بقلق. ذلك ان الحياة البشرية، بالنسبة إلينا، نحن العسكريين، ليست بذي بال، ولقد أهديناها الوطن من مرةٍ؛ ونحن نعتبر العالم حقل

قتالٍ رحباً لايهم مَنْ يسقط فيه وماعدد الذين سقطوا، لكن الأساسي فيه هو ما يظلّ واقفاً فوق القتلى ووراءهم، الفكرة التي تقودنا، والتي يجب ألا تتلطخ بموت واحدٍ منا. يجب ألا تسمح نهايةُ «بيير دي سابران» بتلويث العلم، وبتشويه سمعة الجيش، وأن تجر في النفايات مع اسم آل «دورش» الألزاسي العريق، شرفَ الألوية الفرنسيين وهيبتَهم، وهم الذين سيقودون شعب رماة المقاليع والقوّالين الى الثأر من «سيدان» التي يوجعنا اسمُها وحده.

لاحاجة بي إلى الإلحاح. لقد فهمتني. في السبت القادم، سأصل الى باريس في قطار السادسة وخمسين دقيقة. في الظروف الراهنة أقدر أن من سوء الذوق حضوري الى شارع «اوفيمون» تحدوني بخاصةٍ الرغبةُ في أن أجنب «ديان» انفعالات لم تُراعها فيها هذه الأزمنة. ومن جهة أخرى فإن منزلي المؤقت في شارع «كروز ملبوك» جداً بحيث لا أستطيع ان أنزل يه إلا بشق النفس، وليس بإمكاني استقبالك فيه في هذه الظروف، كيف نفعل؟ إن اعطاءك موعداً في النادي العسكري سيفسح المجال للهذر. وأفترض أنك لاتحب كذلك ان تظهر في «فولني» في هذه الأيام. وإذن فأنا اقترح عليك مايلي:

«من محطة» اورسي» سأمر بـ«لارو» حيث تكون قد حجزت حجرة خاصة. وبالتاكسي (وسأجد التاكسي، برغم الاضراب؟) سوف أصل نحو السابعة وعشر دقائق، أي الوقت لأتوقف في المستودع. ولنقل السابعة والربع. سألقاك، وسوف نتناول هناك عشاء من تلك الأعشية الصغيرة التي لاتتأخر كثيراً، والتي فقدت عادتك لها، أيها الباريسي الأشر ! لكن معدتي مفتونة بها الآن بعد سنة في الريف.

وبما أن هناك شيئاً لاينبغي ان نفعله في أي ظرف، هو أن ننقطع عن إرضاء بطننا، بالرغم من جدية حديثنا، فلا تنسَ، وأنت تطلب وجبتنا

سلفاً، بحيث لا يضايقنا الخدم، أنني أعبد حساء سرطان البحر. وما أروع زجاجة صغيرة من «شامبول - موسيني» ١٩٠٥ مع حساء السمك المشوي.

أنت تعلم أننا، في الجيش لانضع عبارات المجاملة لإنهاء الرسائل، لكن لاتنسَ مع ذلك أن تضع سيفي عند قدمي السيدة برونيل الجميلة جداً، الرائعة جداً، التي لاتُنسى «ج. ب. دورش».

قال جورج بكل بساطة لدى قراءة الرسالة: «حسناً، آمل ذلك!» لكن الضربة الحاسمة هي التي وجهها «وسنر».

ليس من باب مسدود، عند وسنر. هناك أشياء، أليس كذلك؟ أشياء لا أحب ان تُقال..

كان يمشي طولاً وعرضاً في غرفة «ديان» التي لم تكن كبيرة، جورج في أريكة قرب المدفأة الكهربائية، وديان في سريرها بقميص وفستان «كيمون» فضفاض ذهبي من عند «ليبرتي» على كتفيها. كان في الغرفة كثيرٌ من الدخان. كان جورج يلتهم سيجاراته بعصبية، ووسنر يسحق في طريقه سيجارة في جرن روماني بجانب منضدة الزينة، وهو يصلح في العادة لتُفرغ فيه ديان جيوبها. وكانت ديان التي تضايقت بوضوح من الدخان تطرده بحركة من معصمها ورأسها بين الفينة والفينة، لكنها لم تكف عن الابتسام.

«قلْ ماتشاء، لكني أنا المستهدف، فوراء «دوديه» هناك «لورين ديتريش» أو «ديلوني - بيلفيل». وربما كان وراءه الاثنان معاً. وتلك مصادفة جد حسنة: في اللحظة التي أخرجتُ فيها «السبيدو» بصمامين! سوف يفشل مشروع السبيدو إذا تغاضينا.

قالت ديان:

- اجلسْ ياصاحبي أرجوك، آلمت لي رأسي.

تهالك «وسنر» على الكرسي البحرية. كان غي يعبث بطوابعه تحت منضدة الزينة، بصمت.. قال جورج:

- اخيرا، ماذا تريد أن نصنع، ياصاحبي؟ لا أستطيع مع ذلك، أن أروي لهم أعمالي بحجة أنهم يعتقدون أنني أحمل خطط «المون فاليريان»[1] في جيبي.

نفد صبرُ «وسنر»:

لا تتغابَ! فأعمالك أعمالي تقريباً، ولستُ بحاجة إلى أن ترُي الجمهور سجلاتك. لكن لي في نهاية الأمر إفادة للقاضي. وهي ماهي. لايمكن ان تظل سرية.

- أتعلم ان ذلك مزعج «لديان» الى أقصى حد..

- آه، عجباً! هذا مضحك! أأنت الذي يتولى الآن الدفاع عن ديان، ضدي؟ ديان، ياصغيري، أنا على يقين أنك لن تقولي، ربع الحماقات التي يلقيها علينا جورج هنا. ديان تفهم، ياعزيزي، ديان تفهم الأمور أفضل منك.

قالت ديان وهي تدير ببطء جذعها نحو وسنر:

- ماذا تريد مني، ياصاحبي؟

-انظره، أترى! ما أرغب فيه، ياعزيزتي ديان، هو ألا نُضطر، ألا نضطر اجتماعياً، الى إهمال جورج بين لحظة وأخرى وأنت تعلمين ماذا يعني ذلك بالنسبة إلينا جميعاً.

الظاهر أنهم كانوا يعلمون ذلك. أردف «وسنر»:

ولكي نتخلص من التهم الغيبة التي تستهدفنا سندعى حتماً ذات يوم الى قول الحقيقة. أتظنين أن ذلك سيكون غريبا؟ كلا، وإذن فمن الأفضل أن نسبق غيرنا بلطف، وبرأيي أن جورج يمكن أن يكلم النقيب دي سابران..

قال جورج وهو يلوّح برسالة «دورش»:

---

(١) في باريس. وكان إذا ذاك مركز الاتصالات التيليغرافية... المترجم

-شكراً فإن لدي جندياً قديماً. وفي رأيي أن ديان أقدر مني بكثير على أن تفعل ذلك مع النقيب. أليس كذلك، ياصاحبتي؟

أجابت ديان وهي تدير من جديد جذعها في الغطاء المطرّز:

- إن كان ذلك ضرورياً تماما..

في هذا المساء تناولت السيدة «دي نتينكور» هي وادوار العشاء في شارع «اوفيمون». تحدثت ديان طويلاً مع أمها وعند عودتهما الى منزلهما سأل ادوار زوجته وهو منتعش نسبياً: «وماذا قالت لك ديان»؟

اقتصرت السيدة دي نتينكور على القول:

-ديان قديسة، لكن يجب أن أرى السيدة «بلان».

- ٨ -

نهار الأربعاء، تلقى النقيب «دي سابران» رسالة من ديان. كانت تقول بخط كبير لطالبة قديمة من طلاب «وازو» انها لاتعرف كيف تتصرف، وأنها لم تحدّث أحداً بهذه الخطوة، ولاسيما زوجها، وأنها كانت في سريرها والثلج على بطنها، وأنها لاتستطيع ان توكل أمرها إلا إليه، الى خلقه الأبي. ولعلها ستخضع لعملية خطيرة وربما قاتلة، وهي لاتريد ان تتوارى دون أن تكلم أخا «بيير دي سابران». ألا يمكنه ان يأتي في هذا اليوم بالذات أو في نهار الغد نحو الساعة الثالثة؟ وستدبر الأمور، وستدبّر الأمور بحيث لايكون ابنها «غي» في البيت. وستدخله إليها السيدة «دي ليران» التي لا سبيل الى الشك في تكتمها. وقد تركها جورج في هذه اللحظة لشؤونها. وأضافت ديان أنها طبعاً كانت تستطيع كما يبدو، أن تخاطب مارغريت التي أحسّت ببعدها عنها إحساساً رهيباً أثناء هذه الأيام الكريهة، لكن مارغريت كانت ماتزال فتاة شابة، وهل ستفهم؟ بينما هو، الخ..

تمتم النقيب دي سابران لأول وهلة: يالها من صفاقة! ونهض ليروي

الأمر لمارغريت. لكنه وقف في الطريق وهو يبستم. صحيح، مارغريت فتاة شابة تقريباً. تناول الرسالة وقرأها مرة أخرى. وبدا له، عند القراءة الثانية، أن فيها نبرات من الحقيقة، ولم يتمالك نفسه من التأثر وهو يفكر في أن ديان، تلك المخلوقة البديعة، ستجري عملية. لاشك ان مرضها نسائي على كل حال، لابد من أن أجيبها. والأفضل ألاّ يؤجل ذلك بما أنها تنتظره في هذا اليوم بالذات. رسالة مستعجلة أخذ يكتبها لكنه أحسّ منذ الكلمة الأولى، بارتباك مباغت: سيدتي العزيز، صديقتي العزيزة، عزيزتي ديان. كان الوضع دقيقاً الى حد كريه ثم إن ديان لم تكن تطلب جوابا. كانت على يقين بأنه سيأتي. أهو يخافها؟ انتابه الخجلُ. كان ذلك مبسّطاً للأشياء. سيذهب في اليوم التالي. في اليوم نفسه، كان في الساعة الثالثة، الساعة العسكرية، على باب ديان. أدخلته السيدة «دي ليران» لم يتمالك نفسه من أن يلاحظ أنها كانت تدعوه: أيها النقيب، وهي تغض عينيها مثل قوّادة ماخور «شالون سور مارن» بالذات. كانت ديان تقرأ وهي شاحبة بين وسائدها، دون تجميل. انزلق مقطع الورق العقيقي من الكتاب، وهي تضعه على الفراش. وبينما كان ينحني ليقبل يد المريضة، ألقى «جاك دي سابران» بالرغم منه، نظرة خاصة على الكتاب: «هكذا كان يتكلم زار توسترا» طبعة «مركور دي فرانس» لم يكن جاك قد قرأ «نيتشه» قط.

- جئت. آه شكراً.

مدت إليه يدها، وأشارت له الى مقعد. قرب كرسياً. كانت منهكة على نحو ظاهر من جراء الاندفاعة التي قامت بها. صمتٌ لايحتمل. انحنى «جاك دي سابران» قليلا ليقول: «تأثرت كثيراً بما قلته عن صحتك.. أظن أن الأحداث التي مررنا بها ليست غريبة..» افترت ديان عن ابتسامة طفيفة مسكينة مضيئة وبدرت منها حركةٌ من يدها، وكأنها تريد أن تقول: «لندع ذلك! كيف حال مارغريت؟» ضايقه هذا السؤال، ولم يعلم لماذا. ألمّ به شيءٌ من الخجل لأن مارغريت لم تمرض. أما هو فقد كان مشغولاً جداً،

وربما كـان ذلك من حسن حظه. لقـد فُـرز الى وزارة الداخليـة أثناء الإضرابات. . كانت ديان تجهل أنه قد حدثت إضرابات. لم يشأ جورج ان يدعها تقرأ الصحف لأن ذلك يهزها. لاحظ «جاك» تحت السرير الذي كان مربعاً، رحباً، سرير «دي باري» كما كان يقال، عذراء اسبانية بكامل لباسها، شديدة السمرة مع عينين صافيتين، وحليّ. بدت له ديان من جراء ذلك أنقى، وكأنها من عالم آخر. لم يرها قط دون خواتم. ولاحظ انها لم تكن تحمل خاتم الزواج.

قالت فجأة وهي تضع يدها على يده: «جاك»، لم تسمّه قط حتى الآن على هذا النحو. . «أريد أن أكلمك كأخ».

بدا كأنها أدركت الالتباس في جملتها، فأردفت: كأخي إنسان ربما مات بخطيئتي.

-بخطيئتك؟ ياالهي! ديان، مادخلك في ذلك كله؟ إن «بيير» لم يكد يشاهدك و. .

-ياصاحبي، سأحدثك عن كل شيء من البداية، لكن قل لي كيف تفسر اذن هذا. . هذا الشيء، إذا كنت تظنني غريبة عنه؟

كان جاك متضايقا كل التضايق. كان على أنفه قطراتٌ ضئيلة من العرق، مضحكة جداً، جففّها وهو يجيب:

- الواقع، ينبغي أن أقول لك، بعد زوال وهلة المفاجأة، أنني لم أتخيل شيئاً على الإطلاق. كنا مختلفين جداً بالطباع، بيير وأنا. لكن ذلك لم يكن سراً يخفى عليّ أكثر من ميوله على العموم. لكن مع ذلك يقال إنه جاء يطلب مالاً من السيد «برونيل». .

نهضت ديان من فراشها وفرقت حركتها بين دنتيلا الوشاح الذي لبسته لتغطي القميص. وشوهد قلبها ينبض

-يطلب مالا من جورج؟ لكن ياللجنون! ماكان «بيير» ليفعل مثل هذا الشيء أبدا!.

اعتذر النقيب. الحق أن «بيير» والسيد «برونيل» لم يكادا يرتبطان، لكن أي ضيرٍ في ان يطلب خدمة من رجل هو في مأمن من الحاجة. وأخيراً لابد من الاعتراف ان «بيير» كان مديناً من كل جانب في هذه الأوقات الأخيرة، ولقد أقدم على تبذيرات جنونية لآنسة من «الاوبرا كوميك». . أخفت ديان عينيها بيديها.

- اوه! يا للمسكين الصغير «بييرو»! وكل ذلك بخطيئتي وبخطيئتي!

-اوضحي، لست أفهم ياعزيزتي ديان، بم تتهمين نفسك. . !

حينئذ روت ديان المأساة. كانت تتكلم بشيء من الحمى بعيدة عن برودة التمثال التي عُرفت بها السيدة برونيل الجميلة، وأقر جاك في نفسه أنه يفضلها على هذا النحو، لم يبد عليها أن حضوره يزعجها. كانت تتكلم أحياناً كأنها تُكلم ذاتها. . وأحياناً أخرى كانت تخفض صوتها قليلا فيحس الضابط وكأنه مُعرَّف مع شعور بالذنب. في الوقت نفسه قرب كرسيه من السرير كانت يدديان اليسرى تمسكه في ساعده الأيمن ولا تُرخيه، وكأنها كانت ترى المشاهد الي تصفها تمر أمامها، وتتمسك بجاك خوفاً من الأشباح.

بدأ ذلك في «سان سير» عندما قدمهم جاك. وعلى الفور غازلها «بيير»، لكن بطريقة جد صبانية حتى لقد سخرت منها. تذكر «جاك» بهلوانات«بيير» على الجوادين؟ وكيف حياها؟ وبعد الاحتفال قدّم لها تحياته فوبخته، ورداً على ذلك طلب لقاءها.

- «كنتُ مجنونة. كان ينبغي أن أرفض، ألا أشجع هذا الولد. لكن

هل كـان بوسـعي أن أعلم. جـاء ليـراني وعـاد. لكنه لم يشـأ ان يلتـقي أصدقائي. كان يختبئ عنك، جاك».

ذهل جاك. لم يعد يتعرف أخاه. ذلك العربيد الوقح الذي لايحب سوى جو الكواليس..

«ربما كان لي عذري، وليس سراً الى أي حد أحب زوجي. والواقع أن جورج يتركني وحيدة جداً، بسبب أعماله. كان «بيير» يصرفني عن الأفكار السوداء التي تنتابني عندما انتظر جورج. كان له شبابه، ونضارته..».

وهنا لابد أنها رأت شيئاً من أفكار النقيب في عينيه لأنها انتفضت انتفاضة التمرد:

- «آه! ماذا ستتصور، «بيير» لم يكن سوى رفيق لطيف، سوى صاحب، وهاهنا حقاً المصيبة كلها..!».

كان يودّ جاك أن يُصدق كل ما قيل له، لكنه، مع ذلك، لم يتمالك نفسه من إثارة بعض الصعوبات التي كانت تزعجه. هذه الحياة التي يعرفونها عن أخيه؟ الممثلات؟ والواقع انه مع ذلك لم يظهر قط في شارع «اوفيمون»؟ لأن أحد التفاصيل قد عاد الى ذاكرتي ولم أعلق عليه أهمية إذ ذاك.. فأنا لا أكاد أعير ثرثرة مارغريت انتباهاً.. لكنها روت لي أنها قالت له أن يأتي ذات مساء، للبوكر، وقد رفض «بيير» حتى بشيء من الخشونة..

«هذا الولد، هذا الولد! مع أنه لم يكن في علاقاتنا شيءٌ من الإثم فإن طابعها السري والمستمر جعلته يُعاني خوفاً فظيعاً من أن يُعرّض سمعتي للشبهة. كان يقضي ساعات وهو يقصّ علي ماكان يفعله ليجعل الاغتياب غير ممكن. وكان يذهب بعيداً فيتحدث عني أحاديث مجازفة جدا ليمنع الشك من أن يخامر الأذهان. ولقد وبختهُ مراراً بهذا الصدد لأنني في النهاية..! ولاسيما أنه كلما شُغف بي ارداد توسلاً إلي لكي أستسلم له،

ازداد فضلا عن ذلك، ارتماء في المجون الذي كان يبسط لي صورته لكي يُرهقني، وليجعلني مسؤولة عن ذلك، وليقول لي إن الأمر يتوقف علي وحدي لكي ينتهي ذلك في الحال. وكانت الممثلات، برأيه، محولاً لابد منه لشبابه، ولم يكن ينظر الى الثمن الذي يضعه في ذلك. لأنه كان يريد ان تكون مغامراته باهرة، وان تكون علاقاته مُعلنةً. بل إني قلقتُ مراراً للنفقات التي استرسل فيها. كان يقول لي إنه راهن في سباق الخيل وربح . كان يجيد معرفة الخيول. . ».

وافق جاك. كان هو ايضاً يجيد معرفة الخيول» ومع ذلك فقد خسر قديماً خسارة فادحة في ميادين السباق. كان أخوه مختلفاً جداً عنه. استمرت في حكايتها: الخلاصة أن «بيير» غدا أكثر الحاحاً، لم يكتف بذلك التواطؤ البريء. وبعد مشاحنات شاقة جداً اضطرت ديان ان تمنعه من دخول بيتها. وفي المرة الأخيرة، أراد مع ذلك، ان يمضي بعيداً جداً حتى إن ديان لم تستطع حقاً ان تستقبله عند عودته. رأت من واجبها ان تكاشف جورج بذلك، وكان جورج هو الذي استقبل «بيير» وعندما رأى أنها أرسلت إليه زوجها، أدرك أنه لاأمل له، وحينئذ، حينئذ. . أخذت ديان تبكي.

تبلبل النقيب «دي سابران». كل شيء أخذ يتضح. وكان هو كالوحش. . بالطبع لايمكن ان يأتي بيير ليطلب مالا من زوج امرأة كان مشغوفاً بها الى هذا الحد، وهو رجلٌ من آل «سابران».

قالت ديان وهي مغرورقة بالدموع شيئاً لم يفهمه. . رفعت وجهها الجميل الغارق بالدمع ونظرت إليه في وجهه وقالت:

- «نعم، كان شيئاً فظيعاً أنني قاومتُ هذا الولد. كان ينبغي لي ان أفهم ما الذي يعنيه ذلك بالنسبة إليه- أنا قاتلة. وليكن حكمُك عليّ بأنني قاتلة.

أخذ يهدئها. مهلاً لايمكنها ان تعدّ نفسها مسؤولة. فقد كانت تحب زوجها، ولا إكراه لأحد.

كرّرت:

-«كان شيئاً فظيعاً أن يمسك الإنسان عن عطاءِ نفسه من أجل شيء عظيم الى حد يمكن ان يوضع في الميزان مع الحياة البشرية. كان شيئاً فظيعاً مثل ملهاة الفضيلة والشرف كلها وهي تحيط بي وتفزعني. كان شيئاً فظيعاً مثل عالمكم بأسره وكذبكم ومواضعاتكم. يالبييرو المسكين! لمَ لم أكن عشيقته، بكل بساطة؟».

شعر «جاك دي سابران» لدى سماعه هذه الكلمات بصدمة. ترنحّ كلُّ ماكان يفكر فيه عن الخير والشر. لم يكن بوسعه إلا ان يوافق ديان على بلاهة الفضيلة، وفي الوقت نفسه أصابه الذهولُ من هذه الحالة العجيبة لديان نفسها. ما أكثر ماقاومت! لم يمكن بعيداً عن التفكير مثل كريستيان في أن ديان قدّيسة. وأخيراً مسحت دموعها وأعادت ترتيب زينتها، ووضعت شيئاً من البودرة ثم قالت له: «اسمع ياجاك، سأقول لكَ الآن شيئاً لم أقله لأحد ولا للكاهن، لأنني فقدتُ الإيمان ولم أعد قادرة على تقبل العزاء في الدين».

كان ينتظر مبهوراً.

- جاك أسوأ مافي الأمر، اصغ إليّ جيداً، أنني إذا كنتُ قد أغلقت بابي في وجه «ببير»، وإذا كنتُ قد دفعته الى اليأس، اصغ إلي جيداً. جاك: فذلك لأنني كنتُ أُحبه.

ماجرى في قلب جاك لايُصدق. هذا الاعتراف بعد كل ماتقدم! أية ثقة كانت لها به! لن يكون إلا جديراً بها. يا الهي، ما أحمق الحياة. كان كلّ شيء يمكن أن يتم على أحسن وجه. وفكر النقيبُ بدهشة ان ذهنه لم

ينصرف الى أخيه أثناء ذلك كله لحظةً واحدة، لم يكن يرى سوى ديان، لم يكن يفكر إلا في ديان، في اللحظات التي اضطُرت الى قضائها، في سعادة ديان، وفي الصدمة التي حملها اليها هذا الموت.

حاول ان يجبر نفسه على رؤية تلك الجثة المسكينة التي جاء يبحث عنها في هذا البيت. كانت ديان هنا، وهي لاتحمل خاتم الزواج. جرى آخر اللقاء في ضربٍ من الضباب. سمع نفسه يكرر للمرة الرابعة، من الباب: سأرسل إليك مارغريت لتُعنى بك»، وألفى نفسه في الشارع وقد انقلب رأسه. اجتاز حديقة «مونسو» ودلف الى جادة «فرييد لاند»، وساحة النجمة. وفي «كشك» قرب المترو أثارت «الاكسيون فرانسيز» فيه فجأة غضباً غير عادي.

لقد غير قناعاته السياسية.

- ٩ -

في نهار الخميس، دُهش السيد «بلان» دهشةً كبيرة أن رأى «كريستيان دي نتينكور «تدخل دكانه في شارع السلام بسترتها وتنورتها. خاطبته كأن لم يكن شيء قائلة انه مضى عليها دهرٌ لم تر فيه السيدة بلان.

غمغم بشيء يتصل بصحة السيدة بلان وعمل بيتها، لكن كريستيان تكرمت بعدم الإصغاء اليه وبأن تضيف: «ثم إني تواريتُ عن الأنظار، لأن بعض الأشياء تقربك من المشاغل الدينية، ولقد اعكتفتُ تحت اشراف الراهب غابرييل» الكاهن الجديد لـ «سان توماداكوان». قال السيد بلان شيئاً عن جمال العبادة الكاثوليكية، وتفضلت ايضاً السيدة «دي نيتنكور» بأنها لم تقف عنده.

أخرجت من محفظتها خاتماً قديماً أرته السيد بلان وقالت:

-كنتُ أستطيع طبعاً ان اكلف الجوهري الذي في الزواية بإصلاحه،

ولا أجدُ حرجاً من الاستعانة بك من أجل إعادة تشكيل الوردة الناقصة وتثبيت حجر التوباز المركزي الذي سقط. وهاهو ذا. لكني أنفتُ أيضاً أن أُسلم هذا الخاتم أياً كان فهو هديةٌ من لويس الخامس عشر الى إحدى جدات ادوار، «سيلين دي سيريزي» التي حجزها لبعض الوقت في «حديقة الأيائل» قبل أن يزوجها أحد أبناء «نيتنكور»، وكان نقيباً في الحرس اذ ذاك، أنت تفهمني؟ ويُقال ايضاً ان هذا الزواج تمَّ في آخر لحظة، بحيث أن آل «نتينكور». المنحدرين من الابن البكر لـ«سيلين دي سيريزي» قد يكونون منحدرين من شارلمان.. ».

إن مفاهيم السيد «بلان» عن الأنساب جعلته يتردد لحظة. ثم فكر في أن كريتسيان كان ينبغي لها ألا تجيئه هو لتروي ذلك كله، بل أن تجيء «ليون دوديه» لعله يتخلّى عن حملته. ومع ذلك وعدها بأنه سيقوم بإصلاح الخاتم «وكأن المقصود بالإصلاح قصرٌ أثريٌ». وضحك الاثنان.

– الى اللقاء إذن، ياسيدي العزيز، وقلْ للسيدة «بلان» إنني بانتظار هاتف منها. لدي أشياء كثيرة أرويها لها.

ذهبت على هذا الأساس، وماذا كان بوسع السيد بلان أن يفعل؟ هذا ما أخذ يشرحه للسيدة بلان.

– «قلت إذن إنني سأتصل بها هاتفيا؟

– أوه! لم يكن ردي ايجابيا، لم يكن ايجابيا.. لكن يبدو لي ذلك صعباً جداً.

– أنت في غاية الجنون ليس عليّ أنا أن أبادر للقائها.

– ولكنها قالت إن لديها أشياء كثيرة ترويها لك.

– وإذن؟

– إذن..

أشـارت يدُ السيـد «بلان» الى رزمـة الصـحف التي تشتـريهـا كل يوم السيدة بلان منذ ابتداء القضية : «كنتُ أظن ان ذلك يهمك .

– يهمّني؟ فقدان الكرامة هذا . .

في صباح الجمعة ، كانت السيدة بلان تهتف لكريستيان . وفي السـاعة الخامسة التقت هاتان السيدتان لدى «كاردوما» ولم يكن من عـادتهمـا تناول الشاي فيه . لكنهما اتفقتا على العزوف عن «رمبل» أو عن «جوندوا» حيث قد تلتـقيـان «ماري ووكر» أو «مـيلان بوبوفيتش» . تحدثت كريستيان عن الراهب غابرييل نحو عشرين دقيقة . . إنه يجمع في شخصه بين «لاكوردير» و «فليشييه» . والقـديس «اوغسطين» ، وهو يبلغ ستة وعشرين عاماً . او سبعة وعشرين . وفي أحد الأيام كانت في انتظاره على كرسي الاعتراف ، الأميرة العجوز «دي بروغلي» وشخصية سياسية رفيعة سيترك اهتداؤها الديني عمـا قريب أثراً عميقاً دون شك ، لكن ربما كان عدم البوح باسـمهـا حتى الآن أقرب الى الحشمة . .

قاطعتها السيدة بلان ، دقيقة كعادتها :

وكيف تتخفف السيدة ابنتُك من انفعالاتها؟

تنهّدت كريستيان :

– «تعلمين أننا تشـاورنا مع «بوزي»؟ كـان المرادُ تفـادي العـمليـة الجراحية . ديان رائعة في ذلك كله . قال لي مثل ذلك الراهبُ غابرييل :

السيدة ابنتك قديسة ، مصيبةٌ أنها لاتمارس العبادة ! لكن العناية الالهية ستتولى شأنها ، دون شك . .

عند ذلك أخذت السيدة بلان تستجوب جليستها على نحوٍ محكم ، بوقاحة الصحفي الذي يهتم بلبّ الموضوع ، وانتزعت منها الحقيقة ، كل الحقيقة . علمت أن «بيير» دي سابران كان طائشاً . حسناً . وكان يغازل ديان فوضعته عند حده . ولاشك أنه ارتمى في المجون لينساها . ثم إنه صار ينفق

على تلك الصغيرة، في «الاوبرا كوميك»، ما اسمها هذه التي تغني في «لاكميه»؟ نعرفها، نعرفها. وأن المغنية لم تكن في الواقع تثير فيه شعوراً على الإطلاق - آه آه! وأنه كان يلح على «ديان» وأنها صدته، وأنه انتحر في بيتها، بعد أن هددّها بانتحاره فلم تصدّقه. كل هذا سرٌ بيننا حتماً، وجورج يفضل أن يدع الناس يقولون ماشاؤوا عليه من أن يُقحم اسم ديان ولو عرضاً في هذا الانتحار. لم تكن السيدة «بلان» آسفة على الحلويات الصغيرة. آه! هكذا إذن. آه! وعدت بأن تعود الى صحبة ديان. ولاسيما إياك ان تتفوهي بكلمة للسيد بلان. تريدين ان تضحكي؟

في مساء الجمعة وصباح السبت، أُلفيت السيدة «بلان» تتكلم بالهاتف مع طائفة من الناس. مع «ماري والكر» التي أجرى لها «بوزي» عملية، والتي كان صعباً جداً إخفاء شيءٍ عنها أيّاً كان ذلك الشيء، وهي نفسها دعت جملة من الأصدقاء الذين ينبغي لها ان تحادثهم بسبب احتفال فارسي تريد ن تقيمه. بحيث انه عندما جاء «ميلان بوبوفيتش» في السبت بعد الظهر، يحمل أزهاراً، وعندما جاءت «ماري والكر» تستعلم، وعشرة آخرون، لاحظوا جميعاً ان «مارغريت دي سابران» كانت عند رأس المريضة. وهي التي وضعت الزهور في الأوانى، والتي صرفت المزعجين، والتي أفهمت السيدة «بلان» أن من الأفضل اختصار الزيارات.. الخ...' ولذلك نستطيع القول ان الوضع الاجتماعي لآل بورنيل في السبت مساء، عندما أقلع الجنرال دورش من محطة «اورسي» في الساعة السادسة والنصف، كان قد استقام، وكانت باريس كلها تعتبر ان السيدة «ديان» ضحيةٌ، وأن جورج غريبٌ عن القضية، وأن «بييردي سابران» قد كف عن أن يكون بطل المأساة التي تتعلق الآن بالأستاذ «بوزي».

لم يُدرك اللواء «دورش» قطاره الا في اللحظة نفسها. لقد أخذله بطاقته سلفاً الملازمُ «ديغوت فاليز» الذي تخرج حديثاً من «سومور» والذي كان مأذونا في باريس، فوثب الى القطار بينما كان القطار ذاهباً. كان

«ديغوت فاليز» فتى فاتناً وقد سمح له ان يجلس في مقصورته. هذه الشبيبة. جرّه الى موضوع النساء ولم يجرؤ الملازمُ على الكلام. وحينئذ كان الجنرال هو الذي روى مغامراته القديمة، ذكريات من كل مكان. اسمعْ عندما كنتُ في «سومور» في ١٨٧٨ . .

عند ذاك لم يبق على «ديغوت فاليز» إلا أن يقوم بالمطلوب. تكلم عن «سومور» . كل ماوراه ليس لائقاً بأذني رئيس، لكن تساهل دورش اما كان مؤمَّناً له؟ كان «ديغوت فاليز» هناك مع «جيلسون -كيسنيل» الشاب صاحب مصانع السكر، وابن طحان، ووارث مصرف «ونويل»، وطائفة من الأثرياء: لم يعد الجيش ملجأ للذين لايملكون فلساً من أمثاله، وكان من الصعب جداً اللحاق بطراز حياة هؤلاء الناس. . .

في مطعم القطار سأل «دورش» بشكل أبوي رفيقه عن وسائله المالية في «سومور». كان هو يخلص نفسه على نحو لا بأس به، لكن معظم الزملاء كانوا يقعون بين براثن المرابين، وإذا ماوقعوا! كان امرهم مثل هذا المسكين «بيير دي سابران».

تناول اللواء دورش مرة أخرى لحم العجل بالخضرة المطهوة، وسأل الملازم ماذا يقصد بذلك. كيف، ألم يكن اللواء يعلمُ. إن «برونيل» الذي انتحر عنده «سابران» كان مرابياً مشهوراً في «سومور». أكان «ديغوت فاليز» متأكداً من قوله هذا؟ كيف! اسمعْ، سيدي اللواء، ماتزال في محفظتي إحدى تلك النشرات الصغيرة التي يعمل على توزيعها في «سومور». لا أدري، لقد احتفظت بها. آه! لعلها بقيت في المحفظة الأخرى. لا. هاهي ذي.

لم يكن هناك أدنى شك. كانت النشرة صريحة. كانت عرضاً لخدمات لايكاد يكون مموّها. كان اسم «برونيل» فيها، والعنوان في شارع «اوفيمون». أحسّ دورش ببرد شديد. ليس من المفهوم كيف أن نشرة كهذه

لم تقع بين أيدي الصحفيين، وهاهي هنا، في هذه الأثناء ولاسبيل الى دحضها. وصل القطار الى «انجوليم». استمع اللواء الى رفيقه وهو يشرح قضية «سابران» برمتها، ممثلة «الاوبرا كوميك»، السيارة التي اشتراها لها بيير»، الكمبيالات، الخ..

حينئذ بدأت تطرح نفسها في رأس الجنرال معضلةُ كورنيليةٌ حقا. فكر في العشاء عند «لارو». ومر طريق «انجوليم» كله وهو يناقش ذهنياً ماينبغي ان يفعله.. ووضع «ديغوت فاليز» بقسوةٍ عند حده بعد أن غدا عاطفياً وأخذ يريُه صوراً. في الساعة السادسة والنصف. ردّ اللواء للملازم تحيته، وحمل بصورة آلية حقائبه الى المستودع. وفي الساعة المحدّدة كان عند «لارو» وكذلك برونيل، وفي عروته قرنفلةٌ خبازية. أيتكلم على الفور؟ الواقع ان المرء إذا التزم شيئا فنيبغي آلا يتراجع عنه. وتناولا الغداء.

عند تناول السلطة، تطرّق جورج الى موضوع المقابلة.. روى للواء على سبيل السرّ كل قصة مغازلة «بيير» لامرأته وكل مانجم عن ذلك، وصحة ديان، والأستاذ «بوزي». كانت أسرة سابران، وعلي أن أقول ذلك، مستقيمةالى أقصى حد. لقد تركتُ في هذه اللحظة السيدة «جاك دي سابران» التي سهرت طوال الليل لكي تحتفظ ديان العزيزة بالثلج بارداً على بطنها.

سُرَّ جورج برونيل جداً منه. كانت المسألة منتهية. باريس قد كسبها الى جانبه، وهذا المتغطرس العجوز كالآخرين. تذكر جورج عندما كان في الثكنة كم أرهقه المتذمرون من شاكلة هذا الرجل. كان «دورش» يهز رأسه. لم تكن الأشياء بالضبط كما يظنها «ديغوت فاليز». يالديان الصغيرة المسكينة، البريئة جداً في ذلك كله! لكن الزوج الذي كان يروي له القصة، هذا الشخص الذي يسقيه في هذه اللحظة كونياك نابليون الفاخر، الذي قلّ مثيله، هو مع ذلك يقرض بالفائدة لأسبوع، هو مراب.

فاجأ دورش نفسه انه يشدّد في رأسه على هذه الكلمة كما تشدّد عليها «كريستيان» عندما كانت تتحدث عن قصر «دي نيتنكور».

برونيل هذا ! لعب لعبةً مزدوجة كزوج وكمقرض وخرّ سابران الصغير صريعاً.

كان واجبه، هو اللواء «دورش»، واضحاً جداً، وسيكتب بعد ذلك لديان، لكنه الآن، في هذا المساء، يجب أن يُنهي النقاش مع هذا الإنسان الحقير. . لا، شكراً في الحقيقة لا، هو ممتاز، لكن. . في الحقيقة لا . .

الامر دقيق جداً ولا حاجة لعنف غير مجد.

تهالك اللواء قليلاً على كرسيّه، وانطلق في مقدمة طويلة عن المودة التي حملها دائماً لديان ولأمها وعن القلق الذي خلقه فيه احتمالُ العملية، . . وهي ماتزال غير محققة، غير محققة. أخذ «برونيل» يفكر: «ماذا يَبْغي ؟ وهل سيقترض مني؟ آه، أما هذا فلا، وياللعجب!

وعندما أخرج من جيبه النشرة التي وافق «ديغوت فاليز» على تركها له، والتي وضعها أمام انف برونيل، أدرك هذا أن كل شيء قد خرب . على أحد الأصعدة، على الأقل كان مقامراً بارعاً، وشرع على الفور يفكر في العمليات الضرورية، في الخسارة التي ستقع. باريس، في نهاية المطاف، ليست كل شيء، والمال باقٍ له. وسيقبض السندات التي وقعها «بيير دي سابران» بعد أن أجبره انتحارهُ على الاحتفاظ بها في جيبه. قهقه وقال:

– اذن، ياصديقي المسكين «دورش»، هذه الأشياء تثير حفيظتك. هناك، بالنسبة إليك، أساليب نبيلة لكسب المال، وأساليب غير نبيلة؟ لا، لا تجُبْ. أعرف بماذا تفكر فيه . ومن المروع ان يستطيع جميع الناس معرفة ما الذي تفكرّ فيه. ومن السهولة بمكان ان نحزر ذلك باعتباره مكتوباً سلفاً في موجزات الأخلاق الصبيانية والشريفة.

–جورج برونيل، أنت رجلٌ وقح.

- حقاً تقول، سيدي اللواء. لكن الإقراض لأسبوع، كما أفعل، مع التعرض دائماً لخطر السرقة لأن القانون لايحمينا، ولأن أبناء الأسر الكبيرة من الشباب كلهم خنازير يعللون انفسهم بسرطان الأب، ويعتبرون سرقتي، إن استطاعوا، والإخلال بعهودهم، عهود الحقراء، عملاً صالحاً، ذلك يبدو لك أقل بهاء من كوني مصرفياً.

مثلا! أود لو تقول لي حقا: أين الفرق.

- ومع ذلك. .

- مع ذلك ماذا؟ مضى أكثر من خمسة عشر عاماً وأنا أبحث عنه، ذلك الفرق فلا أجده. . ولنقل أن المصرفي مقبول، لكن صاحب الريَع، أيبدو لك طبيعياً ان يكون هناك أصحاب الريع؟

- لستُ أفهم يابرونيل، أين مصلحتك في المماثلة بين الشرفاء وبين. . وبين. . .

- المصلحة واضحة. لكن المسألة ليست مسألة مصلحة. إنها مسألة واقع عندما يكون عندي الف فرنك، أو عشرين ألفاً أو ثلاثون ألفاً، لادخل لأحد فيها. . لاحظ ان هناك من يطالب بتقسيم الثروات ويزعمون ان الملكية هي السرقة. وتلك قصة أخرى. هؤلاء أناقشهم بالرشاشات. لكن الأمر مختلف معك، سيدي اللواء، لا أريد ان أجرحك، لكن الكلام بيننا. .

بدرت من اللواء حركة مبهمة.

- وإذن ان كان لديّ مالٌ وأحببتُ أن أوظفه في عمل أنشأه شابٌ يشتهي ان يشتري فساتين لعاهرة، ويرضى من أجل ذلك أو من أجل تصفية ديون القمار بأن يوقع لي تعهداً بمثلين أو بثلاثة أمثال تُدْفع من الإرث الذي يزعم أنه سيؤول اليه، وافهمْني جيداً، لقد كان يكذب لأنه كان يعلم حق العلم ان الإرث سيؤول الى الأكاديمية الفرنسية لتأسيس جائزة الفضيلة! هذا هو عملي، إما أن أمشي أو لا أمشي. لكن لو أني أخذت، بدلا من ذلك

حصة «ديفوسيه» وأخذت أتساءل ان كنتُ سأشتري مناجم مسحوق الدجالين السحري أو مصانع المفلسين أو أسهم «مونت كارلو» مضارباً في لعبة الحظ المقامرة المسؤولة عن نحو مئة انتحار في كل فصل، او القروض الروسية التي تعيش من الجلد بالسياط ومن سيبيريا من أجل آلاف الخُرْق، أو من «البيرز» الذين يفتحون بطون الزنوج ليبحثوا فيها عن الماس الذي لايجدونه في البراز، أو من «شنيدر» الذي لا أقول عنه شيئاً احتراماً للجيش، أو من السندات الانجليزية التي تعيش من تجارة الأفيون، أو مثلاً من أنصبة عمل «وسنر» صديقنا العزيز وسنر الذي كان له الرقمُ القياسي في نسبة الوفيات في اوروبا في مصانعه للسيارات، وهي مصانع أدخل فيها الطرق الامريكية لتحسين العمل؟ واذا اقرضتُ الترك ليذبّحوا اليونان، «لا بيير»، أو الانكليز الذين يضعون الهندوس في المربي. أو الفرنسيين، ويجب ألا ننسى الفرنسيين! ليدفعوا ثمن الستر بالجلد المراكشي؟ حينئذ لا أكون مرابياً وإنما أكون صاحب ريع، أمضي لتسلّم سنداتي، ويحترمني بوابي، بل واكثر من ذلك، لو وضعتُ شيئا من المال في صفقةٍ تهمّ حكومة الجمهورية فسوف أُمنح وسام جوقة الشرف في ١٤ تموز، وسيكون لي الحق ان أُدْفن وخلف نعشي، الجنود التعساء الذين أُخذوا ليقضوا سنتين في الثكنات من أجل ان يتعلّموا حماية الدرّاجة، وسجائر «الغولواز»، وورق سجائر «جوب» وشوكولا «مونييه»!.

توصل اللواء الى أن يهمس:

-أنت مناهض للروح العسكرية، فوق ذلك كله.

- ما أكبر خطأك، سيدي الولاء! الجيش مؤسسة نافعة للمرابين نفعاً لايبيح لي أن أكون مناهضاً للروح العسكرية. ولست أرى مانعاً من تعهد عصابات مسلّحة سنوات طوالاً، لكي لاتفعل شيئاً سوى التظاهر بالعمل، وحمل السلاح، والى اليمين در، وتسليات أخرى تجمع بين النافع والسار، بشرط أن تكون هذه العصابات مع رؤسائها ونواب رؤسائها مستعدة للدفاع

عني أنا، وعن عملياتي المعقدة، وفوائدي من الربا، كما تدافع، إذا لزم الأمر، عن «بيجو» والأخوة «ايزولا» وصاحب «شابانيه»، ومؤسسات «دوفاييل». إن القادة العماليين، والمحرضين والمضربين وغيرهم من المتشدقين قد توصّلوا الى أن يصفونا جميعاً بالجملة، أنت مثلي «سيدي اللواء، السيد «لبيودي» مثل أي بقال، بأننا طفيليون، ومعهم الحق. نحن جميعاً طفيليون. لماذا لانعترف بذلك؟ ليس في ذلك ما يصدمني فيم يمتاز الحيوان الذي يحمل طفيليات عن الطفيليات التي على ظهره؟ اما أنا فأعتقد على العكس تماماً، ان هاهنا مايسمى الحضارة. لقد بلغنا حقبة من الثقافة والإرهاف تستلزم تقسيما كبيراً للعمل. قديماً كانت التجارة محتقرة، ومحرمة على النبلاء، وقد تغير ذلك كله. إن النزعة الطفيلية شكلٌ أعلى للنزعة الاجتماعية، والمستقبل للنزعة الطفيلية، والمهم هو الابتكار الدائم لأنماط جديدة منها! إني أشرب نخب النزعة الطفيلية، وسوف تعطيني الحق!»

بحث اللواء دورش عن حركة أنيقة ليتخلص من ذلك. تناول إذن الكأس المليئة بكونياك نابليون الفاخر (الكأس التي مدها اليه برونيل وهو يلفت نظره الى أن نابليون كان طفيلياً بأعظم حجوم الطفيلية!. ورفعها، بشيء من الجلالة، ووجد أخيراً هذه العبارة:

– وأنا أشرب نخب الوطنية!

– هتف جورج:

– هو ذاك، هذا ماكنتُ أقوله!

– ١٠ –

لم يعد «جورج» رأساً الى شارع «اوفيمون». أخذ يتسكع. الجادات، متنزه؛ وفي ساعة الخروج من المسرح، كان عند «ويبر» حيث حيّا طائفة من •

الناس بادروا إليه، وبعضهم لم يطلعوا بعد ولم يبدُ عليهم أنهم تعرّفوه. لم يُخدش جورج من ذلك. ووُفّق في أنه لم يجلس على طاولة أحد. وتابع وحده الحديث الذي جرى عند «لارو». وأخذ يقدّر الثروات الجالسة هنا لتناول المشروب أو السندويش. كانت له ضحكاته الصغيرة بينه وبين نفسه إذ يذكره جانب الوجه أو النهدان أو قبعة القش قصة فاضحة، أو غشاً أو صفقة شريفة محكمة من صفقات الأسواق المالية. من «ويبر» قصد الى حديقة «مونسو» عن طريق مونمارتر، هل سيدفع «سابران» بسرعة السندات التي وقعها أخوه؟ أعطى رئيس خدم فندق «رامور» حلواناً هائلاًو ربما كان كافياً ليدفع أجرة غرفته عن شهرين. كان جورج بحاجة شديدة الى العبودية من حوله.

عندما رجع لم تكن ديان نائمة.

في اليوم التالي، طلبت الى أمها بالهاتف ان تأتي لرؤيتها، وأغلقت بابها عن الجميع إلا عن مارغريت التي جاءت عقب الغداء والتي أرعبها منظرُ ديان. كانت شاحبةً راجفة اليدين، محمرّة العينين.

– هل بكيت، ياعزيزتي؟

– لا، ياصغيرتي، لم تغمض لي عينٌ، وقرأت، انظري.

لقد قُطع «المسافر وظله» حتى آخر ورقة.

بدت كريستيان قلقة للغاية. قالت مرتين أو ثلاثاً لما رغريت أن جورج لم يراع صحة امرأته. وكانت مستاءة لأن جورج لم يكن في باريس أثناء النهار. وخُيّل الى مارغريت، ان جورج الذي جاء مرتين أو ثلاثاً ليطمئن على صحة ديان، استقبل استقبالاً سيئاً. انصرفت السيدة دي سابران في نحو الساعة السابعة بشعور مبهم من الضيق بعد أن سمعت ديان تشتكي من أن ذلك يؤلمها.

في ليلة الأحد استدعي الطبيب الى شارع «اوفيمون». وجد «ديان»

متوفزة الأعصاب، متهججة العينين، تشكو بطنها. لكنه انصرف وهو يقول أن ليس ثمة ماهو خطير. بيد أن «ديان نقلت إسعافاً الى مصح الاستاذ «بوزي» في صباح الاثنين، وأُجريت لها عملية الزائدة مع وجود الحرارة. ولم تتسلّم الرسالة التي كتبها إليها اللواءُ «دورش» إلا بعد بضعة أيام مع آخر عدد من «تالتر»، «اعرف كلّ شيء»، و طائفة كبيرة من البطاقات المثنيّة. وكانت مارغريت دي سابران ترتب في ركن من الغرفة الورود التي سمح الدكتور بوضعها لدى المريضة. ارتعبت من الصرخة التي أطلقتها ديان. كل ذلك ظلّ محفوراً في ذاكرتها. لكن ديان، ديان الشجاعة، استدركت: «لاشيء، ياعزيزتي، مجرد وجع أشد من غيره..».

كان فعلُ اللواء «دورش» أقل سرعة من تجنب السيدة «برونيل» الجميلة للضربة. كتب رسالته وأرسلها نهار الأحد، وفي صباح الاثنين قصد «وسنر» ليُطلعه على الآمر. وبالرغم من الاختلافات السياسية بين الصناعي وبينه، كان يعتبر أن من واجبه إبلاغ ذلك الرجل باكتشافاته، وهو الذي كان معروفاً بأنه أحد المترددين على «برونيل» والذي هو في نهاية المطاف، أحد زعماء الصناعة الفرنسية، وعليه سيرتد كل ذلك الوحل إن لم يُعلَم وظلّ يتعرّض للنميمة. ومن فم وسنر إنما علم دورش بالعملية؛ في هذه الدقيقة كانت السيدة برونيل بين الحياة والموت.. وكان واضحاً للعيان أن «وسنر» كان شديد التأثر.

أتاح ذلك فرصة للواء ان يقرر قبل كل شيء الاختلاف الأساسي الذي لاحظه بين ديان، تلك المخلوقة المعبودة قطعاً، الرائعة، المرأة المثقفة التي تملك الأصل، والسحر، وبين ذلك الوحش، ذلك الوصولي، ذلك الكائن العفن الذي هو جورج، أن يقرر ذلك باعتباره واقعة محققة، لا سبيل الى انكارها.

قال وسنر:

- قفْ أيها اللواء إني أوقفك، فبرونيل صديقي و..

- هذا الشعور يشرّفك لكن دونك ماجئت أعلمك به.

ذُهل وسنر. مراب، برونيل مراب! لكن بمن يثقُ المرءُ حقاً؟ يالديان التعسة! آه حول هذه النقطة، كان اللواء والصناعي متفقين. والحديث الذي لايُصدق الذي حدّث جورج به «دورش» والذي نقله «دورش» في خطوطه العريضة، ألقى - وهو مالا سبيل الى الشك فيه - ضوءاً محزناً عل ماكانه في الواقع هذا الرجل. لاشيء فيه حسن النظافة لأن وسنر مثلاً الذي كانت له أفكار اشتراكية جدّ. . مغرقة، لقد كانت هذه الأحاديث تثيره. آه! رجال الأعمال، والصناعيون كانوا جميعاً مرابين عند «شايلوك» شارع اوفيمون. . ! طيب سنرى، توقف وسنر:

-لكن كيف نتصرف دون أن نجرح هذا العصفور الصغير الذي هو ديان، ديانا؟

كان الجنرال في حيرة حقاً.

غير أن ذلك جعله يتريث حتى يعلم ان ديان سُمح لها بالنهوض لتذهب وترى «جاك دي سابران». وفي غضون ذلك، وضع عدة مرات وروداً في المشفى. واتصل هاتفياً بالسيدة «دي نيتنكور» التي طمأنته على حجم النُدبة. «صغيرة هكذا» هكذا صاحت كريستيان في الهاتف، يستطيع أن يرى الجرح بالهاتف لكن يبدو انه ليس كبيراً جدا. «بوزي» هذا ساحرٌ.

في اليوم الذي كان سيذهب فيه الى منزل سابران، وكان ذلك في آخر عطلته، تلقى كلمة من ديان ترجوه فيها، بكل مالديه من مقدس في الدنيا، أن يمرّ ليراها في اليوم نفسه.

لاسبيل الى وصف ماكان عليه ذلك اللقاء، إذ قد خرج منه اللواء وهو مقلوب الرأس. إن عسكرياً قديماً، تعود ميادين القتال، لايمكنه ان يكوّن فكرة عن هذه البطولة. ليس في الدنيا ماهو أجدر بالإعجاب من ديان. لم تجبه عن رسالته لأنها ارادات ان تكلمّ جورج أولا. وما أن صارت قادرة على ذلك حتى كلّمته. فأقر بكل شيء. . وقد انتهى منذ الآن كلُّ شيء بينهما. لا

شك أنها ماتزال تحبه فقد كان في حياتها الكشف الفيزيائي الأعظم، وهي تستطيع ان تقول ذلك للواء، ويجب عليها أن تقوله، لكي يفهم فهماً أكبر بعض الأشياء. لكن، أليس هناك عواطف يجب أن تتغلب عليها، وسوف تتغلب ديان. وهي على يقين من ذلك. وريثما يتحقق ذلك. . لم تكن تطلب من صديقها القديم سوى شيء واحد: ان جاك ومارغريت دي سابران سيظنانها داخلة في كل هذه الفظاعة وهي تطلب الى اللواء أن يلقاها، ولايقول لهما شيئاً ، ويأتي بهما، ولسوف تتكلم امامهما.

توالت اللقاءات التاريخية. وكيف لايتأثر جاك ومارغريت حتى البكاء وهما يسمعان من فم تلك الناقهة حكاية ذلك الاكتشاف الفظيع؟ معنوياً لقد قتل جورج برونيل بيير دي سابران. وعلم جاك بوجود السندات التي وقعها أخوه. وأخطرته ديان كأخت أن هذا اللص «برونيل» سيقدمها له.

روت السيدة «دي نيتنكور» عند «توبسي» للسيدة بلان كم كان اللواء دورش رائعاً في هذه القضية كلها. إنه صديقٌ حقيقي، وضمانةٌ اخلاقية عالية تضفيها عليه وظيفته. . وقد تزعزعت «ديان» من جراء ذلك كله حتى إنها قبلت باستقبال الراهب «غابرييل». ولنقل سراً بيننا: ان برونيل كان له تأثير بغيض عليها، فهو الذي أبعدها عن الدين.

قالت السيدة بلان:

- ومع ذلك ، ياعزيزتي كريستيان، كيف يمكن أن تعيش سنوات مع رجل وهي تجهل ماذا يفعل وممّ تعيش؟

- آه! بولين، إني أتساءل عن ذلك مثلك! بالطبع، بالقياس الى الطبائع العملية، مثلك ومثلي، ذلك لايُتصور. لكن ديان الصغيرة صورة تامةٌ عن أبيها. تعلمين ان ادوار، لايهمه إلا أن يحصل على «الفيغارو»،

وهو لا يسأل بعد ذلك مَّ اشتراها. آل نيتنكور حالمون، لا أدري أنا.

-بالفعل، لأن روبير الذي كان داخلاً في أعمال السيد برونيل. .

- آوه! هذا التعس روبير! ألم أقل لك؟ غير معقول! لا لأن الشك لم يخامره فحسب، بل وأيضاً لانه كان أداة غير شاعرة بين يدي صهره، لكن تصوري أنه مايزال ينكر حتى هذه اللحظة، إنه يأبى أن يصدّق ذلك! وهو يزعم أن ذلك افتراء! وكانت أخته تصرخ به: عندما أقول لك ان جورج يقرّ بالوقائع. فشاحنها، وصفق الباب وقال انه لن يراها بعد الآن. .

- لا؟

- أنتِ ترين أنني كأم، ممزقةٌ، ممزقة وأنا أشاهد ولديّ يقف كلٌّ منهما في وجه الآخر. لأن ديان، وهي ظالمة، أنا قانعةٌ بذلك، تزعم أن روبير كان مطلعاً على كل شيء، وأنه منحاز لبرونيل، ما أدراني؟ آه! أنا جدّ معذبة، جد معذبة.

- مهلاً، كل ذلك سيُسوّى.

- هذا ما أقوله في نفسي كلّ هذه الأمور ستُسوى في هذه الأثناء. لن يذكر أحدٌ السيد «برونيل». ديان ستُطلق وستعود الى اسمها: «دي نيتنكور».

-هذا ممتازٌ، ممتاز لها.

كانت السيدة بلان متأثرة حقاً:

- يمكن القول إن ديان كانت نظيفة، حازمة. هذا أنيقٌ جداً، فاضل جداً.

- أليس كذلك !آوه! لم يمتد ذلك طويلا. في ذات مساء، عاد صهري السابق فوجد حقيبته جاهزة وقد أنزلت الى البهو، وسلّمه الخادمُ رسالةً من ديان. حاول أن يحتج، لكن عندما قال له الخادمُ إنه تلقى أوامر

من السيدة باستدعاء الشرطة إذا أصرّ سيدي، فضّل برونيل أن يأخذ سيّارة أجرة.

- لكن كيف؟ ماذا تروين لي هنا؟ أيمكن أن يُطرد الزوج هكذا من بيته؟

- من بيته، من بيته؟ لقد تزوجت ديان بحسب نظام فصل الأموال، وقصر شارع «اوفيمون« لها، و«نيتنكور» لها، ولها دخولها، على اسمها. وليس لبرونيل إلا أن يرحل، وقد فهم ذلك، سفراً ميموناً، ياسيد «ديموليه»!

لاحظت السيدةُ بلان:

-بالفعل، كانت ديان حاسمةً جداً. لكن ما يدهشني عند التفكير، ان السيد برونيل لم يحاول مع ذلك ان يلقاها أو أن يناقش. .

- تصوري! ان ديان تعلم أكثر من الكثير عنه! وهو يخاف ما قد ترويه! ثم إنه كتب اليها. تصوري انه يكتب لها رسائل ملأى بالهوى.

- ياالهي، من المفهوم أن الرجل يمكن أن يُشغف بالسيدة برو. . أردت أن أقول ديان. ولاشك ان ذلك كان صدمةً لزوجها. .

- كان يخدعها! وكان دلك مروّعاً. كنتُ أقول لها ذلك أنا: أليس في عروقك دمٌ، لايجوز أن ندع الزوج يعاملنا هكذا! أنا أمك، وليس عندي نصيحةٌ لك؛ لكني لو كنتُ مكانكِ لاتخذتُ عشيقاً لي!

- هذا شيءٌ. . لايخلو من الحداثة!. .

- . . تعلمين أنني أنا كلّي نزقٌ! الحاصل ان هذا الرجل الذي كان يقضي لياليه مع مخلوقات، مع نساء فاجرات لايساوين خنصر ديان، أخذ الآن، بعد أن فقد امرأته، يكتب إليها رسائل كرسائل الطلاب. . وهي رسائل لاتخدع أحداً لحسن الحظ. وقد شوهد وهو يحوم في شارع

«اوفيمون». ومن جهة أخرى فإن ديان ستذهب الى «نيتنكور» لبعض الوقت.

كان النقيبُ دي سابران منزعجاً جداً. وقد مرّ عليه «برونيل» ثلاث مرات، فطلب ان يُجاب بأنه ليس موجوداً. . وآخر مرة، سمع، من حجرة الحمام، صوت المرابي يتكلم بقوة في غرفة الانتظار، وهو يصطنع التهكم. فقر رأيه على استقباله.

في الصالون الصغير في شارع «سيزار فرانك»، الحي العسكري، حيث زجاج الأبواب من طراز لويس السادس عشر، وحيث التحف الصينية، وصور لالفونس دي سابران الذي مات في «فونتنوي» رفض النقيب دي سابران حتى أن ينظر الى الأوراق التي مدّها إليه ذاك الذي عده صديقاً له زمناً طويلاً، والذي لم يكن سوى محتال وقاتلٍ لأخيه، وقد قال له ذلك بخشونة. لم يغضب «برونيل».

- «مهلاً، يانقيب، موافق، أنا نذلٌ، إن كان ذلك يمكن أن يسرك . ، لكن الموضوع غير ذلك. إن أخاك وقع باسمه، انظرْ هنا، بيير دي سابران، سندات بمبلغ مئة وخمسين ألف فرنك وأنت، ولست محتالاً ولانذلاً، لكنك نقيب في الأركان، والوارث لشرف سابران (وهنا حيّا جورج برونيل جد «فونتنوي« تحية سريعة). . . أنت لن تردد لحظة، سوف تُقرّ بهذه السندات، ويكفيني منك توقيع صغير. . ».

كان النقيب دي سابران رائعاً:

-سيدي، أنت هنا في منزلي، ولو أني قتلتك كما يُقتل الكلبُ. لبُرئت مع تهاني المحكمين. انصرف قبل ان يبلغ بي الإغواءُ مداه.

لمَّ السيد «برونيل» أوراقه التي لا قيمة لها. وقال من العتبة:

- أيها النقيب، ليس عندي لك سوى نصيحة واحدة: طَلّقْ وتزوّج امرأتي، وسوف تؤلفان زوجين متناسبين!

أوّل اللواء دورش هذه النكتة الأخيرة بغضب مؤثر؛ قال لوسنر:

- مالا أغفره لهذا الشقي أنه غشّ امرأة مثل ديان! بيد أن ما يسرّ القلب، مع ذلك، هو أن نشاهد في مثل هذه الهزات الكبيرة التي تدمّر البيوت، وتقلب أوضاع الأسر أنه مايزال هناك ناسٌ شرفاء وقلوبٌ كبيرة مثل النقيب دي سابران، ومثل ديان. .

قال وسنر:

- سيدي اللواء، متى ستُحال الى التقاعد؟

- في آخر وقتٍ ممكن، في آخر وقت ممكن.

-لكن متى؟

-لمَ ذلك؟ الأمر يتوقف عليّ. إذا صرتُ قائد فرقة فلن أبكر، أما إذا بقيت قائد لواء فالمسألة خمس سنوات . . لكن؟

- قدّرتُ أنك ستجد مكاناً جاهزاً في أحد مجالس الإدارة عندي. . على كل حال، سنتكلم عن ذلك بعد خمس سنوات، او فيما بعد!

- عزيزي وسنر، كيف أقول لك؟ أنا متأثر متأثر حقاً. .

-سيدي اللواء، لقد أديّت لي خدمة لاتُنسى. .

كانت مارغريت حزينة جداً من الانفصال بين روبير وديان. أخٌ وأخت. وأعربت عن ذلك ثانية وهي ترافق ديان الى المحطة وهي ذاهبة الى «نيتنكور». كان هناك الراهب غابرييل الذي اصبح بين المتردّدين على شارع «اوفميون».

- أليس كذلك، سيدي الراهب، أخ وأخت!

- التوكل على الله، سيدتي، التوكل على الله.

قالت ديان مخاطبة الراهب:

- هل جئتني بالدواء الذي حدّثتني عنه؟

- بالتأكيد، بالتأكيد. صار في حقيبتك، وقد سلّمته لأمك العزيزة..

- أما روبير، ياعزيزتي مارغريت. فيمكنك القولُ أن ليس له مايربحه معي، وهو خاسرٌ لكل شيء بجانب جورج. كان حيث وجد له مرعى يرعى فيه.

- أواه! ديان، كيف نصدّق؟

- بأن نمتنع عن الحكم على الآخرين من خلال الذات. غي، تعال بسرعة وودّع السيد الراهب.

قال غي وهو يخرج من الممر:

- الى اللقاء، سيدي الراهب.

كان «غي» مسروراً بذهابه الى «نيتنكور»، لكنه لم يكن يحب الكهنة.

- ١١ -

«اجلسْ هنا، وخذ سيجارة.. من العلبة الحمراء.. وردّدْ علي لازمتك الصغيرة.. كان جورج عند وسنر. كان يريد أن يعلم الى أي حدّ مايزال يمكنه أن يعتمد على مساعدته، ثم كان عليه أن يُعلمه عن الاستقبال الذي قوبل به عند النقيب «دي سابران». بهذا إنما بدأ.

قال وسنر:

- طيب! هذا أكيدٌ ثابت. نحن نعلم ماقيمة شرفهم. لكني إن أحسنتُ الفهم فأنت لاتروي لي هذه القصة الصغيرة رغبة في اعطائي نظرات عن الارستقراطية والجيش. كم سلفتك من أجل «سابران» الصغير؟

- خمساً وسبعين ورقة.

– وهو مدينٌ لك بمئة وخمسين؟ لم تكن تصرّح لي، عادةً بمثل هذه الفروق الكبيرة.

– على المرء ان يكسب عيشه.

– على الإجمال، ياصاحبي، الناسُ على حق في أن يقولوا مايقولونه ان هذا من الربا. وأنا سأطلب منك مئة الف كشيء متفق عليه. وهذا من التجارة.

– أعتقد أنك لم تُمسك بي تماماً..

–بلى، يابني، أتنوي أن تخطف هذا المبلغ؟ أم لعلك ترغب في تسهيلات للدفع؟

كان وسنر أشد فرحاً من أي وقت مضى. كزّ جورج على أسنانه لكنه عثر على القليل من المرح ليجيب:

– لست أرغب في تسهيلات لدفع هذا المبلغ ولا لأي مبلغ آخر. لقد أفلستُ.

– آه، نعم؟ ستكلّفني غالياً. وماذا ستعطيني في مقابل ذلك؟

أجاب برونيل:

– امرأتي.

– أنت لا تنقصك الوقاحة. اولا لقد نلتُ امرأتك ثم إنها لم تعد لك على كل حال.

امتعض جورج قليلاً. في الحقيقة، هاهنا كان يكمن الجانب الحساس في القضية. لقد كان يحب ديان، على طريقته. صفر صفيراً خفيفاً بقوله:

– ممكن، لكن يجب ان ننظر الى العملية بمجملها. تبقى لك ديان، وأحتفظ انا بالمال، نضع الأرباح والخسائر معاً.

– عزيزي جورج، أنا على يقين تام من أننا سننتهي بالتوصل الى

تسوية، لكن يبدو لي ان في تصوراتك شيئاً خاطئاً، خاطئاً جذريا، من الناحية القانونية إن صح التعبير. لاتنس أنني لم كن قط إلا المقرض لرأس المال لا الشريك. لاتحتج. فأنا لم أحشر أنفي قط في سجلاتك. كنتُ أعطيك مالاً وكنت تستخدمه كما تشاء. ولاحظ أنني أستطيع ان أزعم أنني كنتُ أجهل طبيعة مساوماتك لأنني في الواقع كنت أجهل تفاصيلها. إن الأسرار الوديّة الخالصة التي تلقيتُها منك لم تكن موجهة الى مقرض رأس المال الذي لم يكن بوسعه إلا أن يلوم تلك العمليات التي لم يكن يغطيها القانون. مالك ولهذه الحركات؟ لستُ ألومك على صفقاتك الصغيرة من وجهة نظر أخلاقية. لكني أعرف أن ما يتجاوز فهمي هو تلك الفكرة التي جاءتك أن تعرض للتداول نشرة عليها اسمك وعنوانك.

– كان لابد لي من مكاتب في مكان ما ولايمكنني أن أعمل باسم مزور أو بوسيط في هذا المجال لأن ذلك ليس مأموناً..

– لمن تقول هذا، جورج؟ أنت مثير للشفقة. أو تعلم ماذا يكلّفك ذلك، ماذا يكلفني..

– ينبغي ألا نبالغ في هذا. أنت رابحٌ في المجموع..

– هذا يعنيني أنا. ثم إن علي نفقات باهظة.

هذه العبارة الأخيرة قد ذكرتهما بقصة طريفة لأنهما أخذا يمزحان ويضربان بكفيهما فخذيهما.

استأنف برونيل:

– دعكَ من المزاح، أنت تحتفظ مع ديان، بـ«نيتنكور»، والبيت في شارع «اوفيمون» والحليّ، وأشياء صغيرة أخرى..

– كل هذا لديان شخصياً.

– نعم، هذا ماتقوله هي. لكن بما أنك تحتفظ بديان..

- هذه فكرتك أنت. فلكي يتم ذلك لابد من أن تُطلّق

- وماذا أفعل هنا؟

كان «وسنر» في أعماقه، يميل الى هذا النذل «برونيل». وإذن فهذا هو ماجاء يقترحه عليه؟ إنه ماكر. لم يكن يقدّر في الواقع، أنه سيجني شيئاً من هذه القصة. كان حساب برونيل، بالنسبة إليه مضاربة صغيرة، يعثر على ذاته فيها، في نهاية المطاف. لم يكن ينوي ان يتزوج ديان، كم سنة ضاجعها؟ إن ذلك ليُعجل في شيخوخته.

- عندي الآن اقتراح آخر اقترحه عليك. اذا شئت أن تضع اموالاً في هذه الخطة فأنت تعلم أن لي اعتمادات كثيرة هامة من وجهة النظر السياسية.. يمكنني ان أُنشيء مكتباً للزبُن في نيس. في جوار مونت كارلو..

قطع وسنر الطريق على هذه الخطة.

-لا، ياجورج. ما أعوزك دائماً هو، أن تدرك أنه إذا انتهى الأمر فقد انتهى. ان وضعي في الوقت الراهن لايسمح لي بالاستمرار في إمداد من ارتكب أخطاء خطيرة كالتي ارتكبتها.. افهم جيداً ياصغيري، أنني لا أملك في هذه الساعة الكثير من أموالي الجاهزة لأدعم العمل الرائع الذي باشرته فرنسا في مراكش..

نظر إليه جورج ليرى إن كان يمزح. كان جاداً أعظم الجدّ. نعم، كان وسنر يرى، في نهاية المطاف، من واجبه ان يكفّ، ذات يوم، عن لعب اللعب الفردية وهو حين يُفضي عمله الى مصلحة الدولة، وحين يحمل الى الجماعة قوى لم تُنظم حتى الآن..

بلغت الدهشة بجورج مبلغاً منعه من أن يقطع عليه الكلام.

- يجب ان تتصور، ياصاحبي، أن ذلك لايعني أنني أومن بتلك الترهات، بتلك الآلات العظيمة التي تُسيَّر بها الجماهير. عندما أقول

فرنسا، فتلك طريقة جد بسيطة للتعبير، لكي أقول «نحن»، جملة من المصالح المشتركة. . ومع ذلك فالصحيح، إذا ماسلّم بقاعدة اللعبة، أننا في سبيلنا لتحويل منطقة برية، غير منتجة الى ضربٍ من فردوس أرضي صغير، سيكون مثيراً ان نتنزه فيه بعد عشر سنين أو خمس عشرة سنة إن سمحت الكلى لنا بذلك. نعم، سأذهب للاستشفاء في «كونتريكسيفيل».

قال لي «تومبسون» انه ذاهب اليها. . وإنه لأكثر إثارة بعد كل حساب ان نُقرض مالاً لمشروع من هذا النوع بدلا من المغامرةفي لعبتك الصغيرة لعبة المئة بالمائة، مع أشخاص مثل سابران، هذا الذي شوّه سمعة الجميع بغباء حين انتحر. أنا في لعبي، أمثالُ سابران بالمئات هم البيادق للعبة شائقةٍ بطريقة أخرى، وإذا ماتحطمّ بعض هذه البيادق في الطريق فإن ذلك لايذهب جزافاً! الموتُ في ساحة الشرف أكثر تألقاً من الانتحار!! اذ يبقى بعده مستعمرةٌ جميلة وصالحة، ومناجم، وزراعات، ومدنٌ، ومرافىء، وطرقات، وخطوط حديدية.

– إن تُركت لكم. فالأمور ليست على مايُرام حسبما تقول الصحف.

– حوادث فاس؟ نعم، لكننا أرسلنا الآن الى هناك رجلاً لن يمتد أمدُ ذلك معه، «ليوتي»(1). أتعرفه أنت، ليوتي؟

–كان صهري الذي أدى خدمته في «آلنسون»، كان في فوج الخيالة الرابع عشر الذي كان بإمرته. ثم إن ابن العم «أميل» عرفه في «مدغسقر». وهو يروي قصصاً خليعة وفجّة عن رجلك العظيم.

– أعلم، أعلم. وفي هذه الأثناء، ومنذ أن التحق هناك، ارتفعت الأسهم. هناك مشكلات لاتنتهي. ومولاي السلطان يضع العراقيل ومن الواجب استبداله. ثم لابد من إعادة النظر في التشريع المراكشي بأسره لإعطاء سندات الملكية أساساً لها، لأن نظام الملكية في مراكش بالغ التعقيد.

(1) ليوتي المارشال الذي احتل «مراكش». . المترجم

هناك الأملاك العامة والأملاك الخاصة، وأملاك الوقف، مما يتيه المرء! فيه ومن غير الممكن عند ذلك تأسيس ملكية حقيقية، فهناك دائماً القبيلة والدولة اللتان تطالبان بها، هناك منازعات لانهاية لها. «ليوتي». .

أخذ جورج يصفر إعجاباً. لقد انطلق وسنر انطلاقة حسنة. فخطرت له فكرة شيطانية:

- وإذا ماتراجع صديقُك «غيوم»[1] عن تسوياته الاستعمارية؟

هناك الأخوة «مانيسمان» في مراكش. .

قال وسنر بكل وقار:

ان فرنسا لاتخشى الامبراطور وبوسعها أن تفرض احترامها في المستعمرات كما تفرضه في العاصمة. ولن يمنعنا أحدٌ من متابعة عملنا الحضاري. واذا كان لابدّ من الحرب. .

- وفي ذلك كله ستحتفظ لي بوضعٍ صغير. .

توقف «وسنر» وكأنه ينوي التفكير. وقال.

- ولمَ لا؟ لكن بشرط.

- قُلهُ

- أن تسافر الى مراكش على الفور.

قال جورج :

- شكراً، لكن لي صديقةً لاتريد أن تترك أمها العجوز!

تأهب للانصراف، فأوقفه «وسنر» فجأة.

- أو. . إذا شئت أن تدخل الشرطة؟

* * *

---

(1) غيوم: الامبراطور الألماني. . المترجم

القسم الثانـي
كاترين

- ١ -

عندمـا ترك الملازمُ «ديغـوت - فـاليـز» اللواء دورش في مـحطة اورسي، قـفز الى شـارع «رين» الى منزل أمه، حيث ارتدى ثيابه المدنيـة. ودّت السيـدة «ديغـوت - فـاليز» ان تحدّثه عن طائفة من الأشيـاء: كيف لن يبقى للعشـاء؟ آوه! حقاً ياصغيري. لا، هناك مَنْ ينتظره. أخيراً ينبغي ان تفهم جيداً. . كان الملازم يبحث عن زرِ لياقته فلايجد، شيءٌ مقززٌ، كم كان القـمـيص منشّى، لابدّ أخيـراً من ترك هذه الغسّالة. اردتُ لو أكلـمك، يا «فرنان»، بصـدد مسألة هي على الاجمال من شؤونك. كان«فرنان» يتـخبط بين ربطات عنقه فلا يعثر على ربطة صالحة! ينصحونني بتوظيف الأموال. لا أدري إن كـان ينبـغي لي أن أفـعل ذلك. لابدّ من بيع مـعـامل الفـولاذ في «لونجي» لكي نتمكن من التخلص من التزاماتنا. إنها مسؤولية.

كـان «فرنان ديغـوت - فـاليـز» يتأمل بسخـرية جـوارب الحرير التي سحبـهـا من الصوُان. كـانـت أزواج الجـوارب مختلطة وكـان لابد من وقت طويل لمعرفة أي جورب يناسب الآخر، فهذه مرفوءة على الوجه. .

- . . أتظن أنني يجب أن أبيع معامل الفولاذ في لونجي؟ عندي عشرة منها. إن أباك المسكين. .

قال فرنان»:

-وأخيراً، ياأمي، فيمِ تفكر مـارينيت؟ خـادمة مضى عليها خـمسةٌ وعشرون عاماً في المنزل. .

- قاربت الثلاثين. لكنك لم تجبني وأنت منصرف. هل ينبغي أن أبيع معامل الفولاذ؟

- افعلي ماتشائين. لكن ان نشبت الحرب فلن نجد توظيفاً أفضل من معامل «لونجي».

- لاتتحدث عن المصيبة! الحرب! آه! ثمة أشياء لاتستطيع الأم أن تستمع إليها من ابن ضابط! إذا نشبت الحرب فسوف أقتل نفسي على الفور لكي لا أراها!.

تبسم فرنان، وعانق أمه، وبما أن الساعة بلغت الثامنة، أخذ سيارة أجرة مع أن شارع «بابيلون» قريب جداً، ودمدم السائقُ بشيء عن الناس الذين لايستطيعون ان يسيروا على أقدامهم.

إن خمسة أشهر من الإضراب لم تجعل هؤلاء الناس أكثر لطفاً، بالتأكيد.

كان المقدّم «ميركورو» وزوجته يسكنان منزلا يطلّ على حدائق سفارة الصين. كان في الأركان وكان «جاك دي سابران» تحت امرته. على المائدة روى «فرنان» حديثه في القطار مع الجنرال «دورش». قهقه «ميركورو»: يالها من غلطة آه، لا، لا! كيف لا تعلم، أيها الشاب، أن دروش هو عاشق السيدة برونيل الجميلة! الحاصل! انهار فرنان. لكنه كان ينعم النظر في أخت السيدة «ميركورو»، في «كاترين سيمونيدزيه» وكان يخاف كثيراً ألا يلقاها هذا المساء في منزل المقدّم.

في سنة ١٩١٢، كان عمر كاترين ستة وعشرين عاماً، وكانت شهادة حيّة على مايؤكده معجم لاروس عن الجيورجيين من أنهم أجمل عرق بشري في الدنيا. جميع الأساطير التي جُمعت عن البشر وعن ايران والفراديس الأرضية والقوقاز الذي لعل السفن قد علقت في ذراه، وجميع التفسيرات الأسطورية عن رجال الهند البيض في البحار الارموريكية، تأتي لتغيب في سواد مشرق شعرها. كتلة من الظلماء فوق فتاة، تلوي عنقها النحيف والطويل، مغرقة رأسها، رأس العصفور، الذي يتعذر ان يستبقي

الناظرُ منه سوى العينين المفرطتي الكبر، والنظرة الخضراء تحت الأهداب العجيبة، والفم المصبوغ بحمرة داكنة، ولون الوجه ببياضه فوق الطبيعي. ضربٌ من خرافة حديثة، نحيفة جداً، ولاعيب فيها، الأنوثة المتجسدة امرأة محطوطة على كعبين من طراز لويس الخامس عشر بحيث تتحدى التعبير، ملفوفة في فستان ضيق كأنه غلاف من المخمل الأسود، مع يدين وقدمين مسرفة الصغر بحيث يُزعَم أحياناً ان ذلك بشع، طفلٌ فيما وراء الطفولة، وصوت عميق كالليل، وهي تبدو كأنها آخر تعبير عن عالم بأسره، عن سحره ونفيه. في السادسة والعشرين ظلت ابنة السادسة عشرة، بالرغم من شعورها انها ذات جمال فاضح، وهي تحب هذه الفضيحة بين أشياء أخرى تحبها. مع أنه لم يبق من بلد اسرتها سوى صورة ممحوة متقطعة وبعيدة في أعماق عينيها الخضراوين. وأيضاً فهي غير واثقة من أنها لا تخلط بين تفليس ومشاهد من سويسرا الايطالية حيث ترى نفسها متشبثة بتنورة امها، وعلى الطاولة آنية من الكريستال، وفي الجو انغام الماندولين، وسادةٌ يحفّون بالسيدة «سيمونيدزيه»، وجبال وبحيرات زرقاء، ولعب من الخشب المدهون. . مع أن كاترين، مثل أختها البكر، «هيلين ميركورو»، لا تكاد تعلم عن بلد أسرتها، عن أبيها ذلك الرجل بلحيته السوداء وبآبار البترول، الا ماترويه صورٌ فوتوغرافية مصغرة تجمعها امها في صندوق فارسي؛ إلا أنها ماتزال تحمل من هناك هديل الحمام، الذي يجعل الناس في المحل العام يلتفتون مدهوشين، وهي تحب، بشيء من سوء الذوق الذي يساعد عليه كلُّ شيء، ان تُعقِّد بعطر المغامرة مشيتها التي لاسبيل الى نسيانها، مشية الصبية الجريحة. هي الآن وستظل من زمن البطاقات البريدية لرافائيل كيرشنر في فيينا، حيث ترى انصاف العذراوات مرسومة باللون المتدرج على مهاد ذهبي وهنّ ينفخن دوائر من الدخان، ويقطفن كرزاً بأذرع عارية. وقد توصل المقدم «ميركورو» أن يخلّص امرأته من عادة التدخين، لكن كان عليه ان يتحمل لهجة أخت زوجته حتى على المائدة، حتى عندما يكون أحدُ

مرؤوسيه حاضراً مثل الملازم «ديغوت – فاليز»، أو «ريجيس» أو «سان جوران».

لم يهز مصيرُ «بيير دي سابران» الآنسة «سيمونيدزيه». قالت: ان كان في هذه القصة ضحية فهي السيدة «برونيل» التي هي جميلة جداً، على مايبدو، وأن النساء في المجتمع الراهن إماءٌ وأن علينا أن ننحاز إليهن في جميع المناسبات.

نبّه المقدّمُ أن للضحية نمطاً من الحياة، وهي في النهاية، تقاسم زوجها ثمار الربا، لكن كاترين تغضب قليلاً. بما أنه زوجها فهو السيد، وكلكم سواء في رمي النساء بالحجر، فهنّ غير متضامنات معكم.

حطّت يدُ السيدة «ميركورو» على يد المقدّم لتكذب ضمناً أحاديث اختها.

– أؤكد لك يا آنسة ان ديان برونيل ليست ذات شأن. فهي أولاً شقراء، ثم يقال انها تضاجع –فيما عدا زوجها– وسنر السيارات (ودورش على قول المقدم).

– وماذا في ذلك؟ إن هذا لمن أحاديث الرجال! وهل «وسنر» أقل شأناً لأنه ضاجع السيدة برونيل؟ ياله من تفاوت فاحش! من الواضح أنكم لستم سوى أفظاظ!.

كان المقدم يكره فورات أخت زوجته،. لكنه يعلم بالتجربة ان التصدي لها لايُصلح شيئاً من الأمر. نظر بتحنن الى «لينوتشكا» الشديدة الأختلاف.

فقدت «هيلين ميركورو» وهي أكبر من أختها بأربع سنوات، بهاءها، لكن يمكن تفضيلها على كاترين. فهي أطول وأوسع. ولم يكن الملازم «ديغوت فاليز» يراها، بكل بساطة. لم يلتق كاترين سوى خمس مراتٍ أو ستاً في السنة السابقة، ولم يكلّمها سوى مرة واحدة في عرسٍ، لكنه ليس

أقلّ انجذاباً الى ماتقوله، منه الى ماهي عليه. على الأقل، بحسب تفكيره. انها، أخلاقياً، عكسُ النساء اللواتي عرفهن، والفتيات، وعاهرات «سومور»، ونساء رؤسائه. كل مايعتقده، كل مايحترمه، كل ما تعلّمه هذا الضابطُ الشاب الذي تربى في «ستانيسلاس»، تهزأ هي منه، في كل كلمة تقولها، وازدراء منخرها التام يحيّر «فرنان» في كل مايقوله هو نفسه. يحس بنفسه ريفياً أمامها. وعطر «غيرلان» الذي يغمرها هو، عنده، رائحة «تفليس». والحرية الغريبة في أحاديثها تأتي بالتأكيد من جو حدائق ألف ليلة وليلة. وهذا الدفاع عن المرأة له عذره في أنه من آسيا، دون أن يفكر لحظة فيما يحوي ذلك من مفارقة «جيورجيه»، هذه الكلمة عند الملازم، ذات جمال مدهش، مثل «كاترين». ويفسر ذلك لنفسه وهو يفكر: كاترين «نيتشوية»!.

استطاع «ميركورو» أن يصرف الحديث الى أحداث البلقان، وهو حديث سيبُعد النساء. ياللعجب! إذ سرعان ما توصلت كاترين الى أن تقطع على المقدم كلامه، وموضوع الحديث الآن هو الستراتيجية في مكدونيا، وفي امكان الصمود أو عدمه على خط «وردار»! وهي تتغنى بالثناء على عمال البلقان الذين يُضربون في كل مكان احتجاجاً على الحرب، بذلك الصوت الآتي مما وراء العربية والذي هو كالمغنّاة التراجيدية بالنسبة الى المدعو الشاب. يبدو أن هذه أول مرة يُرى فيها مثل هذا الشيء، وهناك بلغاري يدعى ساكاسوف تتحدث عنه كاترين بعينين براقتين، وخيل الى «ديغوت -فاليز» أننا عندما نملك مشاعر يسارية مثل الآنسة سيمونيدزيه فلابد أننا نتمنى التحرر الوطني للصرب واليونان والبلغار. ان الحرب حرب ديموقراطية ضد السلطان الذي هو على كل حال عميل المانيا، ومن أجل الحرية ومبادىء ٨٩.

نظرت كاترين الى الملازم بشفقة.

- هلا تركتها، حريتك مع ديموقراطيتك؟ عندما يكون البلدُ الذي

يزعم أنه ديمقراطي، حليفاً للقيصر جلاد بطرسبرج. . ان انتصار الترك هو قبل كل شيء سحق للقيصر، أتفهم ولذلك أتمناها، أنا الجيورجية.

وفي بطرسبرج وموسكو اضرابات طوال الوقت، وسيكون هناك قنابل. . »

انفعلت الآنسة سيمونيرزيه أكثر عندما لمحت الى حوادث جرت منذ حين في سيبيريا في مناجم الذهب، فلاحظت ان تلك الأحداث مرت دون أن يفطن إليها أحد من محدثيها. وبشيء من الغفلة دُهش فرنان بخاصة ان يكون في سبيريا. مناجم ذهب. كان يجهل ذلك فانفجر احتقار كاترين قالت:

– أراهن أنه لم يُعلَّم قط ماذا يفعل بأصابعه العشر. ربما تعلم التطريز بها مثلي أنا، كنت أود لو أتعلم العزف على البيان، لكن لم يُتح ذلك إلا لهيلين العزيزة، ولم يكن ممكناً دفع أجرة الدروس لاثنتين.

أخيراً ماذا تريد أن تُصبح المرأة إن لم تصبح عاملة؟ عاهرة، سواء أكانت متزوجة أم لا.

هبّ «فرنان» الى نجدة «ميركورو». تكلّم عن الموسيقا. حينئذ تأنسنت كاترين فانشرح المقدم. كان خائفاً: خشي طوال الامسية ان تطرح قضية «بونو»(١) على بساط البحث. .

– ٢ –

عندما جاء السيد «سيمونيدزيه» الى باريس من أجل المعرض العالمي في سنة ١٩٠٠ لم يكن يحب أن يرى ابنته وأمها في فندق عائلي في الحي

(١) بونو: مدير مصارف قتله الفوضويون الذين هاجموا مصارفه سنة ١٩١٢ . . المترجم

اللاتيني ولهن فيه غرفتان. كان ابنُ مالكي الفندق يغازل هيلين ولاشك ان عيني كاترين ايقظتا قلباً في أعماق المحفظة الأبوية.

هكذا ارتحلت السيدة «سيمونيدزيه» الى شقة صغيرة في شارع «بليز ديغوف» قرب محطة «مونبارناس»، أثثتها بالتقسيط من عند «دوفاييل» لأن كرم زوجها ساعدها على تخفيف الديون. كانت النفقة التي تتلقاها منه هزيلة وكان عدم انتظامها على الخصوص، مروّعاً.

حوالي هذه الفترة، كانت السيدة «سيمونيدزيه» عجوزاً قد بلغت الأربعين أو تجاوزتها. وشعرها الرمادي الذي حملته خمس سنوات أو ستاً بوقاحة كغنجٍ وكفتنةٍ فوق ذلك، أُلفي ذات يوم غير مناقضٍ لوجهها. فقد هزلت ولم يتناسب جلدها وهذا الهزال. وهكذا حدث في الأسرة تغيرٌ عظيم فاقتصرت على النفقة الأبوية.

متى غادرت السيدة سيمونيدزيه «تفليس ومنزل الزوجية؟ في زمن لاتتذكره كاترين، والحاصلُ من حكايات أمها ومن ذكريات «هيلين» أن «هناك» العصور الوسطى وأن النساء يُستبقين في الجهل وفي العبودية المرذولة وأن السيد «سيمو نيدزيه» كان يشرب ويضرب امرأته ويرقص عند تناول الحلوى.

كانت السيدة «سيمونيدزيه» أجمل من بنتيها. لقد شهدتها «انترلاكن»، و «بادن بادن»، و «نيس»، وفلورنسا، تباعاً، من سنة الى أخرى، في صخب النجاح والغنى. كان في تلك الغرف التي تمر بها والتي تحسّ فيها كاترين بأنها في بيتها، في باريس كما في «بودنس»، زهورٌ أبداً. وكان لهؤلاء النسوة وصيفة تتبعهن من شواطىء الشمال الى سفوح الفيزوف، وتُعنى بالصغيرتين عندما يأتي أصحاب أمهما ليصطحبوها وهي

في كامل زينتها، . يكتفيها العاريتين اللتين كانتا انتصاراً لها، الى تلك الحفلات المحفوفة بالأسرار والتي كانت البنتان تحلمان بها.

كان على طاولة زينة الأم، التي تُفرغ قبل كل شيء حيثما وصلت، صورٌ فوتوغرافية لشاب شاحب لم تعرفه كاترين. قالت لها السيدة «سيمونيدزيه» فقط انها صورة غريغوري، أحد الأبطال. وكانت هيلين تزعم انها تتذكره وتقول إن غريغوري كان يشاحن الماما قديماً. وكانت كاترين في السادسة تحلم طويلاً أمام هذا الوجه الجميل عندما تخرج أمها. وفاجأتها هيلين وهي تحلم به. وهكذا أخذت كاترين تكره أختها.

كان لابد من الحضور الى باريس مرتين في العام، مهما كلف ذلك، ومهما يكن من أمر الملذات المتروكة، والرجال اليائسين الذين كانوا يتحدثون عن الانتحار في حديقة الفندق، وأزمات هيلين العصبية التي اصطفت صديقات لن يُشاهَدْن فيما بعد، من يدري؟ في رحلاتنا: ذلك أن السيدة «سيمونيدزيه» ينبغي ان تختار ثيابها، أتفهمين يابنتي من عند «وورت» لامن اي مكان آخر.

كانت السيدة «سيمونيدزيه» محاطة بهالة من الهوى. ما الفروق بين جميع هؤلاء الرجال الذين تراهم كاترين يحومون حول آمها، والذين يرسلون اليها باقات الزهور، والذين يصطحبونها الى المسرح، والذين ينظرون اليها جميعاً بالطريقة نفسها! ومنهم من تبعها من «ايزولابيلا» الى «اوستند». وآخرون بدوا متعلقين بجو مكان واحد فإذا سافرت كانت كمن تمزقهم كما تُمزقُ الرسالة القديمة. كانوا شباباً عاطلين تهدهم نظرة واحدة. من الدبلوماسيين الذين يبذلون ،لمحاربة العمر، العناية التي كانوا يبذلونها لشؤون بلدهم، والضباط النمساويين أو الانكليز ورجال اعمال من العالم بأسره بل وأمير مصري طافت معه الريفيرا الايطالية .

ثم إن هيلين أُدخلت الدير، في مكان ما قرب «سان ريمو» حيث

صادقت بنات جد غنيّات بلغ غناهن حداً لايُصدق. وظلت كاترين تلازم أمها، مثل هرة صغيرة، وحيدة مع صورة «غريغوري».

كانت السيدة «سيمونيدزيه» تلتقي أحياناً في سويسرا مواطنين، ، أو روساً على الأقل كانت تعرفهم من هناك. كانوا في معظمهم أناساً مختلفين جداً عن أصدقائها الأوروبيين، طلاباً وأساتذة وأطباء، أناساً رصينين، سيئي الملبس، وفيهم حدة. كانت بينهم أحاديث طويلة تُجهد كاترين نفسها في متابعتها، وهي هادئة في ركن، مع أنهم كانوا يستعلمون في الروسية عدة كلمات لاتفهم معناها. وبعد ذلك، كانت السيدة «سيمونيدزيه» تُصاب بنوبات حزن، وتطرد الناس جميعاً مدة ثمان وأربعين ساعة. ثم يصحو الجو. ويأتي امير من بيت «ويتيلسباك» كان يغازلها فيأخذ تلك الحرِدة في عربة مكشوفة وتبقى صورة غريغوري وحيدة مع الصغيرة في غرفة من غرف الفندق. تحدثوا عنه هذه المرة. وربما سأل السيد ذو النظارة لا عن أخبار غريغوري بل عن شيء مقارب. ورأت كاترين أن أمها بكت.

لم تكن السيدة «سيمونيدزيه» تؤمن بالله. وكانت تروي لكاترين كيف أن الكهنة يعيشون من السذاجة العامة، والقيصر هو الذي يأمرهم في روسيا، وياله من أبله، أغنى أبله على الأرض، وأغرب وحش. والدليل على أن الله غير موجود هو أن الثوريين الذين يريدون ان يخلصوا روسيا منه لايفلحون في قتله، كما فعلوا بسلفه. ولطالما سمعت كاترين أمها تروي لها موت الاسكندر الثاني. كيف أن القيصر في ذلك اليوم، عاد من الاستعراض، وكيف أن العدميين كانوا ينتظرونه في عدة شوارع لأنهم لم يكونوا يعلمون ايها سيسلك عند عودته. بطرسبج مدينة بقنوات، وكانت كاترين تعرف «فينسيا» و «بروغ» وكانت تتصور بناء على ذلك، المشهدَ عندما تمر العربةُ الامبراطورية نحو المساء، والوقت رائع وقرب الحوذي قوزاقي على مقعده، والطاغية بلباس ضابط هندسة، بحذاء الرصيف الذي تحف به قصور النبلاء. وبالرغم منها كانت تتمثل دائماً الفلاح الشاب الذي

انبعث فجأة ليلقي قنبلة بين قوائم الجياد، بقسمات غريغوري. هذه القنبلة هي التي أثارت الضجة عندما انفجرت! لم يُصب الطاغية بأذى وخرج سليماً من العربة التي تفتّتت في الثلج الصلب تحت شمس شباط، وقُتِل الحوذي والقوزاقي، والمارة والجياد. وجُرَّ الرجل الذي ألقى القنبلة الى أمامه وهو نصف مقتول على أيدي الشرطة. وهنا يجتاح البرد كاترين لأن غريغوري هو الذي كانت تضربه الشرطة، وهو الذي كان يستجوبه القيصر. وبينما كان القيصر يهم بالصعود الى الزلاجة سأله أحدهم إن كان قد جرح فأجاب: «لا، والحمد لله!» لكن فلاحاً آخر ينبعث في هذه اللحظة: «ولا تقل الحمد لله!».

الفلاحُ الثاني يشبه أيضاً غريغوري ولعله هو غريغوري، والآخر أخوه. وما أدقّ رميه للقنبلة بين قدمي الامبراطور بالذات! اظلم الكونُ في دوي الرعد: اهتزت جميع مساكن النبلاء وتحطم زجاج النوافذ، حتى اذا تبدد الدخان، كان الاسكندرُ مايزال واقفاً لكنه كان مدمّى مستنداً الى حاجز القناة، ومن حوله جُثثٌ، مثل صورة ملكه، والجرحى يصبغون بالحمرة الثلج. ويقول القيصر: أحس بالبرد.

خمسة رجال وامرأة. المتآمرون الذين كانوا بالمرصاد للامبراطور. كانوا خمسة رجال وامرأة هنا في الشارع، مع قنابلهم، وهم يعلمون أنهم كانوا يعطون حياتهم إذ يأخذون حياة القيصر. كم أحسوا بخفقان قلوبهم بعد أول قنبلة، عندما برز الاسكندر سليماً لم يُصب بأذى، بينما سقط بالقرب منه صبيٌّ خادمُ لحام يحمل سلة على رأسه! والقصة الطويلة للأيام التي سبقت محاولة الاغتيال..! كانت المرأة هي الكونتسيه «بيروفسكايا» كانت حبلى. لم تُشنق مع الآخرين: وضعت اولا طفلاً سيكون ذات يوم أحد جنود القيصر. وبعد أن ولد الوليد شنقها الاسكندر الثالث.

كانت السيدة «سيمونيدزيه» تلفظ اسم الكونتسية بحنان غير عادي: بيروفسكايا.. لكن كاترين لم تكن تفكر في غير الرجال الخمسة الذين كانوا كلهم «غريغوري» بالنسبة اليها.

عندما لحقت بهما هيلين في العطلة، الى «فيفي» كانت متغيرة كلياً، ولم تكن تحدث كاترين لأنها كانت صغيرة جداً.

اصبحت شديدة التقوى في الدير، ولم تكن السيدة «سيمويندزيه» مسرورة، لكن هيلين كانت ترتدي ثوب الرهبانية بكل عناد، ولم تكن تنتهي مساء من تلاوة صلواتها. وكانت كاترين تنظر الى هذا الرياء باستفظاع. فلاشك ان أختها تخضع الآن للقيصر: لقد انتقلت الى معسكر الذين أمروا بشنق غريغوري.

كانت هيلين تتعلم البيان والغناء في الدير. وكانت كاترين تحسدها على ذلك لانها كانت تعشق الموسيقا، ورجت أمها أن تجعل لها من يعلمها العزف على البيان والغناء. لكن ذلك لم يكن ملائماً في السفر الدائم. وهناك متسعٌ من الزمن. ثم إن السيدة «سيمونيدزيه» التي كانت تُؤثر هيلين في سرها كانت واثقةً من أن كاترين لاتملك أي استعداد للبيان. فليس صالحاً للصوت ان يُدرَّس الغناء في وقت مبكّر.

الحق أن كاترين أخذت تحس منذ ذلك الوقت بآثار التفضيل الأموي. وكانت تتألم من ذلك. ولم تتردد السيدة «سيمونيدزيه» بالرغم مما يحمله الديرُ من تناقضات لجميع أفكارها، في أن تدع ابنتها البكر فيه، لأنها كانت تعدها لطموح اجتماعي عظيم عظمة محبّتها لها دون غيرها. كانت هيلين جميلة جدا!. ومن الواجب ان تملك ذات يوم جميع الحلي والدنتيلا والترف. كل ماكانت السيدة «سيمونيدزيه» تعلم جيداً أنها لا تملكه إلا لبضعة أيام، وماكان كافياً لتجريدها منه. كلّياً، فيما بعد، الشيء اليسيرُ، بضعُ تجاعيد، ذلك الجلدُ الذي لم يعد الى سابق عهده.

- ٣ -

كان عمر كاترين ثماني سنوات. في السنة التي استأجرت فيها أمها في باريس شقة كانت آخر ابّهتها. ماذا كان بالضبط السيد «ديريس»، لم تتساءل كاترين عنه، لكنها كانت تكره شاربيه عندما يقبلها.

كان السيد ديريس بائساً جداً في بعض الأيام عندما كانت السيدة «سيمونيدزيه» تلومه على غناه وعلى اسطبله. وكانت كاترين تلعب بين النمارق والأثاث الخشبي الأسود واللعُب الست التي حملها إليها السيد ديريس والتي كانت تفضل عليها بتحيز مشبوب دميةً «تونكينية» من الكرتون المقوى، اشترتها أمها من الجادة، من دكاكين رأس السنة.

لكن السيد «ديريس» كان مشغولاً جداً، وكان هاهنا في الغالب بعض الشبان وبعض النساء يتحدثون ساعاتٍ طوالاً عن الكتب التي كانت «ماما» تقرؤها. ابسن، ميربو. كانت كاترين تتمنى لو أن أمها قرأت لها «ميربو». كانت تتخيل هذه الكتب التي تثير كل هذا الكلام كأنها خمرٌ. كتبٌ الجوُّ فيها دافىءٌ أبداً مع شمس ساطعة، والرجال فيها جميلون وطيبون جداً، يضطهدهم المجتمع ويُغرمون بفتاةٍ يهربون معها الى بلاد عجيبة فيها عصافير خضرٌ وأغانيّ.

كانت السيدة «سيمونيدزيه» تقرأ، وكأنها أحست في نفسها بالشيخوخة. كانت تريد أن تعرف هؤلاء الرجال الذين كتبوا هذه الكلمات التي تجد فيها ضرباً من المخدر غير المجدي، على نحو مأساوي، مخدر ضد الحياة الهاربة. كانت تكلم كاترين كما تكلم كاترين دُماها: سوف ترين ياعزيزتي، سوف ترين السيد الذي سيأتي... إنه جميل جداً وعيناه صافيتان... لا، ان عينية سوداوان... وهو كاتب كبير، شاعر!.. لم

تري مثله قط، سوف يفاجئك . . . ويجب ان تكوني عاقلة وسألبسك فستانكِ الأخضر، ولن تذهبي الى النوم . . . وهو يدعى «لوران تيلاد» . .

كانت السيدة «سيمونيدزيه» تنشد أغنية للفوضوية وكاترين تنتظر طوال اليوم وهي تردّد لدميتها التونكينية: «يجب أن تكوني عاقلة . . سآخذك معي . . » ومنذ الساعة الرابعة بعد الظهر كانت تنوّم جميع الدمى الأخرى بقسوة تلامس الطغيان وبشراسة، من أجل زيارة المساء.

أحد المؤلفين الأثيرين لدى السيدة «سيمونيدزيه» كان «مارسيل شوب». كانت تدهش من أن صوته لايصل، لا الى هذا الجمهور البليد الذي يتكوّم مساء في «الباليه رويال» وفي «النوفوتيه»، لكن الى تلك الكتلة الشعبية الهائلة التي من أجلها لاتفوّت فرصةً لإظهار تعاطفها العدواني. في الحقيقة: كان الأمر مع «شوب» مشابهاً لما هو عليه معها: كان يفصله ضرب من اللعنة عن الجماهير التي من أجلها وُلدت كلُّ كلمة من كلماته. وكذلك السيدة «سيمونيدزيه» التي كانت تستشعر بحدة متزايدة، مايقطعها عن عالم بأسره، ألم تكن من حزب العمال الذين نراهم يمرون في الشوارع وعلى الكتف حقيبة للأدوات؟ لكن ما اللغة المشتركة التي يمكن ان تكون بينها وبينهم؟

انتهت السيدة «سيمونيدزيه» بأن التقت «شوب» وتحدثت الى كاترين بحرارة عن امرأة محظيها الشابة. كانت ممثّلة. وقد جاءت هذه ذات مرة الى البيت. كانت جميلة جداً ترضي ذوق كاترين التي حلمت بأن تكون ممثلة ومتزوجة كاتباً كبيراً.

مَنْ الذي جاء ذات يوم بهذا الرجل الطويل والهزيل، بلحيته السمراء المقرنة، وبسحنة الذين عاشوا في المستعمرات، وبجبهته العريضة؟ لم تستطع كاترين ان تتذكر ذلك فيما بعد. عاد ثلاث مرات أو أربعاً وكان يتكلم عن الأرجنتين؛ وفهمت الصبية أن الأرجنتين كان البلد الذي جعلها اسمُ

«ميربو» تحلم به على نحو لافكاك منه. كانت تصغي، وهي لابدةٌ عند أمها، حكايات غابات «غران شاكو»، والسهول المدارية حيث تمر على الأعشاب العالية مترين أو ثلاثة العصافيرُ الطنانة التي ستحل محلها في يوم من الأيام شرارات حريق مفاجىء. وكم كان مشغوفاً بوصف اللهب، ذلك الزائر! كان يدعو هذه الأيام التي تهيمن فيها النار على أفقه أيام الفصح الأحمر. كان يتحدّث عن قراءاته هناك، وعن الحشرات التي يجمعها. لم تكن كاترين تجرؤ أن تطلب منه ان يريها فراشاته. وكان واضحاً انه رجل جدّ فقير، وكانت السيدة «سيمونيدزيه» تتكلف تكلّفاً شديداً وهي تحدثه قائلة انها تود لو تعيش هكذا، بعيدة عن كل حضارة، قريبة من تلك الأمم البدائية التي لاتعرف فظاعة الآلات والاستغلال، وسيطرة البرجوازيين الدامية.

كان الزائر يهزّ رأسه، وعلى جبينه المرتفع كانت كاترين تتابع عروق التفكير المرئية. لم تكن تفهم كل ما كان يقوله، فإذا كفّ عن الكلام على الأرجنتين، تأخرت هي بعده في بلد العجائب ذاك حيث القرود الزياطة والتماسيح والأسودالأمريكية تزّين لها ذلك الجو المعهود، ذلك الجو المختار، عندما تقرأ لها أمها «الجغرافية العامة» «لاليزيه ريكلو».

هذه الزيارات القليلة تركت فيها أثراً عميقاً وهي تتذكر الزيارة الأخيرة مع أن لاشيء مدهشاً قد حدث، في نهاية الأمر، كشيء جليل أوكشيء ينبىء بأحداث عظيمة. تكلم عن طفولته، وحينئذ ارتعشت كاترين حين تصورّته صغيراً، مثلها، رفيقاً تتطلع معه الى مصورات الأطلس، وتقاسمه لعبها. لانه كان سيأتي ليلعب في بيتها وكانت ستقبله لتُدفئه عندما يصل من الشارع البارد، وستعطيه لقمة ممسوحة بالزبدة، وشيئاً من الكاكاو. أكانت له إذ ذاك تلك العروق المفكرة في جبينه الطفولي في قريته في «الاردين» حيث كان يحرس الحيوانات ويفكر ساعات طوالا على حافة

المستنقعات المحفوفة بالأسرار؟ وعندما كان الحلواني «كوربيه» في باريس يضربه لأنه تسكّع أثناء عودته الى الدكان؟ وفيما بعد، في سيدان، أمام فرن تسويط الحديد، في الثالثة عشرة، وهو عارٍ حتى الزنار، وقد انهكته كتلة الحديد البالغة الثقل وهو يقلبها مع أنفاس الفحم الفظيعة، والنار على وجهه؟ والجزائر، بمصنع الأحذية العسكرية، والسجن، والعمل المزري بعيداً في الداخل، في مقلع للجبس، والحميات والمستشفى.

شاهدت كاترين دموعاً في عيني أمها. لم تكن تعلم كثيراً عن أي شيء دار الكلام، بكثير من الإبهام، لكنه شيء سوف يحدث. كان ذلك مساءً، وككل المرات لم يكن هنا سوى السيدة «سيمونيدزيه»، وكاترين، والزائر.

كان يقول وهو يداعب شعر الصبية، كم يبدو له حضوره هنا غريباً. كان يعيش عيشة بائسة جداً في أرباض المدينة. وكانت له ابنةٌ أكبر قليلا من كاترين هي «سيدوني». وكان يكسب عشرين فرنكاً في الأسبوع عند دباغ جلود. كان لابد له من غرفة لدراسته. ومن أجل ذلك ألم يكن من الواجب ان يدفع على الأقل أسبوعاً سلفاً؟ وحينئذ لا تعود كاترين تسمع شيئاً. كانت تحسد «سيدوني» وتتمنى ان تعرفها. هل كانت «سيدوني» في الأرجنتين؟

كيف تصرفت السيدة «سيمونيدزيه»؟ وأعطت مالاً لزائرها. كانت كاترين واثقة من ذلك، وكانت خجلة من ذلك، ومصعوقة، خوفاً من أن يرمي الرجل المال أرضاً، ويتفوه فجأة، بكلمات فظيعة.

لكنه كان هنا جامداً، لحظة الانصراف ويده مفتوحة، وفيها قطعة ذهبية بعشرين فرنكاً، وهيئته زرية. قال: «اشكرك، سيدتي، وأصبح معي مايكفي من أجل الحقيبة. لكن يجب ألاّ نتلاقى أبداً»، انغلقت يده على القطعة الذهبية وضغطت عليها كأنها سلاح. كل ماقالته السيدة «سيمونيدزيه» وهي ترتجف قرب الباب: «فيما بعد»؟

– الاحتمال قليل، سيدتي، أو على الأقل، مَنْ يدري؟ عندما أدافع عن رأسي. .

كانت الزهور متناثرة في المنزل، وعندما ظلت السيدةُ «سيمونيدزيه» وحيدة، لم تعد تستطيع تحمل مرآها. كانت تطوف الشقة، سعيدة بكل شيء لأنها تصورت تجريد تلك الشقة من زهورها. توقفت أمام المرآة وقالت للصبية التي نسيت أن ترسلها الى السرير: «أأنا بشعةٌ إذن الى هذا الحد، كاتيوشا، أم أنني صرت عجوزاً. ؟

في عيد القديس نيكولا، حمل السيد «ديريس» الى كاترين بيتاً للعبة وخمس غرف وجميع الأثاث الصغير، والمطبخ مع أوانيه والصحون؛ هديةٌ أعجوبة. استقبلت السيدة «سيمونيدزيه» هذه الهدية استقبالاً سيئاً، ورفضت وهي غاضبة أن تضعها مساء على خف الصغيرة في المدفأة. رأت في ذلك بلاهة، وسلّمت الهدية مباشرة الى كاترين، وشرحت لابنتها، أمام السيد ديريس المذعور مسخرة القديس نيكولا وعيد الميلاد، وكررت انه لم يكن هناك إله ولا قديس يدعى نيكولا، لكن مع ذلك ينبغي لكاترين ان تقبل هديّة السيد ديريس وأن تشكره. ، فعلت كاترين ذلك وهي جدّ متضايقة، وأدارت عينيها، بينما كان السيد ديريس يتمتم انه لايد له في الأمر وأن ذلك هو يسوع الطفل، وبناء عليه عومل كما يعامل الغبي بالذات، فغضب وانصرف خجلا وحرن مدة أربعة أيام.

في نهاية هذه المدة عاد الى الظهور وهو مرتبكٌ أشد ارتباك طالباً الصفح بالهدايا وبالورود، ولم يكن في وسع السيدة سيمونيدزيه التي ظلت تكلمه بطريقة مزدرية إلا أن ترضى، لأن هذا الصباح كان استعراضاً لا انقطاع له للمموّنين. فكانون الأول شهرٌ مخرّب. وقد طلب حظوتها ليصطحبها هي وابنتها للعشاء في أحد المطاعم الكبيرة من مطاعم الجادات. فنال ماطلب.

كانت السيدة «سيمرنيدزيه» رائعة هذا المساء، وكان للصغيرة فستان مصنوع من قماش ثياب أمها. ومن النافذة، أبصرت عربة السيد ديريس. دخل الشقة، وأنبأت الخادمةُ التي كانت تضع قبعة من «تور» السيدة أن شيئاً ما قد حدث للسيد لأن هيئته لاتبدو حسنة.

لم يُرخ «ديريس» الذي تهالك على مقرأة الصالون الصغير، صحيفة «الوطن» التي كان يمسك بها وهي مفتوحة والتي يمكن أن يُشاهد فيها بالفعل أن شيئاً ما قد حدث من حجم العناوين وحدها. ولم تعد واردةٍ مسألة الذهاب للعشاء في المدينة، وفي مثل هذا المساء! إذ أن قنبلة ألقيت بعد الظهر، على مجلس النواب، في الوقت الذي أوشك فيه الكونت «دي مونفور» على الكلام بالذات، ولايمكن التنبؤ حتى الآن بعدد القتلى! فوضوي، دون شك. «رافاشول» يبدأ من جديد. ما التأثير الذي سيحدثه ذلك في البورصة؟

- وِ «ديريس» الذي كان يضارب على الغلاء! كان «شارل دويوي» بطولياً. كان يرأس الجلسة فقال على الفور بعد انفجار القنبلة: «أيها السادة، الجلسة مستمرة!» وفي غضون ذلك تعرض للهرس الأطفال والنساء في الأروقة.

ردّد «ديريس» للهرس، ورسمت يده التي لم يخطر له حتى ان ينزع قفازها، دائرة سهلة وكأنه يحرك ذلك الهريس في قدر خيالي. وسُميت الضحايا: اللواء بيو، البارون جيرار، الكونت دي لانجوينيه، الراهب ليمير.. هذا لقي جزاء مايحمله من أفكار! لكن هل سنعود مع ذلك، الى أيام ١٨٩٢ الكالحة، واعتداء شارع «كليشيه»، والقنبلة عند «فيري! القنبلة الآن في «الباليه بوربون» وغداً سننُسف جميعاً!

سألت السيدة «سيمونيدزيه»: هل أُوقف الفوضوي؟ ربما، فقد أُوقف جميعُ الناس حينئذ.. لاشك أن في هذا الزحام..

حزنت كاترين كثيراً لأنها ارتدت ثيابها دون جدوى، ورأت ان كل ذلك لايجوز ان يحرمها من المتعة. وكذلك السيدة «سيمونيدزيه» لأنها أصلحت شعرها أمام المرآة وقالت بكل مالدى القوقازية من فتنة وكلال في صوتها: «هيّا ياصاحبي، عد الى روعك! بي شهوة للشمبانيا لأتقاوم. اذهب، بينما نرتدي نحن ثيابنا، وأتني بزهرة كاميليا: إن فستاناً بلا زهر ليبدو حقاً غير تام..

كان لابدّ من طرد «ديريس».

– ٤ –

عندما ثبت تماماً أنه مامن معجزة بقادرة على ردّ رونق الشباب المتلاشي الى حياة السيدة سيمونيدزيه، وعندما أرتها المرايا هذه التجاعيد الصغيرة التي لاتنتهي قرب العينين، وهبوط العنف المبكّر، مما لايسمح بعودة الأمل، وعندما قدّرت الموارد الهزيلة التي بقيت لها فإن المشكلة التي طرحت نفسها عليها هي ان تعلم هل ينبغي ان تسحب هيلين من المدرسة الداخلية الأنيقة التي وضعتها فيها.

لم يخطر لها ولو لحظة واحدة ان هناك بيوتاً للتربية أرخص من التي تستطيع فيها ابنتها الصغرى وابنتها البكر أن تدرسا فيها. إن كاترين لاتُعدّ أكثر من حيوان صغير، أما من أجل هيلين، من أجل أن تسمح لهيلين ألا تسقط، فقد باعت هذه الأم المتحيزة كل مايكن أن يُباع. ذهبت الدنتيلا والحليّ. تنازلت السيدة سيمونيدزيه شيئاً فشيئاً عن كل ماتملك. لم يعد «وورت» وارداً منذ زمن بعيد.

حتى الخيّاطة البسيطة التي تعمل في المنزل بحسب صحف الأزياء غدت ترفاً لاسبيل الى تحمله، ولم تعد تأتي إلا لتطلب الأقساط المتأخرة. كانت كاترين هي التي تذهب لتشق الباب وتزعم ان أمها ليست هنا، فتتلقى

بخجل شكاوى الخياطة. إذا كانت السيدة سيمونيدزيه لاتستطيع ان تدفع الخمسين فرنكاً دفعة واحدة فلم لاتعطيها إياها عشرة عشرة؟ لكن العودة هكذا خمس مرات أو ستاً لتطلب مالها، في حين عليها أن تشتغل وأن هناك أفواهاً يجب ان تعطمها. . ! وفوق ذلك هذا الصعود الى الطابق الخامس. كانت عينا كاترين تفران من عينيها.

لكن هذا الطابق الخامس غداً ترفاً يجب التخلي عنه. حينئذ بدأت الجولة على الغرف المفروشة، ثم على غرفة الفندق التي تترُك ذات يوم بعد أسابيع طويلة تتعذب فيها بنظرات الخدم وأصحاب الفنادق، والحَصْر بعد كل دخلة وطلعة، من السؤال المُرعب، والدرج الذي يحرق القدمين، وصعوبات غسل الثياب.

انتقلت الى منزل عائلي قرب «اللوكسمبورغ». عندما سُحبت هيلين من المدرسة الداخلية كان عمرها أربعة عشر عاماً وكان لها تصرّفات السيدة. دامت ثياب المدرسة بعض الوقت، وكانت كاترين تقارن بغيرة ثيابها بثياب أختها. وكانت هيلين تقضي، في كل يوم، ساعة من التدرب على بيان الصالون، وهي تنغّم. فاسترعت انتباه السيدات العجائز وبعض الشباب الماكرين الذين كانت تعزف لهم من شوبان، من لحنه الحر، وهو موضع نجاحها.

كانت كاترين تظل قابعة زمناً طويلاً في ركن من الصالون قرب غطاء مزهرية مغطى حيث تذوي نُخيلةٌ، في ظل نصف العتمة التي تحافظ عليها صاحبة المنزل حتى عندما تعزف الآنسة هيلين على البيان لأنها كانت تعزف عن ظهر قلب، لكي لا تُبهت الشمسُ الأثاث الملفوف، على كل حال، بغطاء واقٍ.

كانت كاترين تشعر بعواطف جد لئيمة تكبر فيها. كل ماكانت أختها تملكه، ومالم يكن وارداً ان تملكه كان يسبب لها ألماً فظيعاً. ولاسيما

الموسيقا. كانت تتوسل الى امها أن تكلّف من يعطيها دروساً. ولم يعد ذلك في الحقيقة، ممكناً. كانت كاترين تنسل كالسارقة الى الصالون عندما يكون خالياً، وترفع غطاء البيان، وتنظر طويلاً الى ملامسه المصفرّة. وكانت أحياناً تمرّر بسرعة شديدة يديها على ملامسه، وترتعش بكليّتها. وشيئاً فشيئاً أخذت تتجاسر.

وذات يوم فاجأتها السيدة «سيمونيدزيه» وهي تعزف لحناً سمعنه امس في مغنى مقهى حيث كنّ ثلاثتهن، لكنهن اضطررن أن يغادرنه على عجل بسبب فظاظة جار أخذ يتثاقل على هيلين. في هذا اليوم أسفت السيدةُ سيمونيدزيه لأنها لم تفكر في تلك الأزمنة السعيدة، أن تكلف لابنتها مَنْ يعلمها الموسيقا. وأوصت هيلين. ان تحاول اعطاء أختها دروساً في الموسيقا.

أحست كاترين التي أهينت إهانة عميقة، ان عليها ان تختار بين كرهها لاختها وشغفها بالموسيقا. وكانت هيلين من جهة آخرى تكره أن تُعنى بالصغيرة. كانت تسحقها باحتقارها لأنها لم تكن تستطيع من أول مرة ان تعزف لـ «غريغ». . والحقيقة ان كاترين استطاعت بسرعة قصوى ان تعزف على طريقتها، اي شيء بعدم دقة الجهل والغريزة في حين لم تكد تعرف قراءة العلامات الموسيقية. وكان ذلك ايضا يغضب أختها التي كانت تقاطعها لتجلس مكانها ولتعزف مايُسمى عزفاً.

ثم إن الدروس سرعان ماكانت تُقاطع بسبب دخول شبان كانوا يغازلون هيلين، الى الصالون - شبانٌ من الأقاليم لم يكادوا يتركون أهلهم الذين وضعوهم في فنادق عائلية لأن هذه البيوت هي التي لا يستطيعون ان يصطحبوا البنات اليها. كانوا ينحدرون من أسر كاثوليكية بقباتهم العالية، وربطات العنق المنتفخة التي علّق في وسطها دبوس ذهبي صغير، وهو هدية التناول الأول. كانت أساليبهم سليمةً جداً، لكن منافقة، وكانوا يحتالون ليلامسوا شعر هيلين، وليمسوا يديها في أدراج الموسيقا حيث كان لابد دائماً

من البحث في السفط بأسره عن تدريبات البولكا الممزقة للعثور على لحن موزار أو هاندل الذي يُبرز مافي غناء هيلين الخفيض والغريب من قيمة، وهو غناء كانت كاترين ذاتها تستشعر سحره فيما وراء البحار.

في سن العاشرة كان لكاترين إزاء الرجال فضول خارق، وكانت عيونهم التي تحط على أختها تسبب لها ألماً أوجع من غيرتها الموسيقية. وفي اللوكسمبورغ حيث كانت تذهب لتتنزه وهي لاتفكر لحظة في أنها يمكن أن تصاحب أبناء جيلها الذين كانت ألعابهم الصاخبة ترعبها وتبدو لها صبيانية، كانت تشرد ساعات بينما كانت أختها تعزف في الصالون، وكانت أمها التي لاتنهض غالباً في الشتاء حتى الليل تتوانى في سريرها، في غرفتها، تقرأ وتقرأ وتقرأ بلا انقطاع وهي ترمي بأعقاب سجائرها في كل مكان من الغرفة التي ملأتها بالدخان.

لا، لم يكن الأولاد هم الذين يجتذبون كاترين في هذه الحديقة التي كانت تؤثر زواياها المنفردة، لامن أجل الوحدة فيها، بل من أجل صفة الأزواج الذين تصادفهم فيها. كانت تستند على شجرة، وتستغرق، وهي تتظاهر بالتأمل، في مشاهدة العاشقين. أو كانت ، في ساعات الازدحام، تسير في ذلك الجزء من الحديقة الذاهب من رصيفها الى ملتقى طرق «ميديسيس» ناظرة الى زمر الشبان وهم يضحكون ويثرثرون وكأنهم عالم من الأسرار الفرحة، والى أولئك النساء اللواتي يختلطن بهم بكثير من الوقاحة التي لاتُفهم، والكثير من الفساتين الجديدة التي كانت كاترين تحلم بها، وهن مبَوْدرات مخضبات، حمراوات الشفاه.

كانت بعيدة جداً عن أمها من جراء عودة هيلين. بيد أن شيئاً قرَّب بينهما سنة ١٨٩٧ عاطفة مشتركة، لقاء «كرونستاد» والتحالف الفرنسي الروسي. ثورة فرنسا، أرض الحرية تتحالف هكذا مع الجلادين الروس!

كانت السيدة «سيمونيدزيه» تقول إن القيصر سيطلب من «فيلكس فور»[1] تسليمه جميع اللاجئين الثوريين، العدميين. كانت الصبية تحس والرعبُ يمنع عنها النوم، بضيق هذه الأرض التي لن يكون عليها عما قريب وسيلة للاختباء، لن يكون عليها عما قريب الا كما كان الأمرُ قديماً، وهو اجتياز الحدود المحروسة متنكرات للهرب من كابوس ذلك البلد، وكأنه فرار من العصور الوسطى الى ايامنا هذه، لقد كرهت كاترين «فيلكس فور».

كففْن عن مغادرة باريس. كان هذا هو أعظم تعديل على حياة آل سيمونيدزيه. وحتى في الصيف، عندما تكون المدينة خالية، واللوكسمبورغ» مهجورة من الشباب، وفريسة للمراضع، والخادمات والأولاد الذين يصنعون فطائر من الرملْ دون رمل، ويمصون الحجارة، كان أفق كاترين يظل هو نفسه. وفاجأت ذات يوم هيلين قرب ينبوع «ميديسيس» مع شاب لم تكن كاترين تعرفه، كانت تلك ضربة قاصمة. احتقرت اختها ومضت راكضة.

على مائدة الضيوف في الصيف، حلّ غرباء كثيرون محلّ الشبان الكاثوليك الذين كانوا يغازلون هيلين. وكانت وجبات الطعام عذاباً لا يُطاق بالنسبة الى كاترين. كانت تتألم من البقع على غطاء المائدة، من استدارة الفوط، ومن الحديث. ولكن استقبلت تغيير مكان إقامتهن الذي حدث حوالي ايلول وكأنه متعة من المتع. مضى على سكناهن في هذا الفندق العائلي ثمانية عشر شهراً. لقد بدا السيد «سيمونيدزيه» في هذه الفترة، جدّ منتظم، ماعدا مرة واحدة، فكانت الأجرةُ تدفع في يومها المحدّد ومن المحتمل أنه سافر في شهر آب وكان في مكان ما في الريف، وفجأة تأخرت الحوالة ثلاثة أسابيع، وأيدت السيدة «جيلوت» صاحبة الفندق، للسيدة

(١) فيلكس فور: رئيس الجمهورية الفرنسية إذ ذاك. . المترجم

«سيمونيدزيه» ملاحظات بحيث ان هذه لم تستطع تحملها، فما أن وصل المال حتى دفعت لها أجرتها وارتحلت.

في هذه المرة، استأجرت الأسرة غرفة واحدة كبيرة في فندق؛ لكن لم يكن فيها سوى سريرين. وكانت كاترين تنام بالطبع مع أمها. وكانت تستفظع ذلك فيزيائياً استفظاعاً يبكيها بصمت، والمصباح مُطفأ: مصباح بترولي كبير، من نمط جد متطور، جدّ حديث بحيث أنه إذا فحّم أو دخن وجب استدعاء الخادم لإصلاحه لأن هؤلاء النسوة لم يستطعن فهم حركة الجهاز.

ربما كان الخادمُ ابن عشرين، وكان غالباً مايقوم بعمله وهو مشمّر الكمينّ. كانت كاترين تنظر الى ذراعيه، وتجد، عبر سهولة الحركات، وتحت القميص، العضلات التي تذكّرها بتماثيل الحدائق العامة. لكن «آلفرد» الذي كان يتمحل الأعذار ليدخل بغتة على هؤلاء النسوة، لم يكن يلتفت إلا الى هيلين، وهيلين لاتعلم حتى بوجوده. هيلين كانت في الشارع تهتم بالبوليتكنيكيين.

في ١٨٩٨ غيّرن أربعة فنادق وفنادق عائلية أو خمسةً، وكانت موائد الضيافة تتناوب مع الوجبات المأخوذة في الغرفة على موقد صغير يُخبأ على عجل في الخزانة إذا ماقرع أحدٌ الباب، والأغذية في مطاعم صغيرة دافئة، مع التدقيق الشديد في الحساب لكي لاتتجاوز النفقةُ الميزانية الغذائية الهزيلة.

وكانت السيدة «سيمونيدزيه» تصرّح دورياً ان ليس من شيء ممكن سوى الفندق العائلي لأنها بذلك ستكون مطمئنة الى أنهن سيأكلن كلّ يوم. لكن الاشمئزاز من الفاصولياء المملوءة بالخيوط، وعودة الصلصلة ذاتها، المخجلة، جعلهن يفُضلن - وليكنْ مايكون - مخاطر المطاعم الصغيرة، الدهن الذي يغمر الطبخ، العجل الكبير، والرقائق المتبلة المشبوهة التي نجد

فيها كل مارُفض من قائمة الطعام امس، والحشوة الرخيصة، والجبن الرخيص المخيّب الذي يضعه النادل على الصحن وهو يؤكدبشكل قاطع: «آمل ان يكون هذا حسن الصنع». وهناك أواخر كل اسبوعين اذ كان من غير الممكن الذهاب مرتين في اليوم الى هذه المطاعم الرخيصة، وكن حينئذ يتوقّفْن في مقهى ليتناولن الحلوى الألزاسية بالكمونّ. وهناك أواخر الأشهر وكن يأبين بكل بساطة الخروج من الغرفة، على ان يطولن أمد إناء المربى. وكانت السيدة «سيمونيدزيه» تقرأ وتدخن. وكانت هيلين تدخن دون ان تقرأ. وكانت كاترين تلصق أنفها بالزجاج. لا الأم ولا هيلين فكرتا قط في أنهما تستطيعان تحسين وضعهما بالعمل. كان المال يهبط من السماء بالبريد، آتياً من بعيد، من السيد «سيمونيدزيه» المريب الذي يملك آباراً من البترول. كان ذلك شيئاً مستحقاً، بشيء من الشح دون شك، لكن دون أي رابط بالحياة. والحقيقة أنهن لم يكنّ يفكّرن في ذلك. كان المال يصل أو لايصل، هذا كل شيء. وبدءاً من تاريخ معين كن ينتظرن ساعي البريد. كن يخشين ألا تكون الرسالة المنبئة بآخر تغيير للعنوان واصلة الى تفليس، وأنها أخذت تلاحق المرسل اليه، الى تركيا أو بطرسبرج. فاذا وصل المال أخيراً دلّلت السيدة «سيمونيدزيه» على أقصى ماتملك من الحذر فأمنت بضع مئات من السجائر دفعة واحدة، خوفاً من أن تحتاج إليها كما جرى في الشهر الفائت، مما يجعلها عصبية الى حد أن يديها ترتجفان اذا بقيت ثلاث ساعات أو أربعاً دون تدخين.

— ٥ —

شارع «بليز - ديغوف» شارع هادىء، ولاشك أن نسوة آل «سيمرنيدزيه» قد لوثّنه لأنهن كن غريبات، وكن ينهضن ظهراً أو بعد الظهر، ويبقين أياماً دون ان يخرجن، ويستقبلن جماعات من الناس، وكثيراً من الرجال، وكن يدخن، ويلبسن على نحو مثير، ولم يكن لديهن

شيءٌ حتى إن الممونّين كانوا يأتون الى البوابة ليسألوها ان كان يمكن حقاً ان يثقوا بهن. لكن مع الزمن، صار هؤلاء النسوة ينتمين الى المشهد، وجاء مستأجرون جدد الى الطابق السابع. فنانون مما سبب المزيد من الثرثرة. كلّمت السيدةُ «سيمونيدزيه» ذات يوم صبيّة من الطابق الأرضي، متسلّقة النافذة وتدخلت الأم في الحديث، واحمرت من السرور لأن المادحة زعمت ان الصغيرة تشبه - شبهاً يدعو الى التوهم - احدى الدوقات العظيمات؛ أحدى خادمات الطابق الثالث التي كان يُلاحقها شخصٌ في شارع «رين» تعرفت على كاترين، فطلبت إليها وهي ترجف ان تمشي بجنبها، وكان جسارة منها أن قبلت، كما قال الجيران: أخيراً تبناهن الشارع.

من عالم السيدة «سيمونيدزيه» القديم قلةٌ هم الذين ظلوا أوفياء. لم تعرف كاترين منهم سوى بعض المواطنين المنفيّين. أما بقية العلاقات فكانت في جوهرها علاقات هيلين: صديقات المدرسة الداخلية، أثناء مرورهن في باريس، لأن الباريسيات لايتابعن طويلاً الصلات التي تبدأ في الدير، في وسط قد تُظنّ فيه هيلين أعظم غنى وأكرم أهلاً. ثم أقرباء هؤلاء الصديقات، وكانوا أكثر التقاءً لها. وأصدقاء الأقرباء. كانت هيلين في الحقيقة جميلة جداً، مع ان عافيتها لم تكن وافيةً، أن ذلك كان يفسد سحنتها أحياناً.

كانت كاترين تحسّ وسط ذلك أنها في غير مكانها، وأنها تعسة الى حد فظيع. كانت الشقة صغيرة ولم يكن فيها غرفة تنفرد فيها عندما تستقبل هيلين أصدقاءها، وعندما تكون السيدة «سيمونيدزيه» في مئزرها ماكثة في غرفتها تقرأ وتتثاوب. كانت كاترين تخرج اغتياظاً، لكي تدع المكان لأناس لم يأتوا من أجلها. لقد اصطنعت وهي في الخامسة عشرة صديقاً لأمها بين المنفيين، يدعى «تسيريتيلي»، كان وسيطاً تجارياً للحنفيات، وثورياً حقيقيا، كما كانت تؤكد السيدة «سيمونيدزيه»، لكنها في الأغلب كانت تظل وحدها.

كان عالم أختها يعكس بأمانة الميول التي حملتها معها من «سان ريمو». كانت تحب العسكريين، وإذا لم يكن جميع اصدقائها، أو على الأقل الذين يسرّون بالعودة اليها، متخرجين بالضرورة في «سان سير» فجلّهم كذلك. وعلى كل حال، كان الآخرون ينتمون الى أوساط كانت الأفكار السائدة فيها هي أفكار الحلقات العسكرية. شبان كاثوليكيون في معظمهم جد متحفظين. وكان يقع ان أحدهم يصطحب بحيلة منه أو بمعارف من الحي اللاتيني، تركياً مثل ذاك الذي جاء يخطب كاترين وهي في الرابعة عشرة. لكن في الأغلب، كانت تمر في الغرف الثلاث من شارع «بيليز ديغوف» نخبةٌ متشابهة من الشباب الذين كانت أفكارهم مناقضة للأفكار التي استقتها كاترين من أمها، أو التي كونتها وحدها متجاوزة أمها.

وعن طريق «ريجيس، رفيق الملازم «ميركورو» في معهد «شارلمان» وقريب إحدى الراهبات، الأخت «سانت ماري دي فلو» من معهد «سان ريمو» إنما أنشأت نسوة آل «سيمونيدزيه» علاقة مع الآنسة «جوس». كانت «بريجيت جوس»، من «بيسيج»، ووصلت باريس، وأبوها ميت. وقد انتظرت السيدة «جوس» أمها، بفارغ الصبر هذا الحدث المتأخر جداً، لتأتي وتستقر في العاصمة. كان المرحوم يدير مناجم في ذلك الجيب الجنوبي (ولدت السيدة جوس في شربورغ) حيث أتلفت أصفى ما في حياتها. والحق يقال أنه لم يكن واضحاً كلّ الوضوح فيم كانت السيدة «جوس» التي لاتكاد تغادر شقتها في «باسي»، لا تغادر النجود ذوات الغرز الدقيق التي أتت على عينيها اللتين يترصدهما مرض كان يبيضهما، فيم كانت أكثر تقدّماً في باريس منها في «بيسيج». كانت تتجوّل قليلاً في الحي صباحاً في أيام السوق، لترى الأسعار وتراقب طاهيتها. ثم أنها كانت تقضي ساعات طويلة في سانت انوري ديلو». لكن ألم يكن من الواجب تزويج «بريجيت».

سيكون مهر «بريجيت» مئة وخمسين ألف فرنك. وكان ذلك أول

ماقالته السيدة «جوس» للسيدة «سيمونيدزيه» عندما جاءت لتراها، إذ قامت علاقاتٌ مدهشة بين هاتين الأمين اللتين يمكن ان ينظر الشاهدُ الى لقائهما على أنه أحد أخطاء الطبيعة التي تُطلع القرنبيط الى جانب «الاروكارية» أرادت السيدة «جوس» ان تتبين في أي وسط ستحل ابنتها، لكنها نسيت ذلك لتتحدّث عن «بسيج» وعن الفظاعة التي تكون عندما تقع الإضرابات في المناجم. خطرٌ، سيدتي العزيزة! وغاز المناجم، وأسرة المهندس «تيسيدر» وبالاختصار، بدت لها السيدة «سيمونيدزيه» سيدة راقية تماماً. وسألتها عن بلاط روسيا وخيل اليها أن الأجوبة مرضية.

لم تكن «بريجيت» بشعة، لكنها لم تكن جميلة. كانت ساقاها على الخصوص، غير سويتين الى حد أنها لدى ركوب الدراجة، صُنع لها الفستانُ الذي يخب والذي لايكاد يكشف عن العرقوب، فكفت عن الخروج صباحاً، واحمرت عيناها من جراء ذلك شتاء كاملاً. كانت معجبة أشد الإعجاب بهيلين، فأصبحت على الفور صديقة لها. كانت جاهلة جداً بباريس وبالعالم على العموم، فوجدت لدى آل «سيمونيدزيه» مايشبه عطر ذلك العالم الرحب الذي ليس يُعرف في «بسيج». كانت طلعات كاترين، وكل تلك الفوضى الصبيانية، لاتكاد تهزها لأنها كانت تجد لدى هيلين مشاركة مُطمْئنة في النظرات الى الدين والزواج، ومفهوماً عن الحب كان كتابه الأعظم هو «الصداقة الغرامية» الذي لايمكن الحصول عليه من مكتبات الإيجار، حيث كانتا كلتاهما مشتركتين، لفرط ماكانت تتنازعه الأيدي، في حي «سان سولبيس». وكانت السيدة «سيمونيدزيه» تنتظر بعين الرضا الى هذه الصداقة الجديدة. كانت تخشى ألا تجد بنتاها مَنْ يتزوجهما إذا لم ترافقا سوى الشباب.

فابتكرت لعبة جميلة جداً هي «بريجيت» التي أخذت تبحث لها عن زوج بين خريجي «سان سير» الذين يزورون هيلين. كانت تردد على كل

منهم ان بريجيت وارثة. وهكذا أثارت الاهتمام بها. وعندها اكتسبت الشقةُ الصغيرة التي كانت تزورها هذه الفتاة الثريةُ الاحترام بالرغم مما لدى هؤلاء النسوة من غرابة الأطوار.

كان «ريجيس» من جهة أخرى يغازل هيلين، وبالتالي فقد عرف السيد «جوس»، وكان من الطبيعي جداً، أن يخرج مع الفتاتين. وكان من الطبيعي جداً ايضاً ان يضموا إليهم في هذه الطلعات الملازم «ميركورو» صديقه، الذي كان له شاربان أشقران نحيفان ونظرة فروسية الى كل شيء.. لم تكن بريجيت تحسن استخدام الدراجة، ولا ريجيس ايضا. وسرعان ما صار لهيلين والملازم جولاتهما الصباحية في «الغابة» التي تصل أحياناً الى «سورين» على آليات مستأجرة في باب «مايو» جادة «نوبي» عند دراجات «بوليه». أمام المخزن كانت الدراجة ذات العجلة الأولى الكبيرة، بينما العجلة الثانية صغيرة، الدرّاجة التي بها ربح قديماً المرحوم السيد «بوليه» سباقاً في امستردام. وكانت امرأته، وهي ايرلندية ذات وجه منتفخ ببثور الجدري، وشعر مصبوغ باللون الأسود، تدير المحل الذي نصفه مرآب ونصفه دكان، والذي كان رواجُ الدراجة الصغيرة يجذب اليه جمهوراً من الفتيان الذين كان أولادها يعلّمونهم فن التدويس.

تعلمت هيلين بسرعة ركوب الدراجة وقد أمسك بالمقعد الابن «بوليه»، وهو في بنطال الركوب المنتفخ وجورب راكبي الدراجات، وبلحية حمراء في وجه طفل، وهي بقبعة القش المحطوطة عالياً فوق كعيكة الشعر، وبفستان ذي دوائر يمكن نزع الدائر الأخير فيه، المثبت بأزرار كبّاسة، لتكون مرتاحة على دراجتها. لكن هل تبين الابنُ «بوليه ان هيلين جميلة؟ على كل حال، عندما رآه الملازمُ «ميركورو» ممسكاً بالمقعد، ويده قريبةٌ من هيلين، أحسّ بحركة من الغيرة أنبأته انه عاشق.

- ٦ -

أخذ «ريجيس» الذي أهملته هيلين ينظر الى الصغيرة. كانت أسنانه ناصعة البياض وكانت كاترين تحلم به. لا لأنها اعترفت بينها وبين نفسها أنها مغرمة به. لا. لايمكن ان يكون بينها وبينه شيء جدّي، لانها كانت تشعر أنه أدنى منها، ولم يكن يفهم شيئاً. لكن كان له ضربٌ من الأناقة والقوة، فلم تتمالك نفسها من الرغبة في تقبيلة مساء وهما ذاهبان الى معرض «نويي»، وشغف كما يشغف الأبله وهو يصيب الهدف في «الرماية العامة» بينما كانت تمرّ على خلفية سوداء الغلايين والجمالُ والراقصات، وكل هذا يتحرك ببطء من اليمين الى الشمال، وهو أقل بياضاً من أسنانه عندما يضحك بعد أن يصيب الهدف.

في عربة «الاوربين» عند العودة (وقد أضاعا ميركورو، وبريجيت، وهيلين حوالي «بيزون) كاترين هي التي ارتمت على عنق ريجيس. دهش كثيراً، وسعد كما يسعد الطفل الذي تبدأ له حياة جديدة. بالطبع، ظنّ على الفور أنه يستطيع ان يفعل اكثر من ذلك، فوثبت كاترين الى الأرض من العربة وهي سائرة ولم يجرؤ على اللحاق بها.

كان ذلك بحذاء السين – انصرفت كاترين بقدر غير قليل من المرارة لأنها هربت من اليدين الخرقاوين لهذا الفتى الطويل، التائهتين بين تنانيرها. لقد دار رأسها من القبلة، أول قبلة في حياتها. لكن، مَنْ كان «ريجيس»؟ ابن قاض. كان أبوه قاضياً محلفاً في دعوى «أميل هنري». وكان هو نفسه يدرس الحقوق ويعمل في المعهد الكاثوليكي. لم يكن يفهم شيئاً. ربما كانت مسائل الحب دون اهمية بتاتاً، لكن كاترين لم تكن واثقة من ذلك. ثم كان هناك هذا الخوف المبهم من الأمومة، على كل حال، غير «ريجيس». عابر سبيل ولا «ريجيس» أخافها رجلٌ يتبعها. حثّت خطاها. لو ان الرجل وضع

فقط يده على ذراعها، لتبعته الى الفندق. وجد أنها تغذ السير لم يكن الوقت متأخراً، الساعة الحادية عشرة، . لكن مع ذلك . .

في اليوم التالي جاء «ريجيس» ليراها وهو يحمل ورودا: اشتهت ان تضحك، وحاولت ان تتذكر الآخر على الرصيف. رجلٌ ابن ثلاثين، عاطل عن العمل. سعى «ريجيس» لكي ينفرد بها. كان ذلك فوق احتمالها. وكان لابد ان يدور رأسها.

ومع ذلك خرجا معاً، وشاركت ريجيس في التسليات التي رآها لائقة بفتاة.

وهكذا قادها الى النادي الكاثوليكي في شارع «فانو» حيث كانت تقام الاحتفالات تحت عين الكهنة الذين كانت حللهم السوداء تخفّ، في الممرات لملاقاة المدعوين، وتضيع في الجمهور عند مكاتب الإحسان، لتعود الى الظهور عند اليانصيب الخيري، أو قريباً من خشبة المسرح، بين جماعات من الشبان الرزينين الذين يتحدثون في السياسة، بين الأسر الجالسة مع بناتها قرب صوان السفرة. حمقاوات عصيبات يضحكن ويضحكن.

كان بول «جونغنز» سعيداً جداً ان يلقى صديقة «ريجيس» مع مثل هذه الفتاة الجميله، وروسية. هذا المارد الذي من «الفلاندر» والذي كان لأهله مصنعٌ للغزل والذي لم يقدم الى باريس الا حديثاً بعد أن مات أهله وأفلسوا، أصيب بنوع من الانبهار الذي لم يغب عن كاترين. قاست من النظرة الأولى هوه البلاهة في هاتين العينين الزرقاوين، لكنها احست في الوقت نفسه، بأن هاتين العينين تملكان بسهولة فائقة الدوار، ذلك الدوار الذي بدأت تعرفه في نفسها، وتخافه.

كان ريجيس قد حسب حسابه، وهو يأتي بكاترين الى النادي الكاثوليكي ذلك ان هذا النادي كان يمثل كل ما هو راق، وقد تكلم فيه «البير

دي مان» في يوم مضى، وأبان ان هذا الجزء من الشبيبة الكاثوليكية التي تتردد على النادي هي التي حققت أفضل مافي الاشتراكية، وأن الخطر كامن في ترك العمال بلا قيادة، في حين تكفي العودة الى عقيدة المسيح الخالصة لإعادة كل شيء الى نظامه. وكانت رائحة الحرمان تلاحق الراهب «ديغرانج» الذي يدير النادي. وقد وجه اليه الأسقف أحياناً التنبيهات. كان صديقاً للأب «ليمير» الذي كان نائباً في موطن العائلة «جونغنز»، وكان والد «جونغنز» يصوت للراهب، على مايروي ريجيس مع أنه كان صاحب عمل، وفضلا عن هذا، كان ذلك يحسن صورته في نظر عمّاله.

ماكان يكشفه ذلك كله من رغبة في الإغراء، من جانب ريجيس، كانت كاترين تهزأ منه كثيرا: كان ريجيس بكل هذه القصص بعيداً عن حسبانها، ثم ماذا كانت تفهم من السياسة اكثر منه؟ كان «جونغنز» يعود منهمكاً وسعيداً: «ياآنستي: «أترين لقد أضفنا على شرفك، فوق خشبة المسرح علماً روسياً الى باقي الأعلام..» فتحس بالبرد يجتاحها وتقول بتعال: لايمكن ان تفعل ماهو أسوأ ويُضطر «ريجيس» الى أن يشرح أن الآنسة جيورجية، وأن الأمرين مختلفان، وأن جورجياً شبيهة بالألزاس واللورين الفرنسيتين.. تصور الأثر الذي ستتركه في الألزاسية وأنت ترفع علماً ألمانياً على شرفها. ويرتبك «جونغنز» لكنه كان يجهل ذلك، نحن لانعرف الجغرافية في فرنسا الا معرفة سيئة، ولسوف نزيل ذلك الشعار المكدّر. وابتعد وحدث هيجان بين شباب بنظارات مفردة، وصعد راهبٌ شاب سلماً وكان «جونغنز» يجفف جبينه. وأُنزل العلم.

كان هناك حفلةٌ موسيقية، ضجرت فيها كاترين ضجراً شديداً. جاء ريجيس بطالب من «مدرسة شارت» يهتم بالأمور الاجتماعية. حدثها عن الحركة النقابية المسيحية في بلجيكا.

أصيبت كاترين بشيء من الغثيان ولاسيما عندما قال محدّثها وهو يخفض عينيه: إن مراكز الرعاية كانت تحارب لدى العمال الشباب الأفكار

السيئة بالرياضة والصلاة، وأن ماكانت تسعى إليه قبل كل شيء هو العمل على ألاّ يكون لدى الشباب مالٌ لهم. أما أجرتُهم فكانوا يحملونها الى ذويهم. كان ذلك يجعل كثيراً من الأشياء أصعب، وكان الأهل مسرورين لأنهم كانوا يعلمون أنهم بهذا الأشراف عليهم، يسيرون على الطريق الصالحة ليصبحوا رجالاً رصينين وقادرين. كان ريجيس يعبث بقفاز كاترين. وكاترين تفكر في «بول جونغنز».

على المسرح الذي لم يعد يعلوه علمٌ القياصرة تلت التمثيليةُ الحفلةَ الموسيقية. لم يتراجع[١] السيد «سيرنون» أمام أعظم التضحيات لتحسين مصير عماله، لكن العمال الذين ضللتهم خطبُ الاشتراكيين، وحرّضهم «تجار الوعود» لم يتوانوا عن اعلان الإضراب وايقاع مَنْ أحسن إليهم في الإفلاس. إن صرف عامل عنيد لم يكلّمه السيد سيرنون مع ذلك الا برفق هو الذريعة. ويجري النقاشُ بين صاحب العمل ومندوبي العمال. يناقش صاحب العمل بودّ، ويناقش الآخرون باستعلاء، عندما يحمل الخادم النبأ الفظيع: ان السيدة «سيرنون» زوجة صاحب العمل، ماتت وهي تنقذ حياة ابن ذلك العنيد الذي جاء الى المعمل ليخرب آلة. خجل المندوبون وكشفوا عن رؤوسهم احتراماً. وأعلنوا: «لقد خُدعنا، إن باذري الأحقاد والكلمات المعسولة ضلّلونا لكن مثل فعل الحب هذا ينيرنا أخيراً».

استولى على الصالة ضرب من انفعال الاستحسان اختلط فيه التصفيق بهتافات الإعجاب. انحنى جار كاترين عليها: «التمثيلية بدائية قليلاً من وجهة النظر الأدبية. لكن الوقائع صحيحة. لقد حدث ذلك بدقة.. في مكان ما في «الشارنت»... والمؤلف لم يقصر كثيراً. فالتمثيلية شعبية. وسوف تبلغ هدفها. وأنت ترين تأثيرها على جمهور أُسريّ لكنها مكتوبة للمعمل. ماكان يُخشى هو الرأي المُسبق البرجوازي إزاء كل مطلب عمالي. ماكان ذلك ليُفهم اوه! نحن نعرف العمال! لقد تفادى المؤلفُ العقبة

(١) موضوع التمثيلية... المترجم

حين جعل التعارض لابين أصحاب العمل والمأجورين بل بين الحب والبغضاء وهما لدى جميع الطبقات.

قدم ريجيس عصير البرتقال على المشرب. انسلّت كاترين لحظة متعذّرة بعذر، والحقيقة أنها قصدت مكان الخروج. ليكن ما يكون. سيحتفظ «ريجيس» بقفازها وستعود وحدها، وليس شارع «بيليز ديغوف» بعيداً. لحق بها «بول جونغنز» قرب حجرة الثياب.

كان عمره عشرين عاماً وكان يملك ذلك البريق الذي يسبب فيما بعد العدة الوردية. «أأنت منصرفةٌ، ياآنسة؟» تعبت قليلاً في منعه من الذهاب للبحث عن ريجيس. وخرجا معاً.

كيف وجدا نفسيهما عند «بالزار»، هذا ما اعتقد كل منهما أنه من فعل الآخر. كان هاهنا طلابٌ وبنات، ولم يكن في أخلاق «جونغنز» أن مثل الآنسة «سيمونيدزيه». . جورجيا تفسّر كل شيء. كان يقضم الحلوى الألزاسية مع الجعة الألزاسية. كان العمل الاجتماعي هو موضوع الحديث. ولم تهتم كاترين قط طوال حياتها بالرسالة العلمانية، إذ أنها كانت ثملة تماماً بمقاصدها الخفيّة.

تناول جونغنز يديها: كانت يداه رطبتين. كانت الطاولة صغيرة والجيران كُثراً فاضطروهما الى التقارب. أحست بهذا الحضور المجنون يلاصقها، وهو حضور كانت تبرزه مفردات الكلام التقية. واستزادا من الجعة. وكان يُرى من الزجاج ان البرد شديد في الشارع. كانت كاترين تفكر سريعاً بآلاف الأشياء، بينها ذلك الإغواء الغريب في أن تُضم بين ذراعي جارها وأن يشدّها الى جسده الشاب والدافىء قالت: «أين تسكن»؟.

غلط فقال: «في فندق عائلي: وليس مريحاً. .» أحسّت على الفور أنها قد صحت من سكرتها. رافقها حتى بابها بسرعة دون أن يفهم.

وجدت في بيتها ريجيس وهو شديد القلق، وقد جاء يحمل قفازها.

لم تك هنا سوى السيدة «سيمونيدزيه» التي أوتْ الى غرفتها، وتركتهما يتفاهمان وكان يوشك أن يشاحنها. ألفته كاترين لطيفاً، وفي الوقت نفسه لم تستطع تحمّل الضوضاء التي سيحدُثها. فاستنامت بين ذراعيه.

- ٧ -

-صدقيني، يا آنستي العزيزة، أن الفضائل الدينية لدى الطبقات العاملة ستقودها الى الرخاء على نحو مؤكد أكثر مما يستطيع الرخاء ان يقودها الى الصلاح الأخلاقي..

لم يكن «جونغنز» عشيقاً لكاترين ولا «ريجيس» كذلك. لقد قبّلته كما قبّلت آخرين، وبنوع من الحمّى، مارست هذه اللعبة الرهيبة مع الخوف الدائم من أن تتورط أكثر من ذلك. لا لأنها رأت مبدئياً عقبةً، ما، أخلاقية أو غير أخلاقية، تحول بينها وبين تركها نفسها على سجيتها، لكن الاعتبارات الاجتماعية في نهاية المطاف، هي التي صدّتها: لم تكن تريد أن تصبح زوجة لرجل، كانت تخاف ان ترى نفسها معرَّفةً بالرجل الذي تُسلم نفسها له. والخلاصة أن كل ذلك الكلام عن مالك الحب، الذي كانت تجده غير معقول مثلما كانت تنكره في الوقت نفسه، كانت حبيسة له الى حد تخشى معه اللذة وكأنها تصرف بالغد قبل أن تمتلكه.

كان لجونغنز أخٌ أكبر وثلاث أخوات. الكبرى، «مارتا» هي التي كانت تعيل الأسرة كلها، على مايبدو. لقد افتتحت إبان «المعرض العالمي» فندقاً عائلياً للأجانب في «شان دي مارس» بمساعدة السيدة «باكستون» وهي انجليزية تملك رؤوس أموال صغيرة. والحق أن من الممكن ان يُفهم بسرعة ان أهميتها في هذا البيت لاتتعدى معرفتها باللغات، وأن ذلك الزائر الهولندي الذي كانت «مارتا جونغنز» تستقبله كثيراً، السيد دي هوتين، كان يلعب الدور البارز. ولم يكن مايُقال على حشمة هذا البيت، الذي كان يسوده

أعظم الأدب، ولا يتردد عليه سوى الفتيات والأزواج المريحون للغاية. واذا كان للسيدة جونغنز من شيء في حياتها الخاصة، فقد كان يجري في مكان آخر، ولايمس ذلك كرامتها التي كانت عظيمة جداً، إذ لم يكن يُرى شيءٌ من تلك الحياة.

كانت كاترين توافق «مارتا». كانت توافقها على عدم زواجها، على عملها، على تحديها لانتقادات الناس. وكانت تحتقر الأختين الأخريين اللتين تزوجت إحداهما منذ حين، وكانت الأخرى ترافق الفتيات الأجنبيات من الفندق العائلي الى صفوفهن.

كانت ماكرةً، حلوةً، لكنها غير صريحة، في الحقيقة. ثم إنها كانت تحمل في عنقها صليباً ذهبياً صغيراً، وتتظاهر بالتقى مع «سولانج» هذه. وغدت الأختان «سيمونيدزيه» وريجيس وبريجيت جوس، والملازم «ميركورو» من المترددين على فندق جونغنز. أصبح ريجيس أقل انتباهاً لكاترين منذ أن عرف سولانج. وتصادق السيد «دي هويتن» هو والملازم ميركورو بسبب ميل كل منهما للآلات البصرية وللتصوير الفوتوغرافي.

كان أكبر أبناء «جونغنز» وهو «بليز» قد دبر أموره كان يعمل عند صرّاف ويتحدّث في الشؤون المالية. كان يشبه كثيراً أخاه «بول» الذي كان يهزأ من أفكاره الاجتماعية. ولابد من القول أنه كان ذا التفكير الحر في الأسرة. كان يرى أنه يجب طرد الراهبات. وكانت الاشتراكية والمسيحية تبدوان له جديرتين بالاحتقار والسخرية على حد سواء. عقيدتا الضعفاء. كان عبارة عن مصارع يذهب الى حلبة سباق الخيل كل أجد لأنه لابد من ان يشم المرءُ الهواء. وكان مع استعمال القوة مثلما شرح لكاترين التي أخرجها ذات مساء الى «أبولو» حيث انتشرت انشاراً كبيراً رياضة التحلّق على الدراجة. لن نكسب العمال الى جانبينا إلا إذا أمسكنا بهم. لابد من تسيير الأعمال. السيدة «سيمونيدزيه» تفكر كالطفل: هل تتصوّر فقط مايجره من كوارث لا أقول إغلاق الحوانيت بل مجرد اغلاق البورصة؟ نعم. نعم،

بالطبع، الناس يرون في البورصة نوعاً من مغارة «علي بابا»، ومن السهل ان نشخص نظام الحكم هكذا، وأن نرمز الى الفساد، والسرقة الخ. . الخ. . عن طريق هذا الصرح. ثم هناك كل هذا النباح الآتي من الجنوب والذي يُرهب كل يوم المارّة السذّج. والحق أن الجهل السوقي أمام العمليات التي تتمّ فيها شبيه تماماً بالعقول الغليظة في مواجهة الرياضيات العليا. الناس لايفهمون فيتّهمون. ولابد من شخص نحمله أوزار بؤس هذا الزمن الذي لانستطيع فيه أن نحرق السحرة لكن، انظري ياآنسة، ان تفوّق أهل البوصة هو أنهم يملكون القوة. . ويكاد «بيليز جونغنز» يخرق ثيابه بكتفيه. وكانت قبعتُه العالية على رأسه تشير الى أصله الفلاماندي. كانت كاترين تنظر إليه بضرب من الدوار.

كانت تتساءل مع ذلك، إن كان حقاً في جميع هؤلاء الشباب الذين تقترب منهم، مبدأ خفي يتغلّب عليها سلفاً.

كانوا جميعاً يرعبونها، سواء «بول» بمسيحية سكان الضواحي، أم «بليز» الذي لايتوانى عن اطلاق النار على الشعب ليضمّه الى صفّه. ومع ذلك ماالذي كان يصدها عن أن تأخذ منهم ماتريد أن تأخذه، مايريد أن يأخذه ذلك الشيء الذي فيها. . ؟ أهذا هو معنى ان تكون عاهرة؟ لم تكن الكلمة لتخيفها. لكنها كانت تودّ لو تسيطر على الرجال، لا أن تسترعي اكتافهم نظرها ولا رخاؤهم. كانت تودّ لو تتصرف مع الرجال كما يُقبل من الرجل أن يتصرّف مع النساء ولايُحدَّد الرجل بالنساء اللائي ضاجعهن.

وضعُ النساء في المجتمع، ذلك ماكان يثير بخاصة حفيظة كاترين. ومَثَلُ أمها، ذلك السقوطُ المحسوس الذي ترى مشهده أمامها، وتلك الحيوات المنتهية في سنّ يكون الإنسان فيه في أوجه. والحكمُ الاجتماعي الامعقول الذي يسدّ على النساء اللواتي حياتُهن غير منتظمة، الكثيرَ من الامكانات التي لم تكن كاترين تهفو إليها، لكنها كانت بالنسبة اليها مثل تلك الفساتين الفظيعة والثمينة في الواجهات، فساتين تتساءل أمامها أي

جسم مجنون سيرتديها وهي تشعرنا مع ذلك بفقرنا. كانت كاترين، تحسّ بنفسها، وهي عذراء، أنها قد انحطت وكأنها عاهرة.

كل الأدب الاجتماعي الضخم الذي التهمته أصاب كاترين جوهرياً من هذا الجانب من تفكيرها. ومن المؤكد انها كانت تتجاوز الصفحات عندما لاتكون مشكلتُها، مشكلةُ تحرير المرأة، والمساواة بين المرأة والرجل، مدار الكلام، ولو على نحو غير مباشر. ألم يكن التعارضُ الأساسي في المجتمع، التناقضَ الصارخ بين الرجل والمرأة؟ ان مايحافظ عليه القيصر الذي تهيمن صورتُه على أحقاد طفولتها، هو قبل كل شيء هذا الاستعباد للنساء الذي هربت منه أمها. وعلى هذا المهاد كانت ترتسم جميعُ أولئك النساء الرومانسيات من «فيرازاسو ليتش» الى الكونتيس «بيروفسكايا» اللتين كانتا المسببين العميقين للمحبة التي تحملها كاترين للمذاهب الثورية. الثورة كانت المكان المعدّ أخيراً للمرأة. وستكون التدابير الثورية الأولى إلغاء الزواج، والاجهاض الشرعي، وحق التصويت للنساء، . نعم، حق التصويت مع أنه ربما لن يكون تصويتٌ.

كان الأخوان «جونغنز» يُضحكانها، بحرصهما الكامل على لجم العمال، أحدهما بفرط الحب الإنساني المسيحي، والآخر بحرسه البلدي. كانا من غير شك عدوين للعمال، وفي منظومة كاترين كان العمال في صف النساء. ومع ذلك أيضاً أيّ وضع حقير للنساء عند العمال! لقد احتفظت بكل تلك اللوحات التي حملتها من الأحياء التي تنزهت فيها مع صديقها «تزيريتيلي» النساء اللواتي عجزن قبل الأوان، وأرهقهنّ الصبيةُ، في الشوارع، وهن يقمن بأعظم اعمالهن في البحث عن طعام أزواجهن الذي يُعددنه لهم لدى عودتهم من العمل أو من الحانة. نساء مضروبات، زالت نضارتهن. وكانت كاترين ايضاً محبةً للاطلاع على النساء اللواتي يمارسن البغاء، ونساء المواخير، كل هؤلاء الضحايا حيث الفظاعة والمأساوية. وعلى

(١) الغابة: غابة بولونيي Boisde Boulogne المشهورة في باريس.

الجادات الخارجية، رأت رجالاً فقراء بكل قذارة العمل المنهك، يدخلون أحد هذه البيوت التي كان وجودها ذاته بالنسبة اليها شيئاً جديراً بأن يوقظها ليلاً، رجالاً جاؤوا مساء يبحثون عن الأغنيات وعن ضرب من الأوهام الجسدية مقابل بضع فلوس مصرورةٍ في مناديلهم هي ماكان يمكن أن يأكلوا بها في اليوم التالي، من الحفارين والبنائين، الايطاليين ربما، الذين لايستقبلهم شيء في العالم سوى هذه الحانة والغرف فوقها. كانت أفكار كاترين تتجه اليهم، الى شقائهم. لكن مهما يكونوا معدمين افلا يبتاعون نساء؟ وحينئذ يتغير كلُّ شيء. كانوا انصار «بليز جونغنز»، وكفوا عن أن يكونوا معها ضدّ هذه القذارة حيث البورصة والماخور والقيصر ليسوا سوى واقع واحد يجب تدميره.

كانت كاترين في السابعة عشرة، تخضب نفسها ماوسعها ذلك، لأن في ذلك اعلاناً عن حريتها وعن ازدرائها للرجال، وتحدياً لهم، ودخولاً الى ذلك الجو الرومانسي حيث تجدّد نساءُ الغد ذكرى بطلات العصور القديمة.

ماذا كان رأيها في الحب؟ هذا ماسألها عنه الشاب «ديفيز» الذي كانت في معهد اللغات الشرقية والذي ذهبت معه ثلاث مرات أو أربعاً الى جادة الغابة[1] صباحاً، لأنها عرفته هنا عن طريق «بريجيت جوس». كان يُعد نفسه للدبلوماسية، وكان يتعلم اللغة الصينية والروسية: أمعنت النظر في وجهه فرأته فتى جميلاً بالرغم من عرّةٍ في وجهه، وكان يضع قفازاً أسود لأنه كان ينهي حداداً.

«هل سألتك عن رأيك في الشرطة؟» احمرّ احمراراً شديداً، وسألها بمرارة ماذا قصدت بذلك؟ لكن الأمر كذلك دائماً كلما أشير الى الحب. دخلا «الغابة» وشعر «ديفيز»، وهما بحذاء البحيرة، بين الأشجار العارية في آخر الشتاء، بالحاجة الى أن يستعين بالشعر الصيني ليتغلب على هذه الفتاة الصعبة القياد. حدثها عن «اون كيون» التي ألفت «أغنية الرؤوس البيضاء» عندما هجرها الشاعر «سيانغ جو» الى امرأة أخرى:

بيضاء كالثلج على الجبال
بيضاء كالقمر خلال السحب
علمتُ اليوم أنْ قد كانت لك فكرتان
ولذلك سوف أفارقك.
وللمرة الأخيرة سوف أملأ كأسي بالخمر نفسها التي ستملأ كأسك بها ثم سأبحر؛ سأغادر هذا الشاطىء
سأجدف على مياه «يوكيو».
فهي أيضاً تنقسم لتسيل الى الشرق والى الغرب.
أيتها الفتيات اللواتي تتزوجن، أنتن حزينات، حزينات!
ومع ذلك يجب الا تبكين،
إذا فكرتنّ بالعثور على رجل رقيق القلب، يبيض رأسه مع رؤوسكن دون ان يترك أحد كما الآخر.

لكن كاترين لم تسمع من ذلك كله سوى بيت واحد:
«أيتها الفتيات اللواتي تتزوجن أنتن حزينات حزينات!»

تحدّثت بمرارة شديدة عن أمانة النساء، وعن الزواج ما ذلك العار، تلك السوق. وفجأة عرض عليها «ديفيز» أن يتزوجها. وقع ذلك موقعاً غريباً في رأس كاترين التي لم يقل لها أحدٌ حتى الآن . . . لكنها شاهدت في عيني الدبلوماسي المتمرّن بريق الشهوة التي كانت تضطرم لاشعالها . . وماذا يهمها من المارة! دنت منه، وهو لايجرؤ على الحركة، كان طويلاً جداً، فتطاولت على رؤوس أصابعها لكي تبلغ شفتيه.

انتصر الشعرُ الصيني القديم في «غاية بولونيي» لكن كاترين ابتعدت فجأة وقالت ببساطة القاتل: «لا، ياعزيزي، لن أكون امرأتك بسبب هذه العرة في وجهك».

- ٨ -

حطّ السيد «دي هوتين» كأس التوكاي التي قدمتها له السيدة سيمونيدزيه قبل قليل، ونظر الى كل مايحيط به بأدب جمّ: الى صور فوتوغرافية «لانترلاكن»، الى حرير فارسي، الى هيلين التي أمسك بيدها «ميركورو» على نحو جد رسمي، الى «بيلالايكا» معلقة في الجدار، الى الآنسة «جونغنز» وكاترين، وصورة غريغوري.

كان عمر السيد «دي هوتين» من عمر السيدة «سيمونيدزيه» تقريباً، مع معرفة عظيمة بأوروبا. ولذلك استطاع ان يعثر على طائفة من العلاقات المشتركة مع مضيفته. كان بردُ الربيع الخفيف الذي بدّدته نارُ الحطب يصطبغ، في شارع «بيلز ديغوف» بشيء من الرومانسية العالمية، حيث بدت السيدة «سيمونيدزيه» أكثر من أي وقت مضى، أميرة مخلوعة.

كانت بدايات الحرب الروسية اليابانية، في الحقيقة، موضوع الحديث. وكان السيد «دي هوتين» وهو يعيش في فرنسا، جمهورياً. كان يبتسم من فورات كاترين التي رأت في الحرب بواكير الثورة، وتحرير جورجيا والنساء في انتصار الميكادو. لقد قرأ تولستوي. ولم يكن نظام سيبيريا بقادر طبعاً على أن يدوم الى الأبد.

ومليار رهبانية الشارتريين؟ هنا يخرج «ميركورو» من صمته. من ذا الذي سيخلصنا في النهاية من «كومب»[1] وطغمته؟ آه، ليت «مارشان» قَبِل! كانت كاترين من أنصار كومب. كانت تدافع عن اللواء «بيكار». وكانت هيلين تتلظى غضباً عليها. وكانت الآنستان «جونغنز» مدهوشتين.

كانت ارتيابية السيدة «سيمونيدزيه» المساوية بين الأشياء تمر على ذلك كله مع دخان سيجارتها. كان الوجه المتجعد تحت الشعر الرمادي يتغضن

---

(١) كومب: رئيس وزراء فرنسا عمل على فصل الكنيسة عن الدولة.. المترجم

قرب العينين وهما كل ماتبقى من ذلك الجمال الحديث العهد، وكأنهما فحمتان في الغبار.

وجد السيد «دي هوتين» هذه العدمية بالغة التميز. وكانت «مارتا جونغنز» تؤكد بابتسامتها المتردّدة، وبنظرتها الدائرية، أن مايُعوَّل عليه في الوجود، هو في نهاية المطاف مايجري في كوكبنا، وهو مايمكننا التأثير فيه مباشرة: تأمين وجود ذوينا، قيام الإنسان بمهمته اليومية. . أليس كذلك، ياصاحبي؟ كانت نظرتها تستجدي موافقة السيد «دي هوتين» وتجدها غنيّةً بالاحترام، مداعبة على نحو رسمي.

كان الشارب الأشقر للهولندي ينخفض أيضاً في الوقت نفسه الذي كانت تنخفض فيه أهدابه وكأنه يريد أن يسجل بوضوح أكبر التقدير العميق الذي يكنّه لكبرى الآنستين «جونغنز». وكانت الصغرى تتصفح، وكأنما تتصفح غصباً عنها، «المصور» الملقى على منضدة صغيرة من عند «كريجر».

كانت كاترين تحسّ إحساساً حاداً بما في هذا القبول للعالم على علاّته، الذي تعبّر عنه تقريباً كل كلمة من كلمات «مارتا» منذ أن تترك الكلام على الفندق العائلي، وعن القلق الذي يسبّبه لها أخوها «بيليز» أو عن أي هم آخر مباشر، مرتبط بحياتها، بما في هذا القبول من أشياء لاتغتفر، ومن زيف، وبكلمة واحدة من مواضعة. لكنها كانت تتغاضى لها عن ذلك وكأنه فدية لحياة كان نبلُها يؤثر فيها، استقلالُها. كان وضع مارتا الاجتماعي يحجب بالنسبة الى كاترين نقصاً في أحاديثها.

في فندق «جونغنز» العائلي، كانت هناك سهراتٌ بسيطة يلتقي فيها آلُ «سيمونيدزيه»، و «ميركورو» والنزلاء مع أسرة «جونغنز» وزوجان أمريكيان. كانوا يجتمعون في الصالون، ثم تجلس هيلين الى البيان وتغني. كانت آنسات انجليزيات يداعبن ذراعيها ويُحطن بقامتها. كانت تحظى بالنجاح كله.

ثم تُستحضر الأرواح قليلاً أو يلعبون بالورق . كانت «سولانج جونغنز» تسمح للزوج الأمريكين ان يغازلها . وهو حليق الشعر، شبيه بالوحوش .

في أحد هذه الاجتماعات التقت كاترين النقيب «تيبو» . كان «جان تيبو» في المدرسة الحربية ، وكان السيد «دي هوتين» هو الذي جاء به ويبدو أنه كان متفوق الذهن في اختصاصه . سوف يحسن تقتيل الآخرين . وكانت هذه العبارة في فم الهولندي، تملّقاً لأفكار كاترين - كان الشارب الذهبي ينحسر انحساراً عن سن ذهبية . ثم ان النقيب «تيبيبو» كان أمامه مستقبل عسكري باهر .

لقيت كاترين في محيط أختها الكثير من الضباط حتى تقر لهذا بمزية استثنائية . لم يكن يتلكم كالآخرين، لم يكن لديه ذلك المتاع الفظيع والمتشابه من الحديث الذي عرفته لدى الجميع . وإذا ماقرأ جريدة الصباح فلا يمكننا ان نحزر ماذا سيرويه مساء . رجلٌ رفيع التهذيب، لكنه كان معها على الفور خشناً خشونة غير عادية . مع ذلك أحست أنها تجتذبه . وحمدته على صراحة جد عنيفة ، وقدرت إداناته لكل مايمكن ان يعتقده، لأول وهلة ، عالمُ السيدة «سيمونيدزيه» . وشعرت بالحاجة الى أن تبرهن له أنها غير متضامنة لامع «الجونغنز» ولا مع «بريجيت جوس» ولا مع أختها، ولامع «ميركورو» . وشعرت للمرة الأولى ان مجرّد البوح بالحب لن يكون مُقنعاً فاجتهدت ان تغريه إغراء فكرياً وخجلت من فساتينها في اليوم الذي ضربت فيه موعداً مع النقيب للذهاب الى «صالون الفنانين الفرنسيين، فبسطتها على السرير والكراسي دون أن تتمكن من العزم على الاختيار .

كانت حياة النقيب «تيبو» مرسومة على خط مستقيم أمامه . سيغدو ركناً وسيجتاز جميع درجات السلم العسكري حتى أعلاه . وسيأمر . وسيكون قائداً يحبه رجاله . كان طيب القلب وكانت كاترين تشعر بتلك القوة وتلك الطيبة وكأنه هدوءٌ عظيم . كانت تحسّ بالأمن وهو هنا لاكشأنها مع الرجال الآخرين . لم يكن ينتابها أي قلق . لم تكد تعرف كيف كان

جسدياً. لم يخطر لها أن تكون ملكاً له كشأنها مع الرجال المتوسطي الذكاء الذين يوحون اليها على نحوٍ عابر الشهوة المحمومة المثيرة. لم تكن علاقاتهما تواطؤاً. لم يكن بوحٌ بينهما. وجدا من الطبيعي وبسرعة ان يتلاقيا كل يوم. كانا يضربان موعداً لليوم التالي كلما افترقا. بكل بساطة.

لم يكن «تيبيبو» ينظر الى أحاديث كاترين لا كأنها فورات طفل ولا كأنها فظاظات. كان موقفه إزاء ايديولوجية ليست ايديولوجيته موقف العالم ازاء نظرية عليه أن يناقشها. كانت هناك نقطة تسهّل أحاديثها وهي النقطة الوحيدة المشتركة بينهما: كان النقيب لايؤمن بالله. لاشك ان لديه مفهوماً عن الوطن، وعن أشياء شتى من هذا النوع، لكنها أشياء كانت تحتفظ في نظره بطابع الأشياء الصالحة للاستعمال الشخصي. ولم يكن يتباهى بها. كان من أسرة برتستانتية. وكانت كاترين تحسّ من جراء ذلك بأنها مقيدة في حقها في التعبير: وإذا ما استعلمت معه الخشونة اللغوية التي يدفعها اليها الأخرون فقد كانت تستشعر الخجل من ذلك.

وهكذا نشأت ضمناً تربةٌ يلتقيان فيها، من جراء بعض التحفظات؛ وكان يجرهما الى أبعد مما يعتقدان كلاهما نوعٌ من التقدير المتبادل، وانتهيا بأن شعرا أن لاغنى لأحدهما عن الآخر. وولج كلاهما درب البوح بأسراره. كان أول رجل تحدّث لكاترين عن حياته دون أن ينتظر شيئاً من ذلك. والحقيقة انها لم تكن تملك أي تصور للواقع الذكوري: كل هؤلاء الفتية من حولها لم تعرفهم إلا في التصور، هم يتبخترون أمامها، وهي تترصد نقائصهم.

أما هذا فها هي ذي تدخل عليه بكل سهولة. لقد عرفت أمه، وهي أرملة روت له كل ماسبقته من زوجها الرهيب وإن بدّلت الذكرى صورته.

كان مأساة حياتها، من ثكنة الى أخرى، فاتناً لنائبات المحافظين ورئيسات المحاكم. ولم تُفلح الأم، شأنها شأن الدجاجة القلقة، في الاعتقاد بأن ابنها لن يشبه زوجها الذي غاب. كانت تنتظر دائماً ان يرتمي في تعقيدات نسائية، وأن يكون هناك طلقات مسدّسات وأزواج غيارى، وفضائح.

منذ أول يوم أسرتْ كاترين قلبها. كانت كاترين في قلبها خطيبة جان بالرغم بل ربما بسبب غرابة أطوارها وروسيا، والسجائر التي تدخنها مع أطراف طويلة من العنبر، والكعبان الأحمران ذات يوم لحذائها.

بيد أن كاترين لم تنس لحظة ان جان عدو. لكن الشروط التي يظهر فيها التضادُ ماتزال بعيدة ومبهمة. والنزاع بينهما كان يستلزم إخراجاً يتآمر فيه العالم بأسره. وفي نقطة جوهرية لم يكن خصماً لها:

بصفته «رجلاً» لم يكن - وافهمْ ذلك جيداً - خصماً لها بصفتها «امرأة». وذلك ذو اهمية قصوى. كانت تثق به في هذا المجال. في هذا المجال، لن يُسيء، لن يتعسّف في استخدام قوته، كان عاجراً عن ذلك. كان جنديا، لكنه جندي طيب.

قررت ان تضاجعه.

- ٩ -

جرى ذلك بكل بساطة في شهر تموز ١٩٠٤. حملته كاترين على قضاء اجازته في الجبال وعزمت على اصطحابه كان لابد من الغش قليلا، من أجل القيل والقال. من أجل السيدة «سيمونيدزيه» أكثر مما هو بسبب هيلين وميركورو. ومع أن الرحلة قُرِّرت أن تكون رحلة رفاقية، فقد لُفِّقت لها رسالة دعوة من صديقة لبريجيت التي أقحمت في هذا التدبير.

التقى جان وكاترين في محطة ليون وسافرا الى «السافوا». تآمرا على

السفر مشياً على الأقدام. لم يكن مخطّط الطريق مرسوماً بكل تفاصيله، واستغرقت ذلك طائفة كبيرة من الليل في القطار وهما يتشاوران في الطرق والوديان مع الدليل «جوان» ومع كتاب قديم بالانلكيزية لارشاد السيّاح من عند السيدة سيمونيدزيه.

عندما تهيّأ جان في ركنه للنوم، ومنديله ممدودٌ على المسند الذي وضع عليه خده نظرت اليه طويلاً كاترين التي تظاهرت بالنعاس، في غبش الممر، تحت مصباح المقصورة الأزرق عبر أهدابه الطويلة. رأته لأول مرة مثل حيوان لاشيء فيه سوى تنفّسه؛ أحسّت أنها لن تستعيد أبداً حنانها له الذي لعله كان هو الحب. إن نفسه المتساوي، في نومه، أخافها فجأة خوفاً فظيعاً. تصوّرت ثقل هذا الجسم عليها. أغفت ومع الإغفاء انتفاضات الكابوس.

نزلا الى «بليغارد» وقد احتفظ «تيبيو» من المناورات على طول الحدود السويسرية، بالرغبة في أن يجوب منطقة ماتزال غير معروفه من قبل السيّاح. كان شهر تموز هذا ذا حرارة استثنائية، وكان في الحقول من الزهور مالم تر كاترين مثله طوال حياتها. دعك من الخزامى الذي كان اكتشافاً بالنسبة اليها. وكانت الفراشات الحمراء والزرقاء تحوّم فوق الحقول وتنام متلاصقة مثنى على الزهور.

وكانت الجبال في رحلتهما اطاراً عجيباً يولد فيه جان بالنسبة الى كاترين لحياة جديدة. ما أقواه! كان يجري أمامها، يبحث لها عن ماء الينابيع ليسقيها عندما يعييها السيرُ في حرّ الشمس. وكانت الوقفات الرطبة في الاسطبلات التي تعود فيها الحيوانات ليلاً تُظهر تلك السهرات البسيطة التي تعارفا فيها عند آل «جونغنز» وكأنها أحلام مزعجة.

في أول مساء، ناما في «فولبنس» في نُزل نظر إليهما الناسُ فيه باستغراب عندما أخذا غرفتين. ثم تابعا انسلالهما بحذاء الحدود. جميع الذين صادفوهما كانوا يبدون كالمهربين. وفي «سان جوليان ان جينتيفوا»

كلمهما رجال الجمارك وهم متشككون. وعندما علموا ان «جان» نقيب غدوا ثرثارين ألوفين، وتناولوا القهوة معاً تحت الأشجار، قرب عين ماء. وحكوا حكايات ماجنة عن الدنتيلا التي تمرّرها من الجمرك نساء يخفينها حيث تعلم. وإحداهن قامت بهذا التهريب طوال سنوات، ياسيدتي العزيزة، دون أن يستطيع أحدٌ قرصها. وبُلّغنا عنها، فكنا نضايقها في كل مرة. وكانت هناك كشافةٌ جمركيةٌ تعريها كل مرة إلا . . . مع احترامي لشخصك. ويجب ان أقول لك إن العريف «غريناز» كان فتى جميلا، وهو الذي كشف عن ذلك الموضع! لأنه حشرها في زاوية وأراد ان يستغل لقاءها. تخبطت بين يديه دون جدوى. ولم يكن متعوداً ان يقاوَم وكان فتى قوياً. وتصوّرْ انه آلم نفسه. كان هناك مروحة! تضايق جان قليلاً وكانت كاترين لاتنظر إليه.

في «ايترمبيير» بلغا وادي «آرف» الذي أرادا ان يصعداه حتى «شامونيكس». ذهبا للنوم في «انماس» وهناك وبينما كان جان يضطجع على فراشه، فتح البابُ ودخلت كاترين، أصلح نفسه، وهو عاجزٌ عن تخيّل ماوقع. كانت غرفة بسيطة نام فيها الكثير من سائقي العجلات. وكان لحاف السرير الأحمر، الذي لاتُطاق رؤيته في مثل هذه الحرارة، ملقى على الأرض، والنافذة مفتوحة على النجوم، وإناء الماء يلمع قرب الشمعة وعليه عصافير وردية وصيادو سمك صينيون.

كانت أغراض الشاب المرفوعة من كيسه متناثرة في الغرفة. المسدس المرافق على منضدة الليل، والثياب الداخلية غير المطوية تبرز تلك الحياة الحميمة التي فوجئت.

تقدّمت كاترين بكل ما استطاعت من سرعة نحو جان وأحاطته بذراعيها. كان السرير عالياً والمنضدة واطئة. وكانت الظلال، كلما احترقت

الشمعة، تصعد الى السطح، كاريكاتورية ورهيبة. استيقظت ليلاً وهي بحذاء الرجل وبدالها وجودها غريباً. كلّمها بضمير المفرد. استيقظ وتحدثا حتى الفجر.

عطلة الأيام التي تلت. وفيما بعد، في المستعمرات، أو في أسوأ لحظات الحرب، بين صرخات المحتضرين، وفي الدوي المرعب لقنابل الطائرات المتساقطة مثل نوبات السعال، كان «جان تيبو» إنمايلتفت أبداً نحو ساعات الشمس المحرقة هذه، حيث دارت تلك المغامرة التي لامثيل لها في حياة قائد الرجال هذا، بين زهور «السافوا»، فوق الشلال، بكل نزوات الشباب والطبيعة.

قضيا ثلاثة أيام في «بونفيل» وهي مقاطعة فرعية. ثلاثة أيام في الفندق، مع ثلاثة أمسيات متكاسلة عند مخرج المدينة. كفّا عن الاهتمام بمخطط الطريق الذي رسماه في البدء ووزعا فيه الأيام. وبعد بضعة كيلومترات استوقفهما نزل، فاضطرب هدف رحلتهما ولم يعد الجبل الأبيض يثير اهتمامها. كانا يتسلّقان الجبل لكي يعثرا على بعض الأشجار وعلى الوحدة. ساقية. ثم يفاجئهما المساء فيعودوان الى تلك الغرفة البدائية التي اختاراها صباحا والتي جمّلها طبعٌ حجري ملوّن على الجدار. صورة فيكتور هوغو.

نسيا الحرب الروسية اليابانية.

في «مارينييه» حيث تناولا الغداء نزلا، بعد أن قطعا «جيفر» وهو رافد «للآرف» بحذاء الضفة اليسرى حتى «الآرف»، وتركا الطريق. غدت الشمسُ محرقة بحيث ان كاترين أحسّت تقريباً بالألم. غسل جان جبينها بماء «الآرف» البارد. ومع أنهما نُهيا مئة مرة عن شرب مائه إلا أنهما لم يستطيعا مقاومة جاذبية ماء الثلج الذائب ذاك الذي اشتُهر بأنه يجلب الموت. ذلك أنهما كانا في هذه الدقيقة جدّ واثقين من الحياة، بعيدين عن مصاحبة

الأشباح المأتمية، شابين، ليس لهما إلا أن ينظر إليها وتنظر اليه حتى يرتعشا. كانت أيديهما تتلاقى مثل ضحكاتهما. لم يتساءلا متى تنتهي هذه الجولةُ الحقلية: ماذا كانا يؤثران من الليل أو من النهار؟ كانا يضحكان لأوهى الأسباب، ويجريان على العشب، ويمعنان في عمق السافوا. لقد انعدم كل ماكان حياتهما ومشاغلهما. ولايكادان يعثران في المساء، ومن أجل الأحاديث الطويلة التي يختلط فيها شعرُ كاترين الطويل بذكريات الطفولة المجملة، على العناصر المتناثرة في ذاكرتهما عن حكاية عذبة تروى بصوتين متناوبين، حيث يغترف هو كما تغترف هي ماءً بارداً آخر، ماءً ربما كان مميتاً مثل ماء «الآرف» ليرويا عطشهما الى الشعر ورغبتهما في أن يلقي كلٌ منهما على وجود الآخر ظلٌ وجوده.

قضيا وقتاً لانهاية له حتى يقطعا خمسة الكيلومترات، على الأكثر، التي تفصل بين ملتقى نهري «الآرف والجيفر» وبين قرية «كلوز». كان في كل حجر من الشلال من الأسباب مايدعو الى ايقافهما. كانت كل قطرة ماء أعجوبة، واكتشفا في طريقهما عشر طرق يسند فيها كل منهما الآخر، هي أحسن الطرق للمشي وهي ذريعة لكي لايتقدما خطوةً واحدة.

كانت «كلوز» التي وصلاها حوالي الساعة الرابعة ناحية هامةً يبلغ سكانها نحو ألفي نسمة في صناعة الساعات. وقد قيل لهما ان «مدرسة الساعات» تستحق الزيارة، وتذكرت كاترين، اذ هي طفلة، صنّاع «الغابة السوداء» والساعات الجدارية المصوّته التي يصنعونها.

الى حياتهما كلها في الأيام الأخيرة، حياتهما التي رُدّت الى عناصرها القويّة والأولوية، حيث الكشف ذاته عن اللذة، البكارة التي تُركت كما يُترك الثوب، يأتلف مع هذه الهدوء غير العادي لشهر تموز في الجبل، الى حياتهما كلها، حياة العاشقين الجوّالين، كان يبدوان المجاورة الحالمة لصناعة هي ذاتها استثنائية ودقيقة ونظيفة، وقديمة على نحو ما، الى ذلك كله انضاف شيءٌ غير محدّد يُعلّق بجو الوادي والحب نفس جام جاك

روسو المحوّمة التي اعترف كلٌّ منهما أنه أحبها وهو في الخامسة عشرة، متجاوزاً جميع كتاب الماضي الآخرين. كانت أصناف شتى من الأفكار تستيقظ عندهما من تكتكة الساعات الجدارية. ولأن يوجد هناك رجالٌ يصنعون هذه القلوب الصغيرة الخفّاقة التي توضع في الجيوب يبدو الدليل بعينه على أن الإنسان طيّبٌ بطبعه.

استساغ المحبّان هذا الموضوع.

لقد نفذ «جان» في «بيزانسون» الى جميع أسرار هذه الصناعة. كان منطلقاً في حديث تقني عندما بلغا أوائل بيوت «كلوز»، فرأيا موكباً فريداً يدنو.

- ١٠ -

كان يتقدم جمهورٌ، لعله من ثلاثمئة شخص، في ضرب من النظام المشوّش. وقد اختلط بالرجال نساءٌ وأطفال، بيد أن ذلك لم يكن عيداً، وكان هناك أناشيد وضحكات، مع أن في مسيرة هذه الكتلة البشرية شيئاً محدّداً وكأنما هو تخطيط أولي لصفوف رباعية.

في الصفوف الأولى كان يتقدّم الذين كانوا عقل الموكب ومركز الانتباه. وهكذا الأمر في عرس العريسين الجديدين. كانوا في ظاهر الأمر عمالاً في صناعة الساعات في «كلوز»: وهم في قسم كبير منهم، من أصل فلاحي، كانوا يملكون تلك الصلابة التي نلقاها في ريف «السافوا» كله، وإن تهذّبت عبر جيلين شُغلا بالتطبيق الصبور للعجلات والنوابض. كان الشباب في شمس تموز اللاهبة، بالقميص وحده، قد لوّحتهم الشمس، سود الشعر، وقد أمسك بعضهم بأذرع بعض، وبعضهم مع رفيقاتهم، وفي عروات الصدارات شقائق النعمان. والكبار منهم بالمئزر الجلدي والعمرة، وبعضهم بواقية العمل. كان بعضهم يحمل عصاً. وحول هذه النواة تجمع

الأهالي وكأنما انضموا بتواطؤ بدائي، وبالمصادفة، من عمال المصانع الآخرى، ومن أناس ساروا في إثر الجماعة، ومن بنات ضاحكات ورصينات، ومن بورجوازيي الناحية الصغار، ومن الفلاحين.

حثّ جان وكاترين الخطا لملاقاة هذه الجماعة، ولعلهما قد تعبا من وحدتهما، وهما معفران بالغبار بالرغم من ماء «الآرف» ،مع رزمتيهما اللتين كان بول يحملهما على كتفه بينما كانت كاترين تمسك بذراع حبيبها وهي حاسرة الرأس، وقبعتها بيدها، ناظرة أمامها الى البنات المتعلقات ايضا بفتيانهن.

على برميل وأمام سقيفة كانت تُسمع منها ضربات مطرقة، ماء هرٌّ ونبح كلبٌ أصفر صغير، مضحك تماماً، امام الموكب، وهو يتقدمه ويجري جانباً. اقترب الجمهور من بيت يلتصق به جناح من الآجر، وله فناء كبير مغلق بجدار كتب عليه: «مصنع الساعات».

في هذه اللحظة ظهر أحدهم من إحدى نوافذ الجناح لم يشاهده لاجان ولا كاترين، لأن رؤوساً من الجمهور التفتت في هذا الاتجاه، وحدث هيجانٌ في الجمهور، وأسئلةٌ وارتفعت أصوات صائحة، وتحركت قبضاتٌ نحو المباني، لكن الجمهور تابع مسيرته.

شاهد الكلبُ الأصفر الصغير كاترين وجان، فوثب واجتاز الأمتار العشرة التي تفصلهما عن الجمهور وجاء ينبح عند أقدامهما. كانا كلاهما لطيفين لطف الناس السعداء، فانحنيا عليه وحاولا مداعبته، وهو يتهرب من أيديهما بغنجٍ حذر، عندما انفجرت الرشقةُ الأولى. رفعا عينيهما دون أن يفهما.

تجمدّ الجمهور الذي كان مايزال على بعد اثني عشر متراً من المعمل، بعد تراجع، وكأنه انفتح، وكان على الأرض أمامه رجلان نظر إليهما الجميع برعب. وعندها انطلقت طلقات نارية جديدة من إحدى نوافذ الجناح، في

الطابق الثاني، وشوهدت قصبة البنادق محطوطة على متكأ النافذة، خارجة كالباحثة عن الضحايا. أثار الجمهورَ ضربٌ من الضوضاء ارتفع فيه صراخُ الجرحى وذُعر النساء، وسُمع صوتُ أحدهم يقول: «لاتُطلقوا النار!»، لكن ذلك كان كالجنون، والرماة، كم كان عددهم؟ لابد أن معهم أسلحة غيار، أو أنه كان معهم من يُعبّىء لهم بنادقهم. كانت الرشقة جنونية، خارجة عن الطور، عندما تفكك الموكب الذي شوهدت فيه امرأةٌ عجوز عليها قبعة سوداء تسند بكتفيها ابنها الكبير الأحمر الذي مايزال واقفاً لكنه أصيب في رأسه وأعماه الدمُ فسقط فجأة كأنه جبل وأسقط معه العجوز على ركبتيها.. عندما تفكك الموكبُ، والفساتين السوداء للنساء المستلقيات في التراب على القتلى والجرحى غير مباليات بالرصاص الذي كان ينبو عن الجدران.. عندما تمزق الموكب وتجمع في سرب من الكراهية والهياج دون نظام، بعد رشقة من الحجارة على الجدران، اندفع على الشبكة فاقتلعها وتدفق الى الفناء. كان ثمة فؤوس فطارت الأبواب شظايا.

ومن السقيفة برز فتى طويل يتخلع في مشيته لم يبلغ العشرين. وكان يصلح عجلةً وأراد ان يرى مايحدث، فاغتمضت عيناه على الموت عندما أصابته في وسط صدره رصاصةٌ آتيةٌ من النافذة قبل أن يتمكن من فهم شيء. وظل يمسك بمطرقته.

كان الكلبُ الصغير الأصفر يعوي بشكل هستيري حقاً، وهو مختبىء خلف بنطال جان. خاف جان فجأة على كاترين فجرّها نحو جهة من الطريق بمأمن من الرصاص، لكنها رفضت اللحاق به، وهي بيضاء منفرجة الشفتين. حينئذ أدرك جان فجأة فيم كان الجمهور يعمل تحت الرصاص. النار! لايُعلم من أين ظهرت هذه الفكرة، لكن مواد الحريق من التبن وركام العجلات تكدّست في الفناء، النار! السُعار الشعبي الذي هدأت ضوضاؤه بدا متوتراً نحو هذا الهدف، نحو تلك العدالة، ذلك التطهر. كان القتلى والجرحى هناك على الطريق، والرماة يتابعون من النافذة

عملهم المجرم، لكن ما كان يُلهب كل هذه الأنفاس اللاهثة، وماكان يجمع القوى والحركات لدى هؤلاء الناس الذين اختمر فيهم قرارٌ هائل وسريع، هو فكرة النار، نار الجمر التي لم يجادل أحد في ضرورتها المباشرة، وكأن نقاشاً طويلاً، كأن تصويتاً ربط بين هؤلاء المنفذين المصمّمين.

«يريدون إحراق البيت! يجب ان نوقفهم!».

جان هو الذي قال هذا وهو يندفع نحو الجمهور. كان في هذا الشاب شيء بدائي يدفعه الى الأمام. شدته يدُ كاترين في معصمه وكأنها الفولاذ. أراد ان يتخلص وهو دهش. تلاقت أعينهما. لم يفهم لغة عينيها لكنه مع ذلك رأى الهوة مفتوحة. استشعر بغموض انه قد فقدها. فكّر: «يريدون إحراق المنزل». قالت: «الحق معهم» وأرخت معصمه.

وصل الجندُ من خلال الجمهور. شرطة وفصيلٌ من الجيش على رأسه ضابط. كان يقول وكأنه في حلم: «ياللجنون!» انضم اليه «تيببو» وقدّم نفسه. انطلق الآخر نحو الجناح الذي كانت تطلع منه الطلقاتُ النارية، خلَع البابُ ووصل بدرج ضيق الى الغرفة التي كان الرمي آتياً منها. نزع مع رجاله سلاح أربعة رجال رآهم جان يخرجون الى سطح الدرج. أربعة رجال أشداء بملامح النبلاء الريفيين المتباهية. كانوا كأنهم خارجون للصيد. لفافات وربطات عنق. كانوا يرتجفون شاحبين. أكبرهم قد يكون ابن ثلاثين. معهم رجلٌ أكبر عمراً، وخطه الشيب، ويبدو انه لم يشارك في اطلاق النار.

ألقى الملازم على رجاله أوامره مختصرة. يجب ألا يدخل الجمهور. التفت نحو جان. لابد انه سمع ايضاحاته وسط ذلك كله: «كيف سننقذ حياة هؤلاء القتَلة؟».

حاول أحدُ الشبان ان يحتج. قاطعه الملازم: «أيها الغبي، إن رأوكم قُتلتم». صمتوا وارتجفوا. اكتفى الرجل الأكبر الذي اصطكت أسنانه بأن

قال: «القبو!» كان هناك شرطي باللباس المدني، المفوض الخاص «لأنيماس» قال:

- «نعم» هذه فكرة. أتريد سيدي النقيب، ان تستطلع الطريق، بلا أمرٍ عليك؟

نزل جان قبل غيره. كان في أسفل الدرج بابٌ غير مغلق. دلفوا الى الممرّ الصغير حيث كان درج حجري دائري. كانت الشموع تنطفىء بسرعة شديدة أو تحرق الأصابع. وكان الجنود يدفعون سجناءهم وهم يصفونهم بالقذرين. وفي الخارج، تعالى الصراخ: «الموت لهم!»

ترك النقيب بضع رجال لحراسة السجناء الذين كان الخوف، أكثر من السجّانين هو الذي يمنعهم من الفرار. ومن النوافذ كانت تُشاهد أقدامُ مشعلي الحريق وهي تركض. وسُمع نشيشُ النار. رجع الملازمُ وجان الى الفناء. وغدا المبنى المركزي طعمةً للنيران. واستولى على الجميع هياج التدمير، وكل مايمكن ان يصلح للتعجيل بالخراب تحوّل الى مطارق في أيدي المهاجمين الذين وجدوا النيران مسرفة البطء في تقويض الجدران.

بيد أن الحريق سار سريعاً، في هذا اليوم الجاف من تموز، في الهيكل الخشبي الذي اشتعلت فيه النار أيّما اشتعال.

خرج من إحدى نوافذ المصنع دخانٌ حرّيفٌ. ولم يُصَبْ بيتُ السكن الذي كان منعزلاً. أكان فيه ناسٌ؟ لا أحد يدري شيئاً من ذلك. اتجه اليه نحو أربعين عاملاً هائجاً. أو قفهم معظمُ الجنود، مئة جندي مع ثلاثين شرطياً. لقد تجمعوا هنا، تركوا المصنع ليحافظوا على مسكن أصحاب المصنع. سأل جان الملازمَ:

- لكن مامعنى ذلك كله؟

- سأروي لك ذلك فيما بعد. إضراب.

- آه! إضراب.

لم يفهم جان جيداً نوع التساهل الظاهر من الضباط تجاه العمال.

– لن يبقى حجرٌ على حجر.

– ماذا تريد أن أفعل بذلك؟ بينما نُحضر الإطفاء والماء يكون كل شيء قد انتهى: الشيء الأساسي هو حياة هؤلاء الأنذال في القبو!

جهد الجندُ في تفريق الجمهور. وكان تعاطف الجنود منصرفاً بالتأكيد إليه. وكانوا ينظرون بسخط الى وحشية الشرطة. والحق أن الاندفاعة هدأت بسرعة كبيرة. وكان من السهل ان يرى المرء ان لا سبيل الى انقاذ المصنع. ماسيحترق سيحترق. والآن أخذ الجمهور ينطوي على ذاته، ووجد ألمه وجرحاه وقتلاه. كان هناك تأوهات وفظاعة. وسكت البغضُ.

انهار سقفٌ مع أغصان.

بحث جان عن كاترين. أين ذهبت؟

هُرِع سائر أهالي «كلوز». اكتظت الشوارع المجاورة. كان الشرطة يصرخون ويدفعون الناس. وكانت حركة الجند الدائبة تفتح أثلاماً سرعان ماتنغلق. أين اختفت كاترين ياترى؟

وجدها قرب ميت.

– ١١ –

استمرّ الإضراب منذ أكثر من شهرين. اضراب سياسي. قبل الانتخابات البلدية بلّغ صاحبُ المصنع عماله منعهم من تشكيل قائة عماليّة. انسحب أحد المرشحين في مواجهة الطرد. وقد شرح موقفه، في أحد الاجتماعات مساءً. لم يكن شاباً، وكانت له امرأة وصبية. لكن الآخرين صمدوا. وبعد الانتخابات فازت القائمة التي فيها أحد أبناء صاحب العمل، وقد سرّح هذا المتمردين؛ سبعة عمال.

حينئذ شرع العمال في الإضراب طلباً لإعادة المطرودين الى عملهم،

ومن ثم طلباً لا للاعتراف بالحقوق السياسية التي للعمال، لكن بالاحترام الأولي لهذه الحقوق.

في ١٠ نيسان امتد الإضراب الى جميع معامل «كلوز».

رفض صاحبُ العمل، وهو رجلٌ دموي، متسلط، مع فورات من الغضب، طاغيةٌ حقيقي حتى على ذويه. ولم يشأ أن يرضى أو يتراضى. كان يريد ان يعود المضربون الى عملهم عنده كمغلوبين. طلب الجند فحصل على ماطلب. وأظهروا رخاوةً في نظره فطلب تعزيزاً فأُرسل اليه. مئتان وخمسون جندياً وكتيبة من الخيالة.

بيد أن الضباط لم يستطيعوا منع الاستعراضات في «كلوز» والمظاهرات والاجتماعات. وانضم الى عمال «كلوز» عمالٌ آخرون من مصانع أخرى من «بونفيل» و «سيونيديه» أنشىء صندوقُ تضامن. ان هؤلاء العمال الذين لا يكفّون عن الشكوى من أجورهم وجدوا الآن وفراً ينفقون منه على نحو مئةٍ منهم دون عمل أثناء شهور! كل ذلك كا من عمل النقابة.

كان صاحب العمل يعتقد أنه غني مقتدر. أولا، لقد كان يملك اذا أُغلق المصنع، مايعيش به، ويملك مالاً موظفاً. لكن حتى دون ذلك، لم تكن الأعمال تتدهور: كان لديه مخزون كافٍ ليصمد حتى تشرين الأول. وشك ان وراء هذه المقاومة المالية أيدي منافسيه. أقلقه ذلك. استدعى الشرطة بشكل سري. فأُرسل اليه رجالٌ أقاموا سراً في المدينة وفي الضواحي، واختلطوا بالاجتماعات وارتبطوا بصداقة مع مضربين. والحق أنهم لم يكتشفوا شيئاً مهماً، ماعدا القائمة السوداء التي نظموّها.

تدخّل النائب الراديكالي، وهو وزير سابق. زار صاحب العمل زيارةً مهذّبة للغاية، وتحدّث مع العمال، ورأى ان هذه القضية كلها مؤسفة، أما من سبيل الى المصالحة؟ استُقبل بتهكم فانسحب، شرح للعمال ان لا سبيل الى المصالحة: ان صاحب العمل سيّد مصنعه، ولو أنه شاء ان يغلق مصنعه،

فما مصيرهم؟ العطالة والجوع والشقاء. حثهم على الهدوء، على استئناف العمل، طبعاً ان لم يقبلوا. . استمر الإضراب كانت النقابة تديره. لن يُذعن العمال. الحق ان ذلك غدا قاسياً، بالرغم من فصل السنة، ومن التعاطف في القرى المجاورة، وأعمال الحقول الصغيرة التي تمكن مباشرتها. ، ثم كان وراءهم عددٌ لا بأس به من المضربين من أبناء صغار الفلاجين الذين كانت عائلاتهم تحمل اليهم بعض الخُضر.

كان لدى صاحب العمل مستأجرٌ وهو رئيس سابق للفرع الرئيسي لبناء خطوط السكك الحديدية، وهو الآن متقاعد. أجّره مسكناً له ولزوجته. كان هذا الرجل يكره العمال. أما امرأته التي احتفظت من صالونات نواب المحافظين بصبغة السيدات الراقيات، فكانت تتأوه وهي تنظر من النوافذ الى مواكب المحتجين. كانوا في المساء يلعبون «الويست» في منزل صاحب العمل. الولد البكر الذي كان عضواً بلدياً، وأبوه، وصاحب العمل. وإذا مانامت البنت الصغرى، وعمرها اثنا عشر عاماً، جاءت الأم تثرثر مع زوجة المستأجر. كان يهيمن على هذه الاجتماعات جوُّ الأيام الأخيرة في «فرساي». كان موضوع الحديث الحكايات الدامية، وذكريات الإرهاب في الكومونة، مع أنه لم يحدث أي نوع من العنف حتى هذه اللحظة في «كلوز». وأخذ الخوف يتعاظم.

كان أبناءُ صاحب العمل الأربعة ميّالين بسهولة الى التآلف مع العمال. لم يكونوا يحبونّ تعليق الأعمال هذا: لم يكونوا يستطيعون ان يكتفوا بإيرادات الوالد الذي أخذ يقطع عنهم مصروف جيوبهم. ثم إن هناك المستقبل والإرث الذي سيوزّع على خمسة مع الصغيرة، والأم فوق ذلك، وهي غير مصابة بالنوبات القلبية التي كان زوجها عرضة لها. كانت الأيام التي تمر دون الوصول الى نهاية النزاع تزيد من عصيبة هؤلاء الشبان الأربعة

الذين اعكتفوا مع هذا الأب المتسلّط ، في جوّ من الحرب الأهلية. في الليل كان أشخاصٌ غامضون يدخلون من الباب الخلفي ، يعرضون واقع الحال ، ويحملون خبر حوادث تافهة.

كان الجند يخيّمون في الخارج ، دون عمل.

وكان الضباط صريحين: لايمكن إكراه العمال على العمل. وللتدخل لابد من حدث واقع تحت سلطان القانون.

أوشك هذا الحدثُ ان يقع ذا ت يوم في ١٨ أيار، اذ تظاهر الجمهور امام بيتهم ، وأُلقيت الحجارةُ التي كسّرت الزجاج. لكن واحداً من من أولئك الأغبياء الذين أُرسلوا على جناح السرعة من «آنيسي» شوهد وهو يرمي الحجارة. ورفض اعتبار المضربين مسؤولين. وأثارت وحشية الشرطة حفيظة ضباط الصف.

كان الأمر في الحقيقة يكاد لايطاق. ولم يحسّن الحال تبادلُ الرسائل مع المحافظ. وفشلت المحادثات التي استؤنفت ، لأن المضربين أوتوا جرأة لاتصدّق ورفضوا ان يدفعوا ثمن الزجاج المكسّر. لم يكن صاحب العمل حريصاً فقط على المبلغ: لكنه كان حريصاً بذلك على أن يُقرّوا بضروب العنف. ولم يكونوا أغبياء فأدركوا مقاصده.

ومع ذلك ، فهل سيدوم ذلك طوال الحياة؟

أضحت السهرات أكثر كآبة في منزل صاحب العمل. فقد هُجر «الويست» وجعل ذلك «اوجيني» عصبية عند الحديث على الميت. كانت العلاقات مع الصناعيين الآخرين في «كلوز» شديدة التحفظ. الأحقاد والمنافسة. ثم إنهم رأوا ممّا لايُغتفر أن يجرّ هذا الغبيُّ العتيق، وبسبب قصة من عنده، الى اضراب لانهاية له عندهم. بل إن أحدهم اقترح ان يدفع هو نفسه ثمن الزجاج. لكن صاحب المعمل ركب رأسه: أراد ان يدفع العمال

أنفسهم ومن رصيدهم التضامني. ومع ذلك فإن أصحاب العمل الآخرين كانوا سينظرون بعين الرضا الى تدخل حكومي والى إظهار القوة. تدخل سلمي طبعاً. لكن لكي يُروا العمال مايمكن عمله. لإخافتهم قليلاً.

ظلت هذه الحركة الإضرابية الطفيفةُ محليّة، جد هادئة، ليس فيها ميلٌ الى الاتساع وليس فيها مايهدّد. فلماذا تقلق السلطات؟ كان صاحب العمل العنيد رجلاً من اليمين، وكانت امرأته محشورة بالكاهن. وسُحب الخيالة وفصيلة المشارة. وكانت الذريعة مناورات الفيلق الرابع عشر.

أصبح الجنودُ الذي بقوا بعد ١٠ تموز وهم مئةٌ من جنود الصف، يعرفون جميع الأهالي: وحتى عندما يميل ضباطهم الى الصرامة فلايمكن انتظار شيء ذي قيمة من هؤلاء الصبية الذين كانوا يُشاهدون عند الغروب وهم ينتزهون مع فتيات من البلد.

تعاظم الخوف في أسرة صاحب العمل. وحدثت مشاحناتٌ بين الأولاد وأبيهم. لم يكونوا يحسون بالأمن عندما ينزلون الى الشارع، ولم يكن ممكناً الاعتكاف بلا نهاية! وكان لأحدهم الأصغر علاقة مع فلاحة من صوب «مارينييه». وجاءتهم صدمة شديدة. لقد صاح بهم الأب محنقاً: لقد كبرتم وتستطعيون ان تدافعوا عن أنفسكم».

– وإذا كان لدى المضربين سكاكين؟

– تسلّحوا، واغربوا عن وجهي.

نوقشت هذه الفكرةُ أثناء ثلاثة أيام طويلة. ثم إن الأب هو الذي أعطى اولاده عنواناً في «سانت ايتيين». كتب عضو المجلس البلدي يطلب أربع بنادق صيد. لاشك أن في رأس الأب التباساً، لأن هذا المصنع لاينتج بنادق. لكنه تلقى رسالةً بالغة التهذيب مع عنوانٍ وبيان لبيتٍ يلبّي بالتأكيد حاجة هؤلاء السادة.

ناقش هؤلاء السادة مساء كاملاً مناقشة محمومة، نوع السلاح الذي

سيجلبونه. قُطع «الويست». واستشير عمدةُ «كلوز» الذي كان يزورهم هذا المساء. وكان صياداً كبيراً فأشار بنوع ممتاز صالح للطريدة الكبيرة. في «السافوا» يصيدون الخنزير البرّي.

غضّت النظر نيابةُ محافظة «بونفيل». وكان ذلك واضحاً أشد الوضوح. شكا الكاهن الذي كان من النفور المتزايد لرعيته يقول: ان الحكومة متواطئة مع النقابة. كان الظل الأسود لـ«كومب» الصغير في الأحاديث يُفاقم من الذعر في المرة القادمة لن يكتفي مثير الفتن بقذف الحجارة. والآن بعد أن قُلص الجندُ، أصبحت حياتنا معرضة للخطر.

في ١٢ تموز، التقت أمُ أحد المضربين السيد العمدة قرب مدرسة الساعات. كان الجوُّ حاراً جداً. توقف السيدُ العمدةُ ليسترد أنفاسه. وكان الوقتُ ظهراً. ثم إن هذه المرأة البسيطة قد قامت بالغسل عنده عدة مرات عندما كان عنده أقاربه من ليون في العطلة.

– أما يزال صبيُّك، إذن، يركب رأسه؟

أجابت دون ان تجيب:

- لايمكنه ان يخون الآخرين. هل يعلم السيدُ العمدة مدى قسوة ذلك على المساكين؟

ومع ذلك ففي رأيه، كعمدة، ان النساء هن اللواتي كان ينبغي لهن أن ينهين الإضراب. الأمهات على الخصوص. لأن الشابات في أيامنا، لا دماغ لهن، وهنّ لايفكرن إلا في زينتهن.

نظرت الأمُ الى محدثّها كمنْ لايحسن الفهم، ثم قالت:

–لكن ألن يُرجع هؤلاء الناسُ عمالهم؟ لابدّ لهم من ذلك.

حينئذ انفجر الآخر ضاحكاً، ثم تحولّ الى الرصانة، وروى ان هؤلاء

«السـادة» بلغ بهم الإرهاق أشـده، وأنهم اشـتـروا بنادق، وأنهم إذا مـا ماأزعجوا. . أجل! «أقول لك هذا من أجل صبيك!».

في ١٦ مساء في «الويست» كانت قصة السيدة «دي لامبال»[1] ورأسها على سنان الرمح تملأ ليل الجميع بالكوابيس.

في ١٧، في التاسعة مساء، حدث تجمعٌ للمضربين، اجتماعٌ، موكب. وبينما أخذوا يغنّون، انقض الشرطُ على الجمهور من جديد وهم يضربون، ويدفعون بخيولهم على النساء. كان أصحاب العمل يتابعون المشهد، من خلف النوافذ. ووقعت مشاحنةٌ بين العمدة الذي كان يقول إنه لابدّ في النهاية من اللجوء الى القوة وبين نقيبٍ لجنود الصف استاء مما رأى فقال: «لستُ أفهم هل يُدفع لهؤلاء الشرط من أجل ذلك؟» كان واضحاً أن من نتيجة هذه الوحشية غير المكتملة أنها أدت الى ضمّ الصفوف في كتلة المضربين. كان ذلك فوق الحد أو غير كاف. وكان لابد من الانتهاء. .

وعندما تشكل موكبٌ، في ١٨ تموز، وعلُم انه يسير نحو المصنع، لأنه دار الى يسار دار البلدية على طريق «سيمونيزييه» أخذت الأم التي ضمّت ابنتها، مأساوياً، في صالة الطعام، تنتحب. كان المستأجران هنا: جرت المرأة الصغيرة وأمها الى غرفة وسقتها ماءَ زهر البرتقال. وعقد الرجل وضيفه مجلساً حربياً خلف المصاريع التي أُرتجت على عجل، كان لابدّ من العجلة إذ تعالت ضوضاء الجمهور وأناشيده.

حينئذ تناول الأولاد الأربعة بنادقهم، وتبعهم المستأجرُ الى الجناح الصغير الذي يشرف على الطريق.

---

(١) صديقة ماري انتوانيت. أُعدمت وحُمل رأسها على رمح سنة ١٧٩٢. المترجم.

-١٢-

كانت تلك الجثة الكبيرة التي جثت كاترين بقربها جثة فتى، فتى من عمرها، ربما زادها بسنة، تسعة عشر عاماً؟ كان صغير الرأس، بشعر حليق تقريباً فوق ذلك الجسم الضخم المنهار. وبانهياره سقطت قبعةُ القش، وهي من تلك القبعات التي يضعها صيادو الأسماك والتي لاتكلف سوى بضعة فلوس. كانت كتفاه الضخمتان العريضتان كأنما غرقتا في النوم بعد ان هجرتا كلّ قوتهما. ان ذراعيه العاريتين اللتين شمرُ كما هما الى مافوق المرفقين تشنجتا في حركة دفاعية متأخرة، وطويتا، والراحتان متجهتان الى القتلة، وقد كمّل وجههُ المنقلب هذه الحركة بتعبير شارد من الاحتجاج على الموت، وانفتح الفمُ والعينان.

أصابته رصاصتان: إحداهما في الصدر الذي أدمى القميص والثانية في العنق حيث فغرفاه جرحٌ فظيع.

لم تستطع كاترين ان ترفع عينيها عن هذا الجرح. لم تر من الموتى سوى الشيوخ والعجائز في المصلّيات المأتمية الخاصة التي ينُظمها الورعُ العائلي في غرفة من شقة برجوازية. ان ذلك التباين المرعب بين القوة والموت، في وهج الشمس، ان ذلك الألم المرتسم الى الأبد على هذا الوجه الشاب، ذي الجلد الذي مازال طفولياً، ان ذلك كله أرجفها وجمدّها. كان في رأسها ضجيجٌ عظيم، غطى الضوضاء المحيطة، والروحات والجيئات من حولها.

كل قصتها في الأيام الأخيرة تبلّلت هنا بالدم المراق. كل كشف الحب. ذلك النوع من اللاشعور السعيد في الصيف، جان. لقد قُتل رجلٌ قبل قليل. كانت بقعُ الحمرة قرب المنخرين هي الأشد ايلاماً. مع أنها لم تر قط هذا الفتى الا وهو ميت.

لم يكن هوجان: «الحق معهم!» ولد فيها شيءٌ يتجاوز المرأة التي لم تكد تولد، شيءٌ يُؤذن بالأم: نظرت الى جبينه في التراب، وبها رغبةٌ لاحد لها في أن تغسله بلطف، كما يُفعلُ مع الطفل وهو يهذي في الحمّى.

وحينئذ وصلت الأمُ الحقيقية.

هل جاء بها أحدٌ؟ أم أن صوت الرشقة هو الذي جرّها من بيتها؟ لم تبلغ الأربعين بعد هذه المرأةُ الهزيلة التي دُبغ جلدها وتغضّن وفقد ماءه، المنطوية على ذاتها بحيث ان عينها السوداء والعميقة بدت غارقة في الهيكل العظمي. أهزلها خمسةُ أولاد حملت بهم والعملُ، وهاهي ذي في تنورتها السوداء حاسرة الرأس عارفة بالمأساة، تُبعد الحضور لتتقدم ثابتة الخطا، نحو صغيرها الميت، ولم يبق ماينتظره الناسُ امرأةً بل صرخةً، ووصلت أمام الجسد، وتعرّفته طويلاً، ولم تخرج الصرخةُ.

جثت وحطّت أصابعها على وجه ابنها الراقد وفجأة سحبتها برعب، اذ شعرت برطوبة الدم الدبقة، استندت بطبيعة الحال الى كاترين التي قبلت حضورها متكئة عليها دون أن تطرح أسئلة.

كان الطبيبُ قد نظر الى الميت وهزّ رأسه وأسرع الى الأهم. كان ثمة نحو خمسين جريحاً، وعدد كبير من الموتى. انحنى رجلان على المرأة واقترحا رفع الميت. كانا صديقي ابنها. تعرّفتهما. كان أحدهما «باتيست». رفعت وجهاً جرت فيه دمعةٌ ثقيلة واحدة وكأنها في صحراء. كل تعب الحياة كان مرسوماً في تجاعيد هذا الوجه. شكرتهما بعينيها. رفعا الميت أحدهما بقدميه والآخر من تحت كتفيه. وظلت الذراعان مطويتين من الرعب.

حين نهضت الأم لمّتْ قبعة القش، ونهضت كاترين معها، وذراع الأم على كتفيها، وبلغوا المنزل البائس حيث وُضع الجسد. انسحب الرجلان تاركين الميت على سريره. ترددت كاترين. استبقتها الأم. بدت كالمطاردة. لعلها كانت تخاف ان تظل وحدها.

بيت قروي فقيرٌ بجدران من اللبن، وهو أكثر اتساعاً للحيوانات منه للناس. أين الأولاد الآخرون؟

كانت الأم وحدها لسببٍ من الأسباب. أكانوا موتى، أم شُغلوا في مكان آخر؟ أما الزوج الذي كان بناء ايطالياً مقيماً في «كلوز» فقد سقط عن الصقالة منذ خمس سنوات، ومات من فوره. وأما هي فكانت ابنة فلاح لم تفتأ تفلح قطعة أرض حريفة،. قليلة الخصب، تجني منها بطاطا السافوا التي هي وردية ماوية، يشمئز منها الأجانب.

الغرفة العارية مع السرير الذي كان الثورة كلها، وصوان للصحون الفخارية، وخزانة، وفي ركن منضدةٌ صغيرة للعمل كان الابن يتابع عليها عمله كساعاتي في المساء، حتى هذا الإضراب . وفي الجدار صورةٌ لعذراء «السالیت».

حينئذ بدأت الأم تتكلم.

روت لكاترين كيف كان الأمر في أسرتها عندما كانت بنتاً صغيرة، في الجبل. اثنا عشر أخا وأختاً كانوا ينامون في غرفة تُبيَّت فيها الخراف شتاء. كان أبوها يسوقها الى المرعى، وأمها تحرث الأرض، مثلها. كانت أصغر أخوتها، لم يبق من أخواتها سوى أخت لم ترها منذ عشر سنوات، وهي تسكن فوق «سيرفوز». ومات الآخرون في حوادث أو في السل. وكم كدحتْ في حياتها! عملُ الثياب والطعام لرجل وخمسة صبية. المحافظة على نظافتهم. عزق الأعشاب الضارة من الحقل، وقلبه، وبذاره. اقتلاع البطاطا. هناك دائماً ماتشتغل به اليدان، في هذا الفصل او ذاك. كان «جوزيف يكبر، فتى جميل. عندما قُبل في مدرسة الساعات، ظنّت امها أنها تستطيع ذا ت يوم ألا تفعل شيئاً سوى الخياطة، وربما الغسيل ايضا. كان خطيباً لفتاه من «بونفيل»، عاملة في مصنع الساعات ايضاً، لم تكن تعلم

To: www.al-mostafa.com

مايجري وقد ذهبت الى «آنيسي» ولن تعود إلا في اليوم التالي. كان ذهابها من أجل أوراق الزواج.

كانت الحكاية تنساب، تنساب دون صراخ، دون تفجر، وكأن رواية تلك الحكاية اتاح لها أن توفر دموعها. كانت جبلية قاسية على ذاتها. وكانت يداها تدعكان قليلاً أسفل مئزرها الأسود.

طُرق الباب فجأة. نظرت المرأتان كلتاهما الى الأخرى. خافتا كلتاهما ان تكون الخطيبة هي الطارقة مصادفة. قامت كاترين عن السرير وفتحت الباب. كان جان. قال له الجيران أين يعثر على كاترين، وجاء يبحث عنها. . ولم يجرؤ ان يقول: من أجل الطعام وكشف عن رأسه إذ رأى لأول مرة الميت. قالت كاترين بلطف وهي تخرجه دون تكلف: سآتي فيما بعد.

أخذت الأمُ، الآن، وكأن هذا الفاصل قد أتاح للدموع ان تأخذ مجراها، تبكي بصمت، تذرف الدمع مدراراً. كان وجهها شبيهاً بحقل جاف قُلبَ مئة مرة وزرعته طوال حياتها. كان الماء السائل فيه لايدخل، لاينفذ اليه، لايحمل شيئاً من السكينة.

رجتْ كاترين أن تساعدها، وشرعتا كلتاهما في إعداد الميت. لم تعرض أية جارة نفسها: كن جميعاً في مكان الرشقة، حوالي المصنع المشتعل. لم تشأ العينان ان تغمضا.

ثم جاء مستخدمُ البلدية ومعه الطبيب. كانت الأم جالسة قرب السرير تغني بصوت خفيض الأغاني التي كانت تهدهد قديماً بها أطفالها. ظلت كاترين معها.

جاء جان يطلبها. خرجت معه دقيقة لتسأله إن كان قد حجز غرفة في

الفندق. حجز غرفتين إذ لايمكن إلا ان يرى الملازم الذي قد يلتقيه ذات يوم في الحياة. صرفته كاترين وعادت الى جنب الأم لتسهر على الميت.

إن هذا الواجب الغريب الذي كانت تقوم به كان يهبها - وقد اعترفت لنفسها بذلك - إمكان البقاء بعيداً عن جان، إمكان التفكير، ان تضع بين الحياة كما كانت حتى هذا الصباح، وبين الحياة كما أخذت تنفتح الآن، حاجز هذا الموت الذي شعرت بحضوره.

أخذت تلازمها الأشباحُ: بريجيت جوس. . باريس. . سهرات النادي الكاثوليكي. . . ريجيس. كان ذاك هو الكابوس، لا هذا، بالرغم من الفظاعة. الحياة. ماذا سيحدث من الآن الى عشر سنوات؟ بين هذا العامل الشاب الميت وبين هذه المرأة التي غدت عجوزاً قبل أو انها، كانت تقدّر مصيرها. إن شقة شارع «بيليز - ديغوف» التي تشكل لها ولأمها أسوأ الحلول المفروضة، تشكل انحطاطاً، كانت تتعارض بالطبع مع مسكن «كلوز» هذا حيث ينبعث نحيبٌ مبلّل بالدموع. لم تستطع ان تتصور شيئاً من حياتها الآتية، لاشيء. شقة أخرى، مَنْ يدري؟ كان جان قد امّحى، امّحى كلياً من هذا المنظور. أحاديث مع رجال متفاوتي الذكاء. حفلات موسيقية. الفراغ. مهلاً، في مدى عشر سنوات، سنكون في تموز ١٩١٤ . . . ماذا سيجري؟ أية انقلابات؟ أكثر قليلاً أو أقل قليلا من المال، حسبما يكون للسيد «سيمونيدزيه» هناك، في باكو عشيقة أكثر أو أقل تطلباً، حسبما تكون آبار البترول كريمة أو ناضبة.

والناس هنا الذين سيكونون حينذاك قد أنهوا إضرابهم منذ سنوات سيظلون في عمل الساعات لأصحاب العمل، ربما بآلات جديدة، وبقوانين اجتماعية جديدة لاتسوّي من الأمور شيئاً. هل سيُقتلون بعد عشر سنوات كما يُقتلون اليوم؟

طُرق البابُ مرة أخرى، ففتحت كاترين أيضاً: وإذ بها أمام كاهن ارتدى حلله، وبرفقته صبي ماكر بدرع كهنوتي يحرك جُريساً. عادت الى الغرفة جافة الحنجرة، ثائرةً على ماستراه، مستعدة للهرب من الدين اكثر منها امام الموت قالت: «الكاهن».

توقف النحيبُ عن هزّ كتفيْ الأم الهزيلتين. رأتها كاترين تنتصب وتلتفت الى صورة «عذراء السالين» ثم تدور ببطء نحو الباب. دخل الكاهن، وتطاول صبيُّ الجوقة على رؤوس اصابعه ليشاهد وجه الميت. تطايرت كلماتٌ لاتينية في هدوء الغرفة وكأنها ترف مستحقٌ للميت.

فجأة تناولت الأمُ مكنسة من أغصان الشجر كانت مسنودة الى الجدار، وقد استشاطت غضباً، وانفتح فمها من الهياج، وجفّت عيناها، ولوحت بها نحو الكاهن الذي كان يمسك بين يديه حقّةً مملوءة بالقربان المقدّس، وأشارت بيدها الأخرى الى الباب وهي تزعق.

لاشك ان كاهن «كلوز» كان قادراً على مصارعة امرأة، لكن الحشمة وحدها هي التي منعته من ذلك، امام الميت. انسحب اذن مع صبيّه الذي كان يهزّ جُريسه هزاً شديداً لما أصابه من رعب، ولم يغادر المكان دون أن يحاول أن يجعل من هذه الآنسة الشابة التي تبدو من المجتمع الراقي حليفة له، متمتماً بشيء عن أسرار الكنيسة، عن المعونات الأخيرة للمحتضرين، الخ، وعن طابع خدمته الكهنوتية. وصُفق البابُ وراءه.

ألفت المرأتان نفسيهما وجهاً لوجه. واعتقدت الأم من الضروري ان تبرّر تصرّفها.

– «لم يكن جوزيف» يؤمن بدينهم، ولم يكن يذهب الى الكنيسة. إلا في ١٥ آب أحياناً ليغنّي... (ورسمت علامة الصليب). أما أنا فأومن بالدين قليلا. لكن مع ذلك عندما نموت، نحن الذين نرهق أنفسنا طوال

العمر من أجلهم، فليس لهم إلا أن يدعونا بسلام، ياعذراء! لن تعود لهم سلطة على الموتى.

عندها استدارت نحو السرير وبكت. داعبت الولد الميت. كانت ثمة حرارةٌ مشبوهة. كان المسكن السيءّ التهوية مصنوعاً للشتاء.

بدأ الناس يفدون، ينسلّون من الباب، الجيران والأصدقاء، ومجهولون، وشغيلة. هؤلاء لم تطردهم الأم. لكن بدت كأنها لاتراهم كانوا يقتربون ويهزون رؤوسهم. بعضهم كان يعود وبعضهم كان يبقى على نحو أخرق. أحست كاترين انهم ينظرون اليها. أخذت تنبعث من السرير رائحة تفهة، فظيعة.

دخل رجل كان أحد قادة النقابة. وُسِّع له في المكان. أمسك بيدي الأم واكتفى بان قال لها «لم يبق شيء من المصنع، أما بيتهم فلم يُصب. وسجن أربعة من الأنذال ولا نعلم ماذا حلّ بالآخرين».

نظرت اليه الأم بشدة لاتُصدق. حنيئذ فعل مايجب ان يفعله، انحنى عليها وعانقها كالابن.

انسلّت كاترين الى الخارج وهي تخاطب نفسها بصوت خفيض: «سأعود..».

- ١٣ -

أين تذهب في الليل، على وجهها؟ إنها لاتعرف هذه المدينة، حيث نام الجميع في النهاية بعادة أقوى من الانقلابات ذاتها، ماعدا الأماكن التي يسهر فيها الموت. وتمشي كاترين بين البيوت وهي لاتخشى ان تضل السبيل، ولاتبحث عن الفندق المجهول الذي لاشك ان «جان» ينتظرها فيه.

مضت نحو الريف، نحو الوحدة حيث تجد ذلك الهدوء الذي لن يكون بعد الآن اللامبالاة السابقة.

وهكذا بلغت خطاً حديدياً تبعته. ضياءٌ. المحطة. الناس هنا أيضاً يسهرون. عمال السكة الحديدية يحادثون جنوداً. في ضوء فانوس بريقُ حربةٍ. الناس ينتظرون القطار. وقرب سقيفة حمراء على طريق المرآب، حافلاتٌ بضائع. وأيضاً جَمْعُ جنود.

«هبْ! الآنسة الصغيرة، لاتقطعي الخطّ! تعرف الجندي على كاترين. رآها قبل حين أمام المصنع اثناء الرشقة. كلّمها. أجل، أصحاب العمل هنا في حافلة كلسٍ. الأم والبنت اللتان فرتا بمئزرهما السيدة بالبابوج، دون قبعة، والأب؟ انظري.

برز من بين الجند رجل ابن خمسين ونيف شارد النظر، حاسر الرأس. رجلٌ قوي هدّه الرعبُ. وفي ضوء المصباح بدت قرمزية السكتة الدماغية قرب العينين كأنهما تشقّق الخزف. لم يكلمه الجنودُ. إنهم ينظرون بعيداً، هل وصل قطار «أنيماس» أو أنه نام، وبئس القطار!

يرمي الرجل نظرات المطارَد من حوله. لم تُطمئنه الحرابُ. ويتفرّس في كاترين برعب. ويجلس على طرف سكة الحديد. وتخرج الكلمات من حنجرته وهي تكشط كشطاً: «لم أعدْ أقوى على التحمل. سأموت هنا».

استدار أحد الجنود: «الأفضل ان تهلك هكذا لا أن تهلك بطريقة أخرى». ورسمت يده حركة مقصلة. عاد الرجل الى الحافلة. وسُمع نحيبُ المرأة.

لم تعد كاترين تطيق مشهد هذا الجبن. وأعلنت صافرةٌ قدوم القطار وهو يبصق احتقاره دخاناً. عبرت خط القطار وصارت الى الريف.

ليلة غريبة، ليلة غريبة. من المستحيل ان يفهم الإنسانُ شيئاً من هذا

المنظر الرائع دون قمر حيث تلّوح أشجار الصنوبر بحركات السَحَرة في هذا النسيم الدافىء بدفء النهار. والأفكار في رأس كاترين مثل تلك الأغصان الألبيّة السوداء، المغنية، المتشابكة. الشقةُ في شارع «بيليز - ديغوف»، جان، الحب، الوحدة. ممّ تخاف كاترين هذه التي كانت تضحك قبل حين من الشفقة على سحنة هذا الجبان العتيق؟ ذلك أنها تخاف حين تفكرّ في المستقبل الذي اصطبغ هذا المساء على نحوٍ لا فكاك منه بصبغة دامية لمذبحة لانهاية لها. وإذا كانت قد هربت قبل قليل فلم يكن ذلك من الاشمئزاز فحسب. لكن هؤلاء الجنود الشبّان لا تستطيع ان تنظر إليهم دون رعب، إذ كانت تراهم وقد ماتوا، وفغرت أفواههم عند النزع، الى الأبد، وانقلبت عيونهم... بدا لها أنها لن تستطيع ان تنظر أبداً الى رجل «حيّ».

ماتت من التعب. جلست وسط حقل فيه صخور. وبها شعورٌ غير عادي بالواجب، وهو شعور لا ينتاب أبداً إلا الذين سيتملّكهم النعاسُ، الذين يحسون أنهم مذنبون ان ناموا، والذين يقاومون النعاس ولكنهم لايلبثون ان ينهاروا تحت وطأة ليلٍ يصعد كالمدّ فيهم.

نامت كاترين على الأرض. شقةٌ شارع «بليز - ديغوف»، جان...

كم مرّ من زمن عليها وهي نائمة عندما انتزعها من أحلامها ضجيج أصوات مستمر؟ ربما لحظة واحدة، وربما قرن. اثنان. فتى جميل قوي، وفتاة لعلها في الثامنة عشرة، ، سمراء، طويلة، جافلة، في عينها كلّ مافي الدنيا من حب. كانت تضع مئزراً، وقبعة مدوّرة من القش الأسود. ربما كانت فلاحةً غنيّة. كانت يداها تجريان على حبيبها كله لم تكن تقول كلمة: كانت تتحقق من وجوده حياً. وكان هو يشرح لها مافعل.

- نعم، عندما أخرجونا من القبو، كان لابدّ من الإسراع بسبب الجمهور الذي كان سيمزّقنا. ورأيت على الفور كيف أنتفع من الأمر. في

عتمة المبنى لم يعدّوا سجناءهم جيداً. أربعة أو خمسة سيّان عندهم. فارتميت في ظلمة الممر. وعندما مروا جميعهم جريتُ.

همس الصوتُ النسائي من الظلمة:

– ولو تعرّف العمال عليك!

وإذن كان هذا أحد القتلة، فاراً سمعتْ كاترين المتراخية، التي سُحبت من النوم سحباً، تنهدات وقبلات. والفتاة المستنيمة بين ذراعي الشاب أخذت تتكلم، وهي مجنونة من الرعب: «لكن، لماذا أطلقتم النار؟».

– كان معهم عصيٌ..

رأت كاترين ذلك المشهد مرة ثانية.

– وقذفوا بالحجارة وأصابني منها حجرٌ هنا، في الوجنة.

كذب! كذب! لكن المرأة وضعت اصبعها على الوجنة التي ضربت بالحجارة

: «اوه! أنت شجاع، مارسيل، أنت شجاع!» وكأن مارسيل كان يجيب عن سؤال كاترين: «الآن ماذا سأفعل؟ أردت ان أراكِ. أن أكلمك، يا حبيبتي. كان هذا القاتل يقول «ياحبيبتي» بلطف لايُصدَق.

«وإذا ما ألقوا القبض عليّ مرة أخرى؟ أأختبىء؟ أيمكن أن أظل مختفياً زمناً طويلاً؟ آه!» الاثنان معاً، مثلا. سننام في سرير واحد لكي لانشغل نفسينا بالتفكير.

– عزيزي..

– إخوتي الثلاثة، والأبله، العتيق، في السجن، أتفهمين في هذا الهرب شيء مَستحيل. انه ضدّهم، ضد ذويّ..

– لن تسلّم نفسك؟

– هذه الليلة، لا. لكن غداً؟ اليوم الذي يليه؟ ثم ما الذي سأخفيه؟ ما الشر الذي أتيتُه؟

كانت كاترين على الأرض الصلبة، تشعر بما يشبه الدوار: في الواقع، ما الذي أتاه جان من شر؟ إذ نحو جان يطير يأسٌ عريض. وقد استأجر غرفيتين، الغبيُّ.

مضى العاشقان.

لأننا لاندري، ان كنا سنلقاه فيما بعد، في الحياة النقيب..

رجعت كاترين الى المدينة، الى الفندق، الى الغرفة المحجوزة التي دلها عليها شخص مفرط القبح.

فاجأها الصباحُ عند يقظتها خجلةً إذ نسيت صورةِ ذلك الموت الذي ظنت أنها لن تنساها، صورة ذلك الجسد الكبير والشاب والأخرق، الملطخ قميصه بالدم، الدم الذي لم يعد يسيل.

عندما هبطت قالت لها خادمةٌ أن السيد ينتظرها في المقهى. وقصدت المقهى، وكأنما تفعل الشيء الطبيعي الأكثر طبيعيةً في الدنيا.

رأت على الفور ان جان لم ينم. وكان على طاولته طائفةٌ من الناس. كان يتكلم.

– اسمحي لي، كاترين، أن أقدمّ لك الملازم س... خطيبتي الآنسة «سيمونيدزيه».

نظرت كاترين الى جان في عينيه. شحب. كان يتمسّك بها بكل قواه. أحسّ بصفعة رهيبة، أحسّ بـ «لا» قاطعة، مزرية، مقروءة في حدقتي صديقته. كان هنا مراسل صحيفة اشتراكية. حمراء ومن أشد الأشيا حمرةً. والضابط الذي لمحته كاترين البارحة لمحاً. وشخصيات من كلوز.

أحد أصحاب مصانع الساعات في «كلوز». رجل متقدم جداً بالنسبة الى عالمه، وفكر واسع جداً دون أدنى ريب.

سألته كاترين ماذا حلّ بالإضراب. فهتف قائلاً:

- لكن الاضراب انتهى. لم تحدث منازعات الا بين هؤلاء السادة وعمالهم. لم يبق أصحاب عمل ولا مصنع! توقف القتال لعدم وجود المقاتلين. والخمسون عاملاً الذين كانوا يعملون في المصنع لن يتعطلوا عن العمل بعد الآن، يجب ان نأمل ذلك. أستطيع في الواقع، أن أشغّل عمال زميلي الذي عملاؤه تجار «بيزانسون» والذي كان يزوّدهم بأدوات الساعات. يمكنني ان أتوصل الى اتفاق مع التجار، ومتى تم هذا الاتفاق يُستأنف العمل. وما من سبب يدعو الى عدم تزويدي لهؤلاء التجار. وفي ذلك الحلّ المرجوّ الى أعلى الحدود.

لقيت هذه الخطبةُ القصيرة الموافقة العامة، اشتهت كاترين أن تشرب. «ماذا تأخذين»؟ كان الجميع يشربون «الابسنت». الابسنت يحتاج الى زمن قد يطول مع جلبة الملعقة وقطعة السكر. فليكن. أيها الندل، كأس ابسنت». ماكانت لتأسف لو أنها ثملت قليلاً.

أحسّت بالموافقة التي أُعطيها هذا الصناعي الراضي عن ذاته. موافقة جان. أكان يمكنها ان تناقش؟ وماجدوى المناقشة؟ مادام لم يحسّ مثلها، غريزياً بما في هذه القصة من بشاعة ومن أمور لاتغتفر. كان الابسنت يجتاحها بلطف. والأحاديث من حولها. لقد هرب أحدُ القتلة، أصغرهم ولايعلم أحدٌ كيف. كما هرب الوالدان الى «جنيف» أو إلى «آنيسي». لم يُحدّد أيّهما. ربما أُفرج عن المستأجر بالرغم من شهادة أمين سر نقابة عمال الساعات، الذي أكدّ رؤيته له وهو يُعيد تعبئة البنادق.

قال النقيب :

- إني أتهمه بالتزوير حول هذه النقطة. لستُ متهماً بالعطف على هؤلاء الناس. لكن المرء يجب ان يكون عادلا ٠٠

لوّن الابسنت جميع الوجنات. كان جان يحرك ساقة آلياً. كان ذلك مزعجاً. وصل النائب العام في «بو نفيل» وقاضي التحقيق الى «كلوز». في الصباح حدث حريقٌ صغير في مكان يقيم فيه جنود. اهو سوء النية. . وقالت المرأة صاحبة التخشيبة إن ذلك كان سهواً. لكن هل يمكن تصديقها. وأخيراً فُتحت ثلاثة تحقيقات: تحقيق ضد الرماة، وتحقيقان ضد مجهولين، حول هذا الحريق الصغير، وحول حريق المصنع ونهبه.

كيف؟ سيُلاحقُ العمالُ؟

استخفّ كاترين نوعٌ من الدوار، وكان حرّ الصيف ينبعث من الشارع. جميع هؤلاء الرجال حولها، لون الوجنات التي ابرزها الشراب. لم تعد تميز جان من الآخرين. . من أصحابه.

كل حياة «كلوز» أخذت تمرّ الآن في أحاديث جماعة الشاربين. رعب الأهالي الميسورين أثناء الشهرين الأخيرين، الشبح الأحمر. قاضي الصلح يُهرّب ماله الى سويسرا. ولم يكن وحيداً. ينبغي القول أن أحداث أمس كانت مرعبة دون أدنى ريب. لكن كما أننا يجب ان نرى في كل مالا يمكن تفادية الجانب الحسن. كذلك علينا ان نعترف ان الطلقات النارية قد طهرت الجو الذي كان مشحوناً الى أقصى حد. المذنبون في السجن. فالإضرابُ والشغب لم يعد لهما مبرّر. ستعود الحياة العادية الى «كلوز». ولاشك ان الجنود سيبقون من أجل الشكل. . أخذوا يسخرون من العمدة، وهو جبان غادر «كلوز» البارحة مساء. تلاشى!

لم تعد كاترين تصغي. ثم جاء الغداء. ظل الملازم وجان معها للغداء. جان هو الذي أصرّ. لقد حجز غرفتين في لفندق. .

عندما ظلا وحدهما عند المساء، عندما عرفا تفاصيل تشريح الجثث، والمراسم المقرّرة لجنازة اليوم التالي، حاولت كاترين، وهي جدّ متعبة، ان تقول مع ذلك ماكان يلازمها من أفكار منذ أن شربت الابسنت. قصة العملاء التجاريين يردّدها منافسٌ. . . مامعنى هذا؟ لم يعد يلاحظ جان تلك النقطة. أخيراً، أليس ذلك ممقوتاً؟ ممقوتاً؟ لستُ أفهم.

إذن لقد قبل بأن يؤدي كلُّ شيء، الإضراب، والنزاع، والبطولة، وأخيراً هؤلاء الموتى، بان يؤدي الى تركيز الزبُن بين يديه، بان ينتفع من ذلك صاحب عمل آخر. .

رأى جان أن كاترين مسرفة الحماسة. ثم لابد أن يستأنف هؤلاء الناس عملهم، ان يأكلوا. يجب أن تستمر الحياة. وبأية طريقة تتصور كاترين أن الأشياء يمكن ان تسير؟ لا، قطعاً انه لم يلاحظ شيئاً.

كانت كاترين تتألم، أكثر من أي شيء، ان تحس بعجزها المطلق، عن تجسيد فكرتها ومشاعرها، لأن ذلك كان بديهياً فوق الحد. لم تكن تعثر على الكلمات.

وكان جان يبتعد عنها بذلك نفسه. كان حقاً من عالم آخر، كان عدوا.

وعندما سألها ان كانت ستبقى من أجل الجنازة رفضت. وفي المساء استقلا القطار الى باريس مساء.

- ١٤ -

قتل اشتراكيٌ ثوريٌ وزير القيصر «بلهيف» في٢٨ تموز، وفي ٢٩

وقعت مشاحنةٌ بين جان وكاترين، في معطم صغير حيث ظنا أنهما يستأنفان برفق علاقة كانت تتهرأ من كل جانب وكأنها القماش.

واستئناف تلك الحياة التي كانا فيها غريبين أحدهما عن الآخر لا يجري دون تمزق يلقي على كل شيء نوراً من الفراغ واللاجدوى. لم تكن كاترين تحب جان، لكن ألم يكن أول عشيق لها. .؟ ولم يكن بوسعها ان تعزم على اختيار عشيق آخر. وكانت تخاف قليلا من ان جان سيعد ذلك سيئة مع أنه لاحق له عليها، وهذا ماكررته دائماً له.

كان هناك انتكاسات. كرهت غرف الفندق. وبلاهة هذه الغرف الباريسية المفروشة التي تأتيها سيدات بغلالتهن. كرهت جان مع تلك الغرف. وأحسّ بذلك وتألم منه. لم يقل شيئاً. ظلا خمسة عشر يوماً دون ان يرى أحدهما الآخر. ثم طلب اليها أن تكون امرأته. كادت تبكي من ذلك.

استغرق ذلك أشهراً، حتى الشتاء. وعندما روت له ذات يوم أنها ضاجعت البارحة شخصاً شحب كثيراً. لكنه قال: ألا تريدين ان تتزوجيني، كاترين؟

بعد ذلك اتفقا على انهما صديقان حميمان. ولم يتراجع قط عن عرضه الزواج منها، وصار لقاؤها له أقل. لكنها كانت تتذكره في بعض أيام الحزن فيُهرع اليها.

كانت هيلين في نيس. كانت تُصاب بالحمى كل مساء، وخافوا عليها من السل. أرسلتها السيدة سيمونيدزيه الى الساحل اللازوردي، وكل فلس يصل فهو لها. كان آل سيمونيدزيه في فقرٍ شديد. وبناء عليه، أعلن «ميركورو» عن رغبته في الزواج. وما أن تُبلّ هيلين من مرضها حتى يتم

الزواج. كانت أسرة «ميركورو» خارجة عن طورها. تلك المتآمرة! أجنبية، تصوّروا، تتزوج ضابطاً فرنسيا!

في هذه السنة ١٩٠٥ بعد أن خلق انسحاق الروس في الشرق الأقصى والأخبارُ المتناقضة عن الأيام الثورية، أفقاً طالما لازم كاترين، أحست الفتاةُ أنها أصبحت امرأة. إن العلاقات التي باشرتها، ثلاث مرات أو أربعاً، كانت علاقات تهجرها دائماً لأن اللذة التي تنالها من الرجل لايمكن ان يحجب عنها الحياة، والأفكار، والعبودية الاجتماعية. من مثل علاقتها بمكتشف عرفته عن طريق بريجيت. و «ديفيز» الذي أكثر من التوسل ولم تضاجعه سوى مرة واحدة، ثم أغلقت بابها عنه لأنه كان يبكي ويتحدث عن الموت، وآخرون. وطالب أخذته من الشارع.

توثّقت صداقة جديدة بين كاترين ومارتا جونغتز. فهاتان المرأتان المختلفتان جدا، اللتان لاتربطهما أية فكرة، واللتان كانت إحداهما ترتعب من الأحكام التي تلفظها الأخرى، والأخرى لاتحمل لتلك الأحكام سوى الاحتقار، أحستّا بأنهما ترتبطان، على نحو غامض، بشيء ما. لابّد أن ذلك ضربٌ من الميل الى الرجال؛ أو على الأقل، ان ماكان يقرّبهما إحداهما من الأخرى يتصل بالحب. كانت مارتا تعلم الآن، دون إسرار من جانب كاترين، انها يمكن ان تنفتح عليها في كل مايمس السيد «دي هوتين»، وأن ذلك سيجد أذناً صاغية، وأخذت تتكلم.

كان السيد «دي هوتين» متزوجاً. ولم يكن يعيش مع امرأته مع أنها كانت تشاركه شقته. كانت كثيرة الأسفار. كانت امرأة ذكية، لكن حياتها كانت في مكان آخر. كان لها ابنٌ من زاوجها. كان السيد «دي هوتين» يمارس الأعمال التجارية، ويضارب قليلاً في البورصة، وكان ذلك

مصدرهمّ لمارتا التي لاتحب المخاطرة. كان واضحاً ان أخاها «بليز» مثلا، الذي كان يحيا الآن حياة مترفة، ستسوء أحواله ذات يوم.

ومع أن كاترين كانت أصغر من مارتا بكثير الا أنها كانت تحسّ إزاءها بتفوق الأخت الكبرى: لاشك أنها حصّلت في سنة واحدة من التجربة مع الرجال أكثر مما حصّلته مارتا في ست سنوات من علاقتها مع السيد «دي هويتن»، موضع حبّها الوحيد. وما أعجب حديثها عنه! سهراتهما في «مونمارتر»، أعشيتهما في حجرة خاصة، الشمبانيا، شاربه. وعلى أرضية ذلك كله المنظر الشامل للرحلات التي قام بها حبيبها من أجلها، والحياة العالمية للعواصم الكبرى، عالم تام مرعب وساحر..

هل علمت مارتا قط أن كاترين كانت عشيقة أخيها «بول»؟ ذلك قليل الاحتمال. حدث ذلك ذات يوم، بناء على قرار مبيَّت من كارين التي أرادت ان تتخلص من وسواسها. واحتفظ بول طوال حياته، بذكرى هذه الأيام القليلة وكأنها هزيمة له، إذ خرجت منها في اللحظة التي أعجبتها، دون اعتبار له، لمذلته كالكلب المضروب، لجوعه كجوع الغول المطرود، لسُعاره، ولدموعه الصبيانية.

لم تكن مارتا تغار على السيد دي هوتين، كان حياتها، وكانت تثق به ثقة عمياء. كانت تنقل كلماته وأحكامه. ماكانت لتفتح كتاباً يحرّمه. كان ذلك يغيظ كاترين لكن سعادة مارتا كانت تنفذ الى قلبها في الوقت نفسه.

لم تكن اعمال الفندق العائلي سيئة. كانت تأتيه الفتياتُ من «ايلينوا» أو من هنغاريا ويقمن في باريس بسبب «انتصار ساموتراس»[1] أو ماري غاردن.. وكانت سولانج جونغنز تصطحبهن الى دروس اللوفر أو محاضرات «الحولّيات». وهكذا عرفت «غاستون دي باي».

(١) انتصار ساموتراس. تمثال في اللوفر.. المترجم

ورث غاستون عمّه. مما أتاح ان يتّخذ لنفسه مسكناً، وأن يسدّد ديونه، وأن يتخلص من صاحبة له شديدة الصخب لاحقته مرة بمسدسها حتى باب «جونغنز». وعندما استشير السيد «دي هوتين»، وصل الشاب «دي باي» برئيس الشرطة. كان «ليبين» فاتنا: كُلِّمت الآنسة ووافقت على مغادرة فرنسا.

كان عمر غاستون ستة وعشرين عاماً. كان مشغوفاً بسو لانج أشد الشغف. فتاةٌ شابة! كان ذلك يُدير له رأسه. وعُجِّل بالخطبة والزواج.

لكن في نحو هذا الوقت أشرفت أعمالُ «بليز جونغنز» على الكارثة. كانت كاترين في بيتها ذات صباح عندما رحل «بليز» على حين غرة. كان مضطرباً اضطراباً عظيماً. لم ينم؛ أين قضى ليلته، ياترى؟ جاءها دون ان يعود الى منزله، منذ أن قاربت الساعةُ العاشرةَ.

لماذا جئتك؟ اسمعي: ياكاترين العزيزة إذا لم تتدخلي فأنا رجلٌ ميت، إلا إذا فضّلتُ السجن.. اتفهمين، مارتا تخوّفني ولا أستطيع أن أكلّمها... إذن أنتِ، أنت أفضل صديقة لها، ثم إنك لست بلهاء،. الخلاصة أعطيني يدك، ياعزيزتي، وانظري إليّ..

في أثناء ذلك كان لايني يحرّك منكبيه العملاقين ويلفّها بنظرته. فكّرتْ. قوّاد. الواقع انه لعب في منزل معلّمه لحسابه الخاص بمال زُبن الصرّاف. وقد استمرّ ذلك مدّةً من الزمن. ثم كان هناك عجزٌ..

أخيراً إذا شاءت مارتا، فإن السيد «دي هوتين».. نظرت اليه كاترين بنوع من الهول، قوّاد، وجبان فوق هذا. كان يرتجف من الحمّى اذ خطر له أنها سترفض مسعاه. «لماذا لاتكلّم السيد دي هوتين، يابليز، إن كنت تعتقد أنه يمكن أن يخلصك من ورطتك»؟

أخذ «بليز» يتشنجّ. كانت هي فرصته الوحيدة. ولن تتملّص؟أليس

كذلك. إن علم السيد «دي هويتن» ما الموضوع فلن يعطي شيئاً. لكن إذا طلبت «مارتا» لنفسها. «أتفهمين، كاترين، السجن. لقد ارتكبتُ حماقات أشياء مكتوبة.. شيكات.. تشوّشَ. أمسك بمعصمها كان يجرب فتنته ايضا: «كاتيوشا..» أراد ان يقلبها. لابد، ان بول أخبرها.. انتفضت من الاشمئزاز.

-بليز، لاتتحامق.. هذا يكفي الآن..

طيّب ستكلّم مارتا. كان يبكي في وسائد السيدة «سيمونيدزيه».

كان ذلك، بالنسبة الى مارتا، كأن السماء تنهار. كانت تردّد كل يوم ان الأمور ستسوء مع «بليز»، لكن ذلك لم يكن يمثّل في ذهنها شيئاً ذا بال. كيف سيتحدث «جورس» عن ذلك؟ أولت ذلك أهمية مبالغاً فيها.. ثم كم كان ذلك مريحاً دون استفهام «بليز».. وسوف تبرز طائفة من الأسئلة لاتعلم كيف تجيب عنها.. إنها تؤثر ان تبيع فندقها لتنتشل أخاها من ورطته.. على أن تقول شيئاً «لجورس».. لكن الفندق ليس لها وحدها - السيدة باكستون.. وأن تطلب مالاً من جوريس، مالاً! في الوقت الذي ستتزوّج فيه سولانج! ماذا سيقول «غاستون دي باي؟ لايمكن لكاترين ان تترك صديقتها، وعليها أن تبقى معها لتكلّم السيد «دي هوتين»!

مارتا المرتجفة! كانت تشبه أخاها في الخوف. لم تستطع ان تقول للسيد «دي هوتين»، لربها، إن عيباً مخيفاً قد وسَمَ أسرتها. انفجرت بالنحيب وهمست لكاترين: «تكلمي أنتِ..».

انزعج السيد « دي هويتن» كثيراً، لكنه التزم التهذيب التام. لايمكن أن نجد بهذه السهولة مائة الف فرنك.. ولسوف يرى. طبعاً يجب تحاشي هذه الفضيحة بسبب زواج سولانج. لم يكن يملك المال، لكن إن كان بليز منطقياً، فهو يعرف واحداً ربما.. سيكلمه بنفسه.

تشبثت مارتا بكاترين بعد انصراف حبيبها واقد اصابتها حالةٌ هستيرية بالغة. أين بليز؟ لا، لن تكلمه. رأت كاترين أي رجل جدير بالإعجاب كان «جورس» ترجّت كاترين ان تظل للعشاء.

تحدّث السيد «دي هوتين في اليوم التالي مع «بليز». جاء ليرى «مارتا» وطمأنها. لكن «بليز» وُجد في اليوم الثالث، في فندق صغير في «اوتوي» وفي رأسه رصاصة.

أوضح السيد «دي هويتن» إنه الندم. لأن كل شيء قد سُوِّي، وحدِّد.. أوقف الموتُ الملاحقات. الواقع انني لن أفعل لبليز وهو ميت ماكنت سأفعله وهو حي».

ذهبت كاترين ومارتا الى الفندق. في جو هذه الغرفة المبتذل، أعادتها جثة هذا الشاب الى أيام «كلوز».، لكن فوضى الأغطية هنا، والنعس المنقلب على الوسادة وهو في قميص النهار، والفتحة المرعبة التي أحدثتها الرصاصة في الجمجمة، وبقع النخاع على البياض، وتدفق الدم من الخد الى الذقن: كان لكل شيء طابع النكبة، التي فاقمت الساعة منها، وكانت موضوعة بتؤدة على منضدة الليل، البارحة مساء، دون شك. لم يثُر ذلك ضجة كبيرة في الصحف. حدثٌ عادي دون تحديد الاسم،. قابل السيد دي هوتين المحافظ، وحدّثه عن الآنسة «جونغنز» وعن فندقها العائلي.

- ١٥ -

أُبطل زواجُ «سولانج». لم يجد غاستون من الممكن ان يصاهر أسرةً لاتعترف بديون أحد أبنائها ولو ميتا. استمرت مسيرة الفندق رتيبةً: سيدات رومانيات كن يأخذن دروساً في الموسيقا، ويتدرّبن ايضا في الصباح، بينما كانت السيدة باكستون تعدّ الملاعق الصغيرة.

أما هيلين فقد عادت من «الريفييرا» وشفيت كما يبدو، لكنها هزيلةٌ

حقاً، وهي تمضي ايامها مع «مركيرو» على انفراد. يجب انها الأمور. كان الطبيب ينصح بالزواج وعدم انجاب الأولاد على الفور، ايضاً أقيمت صلاةٌ في «سيّدة الحقول»، وصلاة أخرى في الكنيسة الروسية في شارع «دارو»، وكانت هيلين حريصة على ذلك.

كان لهذا الزواج حسنةٌ: فالنفقة التي كان يخصّصها السيد «سيمونيدزيه» لزوجته وابنتيه، وهي نفقة غير كافية لثلاثة أشخاص، أصبحت وافية لكاترين وأمها وقد بقيتا وحيدتين.

لكن كاترين مضت الى ضواحي باريس لكي لاترى ذلك. والناحية الصغيرة التي حلّت فيها كانت مبلبلة من جرّاء الحملة الانتخابية سنة ١٩٠٦. فعلى اللوحات الخشبية عند أبواب دار البلدية، وعلى كل قطعة من جدار لا تشغله نافذة، برزت الإعلاناتُ المتناقضة والمضحكة. وقد جعل احتقار «كاترين» للسياسة هذه المعارك الجدارية غير مفهومة البتة، ولاسيما انها كانت تجهل ماذا تمثّل عناوين الأحزاب. جمهوري تقدمي، اشتراكي مستقل، يسار ديموقراطي، ماذا يعني ذلك كله؟

ماكان أكيداً في هذه المرحلة التي تسمّم فيها حتى الريف، هو استبعاد النساء، والأهمية المتزايدة للرجال وهم يختالون في الساحات، ويخطبون بإطناب في المقاهي، ثملين في كل مساء، فخورين ببطاقتهم الانتخابية، الأغبياء! وكانت الألقاب البذيئة تنسحق فوق الإعلانات الجديدة، فتختفي «لن أجيب» تحت «عار»، ليحل محلها: «سؤالان» الى السيد بوتوا» وكانت النساء يذهبن ويجئن في بيوتهن صامتات، وقد رُددن أكثر من ذي قبل الى دورهن كربّات بيوت.

بيد أن إعلاناً استوقف كاترين: «الناخب ذلك هو العدو»! كان هذا الإعلان إعلاناً فوضوياً. وفيه يُصرح أصحابهُ ان الوسيلة المنطقية الوحيدة

لإلغـاء القـوانين هي ألا تُسنّ القـوانين . وينبـغي ألا نتتـخب أناسـاً يسنّون القوانين. ينبغي ان يُلغى النائبُ ، لكن الرجل الذي يتحمل مسؤولية سلوك النائب أليس الناخب؟ «المجرم هو الناخب»! هذه الصيغة المتناقضة كـانت تستجيب لعواطف كاترين استجابة شديدة بحيث دفعتْها إلى معرفة صحيفة «الفوضى» التي كان اسمها في أدنى الإعلان.

لم تتمكن من العثور عليها إلا بعد عودتها الى باريس. كانت ورقة فقيرة جداً يديرها حينئاك «البير ليبرتاد» و «آناماهي». . كان في ظاهر هذه الصحيفة أشياء جديرة بأن تثير لدى كاترين ضرباً من الفكر النقدي من مثل النزوات الإملائية «لآنا ماهي» بحجة «الإملاء المبسط» وتغييرها حروفاً بحروف. لكن هذه الغرابة مثلها مثل ذلك النوع من التنافر في الأفكار، كان يشدّ إليه الآنسة سيمونيدزيه كما تشدها صورة الرومانسيين الحمراء. بيد أن الخاصة الغالبة في صحيفة «الفوضى» كانت مناهضة الروح العسكرية. ومن التسرّع الزعمُ أن كاترين كانت تستسيغ في هذه الروح الثأر من زواج أختها. ان مناهضة الروح العسكرية عندها كانت ثورة على الرجال، على جميع الرجال، لا«ميركورو» أو «جان تيببو» فقط. الرجال هم الجنود، والرجال هم الناخبون. لم تكن كاترين تطلب حقّ الانتخاب للنساء، مثل المناديات الانكليزيات بحق المرأة في الانتخاب.

الحق ان صحيفة «الفوضى» التي كانت تقرؤها بانتظام، كانت تقوم ضد الحرب بدعاية لاتخلو من القوة. وهكذا تعلّقت كاترين بمقالات «ليبرتاد». كتب يقول:

من الناس من يتكلم من أجل السلام، أما أنا فأنا أتكلم من اجل الحرب، تلك الحرب التي لاتُلقي بالرجال على الحدود - فالثورة لاتعرف

شيئاً من ذلك ـ لكن تلك التي تثيرهم ضد الظالم في كل يوم، وفي جميع البلدان».

وإذا ما مزجنا ذكريات «كلوز» بهذه العدوانية نحو الرجال، والأزواج، وهي عدوانية تمنح حديث كاترين سحر المعركة، فربما فهمنا كيف كانت كاترين تقرأ هذه الكلمات: «الظالم في كل يوم». كانت بعيدة عن أن توافق على جميع المحررين في صحيفتها الجديدة. ضد الظالم، كانت أعنفُ الوسائل تبدو لها صالحة. انزعجت من مقالة لفردينان بويسون. وبرأي هذا الرجل الممتاز أن أم الأسرة يجب أن تلقّن الولد في سن مبكرة هذه الفكرة وهي ان الأسلحة، السيف والبندقية والمدفع آلات، ينبغي أن ننظر اليها النظرة نفسها التي نُلقيها في قصر «شيون» على آلات التعذيب المستخدمة منذ بضعة قرون. من كل هذا الكلام استبقتْ كاترين «أم الأسرة»، وهذه العبارة أخرجتها عن طورها. هناك أمهات أسر عند الفوضويين الآن! ثم إن المسدّس ليس سلاحاً مضى عليه الزمن ان صرع طاغية. وأخيراً شعرت كاترين بالرغبة في معرفة هؤلاء الناس المتعدّدي المشارب، ورؤية مافي صدورهم. ذهبت الى اجتماع صغير عقد في «صالة التجارة» شارع «ضاحية المعبد» وكان ذلك غداة توقيف ستة وعشرين موقعاً على عريضة مناهضة للروح العسكرية: «الى المجندين».

من هذه الصالة المليئة بالدخان والتي ازدحم فيها جمهورٌ نصف عمّالي ونصف مثقف، لم تحتفظ بغير ماهو مؤثر وبغير برقشة الناس. فالشعور الطويلة للشبان الذين وجدتهم جميلين وسيئي العناية بأنفسهم، أثارت اهتمامها؛ بالفعل بقدر ما أثار اهتمامها حضورُ عدد من النساء، مع أنها كانت قد نوت على الخصوص بمجيئها الى هذا الاجتماع ان تقترب من نساء ينسينها أختها وبريجيت وسولانج. وبالفعل، فهي لم تكد ترى هنا بعد

الخطباء الذين لم تترك اسماؤهم أثراً في نفسها - هنري لانييه، فيكتور ديمتيل، جان غولوسكي - لم تكد ترى هنا سوى رجل واحد وهو مدير صحيفة «الفوضى» البير ليبرتاد.

كان رجلاً طويلاً، رأسه مشعث، بلحية كاملة وشعر أسمر منسدل الى الخلف، أدنى من الياقة. وإذا كانت كتفاه ترتفعان قليلا، فلا شك ان ذلك يعود الى أنه لايمشي إلا بعكازين. ان هذا الرجل بجبهته العريضة والمحدّبة، و الذي تساقط شعره من جراء صلعة بادئة والذي كان يمارس جاذبية عظيمة على النساء بنظرته وصوته «البورديلي» الرخيم، كان عاجزاً. كان جسمه يموت من الجهة السفلى. ان تلك الإرادة، ذلك التفجر كان ينتهي بساقين رخوتين لاتستطيعان ان تحملا «ليبرتاد»، كانت كل قوته في ذراعيه المعودتين على حمل الجسم. ان هذا الكائن الذي لم يكن يلامس الأرض كان به هياج مؤثر لم تستطع كاترين ان ترفع عينيها عنه. وتكلم قال:

«منذ عدة أسابيع يتناقش بعضُ المتريّشين[1] لكي يعلموا من يملك الحق في نهب المغاربة، أهم رجالُ المال الفرنسيون أم الرأسماليون الألمان. ويبدو انه إذا ماتكدّرت خواطر هؤلاء الرجال لسببٍ من الأسباب - وجع الأسنان او المعدة، الخيبات الغرامية - فسوف يذبّح الناسُ الشرفاء في فرنسا ونافار الناس الشرفاء في بروسيا وبافاريا والعكس بالعكس. وبالنسبة الينا، في اللحظة التي تتحدّث فيها الحكومات عن المضاعفات الجديدة، نحرص على التصريح عالياً أننا لن نمشي. أما أولئك الذين يكتفون بالكلمات الفخمة: الوطن، الشرف، العلم، لكي يُقتلوا أو يقتلوا الآخرين فليذهبوا الى المجزرة! وعلى الأرض المطّهرة من هؤلاء المستسلمين سوف نعجل لقيام المجتمع الفوضوي حيث سيتحد الناسُ بحبهم للحياة».

---

(١) المتريشين: أصحاب السلطة.. المترجم

لم تكن الكلمات شيئاً: كان هناك الصوتُ، والشعلةُ، وكأنها التهاب كل ذلك الوجه بعينيه الصافيتين تم المزج بين القوة والضعف، بين الحدّة والعجز. كانت كاترين تنظر الى ذلك الرجل الذي يرتدي بلوزة العامل الطابع السوداء. أي مرض، اي حادث جعل منه عاجزاً؟ كان يخرج من هذه البلوزة ساقان متدليتان والقدمان عاريتان في صندل.

دنت كاترين منه عندما جاء يجلس في الصالة، وكلّمته. غريبةٌ كالدوار تلك الحاجةُ التي راودتها في أن تكلمه، لم تفهم ذلك جيداً. لم يتبادلا سوى بعض الأحاديث التي لا أهمية لها، لقد اقتربت منه بشيء من الحياء. أحست إحساساً غامضاً انه ينتمي الى عالم غريب، تجهله وفكّرت في نفسها: لا لأنه عامل. كلا، كلا. لكن بسبب حياته كلها، وهي مثل سر من الأسرار. تساءلت كيف يقضي أيامه، أين ينام، كيف كان يبدو وهو طفل. دعاها الى حضور أمسيات صحيفة «الفوضى».

قلقت مارتا أشد القلق، في اليوم التالي، من الرواية التي روتها لها كاترين عن هذه المقابلة البريئة.

- «يا الهي، كاتيوشا، أنت مجنونة؟ تذهبين الى مثل هذه الأماكن! سينتهي بك الأمر الى مشاكل مع الشرطة، أولاً، ثم ماهذا الفضول لذلك الرجل؟

- مهلاً، مارتا، أتظنين أنني مغرمةٌ به؟

- اما هذا فلا، لا أتصور ذلك! عاجز! لكن لم تسأليني عن ذلك! ياالهي، أنتِ مغرمة بذلك الفوضوي!

- أؤكد لك. .

- أنت عاشقة، أنت قلتِ ذلك! لكن فكري قليلاً بما قد يقع! أيه حياة ستكون حياتك؟ لن تتزوجيه؟

خياليةٌ كذأبها، مارتا هذه! استغرقت كاترين في ضحك جنوني. كان ثمة أشياء كثيرة في آن واحد: أولاً مايضحك لدى مارتا التي لاتتصوّر شيئاً خارج الزواج، بالرغم من جورس الجميل. ثم مايضحك في خوفها، وهذه الفورة من أجل لاشيء، على الفور قصة حب! الضحك مؤلم إذا تجاوز الحد، مثله مثل الركض في البرد الشديد: انه يحرق.

حدثّت «مارتا» السيد «دي هوتين» عن القضية. كان يعلم منْ هو «ليبرتاد». كان يعلم كل شيء، جورس. قبلته مارتا بإعجاب.

- «تقال أشياء كثيرة عن هذا الشخص، وينبغي ياصديقتي العزيزة، ان تفهمي ان الآنسة «سيمونيدزيه» قد ضلّت سبيلها أوه! لا أعني أنها ضلّت سبيلها اجتماعياً. . وليس مرادي أن أصدّها. لكن كرري عليها أنه قد انتشرت عن «ليبرتاد» هذا شائعات مريبة جداً. دون أن أعلم شيئاً محددا. وابذلي جهدك كيلا تقحميني في ذلك وأنت تكررين على صديقتك ما أقوله لك هنا.

كانت كاترين على وشك ان تضع قبعتها وأن تنصرف عند أول كلمة قالتها لها مارتا. يُقال إن «ليبرتاد» من الشرطة، وقد أُوقف ناسٌ عند أول تفتيش في منزله ولم يظهر عليه القلقُ بالرغم من خطبه النارية. وهكذا فأثناء زيارة الفونس الثالث عشر الى باريس، أوقف على جسر الكسندر وعلى يد «كزافييه غيشار» شخصياً. بيد أنه لم يصل الى مركز الشرطة!

- «أتفهمين، ياصغيرتي، ما أقوله لك، لمصلحتك. جورس روى لي ذلك، وسيان عنده ان كان «ليبرتاد» من الشرطة أم لا. على العكس، و لقد قال انه لابد من مثل هؤلاء الأشخاص، وربما كان الفونس الثالث عشر قد قُتل لولاهم. وهو أمرٌ مزعج جداً في باريس، تصوري! لا لأننا عاجزون عن الرد، على موت ملك، ملك اسبانيا. لكن ليتدبّرْ أمره كي يموت في

مكان آخر لا عندنا. كان أبوه قد جاء يزورنا في ثياب الفرسان المرتزقة. فكم تعوزه اللباقة! وفيما عدا ذلك هذا الملك شاب، ثم إنني أحب الاسبان. عرفت واحداً منهم، لا، كان أرجنتينياً، أو برازيلياً. لست أدري.

- ١٦ -

كان مقرّ صحيفة «الفوضى في ٢٢ من شارع «لابار». وقد أقام «ليبرتاد» في ظل «القلب المقدّس»(١) مطبعة صغيرة. كان طابعاً في فريق النهار عند قيم المطبعة دانجون شارع «مونمارتر». وساعده رفاقٌ له على إنشاء الصحيفة. كان لديه امرأتان معلمتان كما يبدو. لم يكن من هؤلاء الفوضويين الذين ينكرون العمل ويعيشون من عمل الآخرين. ولم يكن خاملاً كانت الصحيفة، والأمسيات، والأحاديث أو الاجتماعات تأخذ وقته كله، إذا ماغادر المطبعة التي يكسب منها عيشه. وهذا مايجعل اتهامات «جورس دي هوتين» بعيدة الاحتمال.

كانوا يجتمعون كل اثنين مساء في صحيفة «الفوضى». أصبحت كاترين من رواد هذه «الأحاديث الشعبية في الدائرة الثامنة عشرة، حيث كان يتقاطر كلُّ مافي «الفوضى» من نجوم، من «باراف جافال» الى «ليبرتاد». كان ذلك بالنسبة الى الآنسة «سيمونيدزيه» كالمقهى بالنسبة الى كثير من الرجال: مكاناً ينسون فيه أمور المنزل وهموم الحياة وأولادهم، ونساءهم. كانت تحيا حياة مزدوجة: إحداهما كأنها حياة آلية، ولم تكن غير ماتنتظره الحياة منها، مع السيدة أمها، وزوج أختها «ميركورو»، وأختها «هيلين»، وشباب من نمط «بول جونغنز». ما هذه الحياة؟ أشدّ الأشياء فراغاً وعدم

---

(١) القلب المقدّس: كنيسة مشهورة في باريس. المترجم

جدوى. واجهة. لم تنهض كلّ يوم؟ ماجدوى ذلك؟ معظم النساء يعشن في انتظار الزواج، فإذا تزوجن كنّ خادمات أزواجهن. أمّا كاترين... !

كان لها إذن حياةٌ ثانية لايشارك فيها أشخاص الحياة الأولى. كانت تذهب كل اثنين مساءً الى شارع «لابار». كان ذلك الغذاءُ الفكري الذي تجده هناك كالمخدّر لها، المخدّر المحمّس والمهدّىء. نظروا إليها أول الأمر بشيء من القلق. ثم تبنّوها.

كانت لها أحاديث طويلة مع «ليبرتاد». لم تصدق توجّسات «مارتا». لم تقع بينهما مغامرة غير متوقعة. لكن الحقيقة أنه كان بالتأكيد شيءٌ ما ليست شخصيةُ «ليبرتاد» غريبةً عنه فيما يمارسه من سحر على كاترين. وغالباً ما كانت تلقاه عند «دانجون»، وتنتظره في دكان التبغ القريب. كان يأتي ليتناول كأساً معها، وينخرط في الحديث باعةُ الصحف، وعمال المطابع. كان العالم الرشيق والغريب في شارع «كرواسان» يدور من حولهم في هذه الساعات التي يُحم الحيَّ فيها صدورُ الصحف، حيث يتخاطف الناسُ أكاذيب الصحافة المسائية من بضاعة المطابع، يتدفق جمهور الأهالي الذي يزخر بالعاطلين عن العمل، وبالذين تعودوا الحياة المخاطرة، وبمتسولين غير عاديين.

والى ذلك، محرقة المراهنة إذ ان هوى سباق الخيل لا يفتك في أي مكان أكثر مما يفتك في هذه المقاهي التي تحيط بمطابع الصحف. ان متسلمي الرهان في الأوساط العمالية لايشبهون أمثالهم في حانات «النجمة». كان كل ذلك، عند كاترين، الشعب بالإجمال.

من المؤكد ان كاترين كانت تشعر بعجزها عن أن تتنازل عن دنياها حقاً، عمّا يربطها بالعالم المحدود في شارع «بليز ديغوف وكأن عجزها عيب، وكأنه نوعٌ من الذنب. كانت علاقات غريبة تلك التي أقامتها مع

«ليبرتاد» وخيِّل إليها أنها تلعب دور الأميرة في نزهتها في الضواحي، غير أنها كانت أقرب الى هذا الرجل منها الى «ميركورو» لكن كل شيء بينهما توقف عند نقطة معينة. ومع الآخرين كان الأمر أسوأ أيضاً.

أحد الأشياء الذي كانت تقر فيه كاترين بفضل ليبرتاد والذي كان يُريحها، هو أنه أراحها في مسألة الطبقات. إن المفهوم الاشتراكي الذي يقسم العالم قسمين كما تُقسم التفاحة، قسماً للمستغَلين وآخر للمستغِلّين، طالما غاظها. فأين موقعها؟ لم تكن تستغلّ أحداً، لكنها لم تكن عاملة.

أما «ليبرتاد» فكان يقول إن هذا التمييز غير معقول. هناك طبقتان، الذين يعملون على تدمير الآلية الاجتماعية والذين يعملون على بنائها. ومن ثمّ فنحن نجد عمالاً وبرجوازيين في الطبقتين. وكانت كاترين تحسّ لكونها تأتي الى شارع «دي لابار»، أنها في الموضع الملائم. راحةٌ عقلية.

كانت تجد أيضاً سنداً في عنف نقد «ليبرتاد» اللاذع للاشتراكيين. ولعله كان يعثر على أعظم بلاغته عندما يغضب عليهم. وكان يُقال في صحيفة «الفوضى» ان هذا هو مصدر الاتهامات التي كان الاشتراكيون يردّدون صداها والتي تقدم «ليبرتاد» وكأنه شرطي. وكانوا يؤكدون فيها أن هذه هي الوسيلة التقليدية لوزارة الداخلية إزاء الثوريين الحقيقيين. وكان يُستشهد في هذا الصدد، باسمي «بلانكي» و«باكونين».

«بول لافارغ»(١) وحده كان يلقى شيئاً من الرحمة لدى «ليبرتاد» اوه! كل شيء نسبي! كان يعده ذكياً في حين كان يقول عن «جان جوريس» إنه جاهل. كان لافارغ يُشتم أقل من غيره قليلاً، هذا كل شيء. بل إن صحيفة «الفوضى» كانت تنقل أحياناً مقالاته.

بول لافارغ: اشتراكي مشهور زوج ابنة ماركس مات سنة ١٩١١.. المترجم

كانت كاترين تتلاقى مع رفاقها الجدد حول نقطة محدّدة جداً: احتقار المطالب المباشرة. كانوا مع الثورة لا مع يوم العمل ثماني ساعات.

وللانصاف، كان «ليبرتاد» يناصر يوم العمل ثماني ساعات، خلافاً لبعض أصدقائه الذين طلبوا ان يكون يوم العمل أربع ساعات، والذين طلبوا ان يكون يوم العمل اثنتي عشرة ساعة ليزيدوا من حنق العامل وليدفعوه الى الشارع. كان يقول: لكن يوم العمل ثماني ساعات ليس مهماً إلا إذا اعتبرنا كسب ساعتين من عشر ساعات يومياً يقصد الى تكريس هاتين الساعتين للأضراب العام. الأضراب العام اليومي لمدة ساعتين.. وهذا يفترض ان أية مخالفة لن تُغتفر كما يفترض منع الساعات الإضافية المأجورة.

لم يكن الاشتراكيون والنقابيون وحدهم هم الذين كان «ليبرتاد» يصارعهم: العدو بالنسبة الى ليبرتاد، هو جوهرياً الداعي الى الحرية المطلقة. كان يصيح:

- أنا فوضوي، أنا! أما أصحاب الحرية المطلقة، هؤلاء المتبلّدون الكبار فهم يرون الحرية قضيةً. الحرية في ذاتها. حرية أقيمت على قدمي عاهرة مثل جمهورية «دالو. هي مبدأ، تمثال. في البدء كانت الحرية. اما وقد فُرض ذلك، فهم يعدّون أنفسهم أحراراً، ويقاتلون المجتمع باعتباره عقبة أمام هبة السماء تبالهم ثم تبّاً لهم! ذلك منتهى الحمق. أنا فوضوي وأعتبر الحرية غاية. وأعلم جيداً أنني لستُ حراً. والحتمية إذن!.

حين يصل «ليبرتاد» الى هذه النقطة العملية، كان يحرك كميّه الأسودين العريضين. ويتابع:

- لا، لست حراً لكنني أريد أن أكون حراً. ولذلك كنت فوضوياً، لا من انصار الحرية المطلقة. ان التيار الذي يناصر الحرية المطقة في الفوضوية خطر جدّي، إنه يخيل اليك أن الظلّ هو الطريدة. نحن لم نولد أحراراً.

ماهذا النمط من الناس، نمط جان جاك روسو؟ أنا لا أعبد الحرية. لستُ مطلق الحرية. ولأنني أريد أن أكون حراً فأنا أعلم ان علي ان اضطهد آخرين. الثورة عملٌ سلطوي من البعض إزاء البعض.

كان موضوع حديثة المفضّل هو المسألة الجنسية. وكانت وقاحته قلما تثير، في الواقع، اهتمام كاترين، وهاهنا كانت تجد رجلها العظيم ضعيفاً. لقد عرفت عدداً لابأس به من العشاق ومايزال لها، وكانت تعالج من علٍ مسألة لاتعد مشكلة عندها.

وكان الكلام على الرذائل، والانحرافات يُضجرها. لم تكن سحاقيّة، وما سوى ذلك فهو قصص رجال. ولم تكن لتُخدع بتعدد الزوجات الذي يقول به ليبرتاد. وكانت تستنكره باعتباره يفاقم من أعباء الزواج. واختصما بهذا الصدد وكانوا أربعة هي وهو والمرأتان كانت «آنا ماهي» تصرخ: «اللذة الجنسية» بصوتها الحاد.

إبّان تمرّد الكرامين، حدثت مناقشات عنيفة بين محرّري «الفوضى». لقد عصى الأوامر فوجُ المشاة السابع عشر ورفض اطلاق النار على السكان المدنيين. أكان ذلك كافياً؟ قال «سيباستيان فور»: أخمص البندقية الى فوق ذلك هو شعاري. فردّ «ليبرتاد»: «إذا أمرنا الجنود بإطلاق النار فأمامهم ثلاثة إمكانات. تنفيذ الأوامر، رفع أخمص البندقية الى فوق[1]، وإطلاق النار على الذين أمروا بإطلاق النار، وأنا مع الحل الثالث»!.

كانت كاترين هنا موافقة أعمق الموافقة. ولم تكن ترى كيف يمكنها ألا توافق. أغمضت عينيها ورأت كيف صرخ «جان تيببو» في الإضراب، وذراعه ترفع السيف:

«نار»! وهو الذي صوّب الجنود عليه بنادقهم: نار! هو الذي سقط

---

(١) أي التمرّد على الأوامر.

في الوحل والدم. لقد رأت رجلاً يموت. لم تكن فكرة جان بعيدة عنها. كانت تكرهه.

- ١٧ -

أخذ طحّانو «سان جان دانجيلي» بالجرم المشهود. كانوا يغشون الطحين ويمزجونه بذرور الطلق. وكان ثمن مئة كيلوغرام من هذا السلعة ثلاثة فرنكات وعشر الفرنك بدلاً من ثلاثين الى خمسة وثلاثين فرنكاً ثمن الطحين. وقد استهلكوا مئة الف كيلوغرام من الطلق في ثمانية عشر شهراً. أو على الأصح، جعلوا الجمهور يستهلكها. أثار ذلك ضجة ودعوى.

كان «ليبرتاد» يعلّق على هذه القصة وهو يتفجر غضباً. قال:

- «إن الرأي العام يسخط على الصناعيين، لكن هل هم الأشد ذنباً؟ في أثناء ثمانية عشر شهراً سلّموا الطلق على أيدي العمال، ومزجه العمالُ بناء على أمرهم بالطحين. الأشد ذنباً هم العمال الطحّانون ومستخدمو المحطات، والخدم الخبازون، دون شك.

احتجت كاترين:

- كانوا يُطيعونهم فقط.

- نعم، ولاشك ان خبز الفقراء وحده هو الذي كانوا يصنعونه هكذا. أما خبز الأغنياء فإنهم كانوا يصنعونه من عجينة أخرى بناءً على أمر الخبّاز. تلك هي الجريمة، الجريمة العمالية، الأشد خطراً.

بدا لكاترين جيداً أن في هذه النقطة مبالغة: طيب، هي توافق على اتهام الخادم الخباز بالتواطؤ، لكن الاستفادة من ذلك لنسيان صاحب العمل! أليس هو المذنب الرئيسي؟

كانت هذه المحاكمة تكمّل، بصورة عامة، نظرة «ليبرتاد» الاجتماعية ونفيه للطبقات. كان يقول:

إن البرجوازي الذي يستهلك دون أن ينتج شيئاً أبداً ليس أعظم خطراً من العامل الذي يستهلك دون أن ينتج أبداً شيئاً نافعاً. والرأسمالي الذي يكدّس الأسهم بعضها فوق بعض ينبغي إبادته مثله مثل مستخدم الميترو الذي يثقب البطاقات طوال النهار. وفي نهاية الأمر، ألا ينبغي أن يُطعمهم العامل المنتج، ويكسوهم، ويؤويهم، ويلبّي حاجاتهم؟ كل انسان غير منتج تجب إبادته دون كره ودون غضب، كما يباد البقُّ، كما تباد الطفيليات. .

وهكذا فإن كل قوة «ليبرتاد»، كل غيظه، وهو يسوّي بين البرجوازي والعامل، كانتا تنصبّان في الواقع، على العامل. كان يحقد عليه بعنف «لاعن» لأنه لم يقم بالثورة مباشرة. ويا لمراقبي الميترو البؤساء! كان يتلظى غيظاً عليهم بخاصة، وكان بوسعه ان يتكلم ساعة بهذا الصدد. وكان يستعيد وهو يتحدث عنهم حركة اليد التي تشدّ على الآلة الثاقبة للبطاقات. وكان يُشيد بتوقف الحركات التي لاجدوى منها، كدواء لجميع الآفات الاجتماعية: «إن مراقب المالية ومراقب السكك الحديدية، الجلاد وموظف المصرف، نساج الحلل الكهنوتية وشريط وسام جوقة الشرف، مصحح مجموعة القوانين والانجيل والطابع لهما، الباحث عن الذهب والماس، يمكن أن يختفوا بعد أن يسحقهم إعصار التقدم، دون أن آتي بحركة لأمنع شيئا!.

ومن هنا كرهه للاتحاد العام للعمل C.G.T. كيف كانت هذه الرابطة العمالية تنظم، من أجل العيش الأفضل في المجتمع الراهن، العمال من جميع المهن! لكن ألم تكن تفكر ياترُى! في ابادة المهن الضارة، والحرف غير المفيدة؟ فما عسى ان تكون حاجة العامل الى تصوير الإعلانات واللافتات واختراع عدّادات الغاز ودفع الأوراق المصرفية؟ انه يجعل من نفسه متواطئاً مع شركه الغاز ومع الدولة النهّابة ومع التاجر السارق. والاتحاد العام للعمل يزعم انه يدافع عن مطالب هؤلاء الناس. لكن الأفضل ان يموتوا جوعاً، ان

يهلكوا، ان ينقطع مصوّروا اللافتات الخ . . والعجب ان هناك أناساً يصنعون بطاقات الزيارة!

هذا ماكان يدعوه العمل اللااجتماعي، وهذا التصوّر كان يسوقه الى محاربة النقابات والحزب الاشتراكي محاربته للروح العسكرية مثلاً.

- آه! دعكَ من العسكريين! أولا ان عندنا جيشاً ديمقراطياً، فجميع الناس كانوا جنداً، والجميع تواطؤوا. لكن لو لم يكن لدى العسكريين أسلحة لما طال عهدهم. فمن الذي يقدّم لهم الأسلحة؟ العمال. خذ مدينةً مثل «سانت ايتيين». المدينة كلها تعيش من عمل مصانع الأسلحة. المدينة كلها تعمل للحرب. وإذا شئنا ان نغلق مصنعاً، وأن نَخفض انتاج الأسلحة فإن العمال من أهاليها سيثورون. خذْ «بريان» النائب الاشتراكي من «سانت ايتيين»، تدخّل ليحتجّ على التسريحات . .

هنا وافقت كاترين. كانت السنة سنة ١٩٠٨، وكان «بريان» في السلطة. «بريان» طلع من الطبقة العاملة وحملته هذه الطبقةُ. وقد استخدم الأسلحة التي يصنعها ناخبوه ضدّ العمال. كانت للشعب الحكومة التي يستحقها. لم تعدْ البطالةُ عذراً. كان ليبرتاد يقول: «ان الصرخة القديمة التي أُطلقت عام ١٨٤٨: نريد عملاً! مايزال العمالُ يؤمنون بها. وهي صرخة العمال الذين يقدّمون أنفسهم لصنع السلاسل لأنفسهم! العمال يقبلون ان يؤدوا حركات الموت: فهم يصنعون المدافع والبنادق والسيوف والبارورد والمدرّعات والناسفات. وماذا أيضاً؟ . . ان مدناً كاملةً بنيت وهي تعيش من القرحة العسكرية، من العفونة الوطنية، من الإعداد المتنامي لعمل الموت. ونحن نلقى في شوارع المدن، في جميع البلدان، أناساً أُشبعوا كحولاً ووطنية يصرخون: عاش الجيش، عاش الزُهري، عاش القمل، عاشت القذارةُ، عاش الشرف!».

عندما كان «ليبرتاد» يسترسل في مثل هذا الشرح فإنه لم يكن يراعي

المكان الذي هو فيه إذ يغدو صوته خطابياً، ويقف على عكازيه ويصيح، في الشارع كما يصيح في المقهى. وكانت عاهته تحميه على نحوٍ ما.

إحدى نواحي الاختلاف بين كاترين وبينه كان تعميم الآلة في الصناعة. فحول هذه النقطة كان لهذا الرجل الغنائي ذي العكازين نظرات تصدم فيها ذلك الميل القديم لروسو، الذي جمعها في شيء ما «بجان تيبو».

كان ليبرتاد يشرح:

– ان الناس يهاجمون الألة كما يهاجم الطفلُ الذي انجرح السكين.

لكن المخطىء دائماً وهنا هو العامل نفسه: ينبغي أن يضع المسؤولية على عدم مهارته، على جهله أو على ضعفه. ليت سائق الميترو، وهو عبد آلته عشر ساعات، يضع مكانه بكل بساطة خمس ساعات المراقب الذي يظل هناك يثقب التذاكر.. وكان «ليبرتاد» يعيد حركة المراقب بتعبير مبالغ فيه تتسلى به كاترين.

أيّاً كان السرور الذي وجدته في أحاديث «ليبرتاد» والحماسة والشجاعة لدى رجال غريبي الطباع لقيتهم في محيطه، ونوع التجديد الدائم لهذا الوسط حيث كانت القاعدة استقبال أيٍّ كان دون ان يسأل أحدٌ من أين قدم، ومرور وجوه عابرة غريبة في هذا الوسط، من مجانين ومجرمين وكائنات بلا اسم ولا مصير ولا هدف.. فلاشيء أمكنه ان يملأ ذلك الفراغ الكريه في حياة «كاترين سيمونيدزيه».

لقد جرّبت الموسيقا وهي الشيء الوحيد الذي أنساها حقاً العالم – وحياتها. ودفعت أجرة دروس البيان التي رفضتها السيدة «سيمونيدزيه» إذ هي صغيرة. وتهالكت عليها بغير انتظام. كما تعلّمت الغناء. لكن الأوان فاتها الآن: أدركت أنها لن تبلغ أبداً تلك المهارة التي كانت ستحصل عليها لو بدأت هذه الدراسة قبل عشر سنوات. وتعبت.

طيّب، كان هناك ساعات تستطيع أن تقضيها هنا وهناك، لكن

الوقت لم يكن يجري. كان كأنه نبعٌ متجمدٌ. ومع ذلك كانت تصاب بالذعر أمام امسية من الأمسيات أو بعد الظهيرة. القراءة.. كتابٌ يضاف الى غيره! اما بالنسبة الى المغامرات فقد كانت النغمةنفسها: زيادة رجل. طيب، حاولت ان تتعلّق بهذه اللعبة. اشتهت الفتيان شهوة عاتية، كما يشتهي الرجلُ الممثلات. من أجل أجسادهم، من أجل قوتهم. اشتهت لاعبي كرة المضرب، وأسوأ من ذلك اشتهت أنواعاً من القوّادين. ما من واحد بينهم استطاعت ان تكلّمه. كان ذلك كأنه طلاقٌ لرغباتها. لم يكن بينهم سوى أنماط من الوحوش أو من الفتيان الجميلين، والأغبياء ممن لهم شيء من الجاذبية في نظرها، وكذلك الذين أمكن لشيء غير الرابط الجسدي ان يربطها بهم، من الهزيلي البنية، ومن رجال محرومين من السحر الذي لا تستطيع ان تُخلي أفكارها منه. مع ذلك ماكان بوسعها أن تحب «ليبرتاد».

حتى لتزجية الوقت.

سنة ١٩٠٧ مثلا، من الأفضل ألا يفكر الإنسان فيها: هي الهول، كانت هي الهول. شيء كالحسكة في الحلقوم.

- ١٨ -

لم تكن ١٩٠٨ بأفضل منها. كانت كاترين تحسّ كل يوم ان عدم جدوى حياتها او الحياة كما كانت تقول ولا معقوليتها تزداد ثقلاً. من الممكن أن النساء وجدن طبيعياً منذ زمن ان يجلسن ليشتغلن في التطريز خلف سجف النوافذ او ان يتهادين من مصباح الى مصباح في ركن الشارع الآخر، بانتظار الرجال، من الممكن ان ذلك كان غاية وجودهن القصوى. لم يكن بوسع كاترين ان ترضخ لذلك.

كان نصيبها من الوهم قصيراً جداً: بضعة أيام من تموز في السافوا، قبل رشقة الرصاص في «كلوز». وعندما كان ينبعث فيها الأمل، الأمل

الأحمق، الأمل المبهم، فإن فكرة الحب التي كانت تستولي عليها فجأة. آه! ليتها أحبّت أحداً. لكن كان يبدو لها فجأة ان في الحب كل خداع الدنيا. الحب! ان تغدو بغتةً تحت رحمة رجل، وسوف يكون هذا لها كما هو لغيرها، العبودية، الساعات الطوال، التطريز خلف السجف، وإذن لا.

في غضون ذلك، كانت تصعد مجرى الساعات والأيام والأسابيع بكلال مخيف. فصل آخر ينفد! أجمل ربيع في الدنيا، الصيف الأشد حرارة ينطفىء بعد يوم كامل، والخريف المعقول، والشتاء دون رياء. وأنتم يامن ضجرتم كثيراً في أيام العطلة، ربما فهمتم حياة كاترين كلها. نريد أن نستغل يوماً من الحرية، ولاندري لماذا، لنذهب مع أناس نعرفهم من العائلة الى مكان هزيل الأشجار كثير الغبار يُدعى الريف. ونسير الى موضع أبعد قليلاً لأن ذلك الموضع أروح. ونلتقي جماعات أخرى من النوع نفسه قد حاكموا المحاكمة نفسها، لكن على نحوٍ معكوس. ونتكلم. الناس لايدهشون من أنهم يتكلمون أحاديث تكاد بالانبهار بها تشبه لعبة المشكال. إنك تهز إنساناً فتؤلف كلماته نجوماً جديدة بلهاء. ومع المساء يأتي التعب ببطء، وتظل هناك طريق طويلة للعودة الى المنزل. وتحت قطارات الضاحية التي تعود الى الليل، كيف لا يزداد الارتماء مع الباقات الحمقاء من أغصان العطالة؟

كان لكاترين مَنْ يُدعى أصدقاء. وكانت تذهب اليهم وتجلس في كرسي واسع منجد. وكانت توضع حلوى صغيرة قرب كل واحد على طاولات متداخلة الأجزاء. كانت الأفكار والكلمات تدوّم وردية في ضوء عاكس النور. وفي وسط الغرفة صحراء عظيمة أو مرجٌ، سجادةٌ من «السافونيري» بزهور شاحبة. ثمة نساء معلقات بالديكور حسب ترتيب الكراسي، وعليهن فساتين جذابة، وقد أسبلن من أكتافهن فرو السمور أو

الثعلب. وهن يُدرن نصفهن الأعلى المشدود وقبعاتهن التي تشبه الحلوى بالقشدة، حانيات فجأة صروح أجسادهن تحت ثقل قصة تُروى. وتعلن الضوضاء في البهو عن زائرات جديدات.

كان هناك ايضاً المخازنُ الكبرى حيث ينفد مع ذلك أيّما نفاد وقتُ النساء. وهناك الشاي والموسيقا. لم تكن كاترين تكره الحفلات الموسيقية. بل ان ذلك كان هو الذي يعطيها تقريباً القوة لتتابع تلك الحياة الغريبة المعتادة الشبيهة بالمُكدم الذي شاع زيُّه آنذاك. ولفرط الضجر كانت كاترين تذهب حتى الى يوم استقبال أختها.

حينئذ كان يستولي عليها فجأة شيءٌ كالحمّى. كانت تأخذ في النظر الى رجل، أول رجل يعجبها. كانت جميلةً، كاترين. ويفضي بها ذلك الى قضاء بضعة أيام من الأغاني الغجرية. ومع ذلك كانت لاتنسى تماماً قط، وهي تضمّ ذراعيها العاريتين على عشق جديد، الطابق المنخفض الذي تمّ فيه اللقاء، وغرفة العزب، وغرفة الفندق، وكل الجوّ الاجتماعي المضحك، مثل بنطال مسحوب على كرسي إذا نُظر إليه من السرير، بعد الحب.

نضبتْ أهمية الأحاديث الشعبية في الدائرة الثامنة عشرة عند الآنسة «سيمونيدزيه». وباعدت بين زياراتها لـ«ليبرتاد». كان يتملكها إحساس بالعقم والموت لدى الفوضويين ولدى «مارتاجونغنز» على حد سواء. على أن العجيب والغريب أخذا يتعبانها. وكانت العناية التي يوليها هؤلاء المتمردون أشخاصهم، في الملبس وفي طراز الشعر تحنقها كما تحنقها قبعاتُ النساء أو التماثيل الصغيرة على مدافىء الصالونات. كان إملاء «آنا ماهي» مما يدفع الى البكاء، إذا فرغت اليه. وكان لدى ليبرتاد شيء من شخص الثرثار، ثم إن كاترين لم تشاركه كرهه لمراقبي المترو. إنهم رجال كسائر الرجال، في نهاية الأمر.

ومع ذلك في أواسط تشرين الثاني، وبعد مغامرة منفّردة مع غبي

لقيته في «باليه دي غلاس» اشتاقت كاترين لقاء «ليبرتاد» وسماعه وهو يتكلم، عن عبادة الموتى مثلا، وهو أحد موضوعاته المفضلة، وكم كان يهز رأسه، وهو يتلظى غضباً حين يتلكم عن الدفن والتماثيل والمقابر! استقلت الميترو ونزلت في محطة «ابيس»، حوالي المساء.

عندنا بلغت شارع «شيفالييه دي لابار» كانت تسوده حركةٌ غير عادية، وتتصاعد منه الصرخات. صادفت شغباً. كانت الشرطة تفرّق تجمّعاً. لقد انقضّ رجال الشرطة كالغمامة على هذا الركن من «مونمارتر»، على الأدراج المثالية العزيزة على أغاني «الشانوار». هؤلاء الوحوش الأشداء، الشباع، بقذالهم المحمر الخارج من الياقة النظامية، كانوا في غمرة العمل، وكان الناس يهربون من ضربات هراواتهم، وفي الوسط كان أربعة أو خمسةٌ من هؤلاء الأفظاظ ينقضون على رجل مرميٍّ أرضاً.

كان الرجلُ «ليبرتاد».

كان ذلك العاجز منبطحاً على ظهره يدافع عن نفسه بعكازيه اللتين كانتا تريَان وهما تدوّمان في الفضاء. كان رجال الشرطة يحاولون ان ينتزعوا منه هذا السلاح الارتجالي. ويوسعون الرجل الواقع رفساً بكل قواهم. رأت كاترين ساقي ليبرتاد المكسورتين مع القدمين العاريتين اللتين لاقوة فيهما في الصندل، وكأنهما خرقةٌ حقيرة. لم تر وجهه. سمعت صوته فسارعت اليه.

في هذه اللحظة تلقّت لطمةً في ذقنها فقدت وعيها وثاب اليها وعيها في مفوّضية شرطة «غراندكاريير» وهي من أحقر مفوضيات باريس. سُئلتْ هناك عن اسمها وعنوانها. ومع ذلك فهم لم يتصعّبوا في قبولهم أنها وُجدت هناك مصادفة. وبدا كأن شيئاً أزعج المفوّض. كان مستعجلاً فربما كان لديه ناسٌ هذا المساء. ولم يُظهر حرصه على الاستزادة من التفاصيل حول الحادث الذي شهدته الآنسة «سيمونيدزيه». فأُخلي سبيلها.

لم تستطع في اليوم التالي ان تصعد الى شارع «لابار» لتستخبر عن

«ليبرتاد» ، فقد وعدت «مارتا» بقضاء الأمسية معها . كان هذا على الأقل تبريرها لإهمالها . وفي اليوم الذي تلاه مّرت على المطبعة ، في شارع «مونمارتر» . لم يكن ليبرتاد فيها . وأخبرها أحدُ رفاقه في العمل أن مدير صحيفة «الفوضى» قد مات .

قضى إثر الضربات التي تلقّاها في شارع «شيفالييه دي لابار» . أرداه النزفُ المعوي .

مرّت صحيفةُ الفوضى في ١٩ تشرين الأول على هذا الحدث مروراً سريعاً في إشارة لتعلن تغير الإدارة دون أي تفصيل عن الموت ، وأي ذكر لترجمة الميت . ألم يكن «ليبرتاد» يكره هذا ويدعو ذلك «عبادة الجيفة» . إذا سقط رجلٌ ظلّ العالم يدور .

في اليوم ذاته ، تناولت كاترين وأمها طعام الغداء لدى آل «ميركورو» . جاءت مارتا جونغنز ومعها جورس دي هوتين» بعد العذاء . وتذكّرت كاترين مانقلته لها مارتا من أحاديث جورس عن «ليبرتاد» . وبما أن كاترين كانت على يقين من أنه اخطأ أرادت ان تواجهه بالبرهان فأخذته جانباً وأطلعته على ماجرى .

بدا على السيدب جورس وهو يمسّد شاربه ، أنه يستمع بخاصة الى مايتصل بالآنسة «سيمونيدزيه» . لم تُعرّض الآنسة «سيمونيدزيه» نفسها هكذا؟ ما المراد ، ليست الشرطةُ لعبةً . كاترين خلّصت نفسها بسلام هذه المرة<

لكن «ليبرتاد» ، «ليبرتاد» الذي قال عنه جورس انه من الشرطة ! كان السيد «دي هوتين» يهز رأسه وينظر الى مارتا خلسة . فاتنة وثرثارة قليلاً ، مع ذلك . لقد أوصاها أن تحذّر الآنسة «سيمونيدزيه» لكن لا ، من قبله . تنهد أخيراً ! «ماذا تريدين ، يا آنستي العزيزة ، ربما اضطرّت الشرطةُ أحياناً الى قتل مَنْ معها . . » .

جملةٌ فظيعة أثارت حفيظة كاترين الى حدّ لم تتساءل معه مامصلحةُ السيد «دي هوتين» في تحامله الضاري هكذا على ذلك العاجز التعس الذي سقط تحت أحذية الشرطة. لم تتساءل لماذا كان ينبغي حتماً لجورس دي هوتين صديق مارتا الأنيق ان يلطخ حتى ذكرى الطابع «البير ليبرتاد» وأن يمتزج بدم الشهيد وحلُ مفوضية الشرطة القذر.

- ١٩ -

ذات مساء من شهر آب في غابة «بولونيي». النهار يتطاول في بداية الليل. لم تخمد تماماً حرارةُ مابعد الظهر التي لاتُطاق، وفوق آكلي المثلّجات في «ارمونفيل»، وفي الجناح الملكي، والجناح الصيني، تدور أنغام غجرية. هؤلاء هم الباريسيون الذين لم يغادروا العاصمة برغم الفصل، الرجال الذين استبقتهم أعمالهم، والذين يأتون مساءً الى الغابة وحدهم أو مع صديقات ضاحكات كانت قبعاتهن العريضة تمنح الليل قرب البحيرة مظهراً عجيباً من قصص الجنينات كما يقولون، في حين كانت نساؤهم يصطفن في «سانت آدريس» أو في «هولغات».

كانت كاترين في الممرّات الجانبية مثل حطام تتقاذفه الأرصفة، حزينة، متبعة واهنة. إنها تحسّ في نهاية هذا اليوم الصيفي وكأنها في مساء حياتها، مثل جمهور «سان كلو» الذي يتأخر وهو يفكرّ في الحافلات المرصوصة التي سينتهي بها حتماً مجون الأحد في الشمس.

هربت من أفكارها وأصدقائها. سعت الى الظل. فركد تعبها في التصنع الغريب لهذه الغابة المصنوعة على القياس والتي تمتد فيها باريس. وتمرّ أزواج، ويحط آخرون رجالهم. ثمة إغراءات لصيد المارة عند منعطفات الدروب. لم يكن لها قلب كي تتابع هذه المداورات، كاترين. كانت تصغي في داخلها الى الرهبة المتعاظمة، وفي ظهرها نقطةٌ تذكرها،

بدقة مخيفة بما يبعدها عن الأضواء الناشئة بذلك الواقع الذي ينبغي تعوّده. أحست يدها على جبينها بشيء من العرق آه! ان تنتهي من ذلك كله أفضل من مستقبل الشالات.. وتنهض كاترين لأن رجلاً ذا قبعة من القش وشاربين لائقين جلس قريباً جدا منها على المعقد.

قرأت طوال النهار كتباً طبّية وهي تعلم ماينتظرها. وقد اكتسبت بعض الكلمات الجديدة أهمية في حياتها كلمة «جيّود» مثلا[1].

فكرّت في أختها، في حياة أختها الحذرة. لقد عالجت هيلين نفسها، ومايزال زوجها «ميركورو» يحترس من ان تجهد نفسها.. والحياة التي كان يمكن ان تعيشها مع جان ترسم لوحتها عبر منزل أختها. ولاشك أن جان من طينة أخرى مختلفة عن زوج أختها، لكنه بعد كل حساب، «ميركورو» من طراز أعلى. ماجدوى ذلك؟ ينبغي ان يمر كل شيء الآن بسرعة عظيمة. عندما يكون الإنسان طفلاً فإن ستة أشهر تبدو حياةً. كما يقال وداعاً للصيف كل عام! الآن.. سنتان! الحق، ان ذلك لا يستحق الكلام عليه. سنتان. زمنٌ لانرى فيه شيئاً ولا نفعل فيه شيئاً. سنتان. هما أكثر مما ينبغي أو أقل مما يكفي. ما الذي سيتغير في العالم، في سنتين؟ لاشيء وستمضي بعدهما دون ان تكون قد رأت شيئا مما سيأتي.

كان يُعزَف «فالس» في الجناح الصيني. وكانت تتحرك تحت الأشجار المجاورة ظلالٌ مريبة. لقد وقعت جريمة في هذا المكان عينه، في الشهر السابق. وتذكرت كاترين جيداً تفاصيل القضية التي استرسلت فيها الصحف. كانت الضحية تضع قبعة ذهبية ذات ريشات رزقاء. كانت بغياً دون شك. أُنتزعت منها محفظتها. وحالت الموسيقا دون سماع صراخها.

---

(١) كاترين مصابة في رئتيها ولن تعيش أكثر من سنتين في رأي الأطباء، بسبب تلك الكهوف الرئوية.. المترجم

وتصوّرت كـاترين الاسـتـغـراب المضـحك عـلى وجـوه الذين يحـيطون «بميركورو» لو قُتلت هي هذا المساء.

جاء شخص يكلّمها. فانتابها مايُشبه النشوة. سبّرته بنظرتها. أحد القوادين. ثلاثة وعشرون عاماً او أربعة وعشرون. ، بأسنان ناصعة، وقبعة قشٍّ خفيفة وربطة عنق ضخمة، مخطّطة. وهو جميلٌ جداً على الإجمال. ماتُريده الأُخريات بالضبط. ليس فحشُ الكلام والمحدّد في الطلب الذي طلبه منها والذي بدا كأنه الأمر ما أفزعها. وإذا كانت قد وثبت فجأة نحو المصباح، الى منطقة الضوء المنير، فذلك فقط لأنه لمسها لمساً ولم يأخذها بين ذراعيه.

تبعها. كان ثمة ظلالٌ تروح وتجيء. وكانت بائعةُ هوى قديمةٌ جداً تتهادى في النور. اقترب زوجان غريبان. نظرت كاترين الى المرأة المخضّبة. لحق بها القوّاد. لم تخفْ كاترين. لكنها لم تكن ترغب في المشاحنة. كانت تخشى الضوضاء.

فجأة مزّقت الصافرات الليلَ. أخذ الناس يركضون، وهربت نساءٌ الى الممر الآتي من «الأكاسيا» الى باب «دوفين». بدا الرجلُ الذي يقرب كاترين كأنما تبدّد. وفي طرفة عين كان على جانب الرصيف نحو ثلاثين شخصاً متجمعين بين حاجزين من رجال الشرطة. الكَبْسة.

الفكرة الأولى التي راودت كاترين اتجهت الى «ميركورو». فضيحة شائنة محتملة. كان قطيع النساء المروّعات والمثرثرات يزدحم حولها. وكان مفوضو الشرطة باللباس المدني ورجال الشرطة باللباس الرسمي يدفعون بقوة هذه الماشية المطاردة. كان بعضهن من اللواتي تعوّدن ذلك يحتججْن بأصواتٍ فاترة، من أجل الشكل:

«لن تقودني هذه المرة، لا؟ وتجديف، وصفعات على الأرداف. ووسط ذلك كله رجلان مروّعان وعلى وجهيهما الخجلُ من الغد، لوطيان فوجئا، وهما يتلعثمان .

دنا عريفٌ من كاترين: «هيّا، اوستْ! ماهذه؟ جديدة؟ أمسك بها من معصمها، بصلف: «أوجعتَني، أنتَ مخطىءٌ. . » أحسّت بعدم جدوى الاحتجاج، ولاسيّما أن الشخص الذي كلّمها تحت الأشجار ظهر في جديد هنا، ولاشك أنه مخبر، وأفاد: »لقد اعترضتني» قبل قليل، عرفتُها، وأُراهن أنها لاتملك بطاقة».

ياللقذر! لم تتمالك كاترين نفسها من الصراخ: «كذّاب»! وساءت الأمور وأحاط بها الشرطة عندما ارتفع صوت شديد

الهدوء، من خلفها: «أنتم واهمون، ياسادة، فالآنسة كانت معي. . » كان الشخص الطويل ذو القبّعة الخفيفة يقهقه. أسكته العريف. عرفت كاترين الرجل الذي تكلم. كان هو الرجل الذي لاحظت كاترين المرأة المخضبة معه منذ حين. كان رجلا حليقاً، في وجهه شيءٌ غريب، وجهٌ شديد الشحوب، دقيق الفم، وفي لباسه أناقة، وهو يتسند الى عصا في مشيه.

لاشك ان العريف والأفراد قد عرفوه. ومع ذلك فقد أخرج بطاقته من جيبه كأنه يخرجها لبعض المجاملات الاجتماعية. رأته كاترين يتقدّم نحوها، ورفيقته تتأبط ذراعه. امرأة سمراء، مأساوية التعبير، جميلة جداً. حطّت يدُ الرجل اللابسة قفازاً، وهي أصغر من أيدي الرجال، على ذراع كاترين. وجرّت المرأة الفتاةَ، وهي تقول بصوت رخيم: «تعالي، ياعزيزتي»، ولاتخافي فلن يسّموك. أليس كذلك، يا سادتي؟» تنحى الشرطة عن طريقهما وابتعدا وكاترين معها، بينما ارتفعت من جماعة النساء بعضُ الشتائم.

مشوا، في البدء، بصمت. ثم همست كاترين، بينما كانوا يقتربون من باب «دوفين»، بكلمات الشكر المرتبكة. قالت المرأة: «يجب الا نفترق مادمنا في الغابة». وخرجوا منها أمام محطة «سنتور». وقفت كاترين: «اعذرني، ياسيدي. كان شيئاً لطيفاً منك.. دون أن تعلم عني شيئاً. لكني في أمسية من تلك الأمسيات التي لانكاد نعلم مانقول فيها. لا أدري كيف أعبّر لكما..» قربت المرأة وجهها ذا العينين الواسعتين، حيث كانت دائرة الخضاب حول العين تتناقض مع الأسنان.

«اصعدي وتناولي شيئا من «البورتو» معنا. فنحن نسكن قريباً من هنا.

أحسّت كاترين بارتباك ينهض فيها. وغضبت قليلا حين عدّت ذلك التدخل عملاً انسانيا. غضبت من ذاتها. نظرت الى الرجل والمرأة. ثريّان، بالتأكيد. كان الرجل، بقبعته الفاتحة، يخلو خلواً غريباً من الشباب. كان شحوب السحنة آتياً من البودرة، في الحقيقة. وكان في المرأة شيءٌ من النهم، وملمحٌ من اليأس. بان عليهما كليهما، وكلاهما ممسكٌ بذراع الآخر، كأنهما ينتظران جوابها. كان لصمتهما الملح لونٌ من الرجاء. كانت الليلة حارة، وكانت توافيهم عبر الأشجار نغماتٌ خافتة من اوركسترا الجناح الصيني.

أصاب كاترين ضربٌ من الاشمئزاز من ذاتها. ماهذا؟ هاهي ذي الآن تراودها أفكارٌ غير معقولة لفتاة ربّيت تربية صالحة؟ لماذا خلّصها هذان من أيدي الشرطة لولا أنها أعجبتهما؟ وهي تتوقع أن تدهش من طلبهما.. هل أنا أكثر من عاهرة؟ لم تفارقها عينا المرأة الواسعتان:

- «سوف تسرّيننا كلّ السرور! اذا قبلت ان تظلي معنا بضع لحظات. هناك أمسياتٌ ياآنسة، نحسّ فيها فجأة اننا مرتبطون بمجهولين أكثر من

الأرتباط بالأصدقاء الدائمين . . أتقبلين أن تبقي معنا بضع لحظات؟ لعل في هذا الرجاء شيئاً غير صحيح أرجوك ألا تقفي عنده . .

لم يكن صوت الرجل جميلاً ولا مقنعاً -لكن كاترين لم تحفظ منه غير تلك النبرة الغريبة في هاتين الكلمتين: «هناك أمسيات». وسمعت نفسها تقولُ وهي مندهشة بعض الأندهاش: «بكل رضا».

مشوا في الجادة على ممر الخيالة. كانت أقدامهم تغوص في الرمل المؤار. لم تكن أية كلمة ممكنة بينهم تقريباً: كانت الكلمات الأكثر تفاهة تبدو دعرةً. ماذا يعرفان عنها وماذا تعرف عنهما؟ كان لدى كاترين شعورٌ مبهم بأنها تعرف وجه الرجل، ذلك الطابع المونغولي في العينين. لقد دام الطريق من المحطة الى زاوية جادّة «مالاكوف» بخُطا وئيدة وكأن الإسراع كان سيبدو خشونةً، زمناً طويلاً. كانت اصواتُ المتنزّهين تعلو في الصمت ببراءة رائفة تنمّ على أفكار أخرى وراء الكلمات.

عبروا الى الممر الجانبي على حافة الجادة. قالت المرأة: «البيتُ هنا». مرّوا بالحديقة الصغيرة أمام مبنى للايجار وبلغوا الباب، وعالجوا لوحة الكهرباء. بضع درجات . المصعد.

عندما انفتح معطفُ المرأة الأسود شاهدت كاترين انها تتقلد عقداً من الأحجار الكريمة من عين الهر. فاجأ الرجلُ نظرتها فابتسم، وقال عند باب الشقة، وهو يشير الى رفيقته: «انها الشؤم!» دخلت كاترين البهو.

— ٢٠ —

في هذه الشقة التي يصطبغ فيها الترف بظلال من الذوق الفني الذي يتجاوز الرفاهية، فكرت كاترين تفكيراً قاهراً، في شارع «شيفالييه دي لابار»، وفي موت «ليبرتاد». إن في جوّ هذه الحياة الذي شعرت كاترين أنها فاجأت شيئاً منه في غابة «بولونيي» منذ حين، قبل الكبسة، مايشبه تنازع

العناصر المتباينة. في اللحظة الأولى لم يكن ذلك سوى فكره مشوّشة فيها، وإنما تحدد ذلك الصراع الممتزج بالديكور والذي لم يكن الرجُل والمرأة الموجودان هنا الممثلين الوحيدين له، فيما بعد عندما أعادت كاترين التفكير فيه.

الغنى. بدءاً من كريستال «لاليك» الى النعومة الحريرية للسجاد الفارسي. والروح الثقيلة للمنسوجات بخيوط ذهبية على الأريكة المغطاة بالوسائد. وبين ذلك كله شاهدت عينا كاترين البيان المفتوح، أعجوبة. مزيج غريب من الفن ومن تذوّق الفن، مع طابع حسّي. أليس كل شيء هنا وكأن ذلك الطابع الحسي قد هرب من هذا الرجل الهزيل الذي لاينطق بالحياة جبينُه العريض العاري من الشعر الا في الصدغين عبر خفقان الشرايين المتنبّيء بموت فريد، ليتجسد ذلك الطابعُ الحسي في المرأة الواقفة وسط الصالون، وقبعتها بيدها، ومعطفها مُتدلٌّ، وهي تنظر الى كاترين بشدةٌ لاتُصدق، ثم تنقل بنظراتها بعد ذلك الى الرجل الذي اختلطت أصابعه النحيفة بأقداح الشمبانيا الزجاجية.

- عندك ثلجٌ، أليس كذلك، ياصاحبتي؟ ففي مثل هذا المساء لاتُشرب سوى الشمبانيا.

أحسّت كاترين بالرعشة الغامضة عندما قال: «في مثل هذا المساء» إحساسها عندما قال قبل هينهة: «ثمة أمسياتٌ». إن لهذا الرجل طريقةً خاصة به أن يُحمّل بالمعاني كلمات مبتذلة ابتذالاً مُزعجاً.

كان هناك ثلجُ.

على الجدار، وعلى حمالة اللوحات رسومٌ متواضعة، صور أشخاص أزهار بعضها غير تام. الظاهر ان كاترين في منزل رسّام ، . رسام

وسائله الهزيلة تتناقض مع فخامة الشقّة. كل ذلك يغرق، مع فضول الفتاة، في عتمة المصابيح المنخفضة التي أُضيئت في ثلاثة مواضع أو أربعة.

النافذة مفتوحة على جادة الغابة. ويهب منها الآن ضربٌ من نسيم الصبا. مع آخر نفحات رائحة نبات «السيرنجه». وفي عيني «بيرت» (هكذا دعاها) تساؤل تنوء به كاترين. وهو ليس الغيرة، بل القلق. وهذه أيضاً. . لكن هل تكون تلك التي لا تمضي؟

قال الرجل:

-أنت لاتشبهين، أيتها الفتاة، النساء اللواتي نصادفهن وحيداتٍ في غابتنا. ثم إن في حنجرتك أغنية حمامة من غير لبلادنا. . جيورجية؟ وأنا أعرف أميرة من هناك ماتت لفَرط ما أَحبّتْ. . لعلكِ صادفتِها.

- إني لا أصادفُ أميرات.

ضحكت المرأةُ ضحكة صافية: «حيوانٌ نفور!».

أخذت الشمبانيا الباردة تضع في عينيها ظلالاً ذهبية. وأحسّت كاترين بان حولها تآمراً في الأفكار، فأرادت ان تُبعده بأن تتكلم.

كانت متعبةً من سرٍّ تحمله منذ الصباح. أخذت تكرّر الكلمات التي سمعتها: ثمة أمسياتٌ. . وقعت عيناها على تمثال صغير رهيب: كان كائناً ساقاه ماتزالان حيتين. لكن جسمه العاري كان ينسلخ وهو يصعد من اللحم، من عضلاته المتساقطة أشلاء، ليغدو هيكلا طالعاً من جثّة، وهو يمسك بين يديه المعروقتين قلباً.

-ايتها الفتاة الصغيرة التي يأبى عليها إباؤها مصاحبة الأميرات، ان ماترينه نسخة غير متقنة لآية فنية في «بار» على قبر دوق «دي لورين». والروح المبنعثة من المادة. .

قالت:

- ولست أصاحب الأرواح ايضاً.

أفضى بهم الحديث في الحال الى الكلام على الموت. ألم يكن الموت فكرته الأثيرة؟ وماكان يبحث عنه في كل مخلوق اليس ذلك الرنين الشفّاف للموت، تسلط القبر، وكأن في مظهره الجسدي تسويغ مشروعٌ لذلك.

صبّت «بيرت» الشمبانيا.

وتحدّثت كاترين عن موتها.

القصة بسيطة. لكن كان فيها كل سرّ الشباب والقبر. ذلك اللاشعور بالحياة حتى الآن، كشيء واجب الأداء.

ذلك البحث عن شيء آخر غير الذات الذي دفعها الى رجال أشدّ اختلافاً فيما بينهم من أيام الشتاء عن أيام الصيف. تعذّر الاقتصار على هذا او ذاك. العالم كقفص يحيط بكل انسان. الأنوثة التي تتمرد. جاذبية كون تجهله النساء، وراء هذه الحيوات المحدودة. العالم العمالي المترامي الأطراف الذي يتجاوز جميع الحدود، والذي تمثل فوقه جميع ملاهي المجتمع. القوة الحقيقية التي كانت تؤمن بها كامرأة. اليقين بأن ترى ذات يوم هذا العالم يتفجر. ثمّ. ثم سعالٌ خفيف جاف يدوم. تعبٌ لاعهد لها به. نقطة في الصدر مذاقٌ غريب في الفم. ذات يوم. الدم. لافائدة من التهويل.

وذات صباح، ارتدت ثيابها بأعظم مايمكن من البساطة لعلمها ان الحقيقة انما هي للفقراء وحدهم. ومضت الى «لاينيك» للاستشارة. لم يكن المكان بعيداً عن بيتها وخشيت أن تصادف في «نيكر» صديقاً داخلياً. وعرفت الحقيقة. صارحوها مصارحة قاسية. كهوف رئوية في كلا الجانبين. ولا حيلة لهم بها. وبالطبع سيطول الأمد مع العناية. وقدّروا لها سنتين أو ثلاثاً ان واتاها الحظ. هذا ماجرى. وقضت يومها في قراءة المعاجم الطبية في «سانت جينيفييف». وعند المساء، أحسّت بالحمى، فلم تشأ ان تعود الى البيت وأن تكلم أمها وغير امها! تناولت عشاءها في مطعم صغير قريب من «السين». ثم الميترو، وجاءت الى الغابة.

-ظننتماني بغياً أليس كذلك؟ تعلمان أنني لا أجد في ذلك مهانة لي . .

كانت «بيرت» تداعب يديها . وكان الرجل المتكىء على مرفقيه المنقلب الرأس، يحرك شفتيه الرقيقتين . قال :

- وأنا ايضا حكم عليّ الأطباء بالموت، وها أنت ترين أنني لم أمت . لكنني أعلم ايضاً ما الذي يعنيه ألاّ أرى ذات يوم، الزمن أمامي وكأنه سهلٌ ممتدّ . . وماذا قررت؟

سؤالٌ غبي . لكن كاترين فاجأت نفسها وهي تجيب عن سؤاله، فيم يُعدل استخدام الأيام مَنْ كان يعتقد بالبقاء على قيد الحياة . ثم إذا به يكفّ عن ذلك الاعتقاد ؟ كانت كاترين تفكرّ وهي تتكلم في ليبرتاد ذي العاهة . وإذا كنا نعتقد اننا لن نعيش الا قليلاً من الوقت، أفليس هناك طرقٌ للموت أفضل من الموت احتضاراً؟ فوضوية؟ نعم، كانت فوضوية، لأن كل سلطة، كل حكومة، كل حق، كل دولة، هي دائماً سلطة الرجل على المرأة . أمامها سنتان! سنتان ستشغلهما بالسيطرة على الرجال، بأن تكذّب القانون الذكوري في كل لحظة . . . سوف تتخذ من العشاق الكثير الكثير . وليس الموت بقادر على أن ينفرها من الحياة . وستكون كلّ دقيقة من هاتين السنتين تحديا للنظام الذي اخترعه الرجال . اما ماذا سيحدث في النهاية فليس بوسعها ان تضمن عدم تفويتها خروجها، لكن ذلك ليس بالشيء الأساسي .

وفجأة عرفت كاترين مضيفها . أو على الأصح صورة له على جدار رأتها في صالون السنة الفائتة . «هنري باتاي» . كان الكاتب يعلق على كلماتها الأخيرة فقاطعته .

- عفواً ، لكن يجب أن تعلم أنني أعرف اسمك .

هذه الصراحة حولّت مجرى الحديث اليها وكأنها بابٌ يصرّ. ذاب الثلجُ في الشمبانيا.

أخذ «باتاي» يتحدث الآن عن نفسه:

– نعم عشتُ طويلاً مغموراً بفكرة موتي. ونظرت الى هذا العالم الذي يُحيط بي وكأنه نارٌ ساطعة سوف تنطفيء. هذا اليقين لم يختف مع اليقين الذي عاد إليّ بأنني سوف أحيا أيضاً، عندما حسبوني شفيتُ من داء كان دائماً هيكل حياتي ذاته. فأنا أعلم ان كل مايحيط بي سوف يهلك. والداء ليس فيّ وإنما هو في هذا العالم الذي أنتمي اليه، الذي يدور ويجرني معه. وهذا العالم هو الذي سيتوارى. وهذه المأساة هي التي أعبر عنها، وهذه المأساة هي مسرحي وحياتي».

كان في جو هذه الغرفة الصيفي رائحةُ القلق تطوف فيه عينا المرأة. عينا «بيرت بادي» التي كانت ممثلة مسرحياته وامرأة حياته، في آن واحد. ان هذا الرجل الذي كان يبدو أنه قد أُوتي كل شيء وحرم كلّ شيء، والذي كانت نجاحاته عظيمة جداً في باريس العديمة الإحساس، لكن هذه النجاحات لم تكن دون شك تلك التي كان هذا الرجل المريض والغني الذي كان فناناً الى حدّ الإضحاك، يتوق اليه من رغبة في التأليف بين حياته وفنه.

– نحن في نهاية عصر، عل عتبة عالم. نحن، ابناء بزينطة، ماذا بوسعنا ان نفعل؟ نحن نلعن هذا العالم المتعفن الذي هو جسدنا ذاته. وأنا أنادي بكل قوتي ذلك المستقبل الذي يبدو لي أحياناً وجهه الجاد. كنت تتحدثين، أيتها الفتاة، عن العالم العمالي. إني أحيّي في كل ماكتبتهُ فجر الاشتراكية. لكن اللعنة علينا، عليّ. أنا جزءٌ لا يتجزأ من هذا العالم الذي يموت. وكنبيل روما الذي يقرأ في عيون عبيده الحكم بالأعدام على المجتمع الوثني، أنفق أنا مابقي لي من الأيام في اعياد نيرون الدموية. . لا، أنت لاتعرفين الى أي حد من الوعي يمكن ان نصل في هذه الشقة على جادة

«الغابة»، في مطلع القرن العشرين. وسيأتي يومٌ يقرأ فيه ناسٌ جُدُدٌ أعمالي بعيون كُشفتْ عنها غشاوتُها وسيرون كم أبغضتُ السفينة التي تحملني، وكم كنت أنادي، بين قلوعها. بالغرق، وكيف أن بريق الجواهر لم يَصر فني عن النجوم».

أكانت كاترين سكرى؟ كانت الشبمانيا التي غدت فاترةً تصاحب هذه الكلمات بما يشبه الأوركسترا الخفية. امتزجت مشاغل الفتاة بالديكور. كانت ذكرى «كلوز» تلازم ملازمة غريبة هذه الليلة الحارة حرارة تلك الليلة، حين كانت في الغرفة الصغيرة الفقيرة التي كانت تتكلم فيها أم بجانب ولدٍ كبير ميت. إن هذا الرجل الغني، هذا النتاج، هذا المآل لحضارة بأسرها، وسط شواهد الترف والإرهاف التي كان يريها من حولها وكأنها أمارات الموت الحيّة، ان هذا الرجل كان يعثر على الكلمات النبوية التي تدوّي في قلب كاترين.

أمن المؤكد انه كان يفكر ويعيش هكذا كلّ شيء، في كل يوم؟ ربما كان فيه بخاصة نوعٌ من الأنوثة تحمله على قول ماكان ينتظره ذلك الكائن المسوق الى الظلمات، والذي يقصد الى عدم تخييب امله، والذي سيحمل من هذه الليلة صورةً سيقامر عليها، «باتاي» الشاعر، مرة أخرى، في عينيه ذاتهما، بكل مايملك.

كانت ترى فيه، في هذه الساعة، مُشرفاً على تنكر بالأقنعة، عازف قيثار سيء الذوق يُدير رقصة الموت. بدت كأنما فهمت ماكان يبحث عنه تحت الأشجار المزروعة في غابة «بولونيي». كان الكاتب يتكلم عن تلك الأمسية التي تلاقيا فيها. ألم تكن له أخلاق هذا العالم وجنون هذا العالم الذي نما فيه؟ فحتى الخاتم الذي كان يضعه في اصبعه، ألم يكن كل شيء فيه اعترافاً بذلك الجنون وكان في الوقت نفسه صفعة للنفاق الاجتماعي الذي

يصرف العيون عمّا ينُتج؟ ان تحية الشرطة الخافتة، قبل قليل، التي لا تؤدي به الى الفضيحة بسبب اسمه وثروته لهي فظاعة، أليس كذلك؟ لكنها ايضا انتصار. يقول «أنا فضيحة حيّة».

ولاشك ان كاترين لم تدخل مركزاً للشرطة قط مع البغايا؟ كان بوسعه ان يقول لها كيف يجري ذلك. وعربة السجن ليس من شيء محزن مثل صغار العاهرات اللواتي لم يعد يؤذيهن ان ينُقلن الى مركز الشرطة.

تلاشى ظلّ الثورات الأحمر: أخذ «باتاي» يتحدّث عن الحب، وعن قطيعة الحب. لاشك ان السفينة حملته على نحوٍ محسوس. وبكل بساطة أغفتْ كاترين.

- ٢١ -

إذا لم يبق لك من الحياة سوى زمن يُقاس بكل يوم، فلأي شيء تهبينه؟ اكتشفت كاترين، إزاء هذا الضياء الجديد، أنها أشبه بأمها مما كانت تظنّ. أن تُعجب! كانت هذه هي شهوتها الوحيدة الآن والحياةُ تهرب منها. أن تُعجب أيا كان، والجميع. إن شهوتها للرجال أخذت تبدو لها ضرباً من الانتصار على الموت. لم تكن لا متصنعة الحياء ولا عذراء. لم تكن تكتفي بإثارتها. ولقد عاشرت من العشاق ماحلا لها.

لم تكن تُعنى بنفسها، كانت تستفظع الاحتراس. كان لا بد لها من تناسي كل شي. ء وكانت أشهرٌ من الموسيقا والورود. وتعودت هذه العادة التي احتقرتها من قبل والتي هي في طبيعة النساء وهي أن تعتبر حضورها وفاءً لدين: كانت تُسلس قيادها الى المطاعم، الى حانات الليل، لرجالٍ أمسكوا بيدها فجأة تحت المائدة. كانت تضحك. كانت تحسّ أنها أصبحت عاهرة، لكن بما أنها ستموت. . !

ماذلك الرجل الذي كان بجنبها في مطعم «مكسيم» أو في غيره؟

لايمكنه إطلاقاً أن يستمر، لم تكن تخاطر بالتمسك به. وحينئذ ماذا يهمّ ان كان عدواً؟ على شرط ان يكون جميلاً في ذلك اليوم. في الحقيقة كانت تفضل ان يكونوا أغبياء. ثأر المرأة. وتفضل ان تطردهم ما إن يفخروا باستسلامها لهم، هؤلاء الوحوش. كانت تكره الرجال، وتحبّ حبّهم.

عندما تزوجّت «بريجيت» كان مايُشبه القطيعة. بينها وبين كاترين. تزوجت «بريجيت» قاضياً شاباً عليه أن يبني مركزه ولم تعجب العريس الجديد نساءُ آل «سيمونيدزيه».

كان المقدّم «ميركورو» عاجزاً عن توبيخ أخت زوجته. ثم إنه عين في أقاصي مقاطعة هادئة اكتفى فيها بعدم دعوتها. كما ان هيلين لم تكن تحرص على دعوته لها.

كانت كاترين تسافر. التقت في جينيف أصدقاء لأمها وهم مهاجرون، روسٌ قدماء. أحنقهم مظهرها وهيئتها. بعضهم لأنهم كانوا جمهوريين يودون لو تقوم عندهم ديمقراطية على الصورة الفرنسية، فاعتبرتهم برجوازيين. وبعضهم الآخر، وهم الاشتراكيون، لأنهم كانوا لايحترمون العالم الذي كانت تتباهى به، وقد قال لها أحدهم بفظاظة: إن الحركة العمالية لاحاجة بها الى البغايا.

حدثت لها متاعبُ في إحدى مدن المقاطعة، لعلها نانسي، بصدد امرأةٍ جاءت تقرع باب الغرفة التي كانت فيها مع زوجها، وهو صناعي شاب من الغرب، وتدخلت الشرطة في القضية وأرادت ان تعلم من أين كانت تعيش، واضطرّوها الى أن تُبرق لـ«جان تيبو» فلم يترك وسيلة إلا لجأ اليها، في الوزارة، وكلمّ بهذا الشأن السيد «دي هويتن» الذي أبلغ المحافظ كلمة عنها بالسرّ، وسُوّي كلُّ شيء.

لكن عندما عادت كاترين الى باريس طلب منها «جان» مرة أخرى،

أن تتزوجه، فكاد يضحكها ذلك. إذا شاء ان يضاجعها فلا حاجة به الى الزواج. لم يعد لذلك الآن أهميةٌ عندها.

شعر حقاً أنها تريد ان تسدّد له دينه، فخجل خجلاً ذريعاً. أحسّ بأنه حزين حتى الموت.

وهنا دعاه اللواءُ «دورش» اليه لأنه كان رفيق أبيه:

- «اجلس هنا، جان. ما أود أن أقوله لك اعتبره كما تشاء.. كما تشاء.. لاحظ أنك حرّ. حرّ. على الإطلاق. أتسمعني جيداً؟ حرّ.

تساءل النقيبُ «تيبو» في نفسه عن قصد اللواء من وراء ذلك. روى اللواء حملاته. ففي «آنام» كانت له صديقة ظريفة. لابدّ من مرور الشباب، ومن أن يدلي المرءُ بدلوه في نبع الطيش، هذا هو التعبير الذي كنت أبحث عنه. بلا شبه طبعا، بلا شبه.

في مدغسقر كانت مولّدة.. لكن لكل شيء، في نهاية الأمر، زمناً، نحن خدام فرنسا نُدعى الى هذا المكان اليوم، وندعى الى غيره غداً. كان أمام جان دربٌ لانظير له. وسيكون مغفلاً أن يُفسده.

كل هذا مع القهوة ومع كأس صغيرة من «الأرمانياك». إذا أراد «تيبو» ان يتزوج فليس ماهو أسهل. فطالبات الزواج كثيرات. بلى، بلى، هذه الفكرة فتى جميل مثلك! آه! ياصاحبي الجسور.

طبعاً كان حراً في أن يختار. لكن اللواء «دورش»، بصفته صديقاً قديماً لأبيه يسمح لنفسه بأن ينصحه ألا يرتكب حماقات. الآنسة «سيمونيدزيه».. نهض «تيبو» ووقف وقفة الاستعداد، لقد قطع هذا الحديث الأبوي بكل وضوح. فحياته الخاصة هي حياته الخاصة، وإذا كان منصبه سيتأثر.. هتف اللواء: هيّا، لا تتفوه بحماقات! صحيح اذن أن هذه الإنسانة.. تطلب الزواج..؟ لقي تيبو مشقةً عظيمة في ابراز الحقيقة.

وبالطبع لايمكن اقناع رجل مثل اللواء «دورش» بأن بنات من هذا النمط يرفضن الزواج. أخيراً، لقد كان محقاً اذن في أن يكلم هذا الطائش الذي يقول إنه سيتزوج الآنسة «سيمونيدزيه» في اليوم الذي تختاره، وعند أول اشارة.

حاول اللواء ان يشرح له أن رئيس الشرطة نفسه هو الذي تأثر من ان يضلّ ضابطٌ فرنسي طريقه مع. . أجنبية. وتحدث عن القضية في مكتب الوزير. كانت الآنسة «سيمونيدزيه» تتردّد على الأوساط الفوضوية. وكان معروفاً تعلّق «تيبيبو» بها. والخلاصة، اتجه التفكير الى أن «دورش» بصفته رئيساً وايضاً بصفته صديقاً.

استأذن «تيبيبو» بصورة رسميّة وانصرف ولم يكن له بعد ذلك أبداً مع اللواء سوى علاقات الخدمة.

وذات يوم قُرع الجرس في شارع «بيليز ديغوف»، وكانت السيدة «سيمونيدزيه» خارجة من البيت. فتحت كاترين. كان الطارق سيداً من الجليّ أنه غير مرتاح في ثيابه المدنية، مع قفاز جلدي لايتجاوز كثيراً ظاهر يده الربلة، المحمّرة قليلاً، وفوق شفته شارب مدبّب أشقر. رفع قبعته المستديرة والمنتفخة في شيء من التكلف وكأنما كان يتوقع ألا يرفعها، ودخل فوراً كالمنقب عن شيء.

كان الرجل شرطياً، لكنه شرطي عسكري، وبينهما فرق. جاء يشرح للآنسة «سيمونيدزيه» أنها تشكل عائقاً حقيقياً في حياة النقيب «تيببو». ولاشك ان الكلمة كانت تعجبه لأنه كرّرها عدة مرات: عائق. أجمل مستقبل كان منفتحاً أمام هذا الضابط الممتاز. ومن المعروف انه كان يعتبر نفسه مرتبطاً بعهدٍ مع الآنسة «سيمونيدزيه». وطبعاً منعته دماثته ان يتراجع عن عهده. ولاشك، ان من غير الممكن ابداً ان تُعهد الى زوج الآنسة «سيمونيذزيه». في الوزارة التي تثق به ثقة عمياء حقاً، المناصبُ التي تنتظر

النقيب «تيبو». ولاريب ان الآنسة ستفهم ذلك. ضرورات الدفاع الوطني.. فالغريبة تظل مع ذلك غريبة، ثم هناك الآراء السياسية للآنسة «سيمونيدزيه».. وبديهي ان النقيب «تيبو» ربما لم يعرف جميع التفاصيل حياة الآنسة «سيمونيدزيه». وسيكون شيئاً حسناً جداً، وأنيقاً جداً من قبل الآنسة «سيمونيدزيه» ان تفهم، ان تسبقه، ان تقول له..

تركت كاترين زائرها يتكلم. تقاسمها الغيظُ والاشمئزاز. وفجأة طردته؛ وعلى سطح الدرج عادت إليه وقاحته، فنصحها ان تفكر مليّاً.

دعت «جان» الى بيتها وروت له الحادثة. امتُقع امتقاعاً شديداً. ماذا بوسعه ان يفعل؟ على مَنْ يُلقي المسؤولية؟ قالت كاترين: «أتعتقد انني سألقى المتاعب بسببك؟ من أجل التمتع برؤيتك؟ وطردته كما طردت الشرطي.

غاب عن جان ان الحظّ فاته في هذه الدقيقة: ولو انه قال حينئذٍ، قال فقط، إنه سيترك الجيش، فربما كانت ستحبه. لكن هناك الوطن، أليس كذلك؟ الواجب.

- ٢٢ -

تزوّجت «سولانج» من جديد، بفتى واسع الغنى، صناعي من الشمال، له من العمر ثلاثون عاماً، مالك لثروة أبيه، وهو ابن صديق قديم لآل «جونغنز». الحاصل أن الزواج كان متكافئاً. تمّ اللقاء عن طريق السيد «دي هوتين». المصادفة.

كان «بيير ليفرانسوا هوزي» قد قضى في باريس شباباً عاصفاً، هكذا كانت تعبر «مارتا» على الأقل. وأصبح المطلوب الآن أن يُيمّم شطر «ليل»، الى قصر القرميد الذي يستطيع منه أن يدير مصنعه. وسوف يحتفظ بموطىء

قدم في باريس. غير بعيد عن فندق «مارتا» العائلي. كان لديه سيارتان. وكان يعرف النساء. وستسعد سولانج معه.

لم تمتدّ القضية طويلا. ففي مدى شهرين رُمقت بسرعة. وجاءت كاترين التي لم يكن لديها ماتفعله في هذا اليوم والتي كانت متعبة من جهة أخرى ولم تكن تعلم مقدار الألم الذي تسبّبه الركبة، جاءت الى «شان دي مارس» لتحضر الاستقبال الذي يتلو الاحتفال الكنسي.

لم يستطع «جورس دي هوتين» ان يحضر الاستقبال إذا كان ينبغي له ان يذهب في شأنٍ من شؤونه، واتصل هاتفياً بينما كان الحضور يأكلون الحلوى عند صوانِ السفرة الذي أقيم في الصالون بعناية بيت «غاجيه» (جادة فكتور هوغو). وقد اغتاظت «مارتا» للغاية، للغاية.

كانت سرقة «الجوكونده» تشكل لبّ الحديث.

كانت كاترين تفحص بفضول العريس الذي رأته للمرة الأولى، كان رجلاً منتفخاً قليلا، لابأس به، متمرساً بجميع الرياضات. وفي وجنته ندبة صغيرة بسبب حادث صيد، رصاصة طائشة. كان يضحك وهو يشرح ذلك. كانت يداه جميلتين، وإن كانتا رخوتين. كانت كاترين تفكر بالرغم منها وهي تنظر إليه، في الطريقة التي يصطنعها العمال الذين انحنت اكتافهم بسبب عادة الانحناء من حقيبة الأدوات.

كانت تتأمل تفاصيل السيد «بيير ليفرانسوا هوزيه». كان نموذجاً تاماً للرجل الذي لاتشوبه شائبة. البطّال الذي لا أثر فيه لشيء. ماعدا رصاصة الصيد الصغيرة. الرجل بعينه الذي تتمنّاه امّ الأسرة التي لم تكن مسرورة من زوجها، لابنتها.

مع مايفترض ذلك من تصورات أمومية. كانت كاترين تتأمل تفاصيله بحيث تعريه. وغاب عن بال السيد «بيير ليفرانسوا هوزيه» أن العريس في يوم الزفاف لايكون رقيقاً الا مع عروسه. شعرت كاترين بنوع

من الإعياء من جراء ذلك. كانت تعلم جيداً ما الرجال، ماحركاتهم في نهاية المطاف.

طلبت اليها «مارتا» ألا تدخّن لأن هناك اناساً من اسرة صهرها الجديد، ريفيين قليلاً، «لايفهمون» ذلك.

ووسط ذلك كله بريجيت وزوجها. كم سيكون هذا الزوج غريباً في الفراش! كان شعر لحيته ورأسه مدبّباً وكانت ياقته لاتشبه ياقات سائر الناس. كانت تصرفاته هي التصرفات الخاطفة للرجال الذين خافوا دائماً من ان تكلفهم النساءُ مالاً.

أصدقاء آل «جونغنز» وأصدقاء آل «ليفرانسوا هوزيه» متساوون أُسَراً ورجالاً منطفئين، وشباباً خرُقاً. إنه الضجر. كلّهم مرشحٌ لوظيفة بلا عمل. رجالٌ سيتظاهرون بأنهم يستحقون أسباب معيشتهم، ونساء يرتجفن طوال حياتهن خوفاً من فقدان هؤلاء الرجال، ومعهم خادمان أو ثلاثة، وشقة، وفساتين. ملازم ثانٍ اسمه مركب من كلمتين وتخرّج في «سومور»، وغازل كاترين بحياء غريب بالنسبة الى فارس مثله. ووسط ذلك كله وجه شاحب جداً، فتاة ترتدي ثياباً سوداء. وهو مالايحدث. ابنة عم بعيدة للعريس الآنسة «جوديت رومانيه»، كانت تمارس النحت.

كان ذلك كافياً لإثارة اهتمام كاترين. فتاةٌ تملك على الأقل النزوع الى حياة مستقلة. حاولت ان تكلّمها. لم يكن ذلك سهلاً. كانت «جوديت رومانيه» تتمنّع وتجيب باختصار شديد. كانت ساهيةً حقاً. كان هناك شيء يستحوذ عليها.

أضاء عينيها السمراوين والصغيرتين ضربٌ من البريق، عندما أباحت كاترين لنفسها ان تسخر سخرية خفيفة من الحياة التي تنتظر العروسين في الشمال، ومن حياة المتزوجين، بعامة. كان واضحاً أنها لاتحب سولانج. لعلها كانت تحبّ قريبها.

الفتاة التي عرفناها قبل خمس سنوات في «مورنفيل» أصبحت امرأة، بل رائعة الجمال. ولا يُعيرها أحدٌ كبير انتباه. ترك أبوها الوزارة بعد أن تزوج مرة ثانية: دخل مجلس ادارة مشروع ضخم للأسلحة والدراجات. وشركته من أقوى الشركات في السوق الفرنسية. وقد غدت علاقات السيد «رومانيه» بمختلف أقسام وزارة الحرب جد نافعة له الآن. والسيدة رومانيه الجديدة سيدة من سيّدات المجتمع. وهي تحب الصيد، وتمتطي الجياد، ونالت أول جائزة في «تروفيل» على لباس البحر.

مدّت «جوديت» كأس الشمبانيا لكاترين، وكان «بول جونغنز» يسخر منهما، وهو يحمل طبقاً عليه فطائر، لأنهما يهربان من الرجال، عندما ترنحّ الكأس وأحسّت «جوديت، بالألم. أحدث ذلك اضطراباً صغيراً وبادر الناسُ. «دعوني!» كانت «جوديت» تُبعد الناس. كانت تبدو مدهوشة دهشة الذين أحسوا بموتهم. لم تقع تماماً بسبب طاولة الصوان و «بول».

في غرفة مارتا، حيث بقيت وحدها مع كاترين، بين وسائد السرير، رفعت فجأة نحو الغريبة عينين عزمتا على الاعتراف. تلقّت كاترين ذلك مثل صدمة في قلبها.

قالت جوديت «أنا حاملٌ».

لقد استشفّت حقيقة كاترين، الحليفة. نعم، طبعاً كان «بيير ليفرانسوا». حماقة. لكنها كانت وحيدة، وكان يحسن العناق. رجل أبله تماماً. لم تشأ أن تقضي حياتها معه. الفظاعة. ثم إذا بهذا الشيء فيها.

بيير.. ومع ذلك فحين خطر لها أنها ستفقده سرى البردُ في جسدها كله. كانت تحتقره، لكنها كانت تحتاج اليه حاجة المتسمّم. ثم هذا الجنين. كانت تهزأ مما سيقوله الناس. لكن أباها لم يكن يعطيها شيئاً. كانت تعمل،

ولاتكسب سوى النزر القليل. لم تكن راغبة في هذا الولد. كان عمرها اثنين وعشرين عاما، كان ذلك كأنه نهاية عمرها. حدث ذلك منذ ثلاثة اشهر ان لم تكن مخطئة.

قام تواطؤ بين كاترين وجوديت. أعطت كاترين صديقتها الجديدة «الوحيد وملكيته» لـ «سيتيرنر» وكتاباً عنوانه: «المالتوسية والأمومة». كانتا تلتقيان في «مونبارناس» حيث كانت «جوديت» تتردّد على الرسّامين. لم تكن ركبةُ كاترين تتحسن.

تذكرت كاترين طالباً في الطب عرفته عند «ليبرتاد». كان قد خلّص صاحبة رفيق له من ولد جاء في وقت غير مناسب. وجدت مشقة في العثور عليه. وقد أصبح لأصدقاء الطابع القدامى محالٌ يجتمعون فيها، كما كانوا يجتمعون قديماً في شارع «شيفاليه دي لابار» وفيها كانت تُعمَل صحيفةُ «الفوضى».

وجدت هناك جُدُداً ارتابوا بها قليلاً في أمور شتى. لم يعرف أحدٌ ماذا حلّ بطالب الطب. «تَبَرْجز». لكن كان هناك عنوان. كان الجو في الحديقة بديعاً في أواخر الربيع، لقيت كاترين بضربٍ من الانفعال الغريب هؤلاء الأشخاص الطيبين الذين كانت لهم صعوباتهم مع الحياة والأفكار، والذين يختلفون اختلافاً كبيراً عن جميع اولئك الناس الذين كانت تقضي معهم الآن مابقي لها من حياة محدودة. فاستشعرت شيئاً من الخجل. كانوا من الطابعين والعمال القدامى، والخياطين، والخرّاطين، والميكانيكيين والنجارين والمثقفين.

كل ماكان فيهم بيعدها عنهم، هنا وسط صغار الأشجار في الضاحية، بينما تصنع في الأعماق الكرتون للغدّارة على دريئة صاحبةُ أحد الرفاق، غدا تبكيتاً لضمير كاترين. لقد استمر هؤلاء الرجال في معركتهم

الغريبة وفي البيت كان يُسمع ضجيجُ الطباعة. كانت رائحة الحبر والورق الرطب تمتزج بعطر الليلك الخجول. وكان بينهم واحدٌ، فتى بقالٌ أو شيءٌ من هذا القبيل، لكن مهنته نُسيت منذ زمن بعيد، أخذ يحملق في كاترين. كان نحيلاً، وثمة مفرقٌ في منتصف شعره الذي طال قليلا الى أذنيه والذي شكل خصلة على الجبين. لم تكن تعرف هذا الفتى، فهو وافدٌ جديد، صغير. كان ذلك غريباً، خُيل الى كاترين أنه يُتابع فيها تفاقمَ ضيقٍ كانت تتخبط ضده منذ لحظة دون أن تعلم جيداً ماهو. أما عينا الشاب فبدتا كأنما فهمتا.

كانت تتكلم بصوت خافت مع أحد ملازمي «ليبرتاد» القدامى. الظاهر أنها لم تترك هاهنا ذكرى سيئة.. كانت خارج عالمهم قليلا، لكن أليس للفوضويين أحكام طبقية مبتسرة؟ وكانت كاترين تفكرّ هذا التفكير في شيء من المرارة إزاء الأوساط الاشتراكية التي عرفتها نوعاً ما. حصلت على العنوان المطلوب في مكان ما من شارع «ليبيك». لم يفارق كاترين وجعُ الركبة.

فجأةً إذا بكل شيء يتشوّش. ويسري فيها نوعٌ من الحرارة. ضبابٌ. ويهزّها سعالٌ يحطمّها، وفي فمها ماءٌ صاعد، مدٌّ متدفق. وباللاشعور تتلمّس أصابعها منديلاً في حقيبتها التي يصعب فتحُها. ويمتلىء فمها. فينظر الحضورُ إليها. ويُهرع إليها الصغير ذو المفرق في وسط شعره. إنها تترنح حقاً وتنوي الكلام. ما الذي يسيل هكذا من الشفتين؟ وتتنبّأ يدُها بالدم. وتحسّ أنها تغيب.

وجدت نفسها في البيت في غرفة صغيرة على السرير؛ قربها امرأة شابة، تهز رأسها. تلطّخ صدار كاترين بالدم الذي سقط عليه. الصغير الجديد هنا. وهو ينظر إليها أبداً: «هذه أول مرة؟ لاتجيبي. بالعينين فقط.

لأنني أعرف أنا؛ بي مثلُ مابك. يجب ألا تتكلمي لبعض الوقت، كي لا تهتزي. أصابكِ غيرُها قبلها؟ بهذه القوة؟ لا. رأيتِ الأطباء؟».

في صوت الصغير شيءٌ عذب وأخوي الى حدّ غير عادي. وتحسّ بأنها ضعيفة جداً. كلّ شيء يدور. لابد أن ذلك كان هائلاً. . . هائلا. اغرورقت الآن عيناها بالدموع. فيجيب الصغير: «هيّا، يجب ألا تبكي! أصابني ذلك ثلاث مرات، أو أربعاً، أعرف أكثر منك. بدأ ذلك معي هناك، في «فربسن». إذ ذاك كان الأمر أشق. لم يشاؤوا أن يسجلوني مريضاً. وعندنا خرجت كانت سحنتي غريبة وضعوني في «سان موريس» لكنها لم تكن خيراً من السجن.

كان يتكلم بسرعة كأنما كان يريد ان يمنعها من التلفظ بأية كلمة. أدركت أنه خائف من أن يعود إليها النزفُ، وأنه لايريد ان تتحرك، ولا أن تحرك لسانها. كان بشعاً. لكنه كان لطيفاً جدا.

بعد استراحة ساعتين سُمح لها بالذهاب، لم تكن العودة يسيرة. ولحسن الحظ، كانت السيدة «سيمونيدزيه» خارج البيت. خشيت كاترين من الأسئلة عن البقع على صدارها. وتسنى لها أن تغيّر ثيابها.

كان الطبيب في شارع «ليبيك» يسكن ثلاث غرف صغيرة معتمة، خُصّصت إحداها للفحص النسائي، ولم تكن تبدو نظيفة جداً. وكان على المدفأة تمثال برونزي غطاؤه مخملي لـ «داود المنتصر على جوليات». وقد فقد سيفه الذي كان يبدو عليه أنه يعيده الى غمده. لكن سفطاً من القطن الطبي عند قدميه كان يذكّر بالطابع الطبّي للمكان.

أدخلت المرأة التي فتحت الباب، المرتدية ثوب الممرضة، والتي كانت لها دالة واضحة على الطبيب، كاترين وجوديت. كان الدكتور «بلانتيه» ضخماً وقصيراً ممتقعاً، يداه حركتان وعثونُه وسخ. وقد حملته المراجع الشخصية التي ذكرتها كاترين للرجوع اليها، ان يهجر على الفور طرائقه

كطبيب متمرّس رسمي، فكلّم زائريه بضمير المفرد. لامجال للشك. كانت الصبيةُ حاملاً، بل ان حملها قديم وينبغي تخليصها منه في الحال وإلا ساءت العاقبة. كانت كاترين تسعل: لعله الضيق.

لم يكن سهلاً تدبير المكان الذي تذهب اليه «جوديت» لدى خروجها من عند «الدكتور «بلانتيه» يوم العملية. لايمكن الوثوق بأحد. هناك أناس موضعٌ للثقة، لكن لايمكننا ان نطلب منهم تحمل مسؤولية ماجرى. سيمرّ الأمر بكل بساطة. الطبيب صرح بذلك. لايمكن أن يُطلب من مارتا إيواء «جوديت»، بسبب «سولانج». ثم إن ذلك سيضايقها، بالنظر الى مستأجريها. قُرِّر في النهاية، استئجار غرفة في فندق خلف مقبرة «مونبارناس». إذ تصل «جوديت» بالسيارة مع متاعها وكأنها آتية من سويسرا. ولها ابنة عم سوف تُعنى بها. ريفيّة صغيرة طائشة وخيالية تقيم في باريس لدراسة الحقوق.

بينما كان يُحضَّر كلُّ شيء للعملية في شقة الطبيب، التفتت كاترين نحو الطبيب فجأة، بالرغم من «جوديت» القلقة، والممرضة المخضبّة التي كانت تضع أغطية بيضاء على الأثاث بذريعة التعقيم المستُبعدة، وسألته «دكتور ألا تريد ان تتسمّع الى صدري؟

أساءت اختيار اللحظة، لكن الدكتور لم ير مانعاً من أن يُلقى السمع. اسعلي، كفى.. تنفّسي الآن. طبطب قليلا على ثدي المريضة وهو يتسمع. عادة محضة، ليس لها أية دلالة.

برطم برطمةً جادة وهو ينهض ويعبث بعثنونه. دار حول الموضوع. فلما رأى ان كاترين تعرف داءها صارحها بالأمر: «كهفٌ رئوي من تلك الكهوف الصغيرة، ولا أقول لك سوى ذلك. سأعطيك كلمة لـ «كاديو». هو وغدٌ، لكنه أفضل اختصاصي في سلّ العظام.. كنتُ أتمرن في قسمه..».

نجحت العملية ُكليّاً كما كان متوقعاً. كانت جوديت مضمومة الشفتين، شاردة النظر، وكيف لا! حملت كاترين بطاقة الدكتور «بلانتيه» في حقيبتها.

أكان جوّ الإجهاض هو الذي أوحى الى كاترين بفكرة الموت؟ «أسرعت الى «كاتيو». كان يسكن فندقاً خاصاً في ساحة «ماليرب». كانت في البهو لوحةٌ لـ «رينوار» معلّقة، وتُحفٌ صينية في كل مكان. وكان المكتب الفلورنسي بطنافسه أفضل مايُصنع لموضع الاعتراف الحديث.

لم يطل الفحصُ ولا التشخيص ايضا:

يجب تغيير الهواء. الكرسيّ البحرية كل يوم. حمية جادة.. وإذا كانت الآنسة «سيمونيدزيه» لاتريد ان تصُاب بقذارات... لأن الموت ياصغيرتي، مقبولٌ... أما أن تصابي بداء «بوت»، بالأخرجة[1] بكل تلك اللائحة.. وهذا ما يترصدك. أفضل شيء ان تضعي لزقة جصّ خفيفة منذ الآن. أوقفي حركة الداء. مايلزم عصية «كوخ» هو عدم الحركة. طبعاً الرئة اليمنى.. لكن مع الكرسي البحري والهواء النقي. مثلا. في «بيرك».

كان الأستاذ «كاديو» يؤمن كثيراً بصحّة هواء «بيرك» التي وظّف فيها كلّ ماله. كانت له عيادة هناك، وكان مساهماً في الفندق والكازينو. وكان يرسل الناس جميعاً الى «بيرك» المسلولين وغيرهم من أجل الوقاية.

رتّبت سفرها. لا، انها تقبل أن تموت، لكنها لاتقبل هذه الفظاعات. لابأس بـ «بيرك». حجزت عن طريق إحدى الوكالات دارةً من ثلاث غرف. لم تكن ترغب في الفندق. أرادت ان تكون في بيت لها. أما السيدة «سيمونيدزيه» التي كان لابد من إطلاعها، فقامت فجأةً بدور الأم: التي لاتُطاق. استعجلت كاترين سفرها. ذهبت لاستئذان «جوديت« فلم تجدها، ووجدت في ركنٍ ابنة العم الصغيرة، طالبة ا لحقوق، تقرأ «كلودين في

(١) أخرجة جمع خُراج... المترجم

المدرسة». أعطتها كاترين عنوانها في بيرك، وقد ألمّ بها القلق على حين غرّة، وقالت لها همساً: «إذا احتجت إلي، فأبرقي لي.. وسأعود».

- ٢٣ -

لم تكن كاترين بحاجة الى العودة. فالبرقيةُ التي تلقتها بعد يومين من إقامتها لم تدع لها أيّ مسوّغ للعودة: ان «جوديت» التي أُسعفت ونُقلت الى المشفى لم تتحمّل العملية التي عُملت لها فماتت. وجاءت بعد البرقية رسالةٌ من ابنة العم الصغيرة حافلة بالتفاصيل المباشرة، الفظيعة، وبجميع الجمل التي رأتها هذه البنتُ في أسرتها، والتي يجب وضعها في مثل هذه الرسالة للإخبار بالوفاة: «لا أستطيع ان أصدّق.. اني أستيقظ ليلاً وأتساءل إن كان ذلك حلماً».

كانت الدارةُ «بيزديو» التي استأجرتها كاترين مؤلفةً في الواقع، من قسمين مستقلين. ظل القسم الثاني منهما سكناً لـ «فيرمان بزديو»، مالك الدارة. وكان السيد «بيزديو» مديراً لقمار «كورسال دوستند». كان بلجيكياً بقلبه ومولده، وكان قد انتوى ان يستقرّ وهو في الخمسين، في مكان ما على الساحل قريباً من «بلانكلنبرج» إذ كان يلزمه الهواء البحري. لكنه عثر مصادفة في «بيرك - الشاطىء» على هذه الدارة المزدوجة بثمن بخسٍ. الأعمال هي الأعمال. وأذن فقد عبر السيد «بيزديو» الحدود واستقرّ هنا مع السيدة «بيزديو» وكان يؤجر نصف البيت ونصف الحديقة. وكان سياجٌ خشبي يقسم العقار الى اثنين. فتح باباً ثانياً مدهوناً بالأبيض في السياج، في طرف الحديقة. وهكذا كان لكلٍ مدخله.

وكانت خادمته هي التي تقوم بخدمة المستأجرين. وظلّ هذا التقليدُ سارياً مع كاترين، لكن السيدة «بيزديو» لم تستسغ هذه الآنسة. إذ كانت ترتدي ثياباً مخملية في «بيرك»، ياللغرابة!

كانت السيدة «بيزديو» تنظر عبر البقس، وهي تحرس مساكبها، الى زوار الآنسة سيمونيدزيه، فتهزّ رأسها وتزمّ شفتيها.

سرعان ما ارتبطت كاترين بأناس على رمال الكثبان بالرغم من ساقها الصلبة بسبب الجبس على الركبة، هي تستند الى العصا. كانوا معارف جمعتها بهم المصادفةُ تهافتوا عليها في ثمانية أيام، ثم أخذت تُباعد بين الأيام. لكنها لم تلبث ان أقامت علاقات مختلفة: فقد قادها إعلان الى اجتماع فوضوي. قرابة خمسين شخصاً في الصالة، جاؤوا من «ليل»، من المستخدمين وعمال «بيرك - المدينة». كان موضوع الآمسية قليل الأهمية بالنسبة الى كاترين. (ومع ذلك كان موضوعاً خطيراً لأن موضوعه حق الإضراب، ودار النقاشُ حول حرية الفرد إزاء الإضراب النقابي. هل له الحق أم لا في أن يتابع عمله! لقد جاءت كاترين الى هذا المكان بحثاً عن الكائنات البشرية لا عن الأفكار، عن إناسٍ لا تحس أنها معزولة عنهم بعالم كامل من الأفكار.

كان شيئاً غريباً تلك الحاجة لدى كاترين في أن تكلّم العمال، وهي تنكر وجود الطبقات ذاته، وفي الوقت نفسه كان شيئاً غريباً ايضاً أنها لم تستطع ان تفعل ذلك إلا مع عمال فوضويين. كان بينها وبينهم مايشبه الثقافة المشتركة، اللغة: من «برودون» الى «نيتشه» بعض المقترحات التي يتّفقون عليها.

تشوّش هذا الصيفُ بإرسال الطرّادة «بانتير» الى «اغادير». كان الألمان، كما يؤكد مدير القمار «بيزديو»، ينشدون الحرب. وقد هلّل للموقف الأبي الذي وقفه الرئيس «فاليير» الذي صرّح في تولون، في مأدبة: «ثمّة تركاتٌ لايجوز ان نتخلى عنها تحت طائلة الانحطاط». ومن جهة اخرى خاف الألمان خوفاً شديداً ففي مطلع ايلول، وقرب برلين، تظاهر أكثر من مئة الف ضد الحرب وسياسة غيوم في مراكش. استُبعدت الحربُ: تحيا فرنسا! لكن في مثل هذه الحقبة المضطربة، كان شيئاً مستغرباً، مُنكراً أن

تُؤْوى، ولو بالأجرة، آنسةٌ مثل سيمونيدزيه هذه، وهي أجنبية مولّهة بما في «بيرك» من مناهضين للروح العسكرية، ويكلمة واحدة بالعناصر القذرة. وماكادت الأمور تهدأ من جهة مراكش حتى أخذت تشتعل من جهة البلقان. وماذا سيحلّ بمصالحنا في الشرق؟ كان أصدقاء السيد «بيزديو» في المقهى، يهزّون رؤوسهم.

في أواخر ١٩١١، كانت دارة «بيزديو» إذن مقراً للروحات والجيئات التي لم تَرُقْ لا للزوجين المالكين ولا للشرطة. وشاع القلقُ في «بيرك» من هذه الأجنبية التي أخذت ترتبط بكل مافي الأهالي من عناصر غير مستقرّة. وأُرسل تقريرٌ الى المحافظة في «آراس» ومن آراس كُتب تقريرٌ الى باريس، والمعومات التي جاءت عن الآنسة «سيمونيدزيه» جعلت المحافظ يهزّ رأسه. لكن لم يكن هناك وقائع محدّدة تسمح بالتدخل: ليس ذنباً ان يستقبل المرءُ عمالاً في بيته. وكانت الآنسة تدفع بانتظام أجرة منزلها. ولايبدو انها تتعاطى البغاء. ولم يكن كافياً ايضاً انها شاركت في الاجتماع الذي تلا أيام بيبرير» في باريس.

في آخر تشرين الأول، مرّ مفتشٌ مع ذلك بناءً على ماتقدّم، على السيد «بيزديو» وحدّثه طويلا عن المستأجرة. ألم تكن الآنسة سيمونيدزيه ضالعةً في الهيجان ضد الحرب التركية البلغارية التي انفجرت فجأة؟ وبالطبع لايمكن ان يُقال اي شيء بهذا الصدد، فمن حقّها ان يكون لها وجهة نظرها حول سياسة البلقان. ليس الأمر كما لو كان الموضوع نزاعاً فرنسياً المانيا. لكن السيد «بيزديو» أضمر من جراء ذلك كرها شديداً لكاترين. لانار بلا دخان. فإذا فُجرّ بيته ذات يوم؟ بقنبلة، مَنْ يدري.

لكن كاترين استأجرت لسنة.

كانت تراعي صحتها. وعما قريب سيُرفع الجبس. أخذت تشك، مع نوبات من الذعر احياناً، في التشخيص القصير الأجل الذي كان قبل

ثمانية عشر شهراً، ذات صباح في لاينيك. لم تكن تجيب على رسائل «جان تيبيو» الذي ترفّع الى مقدّم.

كانت أيام الخريف باردة. وكانت التدفئة في دارة «بيزديو» بفحم الكوك. وكانت كاترين تتباطأ كثيراً في سريرها، وهي تدخّن وتقرأ. في الخامسة والعشرين أخذت حياتُها تشبه حياة أمها بعد أن أنهت الأربعين، . وكانت «ميلاني» الخادمة، تجد الآنسة جميلة جداً، وكل السوء الذي سمعته عنها من معلّمها جعلها أكثر غموضاً وأقرب الى النفس. كانت تأتي الى كاترين للاستمتاع ولاتحصي الساعات التي تقضيها عندها.

كانت تُجهد نفسها كل الجهد لتوفّر بعض المال على الآنسة. كانت الحياة غالية جداً هذا العام: وحدثت في السوق مشاجرات. كانت ربات البيوت ينوين ان يراقبن الأسعار، ،وشكلن جمعيةً دخلتها «ميلاني». روت مطولاً لكاترين قصصها، وكيف رفضن ان يشترين هذا الصنف أو ذاك أمس، وكيف ان التجار استسلموا في اليوم التالي.

روت لكاترين كل مايُقال في منزل «بيزديو». وسألتها ان كان صحيحاً ان الآنسة تصنع قنابل. أما هي فكانت ابنة صياد سمك، سبعة أولاد: اثنتان من أخواتها انحرفتا. ولايعلم أحدٌ أين صارتا. ربما كانتا تخدمان في البيوت. تزوجت أختها الصغرى من عامل منجم في «انزان». وكانت مسرفة البشاعة. حينئذ كانت متديّنة. اوه! قليلاً لا كثيراً. أخذت تضحك. لو كانت جميلة مثل الآنسة للحقها جميعُ الرجال، ولعلموا كم يكلفّهم ذلك. كيف حال ركبة الآنسة؟ لابد أن تبدو لها الآن غريبة، دون جبس، وعندما تُدلك؟ كانت ميلاني تفركها. شيء واحد كانت تستنكره من كاترين هو طريقتها في رمي أعقاب السجائر حيث يحلولها.

في ٢٥ تشرين الثاني، حملت ميلاني الحليب والصحف كعادتها. كانت الآنسة في السرير تقرأ. ومرة آخرى نثرت الآنسة الأقذار في كل

مكان، بأعقاب السجائر اللعينة، بحيث أن ذلك كان أسوأ من معزاة. كانت «ميلاني» تتذمّر. وفجأة رأت كاترين تنتصب في قميصها الحريري الطويل، وتثب من السرير الى الأرض، وترمي أرضاً محتوى الادراج وتملأ حقيبتها. لم يستغرق ذلك أكثر من ساعة ونصف لتكون كاترين في القطار، أعادت قراءة الصحيفة: زوجان شابان هما السيد والسيدة «ليفرانسوا لوزي» وُجدا ميتين في مسكنهما الباريسي، في ظروف غامضة. لم تكن كاترين تفكر في غير «مارتا».

* * *

القسم الثالث
- فكتور -

- ١ -

وُجدت «سولانج» وزوجها في منزلهما، في حالة تحمل على التردّد بين فرضية الانتحار وفرضية الإصابة بحادث. ومن الإيضاحات الغريبة التي عرضتها الصحف كان ينتج ان الموت يعود الى مخدّر لم يُحدَّد بتاتاً. وكان الصحفيون أكثر إسهاباً في التفاصيل التي تتصل بأسرتي المتوفّين اللتين قُدمتا بشيء من المبالغة على أنهما من نخبة الارستقراطية الصناعية في «الفلاندر». ولُمحَ بعبارات التلميح الكاذب الى فندق «مارتا» العائلي، والى الدور الذي كانت «سولانج» تلعبه فيه قبل زواجها، وكأنها مغناة في القرن العشرين، بنهايتها المأساوية، التي أتاحت الفرصة للاستشهاد ببودلير، جسارة.

كانت «مارتا» خارجة، وكانت السيدة «باكستون» هي التي استقبلت كاترين نازلةً من المحطة. بدت الانكليزيةُ ذات الخمسين عاماً بقبتها الجالسة وصدرتها المنشّاة، جدّ حذرة في أحاديثها. ومع ذلك، ظهر في تلك الأحاديث الكثير من الإشفاق على المتوفّين، ومن القلق على سمعة المؤسّسة التي تديرها تلك الآنسة. فقد روت صحيفةٌ ان سولانج التي كان يُفترضُ أن ترافق الفتيات الأجنبيات الى دروس «اللوفر» أو الى «الحولّيات» كانت، في الواقع، تلتقي رجالاً بل وأسوأ من ذلك.. وكانت التلميحات الى البيوت التي يتمّ فيها اللقاء والتي تكون فيها الميتةُ مع نزلاء «مارتا» والسيدة «باكستون»، يُخرج هذه عن طورها. ان اكتشاف هذا الماضي هو الذي يكون قد حدا العريس الى ذلك الفعل اليائس الذي جرّ اليه زوجته. وهلمّ جراً.

كانت كاترين قلقةً بخاصةٍ من جهة «مارتا». ألم يكن بوسع السيد «دي هوتين» ان يوقف كل هذه الأحاديث بكلمة يقولها للمحافظ الذي تربطه

به صداقة، كما فعل لموت «بليز جونغنز». بينما كانت كاترين تقول هذا ربطت لأول مرة بين مسعى الهولندي لأجلها، أثناء قضية نانسي، وزيارة الشرطي لشارع «بليز ديغوف».

السيد دي هوتين! زمّت السيدة «باكستون» شفتيها. هذا هو أكثر مايُزعج. من غير المحتمل ان يفعل السيد «ليبين» شيئاً له في هذه الشروط. أية شروط؟ ألم تكن الآنسة «سيمونيدزيه» في الواقع، تعلم ماجرى. نعم، في هذا الصباح بالذات، وعلى حين غرّة، فُتش في منزل السيد «دي هوتين» وفخمت السيدة باكستون «على حين غرة» لتلقي في خلدها ان المجتمع الراقي ينبغي ان يتم انذار الناس ُفيه قبل التفتيش في بيوتهم.

لكن ما الصلة؟ آه! هذا ماكانت السيدة «باكستون» تجهله كلياً. ومع ذلك كان يبدو ان موت الزوجين الشابين لم يكن غريباً عن هذا التفتيش. لقد وجدت الشرطة رزمة عهد بها السيد «ليفرانسوا هوزي» الى السيد «دي هوتين» الذي كان يجهل بالطبع محتواها. من ذلك الشيء الحيواني. المخدرات. لكن مارتا ستعود، وستخبر بنفسها الآنسة «سيمرنيدزيه». كانت في معرض الجثث. لم تكن «مارتا» تسهل معرفتها. امرأة عجوز وجهها بلا لون، وقد خدّدته الدموع في حالةٍ يتناوبها أقصى الاضطراب والانهيار. كانت تتجول عبر الغرف وتتفادى نزلاءها. لكن «باكستون» كانت تؤمّن بالطبع رتابة الحياة اليومية. كانت «مارتا» تتكلم وكأنها هي الميتة، كل جملها في الماضي. وكانت في بلبالها تجمع بين «بليز» و «سولانج» وكأن موتهما واحدٌ، وكأن ليس بين المصيبة والأخرى سنواتٌ طوال، وكانت تتكلم عن سولانج وكأنها بنتٌ صغيرة ارتكبت حماقة وألمّ بها فوق ذلك كله همّ. رعبٌ: جورس. هل سيوقفون «جورس»؟ كان ذلك محالاً! ماذا يريدون من جورس؟ انها مكيدة. ألا يعلمون أنه أدى خدمات جُلّى لفرنسا؟ في ١٤ تموز الفائت أنعم عليه بفارس جوقة الشرف. بصفته غريباً، طبعاً ولا ضير في ذلك. لأنه غلط فقبل بوديعةٍ أودعها لديه زوج أختها،

وهو اجتماعي راق، ورجل مستقيم، وصناعيّ غزّال! . . . أيمكن ان يتصور، جورس؟ حتى لو لم يكن لذلك عواقب (كان مدعواً نهار الاثنين الى مكتب قاضي التحقيق). بأن هذا سوف يُسيء الى أعماله ! كانت «مارتا» تحسّ انها مسؤولة.

لم تتعمق «كاترين» قط فيم كانت أعمال السيد «دي هوتين». وطرحت السؤال على «مارتا» لتبعد افكارها عن الجثتين اللتين شاهدتهما قبل التشريح، واللتين أخذت تفكر فيهما من جديد وهي تنتحب انتحاباً متقطعاً.

كان «جورس» يعمل وسيطاً بين المصارف الأجنبية، وبين الأفراد الذين يبحثون عن رؤوس أموال لمشاريعهم. وهكذا خدم الحكومة الفرنسية أثناء قرض لها. ، ثم انه كان يعمل في شتى الأعمال: التصدير، والاستيراد. تصدير ماذا، واستيراد ماذا؟ كل شيء. كان ذا موهبة حقيقية. كل شيء كان ينجح بين يديه. ولذلك فكرت «مارتا» دائماً ان زواجاً يدبره «جورس» مثل زواج سولانج، لايمكن إلا ان يكون موفّقاً كلّ التوفيق. والآن ماذا نعتقد؟ أدارت نحو كاترين عينين متوسّلتين: «قولي لي إن كلّ مايقال عن هذه الصبيةّ خطأ خطأ! سولانج!.

أغرقت رأسها في الوسائد: إذ المروّع لم يكن ان «سولانج» ماتت، بل أنها خدعتها سنوات طوالاً، أنها كانت مخلوقاً. . أيمكن لكاترين ان تصدّق ذلك؟ إن مايُذهب عقل «مارتا» ومايُذهلها بعد ذلك كله هو المخدّر. المخدّر الذي لاسبيل الى تفسير دخوله المفاجىء الذي لايُدحض، وذلك لأن كائنين ماتابه. ولو أن «سولانج» تعودت هذه العادة لأحسسنا بذلك. «بيير» إذن هو الذي تعاطاها. . لكن «جورس» الذي عرفه منذ زمن بعيد كان يؤكد انه لم يعلم شيئاً من ذلك، جورس؟ ياالهي المهم ألا يفعلوا به شيئاً! لقد جاء مفتش الشرطة وسأل «مارتا» عن جورس. ياللعار!

كانت مارتا تبكي برفق وهي مستندة الى كتف كاترين. كانت حياتها

مع جورس ضرباً من منطقة عجيبة ومحمية لم تدع أحداً يدخلها. وفجأة، وبشراسة، أخذ الشرطي يطرح عليها أسئلة وأسئلة! هذا الشخص الحقير! ألم يقل لها على الفور: «هل ستزعمين أنك تجهلين أن «هوتين» تاجر مخدرات؟

شارع «بليز ديغوف» يالسوء الحظ! كانت السيدة «سيمونيدزيه» مسافةً لدى «هيلين» لتساعدها في الانتقال الى بيت آخر، إذ أن «ميركورو» أُرسل الى باريس. عادت كاترين على عجل من أجل «مارتا». لكن كان في هذه القضية كلها شيءٌ فظيعٌ رغّبها في أن تقضي الأمسية وحدها.

إزاء «سولانج» هذه التافهة، وزوجها الذي بسببه ماتت بغباوةٍ «جوديت» الصغيرةُ، لم تستطع كاترين ان تألف فكرة ان يكونا بطلي مأساة. وماذا يضير هذا المدّعي الجمال ان يكون لامرأته عشّاق قبله؟ أمن أجل ذلك قتلها؟ ان صورة «جورس» دي هوتين» كانت تطفو وسط ذلك كله، علاقاته البوليسية، واتهام مفتش الشرطة.

طالما فكرّت كاترين بالانتحار منذ أن كانت مريضة. بالطبع كانت تقدّر تقديراً عالياً الذين ينتحرون. وكان يثيرها الاستنكار البرجوازي الذي يُحيط بالانتحارات. لكن كان، هذه المرة، حول هذا الموت المزدوج الكثير من البلبلة مع خلوّه من العظمة.

ان نهار الأحد ٢٦ تشرين الثاني، وهو اليوم الذي قضته لدى «مارتا»، وسط الذكريات والحكايات الصبيانية، والقسمات المجمّلة للميتة التي لم تستطع كاترين ان تنسى عينيها الماكرتين وتفاهتها غير المعقولة والبالغة أقصاها، ان نهار الأحد ٢٦ تشرين الثاني انطفأ في جوّ السفسفة والنكبة التي لاتفسير لها، جوّ يحتل فيه الخوف مما سيقوله الناسُ مكاناً أولياً وجديراً بالرثاء. حوالي المساء، نكبة أخرى، هي حرية الأحد. عادت مشياً قاصدةً الميترو في «لاموت بيكيه غرينيل». كان في الشوارع جمهورٌ زاحف، مع

مطر خفيف متذبذب. وتحت الميترو الفضائي، ازواج يتهالكون على المقاعد في الظل، لأن الغرف مسرفة الغلاء في الفنادق الصغيرة الحقيرة، فنادق الجادة التي بطابقين. في أسفل المحطة احتشد جمهرة من الناس أثّر البردُ فيها، حول كمان واكورديون، ومغنٍ على لحن «تانغو» يتحدث عن سهول أمريكا الجنوبية المعشوشبة.

توقّفت كاترين مثل البنات والبحارة والجنود الذين كانوا يجرونّ أنفسهم الى ثكنة «دوبليكس»، وأصحاب الدكاكين الصغيرة. ثم إذا بالعزف يغدو شرساً لايُطاق: أخذ الموسيقيون يعزفون أغنية مرحة هي آخر نجاح لـ «فراغسون». صعدت «كاترين» درجات الميترو.

اشترت صحيفة المساء عند مرورها على البائعة، لكي لاتقف في الصف عند شبّاك التذاكر. وفي الميترو، حوالي «كامبرون»، فتحت الصحيفة. ومن النوافذ، كانت الأضواء الوامضةُ في دور البغاء الصغيرة والكئيبة وفي المراقص تتراقص وسط كتل البيوت السوداء.

هكذا علمت كاترين في هذا الصباح من ٢٦ تشرين الثاني ١٩١١، ان «بول لافارغ»[1] وزوجته «لورا» قد وضعا بإرادتهما حداً لحياتهما.

-٢-

لم تكد كاترين تعرف من «لافارغ» سوى «الحق في الكسل». اما هو فقد شاهدته يوماً في أحد الاجتماعات وكان أحد أندر زعماء الحركة العمالية الذين لم يتعرضوا بين أصدقائها الفوضويين، لكره الجميع وتحاملهم. وكذلك فقد كان لمثابرة «لورا» ابنة ماركس الى جانبه، ومعاونتها له طوال حياته، سحرٌ وجاذبية بالنسبة الى كاترين، وكأنها رمزٌ لدور النساء في مجتمع المستقبل. وهاهما يريدان الموت معاً.

(١) بول لافارغ: اشتراكي فرنسي بارز. تزوج «لورا» وهي ابنة كارل ماركس. وانتحر هو وزوجته تفادياً للشيخوخة.. المترجم

تواعدا على ذلك منذ سنين بعيدة. عاشا بثقة متبادلة ضد عجز أيام الشيخوخة وانحطاطها. وحدّدا بلوغ لافارغ عيد ميلاده السبعين نهايةً لحياتهما، مهما تكن حينئذ صحة كل منهما. ففي غمرة المعارك، منذ أيام الكومونة البعيدة، عندما جاء، لافارغ الى لندن، وهو مولدٌ شاب حين كانت انحرافات لسانه تتعبُ أحياناً كارل ماركس، وارتبط للأبد بلورا الهادئة والحازمة التي كان أبوها يفكر بكثير من الدعابة في أنها سوف تقوّم ما في صهره من طوابع جنوبية. وأثناء ملاحقتهما ومطاردتهما معاً، وحين كان بول ينقل الى لغة، ربما كانت رومانسية لكنها مفعمة بالحميّة، ذلك الفكر الذي كانت «لورا» الصبورة تترجمه عن أعمال أبيها في شذرات كبيرة وأمينة، عبر هذه السنين عاشا بهذا اليقين بينهما، بهذا التآمر على الشيخوخة.

وإذن، ففي اليوم المعيّن منذ زمن طويل، ذهبا الى منزل ريفي صغير، وتركا للبستاني النص المكتوب سلفاً والموقع باسمه، نصّ البرقية التي ستعلن موتهما.

كل العالم الذي كانت تحمله كاترين فيها لقي في هذه القصة الهائلة والبسيطة صدى غريباً وعميقاً. كانت كأنها نشيد الطيور الرهيب واللؤلؤي في صباح ليلة مسهدة. ان هذا الانتحار الرزين والعاقل يتعارض مع تلك النهاية الكئيبة لذينك البرجوازيين الشايبين[1] حيث يبدو ان المصادفة لعبت مع الأحكام المسبقة ومع المخدّر لعبة الاوركسترا المكّارة.

كانت كاترين التي أخذت تحسّ منذ أن قُدرت لها سنتان من العيش، بالموت الدي ليس شيئاً ان لم يجلب معه موكباً من التقيح والأدوية. كانت تشعر مباشرة بنهاية الزوجين «لافارغ» وكأنها أمثولة تُحتذى. كانت تنهل

(١) البرجوازيان هما «سولانج» وزوجها اللذان ورد ذكرهما آنفاً. . . المترجم

منها نوعاً من اليقين المرّ، ولم يمنعها من ذلك شيء، لأن كل شيء فيها كان ينطق بالاحترام للانتحار، كل شيء فيها كان أعزل في وجه نفوذه الأسود.

لم يكن في مقدورها أن تدهش للتناقض في الواقع بين هذا الموت الإرادي وبين حياة متابعيْ ماركس وأفكارهما. لأنها أصيبت وعلى نحو غريب، بتلك الأفكار وبهذه الحياة تبعاً لهذا الموت بالذات وهو الفكرة المشتركة الغنائية التي فيها تلتقيهما. مثل صينيّة دواره على تخوم الفوضوية والاشتراكية. وكونهما قد انتحرا يجعلهما انسانيين في نظر كاترين، انسانين في الحقيقة، من طبقتها. قضت كاترين أمسيتها تقرأ كل ما أمكنها أن تعثر عليه عندها من كتابتهما، ترجمة «لورا» للبيان الشيوعي، وخطبة حول فكتور هوغو «لبول».

نامتْ في ثيابها على الأريكة، ورأسها مملوءٌ بتلك الجمل التي دعت منذ ١٨٤٨ البروليتاريين الى التنظيم والعصيان المسلح. نسيت الانتحار والموت.

لكنها عندما استيقظت في مطلع الصباح البارد لم تجد تدفئة مركزية في شارع «بيليز ديغوف» وانطفأت المدفأة بهدوء. وأول مافكرت فيه كاترين كانت سولانج و «بيير» وقد زالت عنهما آمالهما ولذّاتهما، في ذلك الاحتضار الشاحب للمخدّر. وسُمع في الشارع، تحت السقائف، افراغ صناديق القمامة الرنانة، ودويّ صفائح التنك الذي يصدره بائعو الحليب على الرصيف.

من المتعذر اضرام النار. لقد بدأ نهارٌ جديد.

لاشيء أبعد عن الانتهاء من ساعات الصباح، حين ننهض من نومنا مبكرين قبل الأوان ونطرد النوم الى غير رجعة. لابد من الانتظار لكي يعود العالم الكسول بدوره الى الحياة. فضلّت كاترين أن تخرج بعد أن جمدتّها عدوانية مسكنها الخاص حيث تشيعُ فوضى أمها الغائبة. لم يكن في بيتها

مغطس، فحملت حقيبة صغيرة فيها كل ما هو ضروري لزينتها في منشأة الحمامات. لكن الوقت مايزال مبكراً، ولابد من الصبر حتى تفتح أبوابها.

اختلطت، في الشوارع، أولا بتلك الحركة الأولى المستعجلة، حركة الناس الماضين الى العمل. وفي شارع «رين» تريثت قرب مخبز. وكان العمالُ والمستخدمون يمرّون قربها بلامبالاة العجلة. كانت الأرغفة الطازجة والمذهّبة تسترعي كالذباب نظر كاترين. كل هذه الحياة في كل يوم، هذه المسرحية التي تُقدم كل صباح والتي لم تشارك فيها قط. . أخذت تسعل. لم تستطع أن تحوّل نظراتها عن تلك الأرغفة الطويلة المتكدّسة في سلة ستدفعها عبر الشوارع امرأة ذات وزرة زرقاء داكنة.

ثم قل الناسُ في الخارج إذ كان الوقت بين ساعتين من ساعات مباشرة العمل. وأخذت الكراسي تفرغ في المقاهي. بينما كان الرجالُ والنساء على المبسط، يشربون بجرعات صغيرة، سائلا شديد السخونة. كانت كاترين تدور حول «سان سولبيس»، وأحنقها مارأته من تماثيل الجبس في المخازن التي تبيع أدوات العبادة: تلك تجارةٌ ماتزال سوقها رائجة. كانت البوابات يكنسن عند أبوابهن. وبين سلاسل الساحة، كان الناس ينتظرون بصبر الحافلة الكهربائية وقد ارتدوا ملابس فقيرة لكنها غاية في الدقة. كل بدوره. وأخذت عجائز يدخلن الكنيسة كالفئران.

جلست كاترين لحظة داخل مكتب لبيع التبغ، قرب «سان جنيرمان دي بري»، ومعها حقيبتها التي يرقد فيها الصابون وقفاز لفرك الجسم وعلبة من الأملاح. قُدمت لها قهوة مع رقائق هلالية، بينما كان الخادم يدفع بطرف المكنسة ممسحة الجنفاص حتى قدميها. وأخذت تتُابع بصورة آلية حركة الغاسل الدائبة. وكان رأسها يطنّ بالجمل التي حفظتها من ترجمة «لورا لافارغ» التي حلمت بها هذه الليلة. مهلاً! سوف تموت دون أن تشهد نهاية هذا العالم الذي ليس للمرأة فيه من دور سوى مجرد دورها كآلة للانتاج! لقد ماتا، مات بول ولورا لافارغ. وكان مستخدمو «بون مارشيه»

يستعجلون ابداً نحو حديقة «بوسكيو». وقرعت أجراس الساعة الثامنة. صار بإمكان كاترين ان تستحم في شارع «فور».

بقيت زمناً طويلاً في الحمام. لكن حتى بعد أن مرّت ببيتها بعد الحمام وتريثت فيه قليلا، ألفت نفسها في الشارع، في الساعة التاسعة والنصف. عسى أن تكون مارتا ماتزال نائمة. ماذا كان يربطها بمارتا، في الواقع؟ في حياة مارتا، لامكان لغير السيد «دي هوتين»، وحتى الميتة لم تشغل في حقيقة الأمر بال هذه العاشقة القلقة الا بمقدار ما يمكن ان يشوش هذا الموتُ حياة حبيبها «جورس». ولقد روُعت كاترين التي قضت أشهراً من الوحدة في «بيرك» لأول مرة أمام صحراء هذه الصبيحة المقفرة. حياتها! أتستحق ان تتمسك بها؟ وهي التي قبلت دائماً ودون تفكير الأقساط الشهرية المنتظمة التي كان السيد «سيمونيدزيه» يرسلها من «باكو». إذا بها تخجل بها فجأة، وربما كان ذلك بسبب كل اولئك الناس الذين رأتهم يستعجلون في الفجر، وعادت إليها أفكار تكوّنت فيها في ليلة «كلوز» تلك، منذ ثماني سنوات، بعد رشقة الرصاص، وكانت غافية فيها دون ان يُعرف كيف. مع مَنْ كانت؟ مع مارتا وهذا المشبوه «جورس» الذي كان أذناً للشرطة، والذي كان يتاجر، دون شك، بالمال إن لم يكن يتاجر بالمخدّرات؟ مع سولانج وبيير؟ شبحان تافهان، ممثلا دراما حمقاء. مع اولئك الفوضويين الذين تردّدت عليهم كغريبة في باريس، كما ترددت كغريبة في «بيرك»؟ استضاء في أعماق ذاكرتها وجه هو وجه الأم التي ذُبح ابنُها في تلك الغرفة الصغيرة في السافوا. فكرت في «باكو» التي يأتي منها كل شهر تحويلٌ محمل بالتواقيع، والتي فيها ايضاً عمالٌ لهم أمهاتٌ؛ فكرت في جميع تلك العمليات الغامضة التي تُتيح من هناك الى باريس، عبر شتى المكاتب، والمراقبات، وبفضل العقود والأجور، أن تصل تلك الورقة بالبريد ذات يوم، بواسطة ساعي البريد الذي نهض مبكراً، ووافى هذه الشقة التي تدخن

فيها السيدة «سيمونيدزيه» وتفكّر ، وتفكّر وتدخن منذ سنين دون أن يُعرف لماذا .

عبر هذا الضباب من الأفكار وتأوّهات مارتا والصحف وهذرها حول «القضية» ، واستجواب السيد دي هوتين ، مرت ساعات بعد الظهر . ألفت كاترين نفسها وحيدة عند العشاء . وخطر لها أن تذهب لترى «جان تيبو» . ثم استولى عليها حنقٌ عميق . لقد ملّته! تناولت عشاء في مطعم صغير قرب الكلية العسكرية .

- ٣ -

لم تستطع كاترين ان تعزم على العودة الى بيتها بالرغم من نقطة أحسّت بها في ظهرها وذكّرتها ذلك المرض الذي كانت لازمته المُنذرة تتردد في خلفية أفكارها . لم تكن الساعةُ بعيدة عن التاسعة ، وكان الجند يعودون الى ثكنة « الانفاليد» .

ومن الحانات الصغيرة التي كان آخر المتخلفين يبتعدون مكرهين عن «البليار» فيها ، أو عن رفقة البنات ، تعالت أغاني الحاكي المبحوحة .

كانت الساحة تنفتح فارغة تحت الريح الباردة . قصدت كاترين الأرصفة . هبطتها نحو «آلما» . هذا الجزء من باريس مقفر مثل منطقة مُترفة . وفي مواجهته ، في «كورلارين» ، حركةٌ دائبة ملتبسة ، بغاء لايخلو من الحياة . أما على الضفة اليسرى فكأن المدينة هنا تجمّدت ، وماء «السين» أشد سواداً منه في أي مكان آخر .

كانت حديقة الملاهي «ماجيك سيتي» تبعث رنيناً حزيناً للذات الموعودة. الاثنين مساء . لابد أنها فارغة . ألحان موسيقية ، هبّاتٌ من التمثيليات التهريجية ، صوت الغدّارات في الرمايات ، ومن المؤكد ان المستخدمين هم الذين كانوا يستخدمون الطلقات . . مرت كاترين على ذلك

كله، وعلى ضوضاء بعصفاتٍ هي ضوضاء الجبل الروسي. كانت الليلة أكثر ضياء فيما وراء جسر «آلما». وهكذا وصلت الى قائمة برج «ايفل». كان السين يجري، غير مبالٍ مليئاً بالغرقى.

ماذا كانت تتبع كاترين هكذا في إثر السين؟ كان المطر رذاذاً. تلاقى قطاران كهربائيان، وكأنما يتلاقيان من أجل احتفال بالأضواء، فوق «جزيرة التم» حيث جمهورية التم القصيرة على قوائم الطير تمثل ديمقراطية صيادي السمك بالقوارب. بعيداً عن الجزيرة بعيداً عنها نزعت كاترين قبعتها. ولم تكد تبالي بالرطوبة الجليدية. وكان شعرها الرطب داكناً دكنة مياه السين في ضوء المصابيح النادر.

غادرت رصيف النهر، عند جسر «ميرابو» وكأنها كانت تريد أن تعبر الى الضفة اليمنى، لكنها كانت تريد دون شك، ان ترى على الخصوص، الليل النهري يسيل، لأنها اتكأت على الحاجز حول منتصف الجسر من جهة سافلة النهر. . ومن تحتها، كانت المياه المدوّمة تتدافع. معروفٌ في الحلم ذلك الإحساس بأن أرضية البيت تهرب. كانت أفكار كاترين تهبط التيار مقترنة بمنعرجاته. الدوّامات المظلمة، الآتية من الخلف، من أيام طفولتها حتى هذا اليوم ذاته، هذا اليوم الطويل الذي لانهاية له. .

وفجأة، ألقت بقبعتها في الفراغ، دون أن تفكر مسبقاً بهذه الحركة. حوّمت القبّعةُ وغرقت في جوف المياه. ولم ترها تختفي نحو البحر المفترض والبعيد. وظلت هكذا حاسرة الرأس في الليل. وكان خيالها مع التيار يتبع القبعة الخفيفة في دوامات المياه. كانت مستسلمة كلياً لذكرى «كلوز»، لإجهاض مصيرها. بدا لها ان شيئا فيها آنذاك قد تحطم ولن يُجبر هناك وسط الجمهور المضطرب في كل الاتجاهات، بينما كان الجرحى في التراب، وكان الجنود يتجهون الى البيت المشتعل ببنادقهم ،وكانت الشمس تتراقص على كلبٍ صغير أصفر.

نعم، في تلك اللحظة، وجدت نفسها على مفترق الدروب، لقد قطعت مابينها وبين ذويها، وفكّرت في أنها قطعته بقوة، وأرادت ان تفكر في أنها قطعت مابينها وبين طبقتها. لكنها لم تعرف كيف تذعن لهذه القطيعة، فهي لم تتعلق بأمكنة أخرى. لقد كان لها فضولُ المسافرة، لا أكثر. لم تستطع قط أن ترتبط بالآخرين بعدوّ ذويها الذين تأنف اليوم أن تعترف أنهم ذووها.

ذلك أنها احتفظت من حياتها الماضية برغد العيش وإن كان رغداً بخساً. لقد كان بها نفورٌ كفتاة من أنها لاتملك ماتشتري به فستاناً. اما حريتها، تلك الكلمة الكبيرة في الحياة التي قادتها الى المؤخرة، فكانت دائماً تلك القدرة المسكينة على ألا تعمل، على ان تتسكع، وكانت بالذات التحويل الآتي من «باكو» الذي ثبتها (شاءت أم ابت) في الصفوف التي حسبت انها خرجت منها.

كانت المياه السوداء تجري أبداً، ولابد ان القبعة قد سلكت درباً جنونياً. وكانت بقعة الضوء التي لعل عيني كاترين استعارتها من مصابيح الطريق، تتراقص أمامها، فوق النهر، شبيهة بالكلب الأصفر الصغير، لقد خاف أشد الخوف من طلقات الرصاص، ذلك الكلبُ الأصفرُ الصغير، فاختبأ خلف جان. . كان أسوأ مافي الأمر فكرة جان التي خطرت لها. سيغدو جان لواءً ذات يوم، إلا إذا كانت رصاصاتٌ أخرى. . لكن الذي كان يلازم ذاكرة هذه الفتاة كان عاملاً ميتاً على قميصه دمٌ وفي شعره ترابٌ، وليس «جان».

وكما فعلت قبل قليل بالقبعة، بحركة طبيعية تماماً، وبدون نقاش سبق. صعدت الحاجز ومرّرت لآخر مرة يديها فوق شعرها.

لكن اذا بها تحسّ أنها ممسوكة من وسط جسمها ومُعادة الى الأرض. كان يمسك بها رجلٌ صلبٌ، سائق! إذا حكمنا عليه من سترته وقبعته. قال بصوت عميقٍ وسوقي لايتفق جيداً مع مظهر الشباب العارم:

«لاتفعلي هذا. كنتُ أرى أن الآنسة سترتكب حماقات. القبعة أولاً. حقيرة. لم تكن تعجبك ربما؟ كنت هنا، في زاوية الرصيف. تركتُ سيارتي هيّا، ماهذا؟ أنت تبكين الآن هيّا، هيا. لن يدوم ذلك،. لا، لن أتركك يجب ولو مرة أن.. لا؟ انتهى الأمر؟ وعدٌ منك؟».

لن يتركها حرة تماماً. سعلت، «بَرَدْتِ؟ أنت هنا منذ زمن. وقد تبلّلتِ. يجب ان تأتي وتتدفئي في مكان ما.

غلط في تأويل حركة إنكار «كاترين»: «آه! لايجوز ان ترفضي تناول كأس، ياصغيرتي! صحيح اننا غير متعارفين، اسمي «فكتور»..».

مسحت، وجهها. لعله لاحظ أني جميلة. «على كل حال، لن أتركك، ياصغيرة ربما عادت إليك رغبتك تلك. لنبتعد من هنا. معي سيارة في طرف الرصيف. سنمر بسرعة على «الآلما» ففيه مطعم صغير هادىء. لايجوز ان ترفضي كأس شراب ساخن، أو كأس خمر ساخنة، أنتِ شديدة الشحوب».

هكذا عرفتْ كاترين «فكتور».

- ٤ -

كانت «حنّة ديهاينين» حبلى عندما انفجرت في ١٨٨٦ الحوادث الخطيرة التي قرّر «ديهاينين» على أثرها ان يترك المنطقة حيث رفضت جمعية «هوبير» كلّ عملٍ لمن شارك مشاركة فاعلة في الأضراب. أولمن تُظَن فيه المشاركة في مقتل المهندس «واتران».

قادها الى باريس حيث كانت لها ابنة عمّ غسّالة وتركها عندها كلّ زمن ولادتها، ليحث عن عمل ويأتي بها. ولم يُقدر لها ان تراه بعد ذلك ففي مناجم اللواء، قُتل في الأيام الأولى. وكان عمره ثلاثة وعشرين عاماً.

وإذن فقد غدا فكتور دهاينين «الصغير باريسياً بالمصادفة. نما بكل

بساطة في أسفل شارع «لاروكيت». قرب الباستيل، حيث كانت أمه تشتغل عند ابنة العم «آديل». أما «حنّة» فعاشت منذ ١٨٩٠ مع عاملٍ في السكة الحديدية هو سائق قطارات سريعة لاتذهب أيامه سدى. لكنه كان يعود الى المنزل ميّتاً من التعب. كانا يسكنان في نهاية شارع «بوليه» في حي «سانت انتوان» تقريباً. وعندما بلغ فكتور العاشرة تخاصما بشدة في البيت لأن «حنة» ودت لو ترسله الى مدرسة التعليم المسيحي من أجل ان يتمّم مناولته الأولى كغيره من الأطفال، لكن السائق أخذ يصرخ قائلا ان ذلك عارٌ وأنه سيتركها إن فعلت ذلك مع صبيها. وكان جوزيف يحب فكتور حباً جماً. وقد أخذه جوزيف ذات مرة سراً الى عربة القطار وفي ١٨٩٧ قتل جوزيف في حادث. ويبدو أن الغلطة كانت غلطة الميكانيكي، وربما كانت غلطة جوزيف ايضا. على كل حال، بما أن «حنّة» لم تتزوّجه لم يكن لها الحق في أي تعويض، ولا لابنها فكتور. فعادت الى المغسلة، ووُضع فكتور عند نجار عربات في شارع « بانوابو » ليتعلم الصنعة.

وأثناء تدرّبه كان عليه أن يغسل الأرضية والعربات، وان يتبضّع، وأن يُساعد في ترتيب منزل صاحب العمل، وأن يُفرغ القمامة، وأن يحمل الماء. كان يعمل اثنتي عشرة ساعة، بل ثلاث عشرة. لكنه كان مُطعماً ولم يكن يأسف على المدرسة من ناحية أخرى، بعد أن ظلّ فيها حتى الحادية عشرة.

في الثالثة عشرة كان أكبر وأقوى من سنه. وبوساطة ابنة العم «آديل» التي كانت تغسل عند أحد كبار مقاولي النقليات في «الهال»، وجد عملاً عنده. كان يغسل دائماً العربات. لكنه تعلم ايضاً كيف يُعنى بالخيول، بل تعلم القيادة. في ١٩٠١ عُهد اليه بعربة عتيقة وكان يذهب ليلاً ليجلب الخضرة من أرباض «ارجنتاي» المسمّدة أو من ضواحي الجنوب، وكان يعود بخطا وئيدة منهكة من الجو ادين، حاملاً غنيمته الى سوق «الهال» حيث يفرغها في معرض الثمار والخضرة. كان ينام بعد ذلك حتى الظهر، لكن كان عليه أن يكون في الدكان بعد الظهر. كان يعمل من خمس عشرة ساعة

الى ست عشرة ولم يكن هذا، في عمره إذ ذاك، يشق عليه، أليس كذلك؟ ولم يمنعه ذلك من أن يُرمى على الرصيف وهو في الثامنة عشرة، لأنه تقاتل مع ابن صاحب العمل، وهو مهذار يريد أن يشغله ساعات اضافية مجاناً. كان فكتور شديد الاعتزاز بقوته المجرّبة، لولا أن موقفه هكذا ليس فيه مايُحمد: لقد بدا ذلك الشخصُ جديراً بالرثاء امام دكانه، اسقطه بضربة، بضربة واحدة. وتجمع الناسُ.

اشتغل حمّالاً في «الهال» بانتظار ماهو أفضل. واشتغل عند قصاب. ولم يلبث ان طُرد بسبب جواب. في هذه المناسبات إنما يندم المرءُ لأنه لا يملك مهنةً، مهنةً حقيقية. لقد ملَّ فكتور الخيول: الخيول التي تُقاد والخيول التي تُذبح. ثم إنه كان يؤمن بمستقبل السيارة، كان يذهب نهار الأحد ليرى السباق. وصاحبَ الميكانيكيين. عُيِّن في مرآب، في «سان كلو»، في التنظيف، فأضمر فكرةً في نفسه. كان يغسل السيارات، لكنه كان يستفسر عنها حتى انه تعلّم قيادتها. وحصل على رخصة القيادة قبل أن يذهب الى الجندية بالذات.

كان ينبغي له أن يكون في سلاح الفرسان أو المدفعية لكنه لم يعد يُطيق الخيول. ولم يذكر قدراته في هذا الجانب، فألحق كيفما اتفق، بالنسق. وكان مع ثلّة باريسية في فوج في الجنوب.. كان في فوج المشاة في «بيزييه» عندما تمرد هذا الفوج حين ناصر الكرّامين. إن «فكتور ديهاينين» الذي كبر كما اتفق له، الذي لم يدخل نقابة قط، اكتشف في هذه الأيام غير العادية حيث تساءل الجنود في الفوج ذاته ان كانت الحكومة لن تأمر بإعدام الجنود بالجملة بسبب عصيانهم، اكتشف ذلك التضامن بين الشغيلة، وهو تضامن حوّل كلّياً معنى العمل بالنسبة اليه. ان أسطورة ابيه ومعارك عمّال المناجم اتخذت في عينيه، معنى لم يكن لها قط عندما كانوا يقصونها عليه في طفولته. استعلم عن تاريخ الحركة العمالية. في الثكنة كانت الصحفُ الاشراكية تُقرأ سراً. وعندما وُضع الفوج السابع عشر بعد أيام «بيزييه»، من

جرّاء خيانة تليق بكليمنصو، وخلافاً لجميع الوعود، في أماكن الاعتقال، غدا فكتور بفضل العلاقات التي عقدها مع الفوج مناضلا حقيقياً عن طبقته. وبعد عودته الى الحياة المدنية قُبل سائقاً في الشركة العامة في باريس، وتسلّم بطاقته من النقابة. وفي ١٩٠٩ دخل الحزب الاشتراكي.

اصطحب كاترين في سيارته الصغيرة «وسنر» الحمراء الهزازة، هذا المساء من تشرين الثاني ١٩١١. لأنه لم يكن يستطيع ان يتركها هكذا بالقرب من السين، مع إغواء الماء. وبذلك تأخر عن اجتماع في بورصة العمل كان ذاهباً اليه، وكانت القضية جدّية فيه - لكنه عندما جلس الى الطاولة مع الصغيرة، رآها جميلة حقاً، وامرأة ليس من عادته ان يرى مثلها، فتركها تتكلم بهدوء عن نفسها، عن حياتها. وشاقه ذلك. كانا يشربان خمراً ساخنةً وهي تتحدّث عن طفولتها، وعن اللكسمبورغ في سن الخامسة عشرة، وعن أمها وعن هذا العالم الغريب الذي لايشتغل فيه الناس، وكأن «البفتيك» ينزل من السماء، مع تحويلات بريدية كل شهر، وآبار البترول. كانت تتحدث عن ذلك كله وكأنها لاتخاطب شخصاً معيّناً.

ما أراد ان يعرفه فيكتور هو لماذا أرادت ان ترمي بنفسها هكذا في السين. كان ذلك كأنما يطلب اليها أن تروي حياتها كلها. من «كلوز» الى «بيرك»، من موت عامل ساعاتي شاب الى موت «ليفرانسوا هوزيه»، الى انتحار بول ولورا لافارغ. ما الذي جعل هذا الاعتراف ممكناً؟ لعلها نظرةٌ، وهذا النوع من الصلابة لدى فكتور، وأكثر من كل شيء بلا ريب، تلك الأفكار الموجزة التي كانت تقطع قصة كاترين، وتُحسّسُها الى أي حدّ كان هذا الرجلُ هذا المجهول الغريب كلياً عن كل ما أرادت ان تهرب منه، يفهم، على نحو صريح ومباشر، كل مالايمكن ان تفوه بكلمة منه لمارتا، مثلا او لأمها: ألم يكن أعظم حدث في حياة السيدة سيمونيدزيه هو اختراق جادة «راسباي»؟.

لم يكن فكتور فتى وسيماً حقاً. كان شخصاً طويلاً عريض المنكبين،

بارز القسمات التي كانت ستكون منتظمة لولا الفم الذي أفسد كل شيء، الفم المفرط النحافة والمفرط الاتساع. كان أشقر مثل «جونغنز»، فهو فلاماندي ايضاً لكن ما أبعد المسافة بينهما! المسافة بين طبقتين. ليست نظرته نظرة رجل المال ولا نظرة الكاثوليكي. وإنما نظرة ملاكم. لأنه تعود أن ينظر الى الحياة مواجهة. ومنذ العشرين تميز عنقه اذ سفُع واحمرّ عند القذال. كان في أعماق سحنته حرقةُ الهواء الطلق الآتية من العمل والتي لاتخلط مع تلويح الرياضات المدروس.

كان ينظر بين الحين والحين الى الساعة الجدارية. الاجتماع! لكن لا أهمية لذلك، فعندما تكلمت عن انتحار لافارغ لم يتمالك نفسه من مناقشة الحادث، لأنه كان يملك حوله بعض المعطيات، فقد قرأ صحيفة «الإنسانية» هذا الصباح. ورأى أن ليس لصحيفته موقفٌ واضح من هذه القضية.

«ماذا تريدين، إن هذه القصة تكدّرني، أنا. وانظري عندما أرى الأثر الذي تركته فيك. طبعاً، لقد تركت فيك هذا الأثر لأنك كنت أنت مستعدةّ كلّ الاستعداد له. الحاصل، يجوز بل يجب ان ننتقد أحد قادة الطبقة العاملة حين يُخلي مركزه. بالطبع، سوف تحتجين، أنت. فأنت تجدين ذلك جميلاً جداً، وعظيماً جداً، الى آخر ماهنالك. أما أنا فلا أرى رأيك. إني أجد ذلك جديراً بالرثاء، بكل بساطة: لماذا يجب على ابنة كارل ماركس أن تفعل ذلك؟ لست أدري ماذا يعني، بالنسبة إليك، كارل ماركس. لكن بالنسبة الينا، أنت تدركين، أننا نحن البروليتاريين. . بروليتاريي جميع البلدان. . ان جملاً مثل هذه لاتسمح للمرء بأن يقتل نفسه متى شاء، دون أن يعلم به أحد، هل شوّشتُك! ان لبول لافارغ كل الاحترام اللازم عندي: فقد كان مناضلاً في الحركة العمالية، وقف حياته كلها لطبقتنا، ولم يخنها قط. لكنه لم يُعطنا موته. موتهُ لا علاقة له بصراع العمال. موته لاعلاقة له بحياته، بما يجعلني أرفع قبّعتي احتراماً له. وهذا مالم تقله صحيفة «الإنسانية» وهو خطأ. خطأ كبير.

ضرب الطاولة بقبضته. حاولت كاترين بصوتها الناعم والمدهش للفرنسين ان تدافع عن بول لافارغ وحده بل عن الانتحار. وأن ذلك رأيٌ مسبقٌ مسيحي. . قاطعها فكتور بعنف: «عمّ تتكلّمين؟ أننتزع من الثورة قواها لأننا نخشى المرض، أو الشيخوخة أو أي شيء آخر، رأي مسبق معاد؟ رأي مسبق لطبقة، نعم، ولطبقتي، الطبقة التي تمضي الى القتال ولاتريد أنّ يلهو المقاتلون عن القتال. الانتحار هو التخاذل أمام العائق. ما الذي يخشاه البروليتاري الذي يعلم أنه بروليتاري، أي مناضل عن طبقته، حتى يحقد على نفسه، أي على قطعة من طبقته، وأن يُصوّب موقف الخصم، البرجوازية، حين يقتل نفسه؟ البرجوازيون هم الذين ينتحرون».

همست كاترين: «هناك عاطلون عن العمل ينتحرون».

– أولاً إن هؤلاء يُدفعون الى الانتحار دفعاً، ذلك أشبه بالقتل منه بالانتحار. ثم ان هؤلاء الأصحاب اذا انتحروا فذلك لأنهم لايعلمون كيف يناضلون ضد البؤس، لأنهم يعتقدون انه لايمكن تغيير شيء في العالم، وحينئذ يفرون منه أنتم وضعتم في رؤوسهم هذه الفكرة لفرط الإذعان المسيحي او غير المسيحي، وهم يهلكون بسببها، لكن لو وعوا. .

أصغت اليه كاترين وهو يتكلم. ولم تعترض على قوله «أنتم» إذ أدرجها في البرجوازية، وفكرت في تحويلات «باكو». تحملت هذا العنف الذي عامل به أفكارها هذا الرجل الذي لايدين لها بشيء ابتلعت بصمت جرعات طويلة من الخمر الساخنة.

ـ الساعة الحادية عشرة! وأنا أثرثر، وأنا أثرثر. يجب أن أكون في الاجتماع قبل التصويت. اسمعي، لو كنت في المعركة لما فكرت في الفرار. صدقيني، إذا كان لافارغ قد انتحر فلأنه ابتعد عن الطبقة العاملة بشكل أو بآخر».

أي تفخيم كان يصطنعه كلما لفظ هاتين الكلمتين: الطبقة العاملة!

أحست كاترين بانقباض في قلبها حين خطر لها أنها ستبقى وحدها. وكادت تطلب منه ان يأخذها معه حين قال: «انه ليزعجني مع كل هذا، ان أتركك هكذا، بعدي، ورأسك محشوٌ بالأفكار السوداء. لقد منعتك من الحماقة لكي تعودي اليها عندما أدير ظهري. ثم إني أقول في نفسي مَنْ يدري؟ فلربما أحسستِ بالخجل إذا جئت معي وربما غير لك ذلك أفكارك؟

— ٥ —

ماذا كانت تعلم كاترين عن العمال؟ لاشيء. لم يكن علماً أنها اختلطت ببعض الفوضويين، وجلُّهم من بين الطابعين، أي من فئة لها خصوصياتها، حيث نمت ثقافة خاصة جداً، ومعها سماتٌ ايديولوجية للبرجوازية الصغيرة، لم يكن أنها تعرفت على ليبرتاد وآخرين هو ماخلق حقاً ألفةً بينها وبين العمال.

كان العمال في الحقيقة بعيدين عنها بعدهم عن السيدة «سيمونيدزيه»، غريبين عنها تماماً غربتهم عن أمها. وهل كوّنت فكرة ما عن حياتهم؟ لا. لم تكن تعلم شيئاً عن الطفولة العمالية، المختلفة عن طفولتها، اختلاف الكابوس عن النوم الهادىء. ففي عالمها قلما يكتسب الكائن البشري، قبل العشرين، الإحساس بالمسؤولية الذي يصنع البالغ؛ بينما الحياة أي الجحيم يحصر المعنى لدى الصبيان والبنات في العالم العمالي، تبدأ قبل انتهاء النمو بكثير، بل وقبل البلوغ. وكان ذلك يحفر أيضاً بين كاترين وبينهم خندقاً من الفوارق. كان هناك ايضاً المشكلات، المشكلات الهامة التي تطرح نفسها عليها، وأنه كان يخيل إليها دائماً أن العامل إذا حدثّته لايفهم: لا لأنه لم يجد الحلّ، بل لأنه لم يتوصل الى طرح تلك المشكلات على نفسه.

لقد تقنّع ذلك بقناع صعوبات اللغة والمفردات. فأوهم كاترين بأن

ذلك دونيّة فيهم. ولم تكن ترى ان الأمر على العكس في الأغلب. كان عليها هي ان تناقش مالم يكن في الواقع سوى بقايا قرن آخر، بل وأكثر من ذلك، بقايا عالم آخر. ولم يكن لديهم أيضاً ساعات يخصّصونها للجدل الفارغ، لقد كان لديهم مشكلاتهم الخاصة بهم وهي أدعى بكثير للاستعجال والمباشرة.

لم يكن لدى كاترين أية فكرة عن ماهيّة يوم العمل. ولعل هذا هو مايفصل البرجوازية عن البيروليتاريا أوضح فصل. ان البرجوازيين يتكلمون بإسهاب عن أمثالهم من البرجوازيين الذين يعملون. لكن العمل الذي لاتؤمن في نهايته المعيشة وحدها، العمل الذي لايخرج صاحبه منه ومعه الوقت الضروري بالضبط ليسترد قوى يوم عمل اليوم التالي، ان عمل الذي يملك، وبكلمة واحدة، عمل الذي يجمع، لايمكن أن يُقارن بالعمل العمالي إلاّ بفعل تلاعب «بغيض» بالكلمات.

هناك على الخصوص عمل المصنع حيث يغدو الإنسان ملكاً للتدقيق بالدقائق، والساعات الطويلة المفضّلة حتى الحركة الواحدة تقريباً، منذ صافرة الدخول الى صافرة الخروج. . وهناك العودة الى البيت، وهي كلمة ساخرة، والفاقة والصعوبات في كل شيء، والرغبة الطويلة في كل شيء ضروري؛ وهناك اخيراً عدم ضمان اليوم التالي، والعاصفة الممكنة أبداً، ومكان العمل الذي يغلق، والبطالة ذلك الشيء الذي لايفهم والمباغت.

لم تكن كاترين التي تستنكر ان يكون هناك مستغلون ومستغَلون لتعلم إلى أي حدّ هي محقة في هذا الاستنكار. ان حياتها ذاتها كانت تشكل العقبة الكأداء دون معرفة الناس الذين اختلفت حياتُهم عن حياتها. كان بينها وبينهم تحويل «باكو» المصّغير.

لا غرابة إذن أن تجهل الحركة العمالية بنفس العمق الذي تجهل فيه الحياة العمالية. لم تستطع قط، في نوبات فضولها العابر، ان تتعلّق بالمسائل

الحيوية لطبقة لاتعرف شروط حياتها الواقعية . إن الجدل الذي كان التاريخ يتجددّ من حوله، نضال الأصلاحيين مثلا، الفوضويين الاشتراكيين وأنصار «غيسد» في فرنسا، ان ذلك الجدل كان غريباً عنها. وكلمة «نقابة» لم تكن تذكرها الا بوحش من الضجر ومن المشاغل البيروقراطية التي تأنف منها. كل شيء يصبح باهتاً في معارك التنظيم اليومي هذه، امام نيران الثورة التي لايفوتها ان تقارن بينها. ان الاغتيالات السياسية، وتفجرّ قنبلة في محل عام، كان لها في نظرها كل القوة الغنائية، السحر الذي كانت تلوم وهي مبرطمة كل تلك «الاشتراكية» على تجاهله.

كان فكتور بالنسبة إليها نموذجاً إنسانياً جديداً كل الجدةّ، ان طريقته في الكلام، مهما تكن أفكاره صادمة، رأت فيها شيئاً استثنائيا إذ انها لم تلتق قط أولئك المناضلين الذين هم طليعة الطبقة العاملة والذين تمرّسوا منذ شبابهم بالكلام والعمل.

الخلاصة لعل من تبعته كاترين هذا المساء في سيارة «وسنر» نحو «بورصة العمل»، كان رجلاً. تعبا في صف السيارة غير بعيد من شارع «شاتودو» فقد كانت السيارات المتروكة بحذاء الرصيف في كل مكان. في المقاهي المجاورة كان النقاش ُمحتدماً: خرج سائقون لحظة ليستعيدوا قواهم. شدّ فكتور على الأيدي أثناء مروره. كانت صالة «البورصة» الكبرى غاصةّ بالناس. حمّام من البخار. إذ كان الناس يدخنون منذ ثلاث ساعات. ووسط الجلبة كان خطيبٌ يتكلم وكان جمهورٌ من السائقين وافقاً في بزة العمل التي فيها شيء من البزة النظامية ومن بزةّ الخدم الرسمية، وإن كان الذوق الفردي ينوّع فيها بأساليب لانهاية لها. وبينهم طاعنون في السن قضوا زمناً طويلاً حوذيين في «الاوربين» وكانوا يدعونّ الى الحكمة. وخلف المنصة رجالٌ متعبون بأصوات خافتة وعيون حادة. وصلت كاترين في غمرة المعركة.

كانت تخشى، وهي تتبع فكتور خلال صفوف المقاعد، وسط السائقين الوقوف وبينهم بعض النساء اللواتي يتناقض مظهرهن مع مظهرها، اثارةَ الفضول وربما أكثر من ذلك. لكن لم يكن في الوقت متسع كي يعيروها انتباهاً ماعدا بعض النظرات من الأقربين. شيءٌ من الدهشة على أحد الوجوه عندما وصل فكتور معها الى أسفل المنصة، قال لأحدهم: «رفيقة»، ثم أخبروا بسرعة كبيرة بعضهم بعضاً. لم تستطع كاترين متابعة الحديث. كان يتردد فيه رقمٌ دوّى ايضا على المنصة ٣٣٪. . . . ٣٣٪. . مطلبٌ من المطالب بلا ريب.

كان عند محيط الصالة الكبرى حركةٌ دائبة. وعلى الخشبة، خلف المنصة، كان يبرز رسلٌ غامضون بالنسبة الى كاترين. وكان يبدو ان الخطيب الذي كان بالتأكيد مركز غضب المشاهدين ليس الخطيب الذي يمثّل مصلحتهم. ولم تسأل كاترين الذي يقودها، وهي في طريقها، عن موضوع الاجتماع. فهي لم تكد تصل باريس. كلمة «إضراب» التي طارت من فم الى فم لم تؤثر فيها تأثيراً مباشراً. كانت تهتم أكثر بهيئة الناس، «بالغضب المفاجىء لسائقٍ كان يشير، من موضعه، على بعد ثلاثة صفوف، الى رجلٍ طويل، عريض المنكبين: قلتُ لكم إنني أعرفه! إنه ليس سائقاً، ! لسنا بحاجة الى الشرطة هنا!»

توارى الخطيب تحت الصياح، وصفّق الحضور لمن تلاه، وهو أحد قادة النقابة. ، صاح فكتور: «عاش «فيانيست»! واستأنف مع سائق قصير أحمر الوجه حديثاً تردّد فيه موضوع مرآب شارع «شارون» والمتروبول، المجهول الأعظم في القضية كلها. الأمور ستمشي. على الطريقة الفرنسية.

كانت الساعة حوالي الواحدة بعد منتصف الليل، عندما نهض

رئيس الاجتماع، وسط ضوضاء عجيبة، ليقرأ ورقة صغيرة. وفي غمرة الصمت الذي خيّم فجأة على أكثر من ألفي سائق، طُرح على التصويت قرارُ إضراب لهذا الصباح. و أُقرَّ بحماسة، ووقفت الصالة، وأنشدت نشيد الدوليّة.

عند الخروج أحست كاترين التي ألهاها المشهد عن نفسها، فجأةً انها غريبة في هذا الجمهور الذي تقاذفها. ستعود الى الليل مرة أخرى. استولى عليها الضيق لأنها ستنفصل عن فكتور. قالت له: «أين ستذهب الآن؟».

– الى النوم، من غير شك! وليس لدينا متّسع من الوقت للنوم لكي نكون مع الجماعة التي تسهر على تنفيذ الإضراب في السادسة.

تحطّم شيءٌ في كاترين. خجلت قليلاً من أفكارها. ماذا راحت تتصوّر؟ الآن وقت المعركة، ولفكتور مهماته كمُضرب، وهي. . – قل لي، يارفيق، ألا يمكن أن أكون صالحة لشيء؟ في الإضراب؟ أليس هناك ماتقوم به امرأةٌ تعطي وقتها. . تردّد فكتور ولم يجد ما يكلّفها إياه. فألحت كاترين، لتضع نفسها تحت تصرّف المضربين. كان في صوتها توسّلٌ. أحسّ فكتور بذلك جيداً، ولعله من أجل ذلك قال: «طيّب تعالي هذا الصباح، نحو التاسعة، شارع «كافيه»، في دار النقابات. فربما. . » أما هو فسوف يصفّ سيارته قبل العودة. ومع ذلك عرض عليها ان ينقلها الى بيتها. دون قناعة في الحقيقة. وقد كان لها مايكفي من الذوق لترفض ذلك.

عندما انصرفت سيارة «وسنر» الحمراء الصغيرة، ظلّت كاترين على الرصيف تنظر إليها وهي تبتعد نحو «باربيس». وانطلقت سيارات أخرى في شتى الاتجاهات، وتفرّق جمهور الاجتماع. أمرها بالمضيّ شرطيٌّ بكلمات بذيئة. تفرّست فيه، وهي مدهوشة. وتذكرّت فجأة أنها بلا قبعة، في الساعة الواحدة صباحاً أمام «بورصة العمل».

- ٦ -

نال البارون «ديبوش» لقبه من الامبراطور عام ١٨٦٦، في الصفقة التي عقدتها «مدينة باريس» واستعادت بها الامتياز الفعلي الذي منحته إياه قبل بضع سنوات.

لم تعد العربات الرجاجّة التي كان الملاكون الصغار يجرجرون بها في باريس الأجانب وأهالي العاصمة، تتناسب مع عظمة الملك: لقد استقبل هذا الرجلُ ذو الاسم الطريف في البدء استقبالاً حسناً واستطاع ان يثير اهتمام عدد من أعضاء المجالس البلدية، بمشروعه عندما عرض شراء جميع العربات التي تجرها الخيول ليستبدل بها عربات بالأجرة تناسب أبّهة الامبراطورية. كان ذلك إبّان المعرض الدولي عام ١٨٥٥ واضطرُ الملاكون الصغار والحوذيون الذين يملكون عرباتهم أو مركباتهم المكشوفة الى بيعها بسرعة وبالسعر الذي فرضته شركةُ «ديبوش». وهكذا ابتاعت الشركةُ ثلاثمئة عربة مّما منحها السيطرة على الشارع الباريسي. غير أن عدة جماعات مالية أخذت تضغط، عشية معرض ١٨٦٧ الكبير، وبعد أن اصبحت حركة السير في باريس أكثف وأربح، على المجلس البلدي من أجل تصفية تلك الشركة ذات الامتياز، ولكي يُتاح لها إنشاء شركات جديدة تتاقسم زبُن العربات.

كان لابدّ من أجل ذلك من استعادة الامتياز الممنوح وشراء عربات شركة «ديبوش» التي لم تكن تقلّ آنذاك عن ثلاثة آلاف وخمسمئة. كان المبلغ المطلوب كبيراً، فاستدانت المدينة عندها مبلغاً لمدة خمسين عاماً. وفوق ذلك كله قرّرت ان تدفع له لقب «بارون» وهو لقبٌ لم يكلّفها شيئاً.

بعد أن باع البارون الجديد شركته ذات الامتياز، أسّس شركةً جديدة هي: «الشركة العامة لعربات الأجرة» وظل يستثمر حركة المرور، وكأنه لم

يبع شيئاً. والحق انه كان يتقاسم عملاءه مع ثلاثة شركات أو أربع وظفّ فيها باسمه شخصياً أو بالوساطة وبشكل جدّ مربح المال الذي قبضه من مدينة باريس.

كانت الشركة العامة هذه هي الأكثر ازدهاراً والأمتنُ بين بيوت عربات الأجرة في باريس. كان لها رأسمال لايني يتنفخ حتى بلغ ٣٥ مليوناً في ١٨٩٦، وهو التاريخ الذي كان فيه رأس المال هذا يتمثّل في الجزء الأكبر منه، بأراضٍ وعقارات. والحق ان هذا الرقم ٣٥ مليوناً يقابل التقدير الاسمي لأملاك الشركة، حسب خبراء لامثيل لفطنتهم. وكانوا سيعرضون أنفسهم للحقد لو خمّنوا تخميناً باهظاً ثروة، مكينة من غير شك، لكن مالكيها يقدّرون عالياً دون شك الضرائب المنخفضة والعائدات المكتومة.

مات البارون ولم يعد اسم «ديبوش» يوقظ سوى ذكرى دعابة خمدت مع أول أيام الجمهورية. وغدت مصائر الشركة بين يدي ماليّ كبير، وإداري بارع، هو جوزيف كينسيل. الذي أتاحت له إدارته إنشاء ثروته العقارية وغير المنقولة.

كان جوزيف كيسنيل ديموقراطياً، وكان يُعلن ان الشغّيلة لاينبغي ان يُحرموا من أرباح مشروع يسهمون في ازدهاره. ولذلك كان، لدى كل زيادة في رأس المال، يحتفظ دائماً بأسهم ليتيح لحوذيي الشركة ان يوظّفوا وفرهم الطفيف في الدار.

وأصبح الحوذيون القدامى الذين شهد بعضهم زمن البارون «ديبوش» والفخورون بأنهم من المساهمين، والواعون لوحدة مصالحهم ومصالح «دارهم»، أصبحوا بين رفاقهم المدافعين عن هذا السلم الاجتماعي، الذي كان سيسود في كل مكان، كما يقول جوزيف كيسنيل لو لم تكن سلطة أرباب العمل اللاانسانية والعمياء هي العدو الأول لذلك السلم.

كانت أزمنةً بريئة لم تشهد فيها «الشركةُ العامةُ» أي نزاع داخلي!

لاشك ان هناك مَنْ هو صعب المراس، ولابد أحياناً من التخلّص من حوذيّ كثير الحركة والصخب. لكن الأمور لم تكن تمضي الى أبعد من ذلك. ولم يكن يخطر للآخرين ان يتضامنوا مع هذه العناصر غير المرغوب فيها التي تُستبعد بسرعة. في سنة ١٨٦٥، في أواخر أيام شركة «ديبوش» حدث إضراب، لكن البارون قمعه وأحال لجنة الإضراب الى المحاكم.

كان جوزيف كيسنيل يعمل على مدّ شبكة علاقات الشركة الى أعمال تجارية عديدة كلما نمت الشركة، وجمّعت رأس مال يتعاظم، لا بفعل اصدارات أسهم جديدة، بل وأيضاً بادخار أرباح يوظفها توظيفاً له مستقبل عظيم. كان يُحسن في الفروع المُنشأة لاستغلال الأراضي، في الصناعات الغذائية الصغيرة في الأقاليم، في منظمات النقل المشتركة في الأرياف، الخ. ان يجتذب أناساً نافعين، مشاركين في مشاريع كبيرة، بأن يدخلهم في مجالس الإدارة التي كانت «الدار» القديمة تبسط سيطرتها عليها.

وفوق ذلك، أدرك هذا الرجلُ العبقري، بنفاذ بصيرته، أن النزاعات قد تولد ذات يوم مع الحوذيين ومع الشركات المنافسة على حد سواء، بسبب تطوّر الأساس نفسه لهذه الصناعة الباريسية؛ وبما انه كان يعلم أنه لايمكن الاعتماد في الشدائد على المجلس البلدي، المتغيّر، الخاضع للمد والجزر الانتخابيين، هذا مع أن الحصول على دعم هذا المجلس باهظ الثمن، فقد أصدر كيسنيل القنسائم ذات الربح لكي يربط «داره» بقيادة الشرطة، بألف طريقة. وكانت الدار هي التي تقدم لرؤساء الأقسام في «كي ديزو فيفر» لا العربات التي يحتاجون اليها في مهنتهم فحسب، لكنها كانت تقدّم أيضاً طاقماً يقود السادة المفتشين مع نسائهم الى «ميدون»، ولايُعلم ان ذلك قد جرى من قبل بل لقد كان لكبار الموظفين طواقم جميلة لاتُشعر إطلاقاً بأن هذه العربات مؤجّرة.

استمرّ هذا التقليد الى أن طرحت الشركةُ، في مطلع القرن العشرين – والتقدّمُ مُلزمٌ– في شوارع باريس اولاً سيارات الأجرة الأولى، التي

استلزمها انخفاضُ الأرباح غداة المعرض العالمي عام ١٩٠٠ الذي ارتفع بمناسبته ايضاً عددُ العربات في باريس، مراحل جديدة لطرائق عمل جديدة، ثم السيارات، سيارات «وسنر». وهذه السيارات هي التي امتلكتها أقسامُ الشرطة بفضل جوزيف كيسنيل. وكان من الواجب دعم هذا الصناعي الشاب والجريء الذي أخذت الصحفُ تكيل له المدح والذي أعطى صناعة السيارات الفرنسية المركز الثاني في العالم بعد الولايات المتحدة. لابد من القول ان قد كان في مجلس ادارة وسنر صانع السكر الكبير «جيلسون كيسنيل» ابن أخ «جوزيف كيسنيل» العجوز، وشخصيات شتى، سفراء ووزراء سابقون، ترد أسماؤهم ايضاً في شركة كينسيل العقارية التي كانت تهيمن على حيّ «الانفاليد»، وفي شركة أراضي الدائرة الثامنة عشرة.

عندما لزم تحديثُ المعدات، اقدم جوزيف كيسنيل على زيارة جديدة لرأس المال. ونُشر إعلانٌ منهجي بهذه المناسبة بين الحوذيين: إن المشروع سيتخذ أبعاداً هامة، وسيكونون بلهاً إن لم يستغلوا المناسبة التي تعرض لهم. تعاونُ العمل ورأس المال. سوف تُؤمَّن شيخوختهم؛ وهكذا لملموا آخر وفرهم، وأسهموا في دفع ثمن الآلات الجديدة التي نبذتهم وجيادهم الرديئة، على الأقل أولئك الذين لم يستطيعوا ان يتعلموا مهنة جديدة وأن يصبحوا سائقي سيارات.

لم تعد شروطُ العمل الجديد شبيهة تقريباً بتلك المغناة البريئة القديمة. إن سيارة الأجرة قد ربطت ربطاً أوثق الحوذيين والسائقين بالشركات إذ فرضت عليهم رقابةً تقرّب مهنتهم من مهنة العامل في المصنع. وفضلاً عن ذلك، فمع تعقيد الرسوم على الأمتعة والرسوم خارج الحواجز، ورسوم العودة، والسعر المضاعف مرة أو مرتين، بحسب عدد الركاب، أصبحت سلسلة كاملة من الغش ممكنة؛ وفي وجه هذا الغش اتفقت جميعُ الشركات، وتعاضدت ووقَتْ نفسها بدعم شرطة العربات، وبإنشاء، نظام واسع للتجسّس: عينت تلك الشركات رجالاً موثوقين، ممن أُعيد تعيينهم من

المقيمين في المستعمرات، ومن المتقاعدين ومن الشرطة القدماء، وكُلّف هؤلاء مهمة بسيطة جداً وهي أن يسجّلوا في المحطات، وعلى أبواب باريس، أرقام السيارات المارة وعدد الركاب فيها، والأواعي المحمولة. وهكذا يُؤخذ الغشّاشون بالجرم المشهود. وكذلك الذين يسيرون بسياراتهم ومعهم ركابٌ لم يدفعوا. فيُطردون. وبما ان التنظيم عام بين الشركات فقد كانت تستفيد بعضها من بعض بعد أن تُحرّر القوائم. وهكذا يُحرَم الغشاشون من العمل لدى اتحاد الشركات.

ثم إن السيارة آلةٌ كلما سارت ازداد مردودها. وهي لاتتعب أبداً. وليست كالجواد الذي تحدّ مقاومته الفيزيائية يوم الحوذي. يوم سائق السيارة لايحدّه شيء حتى ولا القانون.

كان إدخال سيارة الأجرة في باريس على يد «الشركة العامة» فكرة شخصية لجوزيف كينسيل، رجل الأعمال الجريء. لكن السيارات التي طُرحت منذ ١٩٠٥ سرعان مالقيت مزاحمة. ونشأت شركاتٌ جديدة لم تحمل معها الوزن المعطل الذي لعربات الجياد. وجرى التسابق على الملاكات. ففي سنتين كان ارتفاع عدد سيارات الأجرة مثيراً للدوار. وفي الوقت نفسه كان لابد من اختيار ملاك تام من السائقين حلّ في باريس آتياً من أعماق المقاطعات حاملين معهم أوهام المهنة الجديدة والعصرية.

كانت أرباح الشركة تتزايد مع ازدياد عدد السيارات. لكن جوزيف كيسنيل رأى منذ ذلك الوقت حدود امبراطوريته. فاتّخذ التدابير ليتفادى مخاطر الغد.

منذ ١٩٠٨ أسّس باتفاق أمضاه مع أضخم الشركات المنافسة اتحاد الشركات الذي يلغي عملياً أخطار المزاحمة. زالت حربُ الأسعار. ولاسيما وسيلة الضغوط الضرورية بخطوات باهظة الثمن، على مجلس بلدية باريس الذي أُنيط به تشريع السيارات ورسوم المرور. وكان لهذا الاتحاد، من جهة ثانية، مزية أخرى.

لقد نظمّ هذا الاتحاد في مرائب السيارات بيع الوقود للسائقين. فإضافة الى ٥ر٧٢ بالمئة الذي يحمله السائقون من مدخولهم اليومي، ستنضاف هذه التجارة الجديدة. وتمّ الاتفاق بين الاتحاد و «ستندارد اويل». وجاء العقيد «موريس» وهو ثقةٌ لدى هذه المؤسسة القديرة، خصيصاً الى باريس ليمضي اتفاق استيراد البترول، ولينظّم أسواقه. وقد تكونّت شكلاً جميعةٌ فرنسية برعاية وسنر. وفي مجلس الإدارة تلاقى اللواءُ حاكم باريس، وهو أحد زعماء الحزب الاشتراكي القدامى وقد صار وزيراً، وكانت تربطه بجوزيف كيسنيل صداقة قديمة، ووحدة المشاعر الديمقراطية؛ وممثّلو «ديسكونتو بانك» برلين و «دوتشه بانك»، والمصارف الفرنسية الكبرى؛ وجيسلون كيسنيل، ووزيران؛ الحاصل أنها كانت جمعية قوية. في العالم بأسره. ولم تكن سوق البترول مؤمّنة إلا على يد «ستانداردواويل» وقد وقعت هذه اتفاقاً مع خصميها القديمين «نوبل» و «روتشيلد» والى جانب بترول أمريكا، وردَ بترولُ رومانيا وروسيا. وهكذا فإن آبار سيمونيدزيه، في باكو، وفّرت البترول لاتحاد الشركات بواسطة المصرفيين الألمان أصدقاء وسنر.

بيد أن هذا المشروع الباهر الذي كان يبيع السيارات كل يوم نحو ١٥٠٠٠٠٠ ليتر من البنزين في باريس وحدها، اصطدم بعدوٍ غير متوقع هو: البنزول.

فمنذ بدايات السيارة كان هناك معركة بين البنزول والبترول، لكن كان يُستخدم البنزول خليطاً مع البنزين بواسطة نوع من «التروست» توصل معها أخصائيو البترول الى تركيب الخليط. وكان البنزول أرخص من البنزين. وبالرغم من الأدب العلمي الغزير الذي يحاول ان يَصْرف السائقين عن استخدام البنزول، فإنهم فكّروا في استخدام البنزول الصافي. ولم يتأثر سير السيارات بهذا الاستخدام، وبالرغم من العلم. لكن ذلك أوشك أن يسبب

الدمار لاتحاد الشركات، الذي كان ينفق نفقات ضخمة، والذي كان يطرح دائماً سيارات جديدة، ويعرض نفسه لخطر هو ان يجد نفسه ذات يوم أمام مخزونات وفيرة واقفة، واتفاقات ليس بوسعه مواجهتها.

لكن خطرت فكرة لعضو من أعضاء المجلس البلدي تناول عشاءه في منزل «ديان برونيل» في إحدى أمسيات عيد الفصح، حيث كان الحضور يتعانقون تحت كرة هدّال البهو، ان مدينة باريس قد نهبها السائقون، لكون البنزول يُفلت من الرسم المفروض على البنزين. وفي حمّى الإلهام وعجلته حرّر تقريراً. مشروع مرسوم قبل عيد «سان سلفستر». ومنذ أول كانون الثاني، أقرّ المجلس البلدي رسم مئة فلس على البنزول، ومن هنا ظهر النزاع ١٩٩١ بين السائقين وأصحاب العمل.

وفي الوقت الذي أصبح فيه هذا الرسم نهائياً، وكان قد صُوّت عليه أولاً بصفة مؤقته، أي نهار الثلاثاء ٢٨ تشرين الثاني، انفجر الإضراب. ورداً على الرسم المفروض على البنزول طالب السائقون من أرباب العمل الذين كان على السائقين ان يؤدوا لهم سلفة على البنزين للنهار كله، بزيادة بالمبلغ المقتطع الذي يحتفظون به من الدخل: وكان قصدُ السائقين ان يحتفظوا بـ ٣٣ بالمئة من الدخل بدلا من ٢٧ر٥ بالمئة، لم يكن ربحهم يتجاوز باعتراف الصحف، ٨ر٥ فرنكات. أما مع ٣٣ر٥ بالمئة فسوف يربحون ٩ر٧٥ فرنكات.

من أجل خمسة وعشرين فلساً ابتدأت المعركة.

لكن النزاع على رسم البنزول لم يكن سوى مناسبة للصراع الذي باشره أربابُ العمل من قبل. وكان هؤلاء يقاتلون منذ زمن بعيد لكي تنتصر دعواهم التي تذهب الى أن السائقين ليسوا مستأجرين: وغايتُهم تفادي عواقب القوانين الاجتماعية التي تجعلهم مسؤولين عن الحوادث. وكان قانون المعاشات العمّالية. الذي صُدّق قبل فترة وجيزة يحتّم على اتحاد

الشركات الذي أراد ان يتملص منه، ان يحطم نضالية السائقين التي برزت حديثاً في سلسلة من المناوشات السيئة الطالع.

قرّر اتحاد الشركات إذن شنّ حرب لارحمة فيها على السائقين.

- ٧ -

منذ صباح الثلاثاء، كان الإضراب شبه عام. وفي المناطق التي تشرف عليها فرقةُ المضربين أُقنع المترددون. لم تخرج عربةٌ من مرأبها، من «لافرانسيز» الى «ليفالوا» ساحة «كولانج» وشارع «بودان». وسارت الاوتوفياكر» مثل رجلٍ واحد. لم يسق أيُّ سائق من شركة العربات العامة ولا من شركة مركبات الأجرة. ولم يجر الاتصال بسائقي «الاورين» و «الميتروبول» : تُرك أمرهما للنهار.

في الصبيحة نفسها، استسلم كثيرٌ من المؤجّرين ومن الشركات الصغيرة التي لم تكن داخلة في اتحاد الشركات، وقبلوا بالنسبة ٣٣ بالمئة. أثار الإعلان عن هذه الانتصارات الجزئية الحماسة في الاجتماعات المحلية: لكن سائقي البيوت الذين كفوا عن المقاومة لايمكنهم ان يرفضوا العمل؟ قُبل الاقتراحُ الذي قدّمه «فيانيست» في الليلة السابقة باسم النقابة: على الذين يسوقون سياراتهم ان يدفعوا كلّ يوم مئة فلس لجمعية الإضراب مساندةً لرفاقهم ولكي يُميزوا عن الصفُر[1]، سوف يتسلّمون بطاقةً تعلّق في السيارة وتكون في متناول النظر. الصفرُ، كم كان عددهم؟ من ثلاثمائة الى أربعمئة.

بعد كل حساب، كان عددُ المضربين ٦٥٠٠ مضرب، ومن ١٨٠٠ الى ٢٠٠٠ الذين كانوا يسوقون سياراتهم ويدفعون ضريبة تُقدَّر بنحو ١٠٠٠٠٠ فرنك من أجورهم. وصحيح ان هؤلاء كانوا أقل من الربع في

---

(1) الصفر: مقاومو الإضراب.. المترجم

المدينة من المجموع الجاري وأن أيام العمل كانت من ثمّ أسهل وأفضل. لكن إذا فكّرنا ان متوسط مايعود الى السائقين لايبلغ عشرة فرنكات مع ٣٣ بالمئة الى نسبة دخل ماقبل الإضراب، علمنا ان هذه الفلوس المئة خسارة قاسية.

في دار النقابة في «ليفوالوا» شارع «كافيه» قُبلت مساعدةُ كاترين، بعد شيء من التردّد. قامت بدور أمينة السر المتطوّعة كانت تصنّف البطاقات. وتسجل طلبات المعونة لمن لهم أُسرٌ. كانت تقوم بشيء من كل شيء: كانت تحملُ إليها أخبار المراثب، وتحلّ الخطوط في أوراق صغيرة مدعوكة، خالية من الإملاء، تستخرج منها ثلاثة أسطر أو أربعة للتقرير المقدم كلّ يوم للجنة الإضراب المركزية. كانت تحضر كل صباح منذ الساعة التاسعة وهي غير مدهوشة من هذه الحياة الجديدة. كان «الاوتوبيس» يُنزلها من مونبارناس الى ساحة «بيرير». ومنها تستقل حافلة كهربائية رجّاجة فيها طبقة علوية، حافلة آتية من «المادلين»، وكانت تُميز عن مثيلاتها بأن لافتتها (لامادلين – ليفالوا– بيريه) على أرضيّة خضراء. كانت تتسلّق الى الأعلى بالدرج الصغير الضيّق؛ فقد كان في الأسفل، في الداخل رائحة الحمض الكريهة التي تنبعث من المدخرات وتجعلها تسعل. كانت كأنها غبار كثيف ينبعث من مقاعد الجوخ الأحمر المصغر التي أنصلها مرورُ السنين.

كان فكتور يأتي نحو الظهر على العموم، ليأخذها الى الغداء. وكانا يأكلان في مقهى صغير جنب دار النقابة، على رخام طاولة طويلة يجلس حولها أصدقاء ومجهولون بلا تكلّف. وكانت لائحةُ الطعام التي أسال فيها خلٌّ المزيتة وهو يقع حبر النسخ البنفسجي، خالية من الأطايب، ثم إن البصل في كل شيء! لكن كان هناك الحديث، وذلك القبول السريع، الخشن والودّي الذي لقيته كاترين من فورها. كانت تعمل من أجل الإضراب، أليس صحيحاً؟

جاءت مرة الى فرقة المضربين، في ساحة «كولانج»، لترى كيف تسير الأمور. وبعد ذلك ظلت تحادث فكتور ساعتين كاملتين. كان غريباً مع ذلك

كيف كفلها أمام الآخرين. لعله لم يكن جاداً. كان يثق بها: لقد أنقذ حياتها كانت الأمور في «ليفالوا» تجري بكل سهولة، أما في مرآب «شارون» في باريس، فقد أشير الى جواسيس فيه. كان على «ديهاينين» ان يقصده نهار السبت صباحاً، ليمد يد إلى العون الرفاق. وستكون هناك رياضة «أتقبلني هناك»؟ تردّد. لم لا، في نهاية المطاف؟ كان يشعر بالمودّة إزاء هذه الآنسة التي غدت بكل سذاجة رفيقةً. سيُريها ماذا بوسعه ان يفعل.

لقيته في المطعم الصغير، مقابل المرأب، . كان هناك جماعةٌ من اسائقين يتناولون قهوة ممزوجة بالخمر.

في الصباح الباكر، كانت تُشاهد في الجانب الآخر من الجادّة، أمام المرأب، جماعة داكنةٌ من الشرطة. كان فكتور يحادث شخصاً طويلاً أحمر الشعر قدّمه لكاترين، «باشرو» من المرأب المقابل. كان يُقال ان الشركة، نوّمت في المرآب «الصُفر»[1] لكي لايُمنع السائقون من الوصول الى المرآب.

في هذه الأثناء، في الخارج حشرت جماعةٌ من الرفاق احدهم واقتادوه الى المقهى. كان شاحباً قليلاً. كان طاعناً في السن، حوذياً قديماً شارباه رماديان. كان يشعر بالضيق. وعندما دخل نظر الى الذين كانوا على المكتب. التقت عيناه القلقتان عيني كاترين.

«إذن، ماذا تشرب؟ لا حاجة لك الى مثل هذا القلق، أيها العم. سنتحدث قليلاً فقط. هلا تناولت كأساً.

نظر صاحب المطعم نظرة استفهام. فقال العجوز: كأس قهوة بالكحول، وكأنما قالها على مضض.

كان الآخرون يكلّمونه عن قرب ربما، لكنهم أميل الى السخرية منهم الى أي شيء آخر. وناقشه الشخص الأحمر الشعر الذي كان يعرفه، في

---

(١) الصفر: الذين يقاومون الإضراب. - المترجم

الأمر. مهلاً ليس ذلك جدّياً، بعد أربعة أيام من الإضراب. . سيذهب جهده سدى في الحقيقة. ألم يصوّت على المعركة كالآخرين؟ خفض العجوزُ رأسه. إن له صبيةً. وامرأته مريضة. الصبيةُ ليسوا صبيته بل أحفاده، أولاد ابنه الذي في المستشفى، وهو أرمل. لقد تسلّم عشية امس من الشركة رسالة تُخطره ان الإضراب انتهى بالقوة، وسوف يُستأنف بالفعل: وسوف يُسرح قادةُ الإضراب. وعليه ان يبرهن على ذلك ببادرة حسنة. .

بسط الورقة. انحنى الجميعُ على هذه القصاصة الحقيرة التي بعث بها ربٌّ العمل، بين اليدين العاجزتين المرتجفتين. قال باشرو: «أعطني هذه الورقة، سأوصلها الى لجنة الإضراب المركزية. . » مدّ العجوز اليه الرسالة. لقد عقد العزم: هزُ رأسه وقال فجأة: طيّب، لا. لن أذهب.

لم يكن الأمر بهذه السهولة مع الآخرين. ففي الجادّة كانت جماعةٌ تناقش بشدّة سائقاً طويل القامة، يريد ان يمرّ بأي ثمن، وكان غاضباً. وأخذ رجال الشرطة في الجهة الأخرى يتحركون. قالت الجماعةُ له: «ألا تخجل؟ تستدعي الشرطة ضد رفاقك؟ -دعوني امرّ، قلت لكم إني لا أبالي بإضرابكم. يجب ان آكل، أنا.

كان لابدّ من أن يشرحوا له ان دخول المرآب ليس مهماً: إذ عليه ان يخرج منه، ولايمكنهم ان يضمنوا له ماقد يقع.

ومن ناحية أخرى ان كان في الداخل صُفُرٌ فمن المقرّر ألا يخرجوا. وحوالي الساعة الثامنة، فُتح البابُ فجأة وفرّت سيارتان. تبين حينئذ أن في جادّة «شارون» ثلاثمئة مضرب ونيفاً. بدت العربتان مثل فأرين تركا جحرهما ليصيرا فجأة في الهواء الطلق وسط غرفة ملأى بالناس. ترددت السيارتان، ودارتا، ثم ذهبتا في اتجاهين متقابلين.

خرقت صفاراتُ الشرطة هواء الصباح. وبينما كان رجالُ الشرطة يهجمون على المتظاهرين، تعالت في اللحظة نفسها تقريبا ضجةٌ عظيمة لزجاج محطَّم ذلك أن إحدى السيارتين خطرت لها فكرةٌ غير مؤاتية وهي أن يترك الجادة، فطارت إليها الأحجار من زاوية الشارع.

حوّمت الشرطةُ على نفسها، مثل جماعة من الذباب الأزرق. كانت تبدو كأنها تبحث عن فريستها. لكن الثعلب لاذ بالفرار. وما كانت كاترين تنظر من خلال زجاج المقهى، الى رجال الشرطة الذين كانوا يفتّشون أرجاء المكان، وهم لايعلمون إن كان عليهم ان يدخلوا الدكان، وعلى مَنْ ينبغي لهم ان يلقوا القبض من المارّة الكثيرين، ممّن يعرفون بسترهم المهنية. فطنت تلك الشابةُ فجأة الى أن «فكتور» و «باشرو» لم يكونا بجنبها. ثم إذا برجال الشرطة يستديرون حول أنفسهم مرة أخرى ويولّون مسرعين نحو الجادة. خرجت كاترين لترى.

على بعد مئتي متر، في وسط الطريق، كانت السيارة مقلوبة على جنبها بشكل يدعو للاحتقار، وقد أخذت تشتعل مع دخان أبيض. وكان مايقرب من خمسين مضرباً ينسحبون على طول الجادّة منحرفين الى اليمين والى الشمال. وقرب السيارة، كان الأصفر الذي ألقي به أرضاً من مقعده، ينظر، كالأبله الى النكبة. كان رجال الشرطة من حوله يلوّحون بأيديهم، وهو يجيب بصعوبة رافعاً ذراعيه الى السماء. لم تحسن كاترين ان تراه، من موضعها، لكن لاشك أنهم قد أذّيوه، إذ كان يفرك وجهه برفق.

حينئذ شاهدت «باشرو».

كان معتلياً جدار المرآب، وقبضته مرفوعة، وعمرتُه موضوعةٌ موارِبة. وهو يكلّم الذين في الداخل. وعبر الشوارع كان يُسمع صراخُه. انتهز ذُعر الشرطة التي لم تترك أحداً عند باب المرآب. كان فكتور عند أسفل الجدار. لاشك أنه جعل من نفسه سلّما له. كانت قبضتُه ملوّحة وهو فوق

يُقطّع الجمل: لن يدوم ذلك طويلاً. عادت الشرطة. وثب «باشرو» الذي شدّه فكتور بقدمه. انسحب الرجلان بأقصى سرعتهما. وانقضّ الشرطة عليهما؛ لكن في هذه اللحظة، كانت جماعة من السائقين تجتاز الطريق، بما يشبه المصادفة. لعلهم كانوا يمضون بهدوء الى المرآب.. فخفّف ذلك من اندفاعة الشرطة.

التقت «كاترين» فكتور في «ليفالوا». سيذهب السائقون في اليوم التالي، الى جنازة الزوجين «لافارغ» في وفد. هل تأتي؟ تواعدا على اللقاء.

- ٨ -

في نحو العاشرة، حلّتْ «مارتا» على حين غرة، في شارع «بليز ديغوف» كانت كاترين قد نسيتها: لايكاد يُصدق ان كاترين قبل ثمانية أيام عادت الى باريس حباً بهذه الرعناء ليس غير.

من جهة أخرى كانت الأمور تتحسّن: اتّضح كل شيء مع «جورس دي هوتين». قاضي تحقيق غبي. ومفتش شرطة أراد ان يظهر حميّةً. ذهب جورس وقابل «كليمنصو» الذي كان يعرفه جيداً، ويعلم أية خدمات قدمها الهولندي في بعض المناسبات للقضية الفرنسية، وتدخل كليمنصو لدى وزير العدل.

لم تُناقش قضية الموتى. جعل اسم كليمنصو كاترين تقطّب حاجبها. مادخل سفّاح «فيلنيف سان جورج» في ذلك؟ لماذا حمى تاجر المخدرات؟ لقد أخذت تسمي في ذهنها بهذا الاسم «جورس دي هوتين». ولاشك ان ذلك بسبب كليمنصو أكثر مما هو عن يقين. ومع ذلك كله، عليها أن تلتقي فكتور ووفد السائقين عند مخرج الميترو «آر اي ميتييه» في الثانية عشرة والربع. كانت ترتدي ملابسها وهي تصغي نصف إصغاء الى «مارتا»، لن

تأتي الى الغداء في «شان دي مارس». تخلّصت من صديقتها الوحيدة، ووصلّت قبل الموعد بأكثر من ربع ساعة، وكان الطقس رديئاً.

كان المضربون يشكلون رتلاً من حوالي ثلاثمئة سائق. كان باشرو مع فكتور. وفي ذراع فكتور امرأةٌ قصيرة سمراء فتيةٌ؛ قدّرت كاترين فوراً أنها كانت ستغدو جميلة لو رتّبت نفسها. أجرى فكتور التعارف. صديقتي؛ الرفيقة كاترين التي حدثتُك عنها.

كان شيئاً مضحكاً تلك الرغبةُ في البكاء. لم تتساءل كاترين، أثناء هذه الأيام القليلة، ان كان في حياة «ديهاينين» أحدٌ. ذلك لايخصّها. فهي لم تكن مغرمةً به. كانت «جانيت برنار» تعمل في شارع «السلام»، عند «وورث». ذكّر هذا الاسم كاترين بالأبهة القديمة للسيدة «سيمونيدزيه» أمها. كانت جانيت ترتدي ثياباً وفق الدرُجة الجارية، مثل كاترين، ومع ذلك فلا سبيل الى الخلط بينهما، فمن أول نظرة وضع اللباس بين المرأتين عقبة كأداء. بيد أنهما ما لبثتا ان ألّفتا جماعةً مستقلة بين السائقين، وكان فكتور ينظر إليهما معاً بشيء من الاعتزاز. لم تكن جانيت أقل جمالاً من كاترين. كانت تضع قبعة جديدة، عريضة الحواشي، مع كمية من التول الأسود المدعوك مما كان يسمى حينئذ «التغييم». التقت فكتور منذ أكثر من سنة.

كان المطر يهطل. لم ينقطع منذ الصباح، لاريح، لكن ضبابة متغلغلة. مع زخّاتٍ دورية باردة. بلغ الرتلُ شارع «التامبل» عن طريق شارع «فونتين». كان ثمة حاجزٌ يغلق شارع «ديبيتي توار» عن المرور، حيث ازدحم شارع «كورديري» حتى شارع «فرانش كونتيه». بدا لكاترين ان الجمهور ضخمٌ: ربما كان هناك خمسة عشر الف شخص. لم يكن «باشرو» مسروراً.

« عددٌ بائس. أنت ترين أن ثمة خلقاً كثيراً؟ ليس ها هنا سوى قلة

قليلة. ماذا؟ خمسة عشر الف شخص في باريس، قلت لك ان هذا العدد بائسٌ. كان في برلين اربعمئة ألف عند دفن أحد العمال. وهنا، من أجل لافارغ، من أجل لافارغ، عجباً تصوّري!».

كان المطر يهطل، وهذا هو التفسير. بل إنه لشيءٌ مستغرب ان يأتي كل هؤلاء الناس في مثل هذا الطقس. همهم «باشرو»: «نعم؟ ولو كان الطقس حسناً لقلت إن العامل يذهب الى الريف في مثل هذا الطقس».

كان الجمهورُ العمّالي يزدحم خلف شرطة النظام. لم يُشاهد أيُّ شرطي. كانت عربتا النعشين تنتظران في شارع «لاكورديري». أخذ الموكبُ يتكوّن. أخذ السائقون أماكنهم وقادوا الموكب. كان في المقدمة موسيقا وطائفة من الأعلام الحمراء قرابة خمسين. كانت هذه الأعلام، في الشارع الضيق، تحت المطر كالشعُل المدهشة فوق ثياب سوداء. وكان ثمة جماعةٌ بثياب رسمية لم يكونوا عمالاً بل قادة. انحنى فكتور على جانيت ليريها «لونغيه». هتف الناس للمضربين أثناء مرورهم. وكانوا يضعون زهرة نسرين في العروة أو الصدارة. اشترت «جانيت» اثنتين من بائع وعلّقت واحدة لكاترين. التقت أعينهما وهي ترتفع عن زهرة الورق: وأحست كاترين بالتأثر الشديد.

دفع «باشرو» بمرفقه فكتور. المندوبون الأجانب. نظرت كاترين. تعرّفت الانكليز من أول نظرة. وكان هناك جمعٌ غفيرٌ من الروس. اهتمت كاترين بهم، على الخصوص. في الصف الأول امرأة جميلة جداً لم يستطع أن يقول لها فكتور مَنْ هي. قال أحدهم إنها المواطنة «كولونتاي» التي تمثل المكتب الأجنبي في الحزب الاشتراكي الروسي. كانت تتكلم مع شخص قصير ذي وجنتين بارزتين وشاربين شقرتُهما حمراء. فكرت كاترين في أمها الهاربة من روسيا، وفي العبودية الزوجية. تطلعت الى تلك المرأة الشابة التي ندبها حزبٌ ثوريٌ عظيم الى عاصمة أجنبية. انتابها احساسٌ غريب، وشدّت على ذراع «جانيت». قالت هذه «إنها لامرأة جميلة، أليس كذلك؟

لعل للجمال يداً في ذلك. لكن فكرة مستقبل المرأة الاجتماعي، بخاصة هو الذي ألهى كاترين عن وحش الغيرة المرير. كانت تتهاوى فوق الرؤوس لوحاتٌ. أقسام الحزب الاشتراكي، المنظمات الاقليمية، جماعة بولونية. . عندما تحرك الموكبُ بصفوف اثني عشرية، مع حاملي الباقات أو الأكاليل الحمراء في مقدّمة الجماعات، انفجر نحيبُ الآلات النافخة. عزفت الموسيقا اللحن الجنائزي لشوبان.

كادت كاترين تُخاصم فكتور. ضايقها، ان يُعزف هذا اللحنُ بالذات. شوبان. شوبان. . لم يدرك فكتور ما الذي أحنقها.

- «مالها هذه الموسيقا؟ هي حزينة وهذا مايلزمنا تماماً. .» .

ربما كان ماكدّر كاترين ليس فقط استخدام هذا اللحن الذي تُدفن البرجوازية بل والملوكُ على أنغامه. لكن الثابت ان هذا التفصيل الصغير أفسد المأتم عندها. ولاسيما ان الموسيقا عزفت هذا اللحن وحده، دون انقطاع من شارع «التامبل» وشارع الجمهورية، وجادّة «مينيلمونتان» حتى مدخل البير لاشيز في مقابل شارع «روكيت». لقد اصطدمت كاترين بواحدة من تلك الصعوبات المعتادة مع الاشتراكية! ان قطعة من الموسيقا كانت تدفعها الى الاشتباه بكل شيء؛ كانت تشك بحزب يدفن موتاه على لحن شوبان الجنائزي.

تذمّر «باشرو» ايضاً: «خمسة عشر ألف شخص من أجل لافارغ. . إن حكومة أمامها مثل هذا العدد البائس يمكن أن تُبيح لنفسها كلّ شيء». كان «باشرو» يلحّ على ذلك. ألم تحمل صحيفة الصباح، كتحدٍّ وقحٍ للمضربين، إدانة مناضلين من النقابة من أجل مقالة تتهم عضو المجلس البلدي، مبتكر الرسم على البنزول، بأنه قبض مالاً من اتحاد الشركات؟ وفي اللحظة التي الجأ فيها هذا الرسمُ هيئةً كاملة الى الإضراب، منحت العدالةُ

البرجوازية شهادة شرف لهذا الوغد، وبعثت الى السجن «غنشار» من عمال النقل.

مقبرة «بيرلاشيز» مدينةٌ غريبة تُذكر فيها القصور المصّغرة المختلطة بقبور بائسة، بأبهة الموتى البرجوازية. ففيها تسهر ملائكةُ «سان سولبس» على اللوائح بأسماء طنّانة مثل مجالس الإدارة. مصرفيون من البرونز، سيدات من المرمر، مصلّيات هيلينية جديدة، مُنتحبات على مسلات مكسورة، ثيابٌ جوخيةٌ من الحجر، زفرات نظرية.

الأشجار السوداء على سماء رمادية. كان الموكب خلف عربتي النعشين المثقلتين بزهور الخالدة الحمراء، وبأعلامه يبدو كأنه يقطع لائحة طويلة من رؤوس الأموال والمداخيل على حصى الممرات الدقيق. كانت العربتان تسيران جنباً الى جنب. كان بين القبور هروب كمثل التسابق، للناس الذين يقصدون المرمدة.

ان طابع المعبد في هذا المنبى أيقظ فكر كاترين النقدي. مازالت السماء تمطر مطراً ناعماً. احتشد الجمهور امام المرمدة، وعلى درجاتها، وتكلم الخطباء.

أصغت كاترين بفارغ صبر الى الخطب الأولى. ضجرت من سماع «براك» وهو يترجم خطبة الألماني «كاوتسكي»، و «كاميلينا» وهو يترجم خطبة الانكليزي «كيرهاردي». كان ذلك هريراً لايعلّمها شيئاً. وتكلم أحدهم من أجل «الدولية»، وتكلم آخر من أجل الحزب الاشتراكي البلجيكي.. استمعت الى «فايان» العجوز الذي أيقظ اسمه هنا ذكرى «الكومونة» وآخر مقاومة «الاتحاديين» بين القبور.

سحبتْ «جانيت» الى الأمام لأنها أرادت ان تسمع ماستقوله الاشتراكية الروسية الجميلة بعد قليل.

ارتفع من المرمدة دخان ضارب الى اللون الرمادي. أخذت الريحُ

تخفضه كفطيرة فوق الحاضرين. وفجأة بدا على حملة الأعلام كأنما استفاقوا فرفعوا أحمالهم الحمراء، وانفجر التصفيق. وعلى درجات المعبد الذي سيحترق فيه جسدا الزوجين «لافارغ» ظهر رجلٌ ضخمٌ مؤثّر وملتح. لم تكن كاترين لتخطئه: فالكثير الكثير من الصور أشاعت هيئة جان جوريس[1] شعبياً. كانت معادية له، سلفاً. مبدئياً. كما كانت مع اللحن الجنائزي لوشابان. بخليط من الحق ومن الباطل، خليط يغلب عليه الباطل. فظاعة الولع بقائد ربما كان ذلك، خلافاً لما يمكن أن يُظنّ، رأياً مسبقاً آتياً من الأحاديث حولها: دون ان تعي ذلك أدنى وعي، ولسوف تثور لو صورحت به. ومع ذلك فإن للمقدّم «ميركورو» يداً في هذا الحذر إزاء «جوريس»، كانت ترى أن هذا الخطيب المشهور يفخّم كلامه.

كان كذلك فعلاً لكن كان فيه عنفٌ مُقنعٌ. وقد فعل الشدوُ الجنوبي لصوته فعله في كاترين، بالرغم منها: «.. لافارغ بحيويةٍ مزاجه، بفجاءات غضبة وسخريته، كان مسوقاً دائماً الى العمل المركزي للحزب بإخلاصه ومثاليته الدائمة التي لانظير لها، بتفكيره المتوقد للوحدة الاشتراكية».

مثالية دائمة! رغبت كاترين في الاحتجاج. لافارغ مثالي! دعْنا، هذا شبيه بشوبان، بما هو أسوأ.

«.. لقد ورث لافارغ من فكر فلاسفة القرن الثامن عشر الفرنسيين... ها قد مضى مئةُ عام، منذ «بابوفنا»[1] والاشتراكية في طريقها..

لم يفه بكلمة عن ماركس. فخّم جوريس بعض الشيء ضمير المتكلم الذي ألحقه بـ«بابوف». لم تتمالك كاترين نفسها من التفكير في ان الخطيب

---

(١) جان جوريس: الزعيم الاشتراكي المعروف. اغتيل سنة ١٩١٤. . المترجم

(٢) بابوف: اشتراكي وثوري فرنسي. (١٧٦٠ - ١٧٩٧). ونا ضمير المتكلم..

استبعد ماركس كألماني. ومع ذلك فقد خضعت لسحر ذلك الصوت: «. . من المستحسن ان يكون الأوائل حاضرين ليؤكدوا استقامة الثلم المخطوط . . » كانت الحماسةُ من حولها، معديةً. نسي الناسُ المطرَ.

بعد الضوضاء التي تلت كلمات جوريس الأخيرة، تكلّم الروسي الذي رأته كاترين، في شارع «دي بيتي توار» بحادث المواطنة «كولونتاي». واستمع الناسُ اليه بأدب. قال: «قبل ثورتنا بكثير، أثناء المرحلة التي سبقتها ومهدت لها، تعلّم بروليتاريونا الواعون، ديموقراطيونا الاشتراكيون، أن يعدوا لافارغ» أحد أعظم ناشري الأفكار الماركسية وأعمقهم. ان هذه الأفكار التي أيدتها تأييداً باهراً كل تجربتنا في صراع الطبقات، أثناء الثورة في روسيا وأثناء الثورة المضادة، كانت الراية التي التفّت حولها في صفوف منضمّة طليعةُ البروليتاريا الروسية، والتي استطاعت ان توجه ضربات شديدة للحكم المطلق، واستطاعت ان تدافع عن قضية الاشتراكية والثورة والديموقراطية، بالرغم من تردد البرجوازية الليبرالية وذبذباتها. . »

سألت جانيت جارها: «من هذا؟»

كان هذا هو مندوب الحزب الاشتراكي الديموقراطي الروسي، المواطن «لينين». تلاه المواطنُ «روبانوفيتش» باسم الاشتراكيين الثوريين. خطَر ببال كاترين فجأة البيانُ الرائع الذي أعلن فيه الاشراكيون الثوريون سنة ١٩٠٤ مسؤوليتهم عن مقتل الوزير «بليهف». وتذكرت تخاصمها مع «جان» اثناء غداء لهما، عند عودتهما من «كلوز»، حول هذا الموضوع ذاته. تكلم «روبانوفيتش» باسم الثورين الذين كانوا في أعماق سيبيريا، وكانت السجونُ السياسية تعذّب كاترين. فمنذ أكثر من سنة انتحر هناك أيضاً «ايغور سيرجيفتش سوزونوف»، أكان ذلك في «اركوسك»؟ لم تعد تعلم تماماً. بعد ست سنوات من اغتيال بليهف. لكن كاترين أقلعت عن التفكير في «سبيريا» لأن «كولونتاي» هي التي شرعت الآن في الكلام.

لم تعر كاترين ماكانت تقوله انتباهاً. وقد كانت خطبتها من ناحية أخرى موجزة جداً. تكلّمتْ عن الورود التي توضع على القبور، تكلمت عن زهور الخالدة الحمراء، عن مشاعر نساء روسيا الاشتراكيات. نساء روسيا الاشتراكيات.. وراء الكلمات كانت هذه هي اللحظة الأشد تأثيراً في نفس كاترين طوال النهار. نساء روسيا الاشتراكيات.. كانت هذه الكلمات خمرة حقيقية. لم يكن ذلك حلماً، فها هنا امرأة تتكلم باسمهن. جميع الصور الروسية التي قلّبتها في بيتها، منقوضة. الفلاحات المنحنيات أمام النبيل الروسي. النساء الحانيات أمام الأيقونات. نساء روسيا الاشتراكيات..

تكلم خطيب آخر. انهلّت فجأة عاصفةٌ من المطر، عنيفة الى الحدّ الذي هرب فيه الناس جميعاً منها. ظل الخطيب على درج المرمدة، وسط الأشجار السوداء، وارتفع فوق رأسه في شآبيب المطر، دخانٌ متكاثفٌ.

- ٩ -

لعل كاترين حين قدّمت نفسها لفكتور من أجل مساعدة المضربين، قد كونّت لنفسها فكرة عن الإضراب وعن ديمومته الممكنة: على الأقل لم تكن المسألة مطروحة. لكن بعض مضي خمسة عشر يوماً، غدت رحلتها اليومية الى «ليفالوا»، وساعات المكتب، عبئاً ثقيلاً عليها. هل فقدت شيئاً من اهتمامها بالمعركة؟ ومع ذلك استمرت المعركة بضراوة متجدّدة أبداً، كانت الشركات تبذل جهوداً عنيدة لتُحبط الإضراب، فتنظم كلّ يوم ضرباً من استعراض السيارات التي لايمكنها تقريباً إلا ان تذهب من مرأب الى آخر. وكانت تجلس على المعقد شبّاناً أخذوا من مقرّ المحافظة حيث لم يكن «ليبين» يرفض شيئاً لاتحاد الشركات، أو جلبوا بتكاليف باهظة من أعماق

المقاطعات، فتيةً لم تَطَلْهم الدعاية الحمراء، حديثي التخرّج في مدارس الرعاية والإعداد العسكري.

كانت حوادث الشوارع تتكاثر: الزجاج المحطم، السيارة المشتعلة.. الخ، الى حدّ ان الشركات طلبت، لكي تحمي سائقيها، وهم جيشٌ كثير التكلفة من محطمي الإضراب لايكاد يصلح إلا للعرض، حراساً بلديين يرافقونهم ويجسلون بجنبهم، من أجل حاملة الحقائب في السيارة، ذريعة: لقد كان هولاء الحراسُ في الواقع أدلاء للسائقين المبتدئين الذين لم يكادوا يفدون الى باريس، وكانوا يُضلّون زبنهم في العاصمة. لم يهيمن الإجماع بين المضربين حول الطرائق الواجب اتباعها مع الثعالب[1]. كان ذلك بُعيد النقاشات البرلمانية حول حق الإضراب. اتخذ الحزب الراديكالي الاشتراكي موقفاً ضد التخريب. ومطاردة الثعالب. وكان في نقابة «الحوذيين - السائقين» معارضة شديدة لما دُعي: أعمال الإرهاب. لكن هذه الدعوة الى الشرعية كانت على العموم غير مقبولة لدى السائقين «باشرو» مثلا، كان يتفجر حول هذا الموضوع أصبح صديقا ملازماً لكاترين. كان يسكن «ليفالوا» وكان يمرّ عليها في شارع «كافيه». كان يقول:

«عفنةٌ سياستهم. وهي لاتلزمنا! السياسة كلها من قصص البرجوازيين والخونة. خذي بريان: وغدُ الأوغاد. ماذا، كان بالأمس رجل الاشتراكيين الأعظم! مثل ميلران، مثل فيفياني. أما نحن فلا نعرف سوى عمل واحد: مطالبنا، العمل النقابي. آه! يا الهي، ليت البروليتاريين يستطيعون ان يفقهوا ذلك! ان حركة مثل حركتنا ليست رديئة. لكن هل ينبغي ان نظل هكذا بين ذوينا؟ يجب ان ينضمّ الينا عمالُ النقل. فلا قطارات كهربائية ولا ميترو. حينئذ تصبح باريس رائعة! ثم ينضمّ عندها الآخرون.. الإضراب العام..

---

(١) الثعالب: أي العمال غير المنتمين الى النقابة/ المترجم

كـان الإضـراب العـام هو الحلم الذي يلازم حـديثـه. إن العـمـال لايعرفون قـوتهم: «كلا، افهمي قليلا: مارأيناه فقط في الأيام الأخيرة من إضرابات.. عـمال الخطوط الحديدية. المحترفون البحريون، وحتى قصص «شمبانيي» وأشياء أخرى كما في البناء، منذ سنتين.. ثم ماكان في تشرين الأول. هل تتصورين ان ذلك يُرتَّبُ في آن واحد؟

بيـد أن «باشـرو» خلص الى ان لا سـبـيل ال ذلك. «لقـد كنا مـغـفلين وسنظل مغفلين».

كل ذلك كـان يؤرق كـاترين: كـانت تحـتـقـر أيضاً ثرثرات «البـاليـه.. بوربون»[1]. وتيأس من هذا الإضـراب، إلام سيـوصـل؟ سوف يـصـمـد اتحاد الشركـات الوقت الضـروري. كـانت ترى بؤس السـائقين. كل هـذه البطولة ستذهب أدرواج الرياح! وهي توافق «باشرو» حول نقطة هي أنهـمـا كليهـمـا لايثقـان بـغـيـر العـمل المباشر: ان تُحرق سيارات أُرباب العـمل وأن تُكسر رؤوسهم!

تخـاصـم «باشـرو» ذات يوم مع «ديهـاينين» بشـأن «فـيـانسـيت». كـان «باشرو» يصرخ: «نعم، فيانسيت، صـاحبك، أنا أرفض ان أمشي مـعـه في ذلك! فـهو قـذرٌ آخر سوف يحصل على مركز مثل الآخرين! ما قولهُ أولا، إذا حطمنّا السيارات؟ ولو أنا أصغينا إليه لما كـان الإضراب.. نعم. فـفي المساء الذي قُررت فيه المعركة في «البورصة»، قال إنه يغسل يديه منها!».

كان فكتور يدافع عن «فيانسيت» أي عن ادارة النقابة. «فيانسيت» لم يحـارب - إذا شـئنا الدقـة الإضـراب. خـاف فـقط ألا يمشي مع الإضـراب سائقو أرباب العمل الصغار.

قاطعه «باشـرو»: «لايهم! لقد تخندق وراء الحركات السابقة، بسبب الانتقادات التي وُجهت إليه قديماً لأنه كان كذلك، كثير الرخاوة بحيث لم

---

(١) مقر الجمعية الوطنية الفرنسية.. المترجم

يضطلع بمسؤولياته هذه المرة. وهو لاينتظر غير الدقيقة التي يقول فيها: يجب ألا يذهبوا الى الإضراب! إذن أنت ضد مطاردة الثعالب.

لا. لم يكن فكتور ضد مطاردة الثعالب. مُقرفون. لكن هذا ليس سبباً لكي لانستخدم الوسائل الأخرى. وإذا استطعنا ان نضغط على الشركات بواسطة الحكومة. ذلك أن التجارة تخسر مع الإضراب.. صاح «باشرو»: أقاويل! الحكومة والتجارة والشركات شيء واحد» وافقته كاترين.

عقّدت الأشياءَ عودةُ السيدة «سيمونيدزيه». لم تجرؤ ان تجابه ابنتها، بيد أنها لم تُخف ان اهتمامات كاترين الجديدة لاتعجبها. ثم إن ذلك حماقةٌ من الوجهة الصحّية. استقرتّ هيلين في شارع «بابيلون». كانت تتكلم بشيء من التهكم مع أختها، عن سائقيها. فزاد ذلك من عناد كاترين. لكنها كانت سيئة المزاج فقد غاظها فكتور بتفاؤله.

كان المقدّم «ميركورو» شديد القلق، بسبب خطبة «كايو» في «بادي كاليه». منذ أكثر من شهر وهو ساخط. عندما يفكرّ المرء ان «سافورنيان دي برازا» وأن كابولاني قد ماتا ليعطيا فرنسا امبراطورية! وقد سلّم «كايو» الكونغو لألمانيا. كان ذلك عاراً لاسابقة له: نعم، سيدان[١]. ولا أدري إن كانت المقارنة ممكنة: إنها في نهاية المطاف، هزيمة عسكرية! لماذا لم يعطهم «نانسي» عندما كان فيها؟ سيعطيهم إياها في المرة القادمة.

رأت كاترين زوج أختها مضحكاً. أما أن تكتشف بين السائقين أشخاصاً يتحدثون أحاديث من هذا النمط عن المضربين لا عن الرفاق السيئين، فذلك ماكان يثير حنقها. انتصر« باشرو»: كانت خطبة «جوريس» عندما عُرضت القضية على الجمعية الوطنية، سيئة! ماذا اقترح، جوريس؟ وافق، أولاً «كايو» على مساوماته مع ألمانيا. ولايريد فقط أن يُبالغ كثيراً في

(١) في سيدان استسلم نابوليون الثالث أمام الألمان... المترجم

افريقيا من أجل تسيير الأعمال، بل أن ينسلّ الفرنسيون انسلالاً لدى الزنوج. «آه! ياله من اشتراكي»!.

الواقع ان كاترين قرأت بثورة الجملة المشهورة عن القوى الثلاث التي تأتلف - لحسن الحظ- في العالم: تنظيم العمل الدولي، والرأسمالية الحديثة، والمثالية الأمريكية القديمة. حاول فكتور جاداً ان يدافع عن جوريس، لكنه بدا ضعيفاً في هذا الموضوع. فقدت كاترين ثقتها به.

لقيت عند مارتا «جورس دي هوتين» الذي اهتم كثيراً بنشاط الآنسة «سيمونيدزيه» الجديد. لم يكن ساخراً بل دمثاً أي كما كان دائماً معها. كانت كاترين تتكلم بلهجة التحدي. كانت تدافع عن سائقيها لا لأن أحداً هاجمهم، لكن «جورس» كان يعرف «وسنر» ويؤكد ان وسنر اشتراكي. كان هناك سوء فهم: عندما يدرك العمال ان مصلحة أرباب العمل هي مصلحتهم.. ألم يكن هذا واضحاً في قضية السيارات الأجرة؟ إذ ليس الموضوع هنا موضوع مأجورين ينالون من رب العمل كلّ يوم مبلغاً ثابتاً، لكنهم شركاء تعنيهم الأعمال، وهم ينالون نسبة مئوية من الدخل. وللشركات تبعاتُها، العتاد الذي يغدو عتيقاً، مسؤوليات الحوادث.

أما فيما يتعلق بالتنازل عن رقعة من الكونغو لألمانيا فإن السيد «دي هوتين» لايمكنه بطبيعة الحال ان يتحيز تحيّزه فيما لو كان فرنسياً. كان يبتسم لمارتا التي خلطت هذا الحداد الوطني مع حزنها الشخصي، موت أختها وذكرى «برازا». كان «دي هوتين» يؤيّد شخصياً رئيس مجلس الوزراء، إذ انه تفادى بحكمة نزاعاً مسلحاً. «والواقع، ياآنستي العزيزة ان مايجب ان نعتبره قبل كل شي. هو مصلحة فرنسا، أو بالأحرى مصالح فرنسا. لأن لها مصالح شتى والأطروحات التي تتجابه في البرلمان، تُلخّص تلك المصالح، في الواقع، بعضها متجمّع مع الأكثرية، وبعضها مع الأقلية. فمن جهة، عندنا رجال المال الذين راهنوا على استثمار الكونغو، ومن جهة أخرى اتحاد

الشركات لتمويل مراكش الذي لايمكنه ان يباشر عمليات ضخمة إلا بمقدار مايكون مطلق اليدين فيها، ومن الخطأ الفادح ان نعتبر وجهة النظر الوطنية، في هذه القضايا، ففي الكونغو مثلا، ان تعاون ورؤس الأموال الفرنسية - الألمانية تؤمنه شركةٌ وحيدة».

كان واسع الإطلاع صديق مارتا الأنيق. لقد حدّثه «وسنر» عن ذلك كله، ألا ينتمي «وسنر» لعدة تجمّعات لتعاون رأس المال الدولي. كان شيئاً طريفاً ان تُرى تناقضات المصالح حتى في قلب الوزارة ذاتها: «ستيغ» مثلاً له ارتباطاته بمراكش، مثل «وسنر» نفسه من جهة أخرى، مثل «جوزيف كيسنيل»، ومثل كل اتحاد شركات سيارات الأجرة: الأراضي في الدار البيضاء. وبالمقابل، فإن مأساة حقيقة كانت مأساة وزير المستعمرات السيد «ليبران». كان مجبراً على الدفاع عن الاتفاق الفرنسي الألماني ولم يفعل ذلك إلا بشقّ النفس. ويقال انه بكى في مجلس الوزراء. وخطوةُ نواب «اللورين» الذين أبوا ان يصوتوا على الاتفاق لأن أهالي اللورين لن يفهموا في اللوين المقتطعة من فرنسا، هذا التنازل أمام منتصري حرب ١٨٧١، هذه الخطوة اتخذت قيمة رمزية: لقد جاءّ ولاء النواب جميعاً يشدّون على يد ابن اللورين «ليبران» الذين منعته واجباتُ وزارته من التصويت ضدّه. «أنتِ تعلمين، ان نواب اللورين - يجب ألا نقف عند المظهر - في شؤون البلاد، ليسوا ممثّلي «جان دارك» بل ممثلي لجنة «الفورج..» كان مندفعاً، وأخذ يشرح ببلاغة، وبلهجة الاحترام، الأجهزة الاقتصادية الكبرى في الدولة. ان المعركة البرلمانية ليست سوى الواجهة التي تتتابع خلفها المساوماتُ الحقيقية. ليس ثمة كثير من الفروق بين «كايو» وخصومه: كانت لجنة «الفورج» تلعب على الحبلين.. فكرت كاترين، وهي تصغي إليه بجملة «جوريس» الذي أسخطها كثيراً. إن الرأسمالية الحديثة التي تجمع رؤوس الأموال وتشبكها بعضها بعض بحيث «لو تمزقت حلقة من حلقات الاعتماد المصرفي في باريس لتزعزع الاعتماد المصرفي في «هامبورغ..»

هذه الرأسمالية الحديثة يمكنها ان تأتلف حقاً وبشكل موفق مع المثالية الأمريكية القديمة والتنظيم الدولي للعمل؛ لم يكن ذلك يُظهر لكاترين سوى ابعاد ذلك التنظيم في نظر أحد قادته، في نظر «جوريس» العظيم الذي وضع فيه الكثيرُ من الناس أملهم، أمل السلام في العالم.

وريثما يأتي ذلك السلام، فإن نفس رجال المال في «ليفالوا» كما في «هامبورغ» أو في الدار البيضاء كما في «باكو». يتصرفون بخبز «باشرو» أو فكتور اليومي، وبالحرب والسلم، حسبما يبلغ اتحاد مصالحهم أو لايبلغ الائتلاف. لقد تفادوا الحرب هذه المرة، بعد لأي، لكن في المرة القادمة؟ لم تنته الحربُ بين الايطاليين والترك حتى استؤنفت بين الترك والصرب والبلغار. وقد زار بطرس الأول منذ أيام مصانع «وسنر» وكان يمكن رؤية ذلك في جميع الصحف. بل إن هذا الملك الشهم اهتم بحياة العمال في تلك المصانع. وقال إنه سيتخذ من التشريع الاجتماعي في فرنسا نموذجاً لبلاد الصرب، ما إن تدخل هذه البلاد في عهد أكثر سلماً.

هذه الآفاق جعلت كلّ يوم أبغض وأفرغ، وجعلت عملها في «ليفالوا» تافهاً. ما الذي خطر ببالها حتى تحشر نفسها في ذلك؟ كان الموضوع خمسة وعشرين فلساً للسائقين في كل يوم، في حين يمكن أن تنفجر الحرب فجأة. قنابل، كان لابدّ من القنابل..

في هذه اللحظة اندلعت قضيةُ شارع «اوردنر»: ان مأثرة قطاع الطرق في السيارة ألقت في الظل فجأة الكونغو ومراكش والإضراب وحرب البلقان. إن ضرباً من الجنون الذي غذّته الصحافة جعلت من اغتيال شاب «جاب» مركز الانتباه والنقاش العام.، وقد كان آخر كانون الأول وأول كانون الثاني يزدادان شغفاً بهذه الأسطورة الدامية، وبإخفاق الشرطة، وبالهجمات المتكررة لهؤلاء الأشخاص الذين أضيفت اسماؤهم الى مجد غريب وإجرامي، دون ان تثبت ذلك أية شهادة. فوضويون، كان متُفقاً على

ذلك، لكن هل كان «بونو»[1] حقاً؟ أهو «كاروي» الذي يتحدث عنه الناس؟

غدت عصابةُ السيارة الرمادية موضوعاً عنيفاً للنقاش بين كاترين وفكتور. وعلى العموم، كان المضربون، يتحدثون، بناء على مشيئة كاترين، عن العصابة تماماً مثل «ميركورو» نفسه ومثل الصحف البرجوازية.

وبالطبع وجدتهم هي جديرين بالإعجاب. كانوا وحدهم ضد الجميع كانوا يتحدّون المجتمع والمسدس باليد.

كان فكتور يقول إنهم قَتَلةٌ بكل بساطة، وأن هذه القصص تخدم الشرطة. أولاً، لا نستطيع ان نقول إن هؤلاء الناس عمالٌ... كانت كاترين تكرهه عندما يتكلم هكذا. وكلما كانت شباك الشرطة تلتفّ على محرّري صحيفة «الفوضى» (على إثر أية وشاية؟) إذ رأت فيهم تلك الشرطةُ ملهمي «بونو» بل المتواطئين معه، كانت كاترين التي تذكرت «ليبرتاد» وزيارتها لرومانفيل، تحسّ بأنها مرتبطة أكثر من ذي قبل بأبطالها الجدد، ولولا قليل لعدّت فكتور كأحد عناصر الشرطة. ألم يكن لهم نفس الأعداء. فكتور باشرو، كاترين وقطاع الطرق الجسورون؟ آه! لو كان هناك المئات من «بونو» لما طال عهدُ الرأسمالية! كان فكتور يهز كتفيه ولم يكن باشرو حازماً جداً: لكن كان من الواضح انه يفكّر هو أيضاً بالضحايا الأبرياء. ما المطلوب إذن؟ الشيء نفسه دائماً! يريدون الغايات لا الوسائل كانت تقول:

- «أتظن، يافكتور، أن القنبلة التي قتلت «بليهف» لم تقتل أبرياء؟ بيد أن الاشتراكيين الثوريين لم يستنكروا هذا الفعل على أنه قتل. بل لقد ادعوا انها من فعلهم. وأنا أخجل عندما اقرأ الصحف العمالية فأعثر فيها على الأفكار المتداولة لدى مفوّضية الصحافة البرجوازية..».

فيجيبها فكتور:

(1) بونو رئيس عصابة من الفوضويين... المترجم

- «أولا، هذه القصص عن استئناف العمل الفردي والترهات الأخرى لا علاقة لها بالاغتيالات السياسية. والاغتيالات السياسية، أهي تقدّم الطبقة العاملة! هذا إذا لم تكن الشرطة هي التي نظمتها . . ».

إن هذا هو ماكان يخرجها عن طورها، أكثر من غيره: عندما كانت كاترين تتذكر «فايان» الفوضوي الذي رمى قديماً، القنبلة على مجلس النواب رجل لم يكن يملك فلساً. لم تكن تستطيع أن تنسى عينيه. . قاطعها فكتور:

- «إن «فايان» هذا، قد عمل عملاً سيئاً. لقد أتاح للشرطة ان تطلب من النواب الذين انتابهم الخوفُ القوانين التي باسمها يُطارَدُ اليوم العمالُ الذين يناضلون من أجل لقمة عيشهم. . ولو شاؤوا ان يفعلوا ذلك لما نجحوا أكثر مما نجحوا الآن. والقنابل التي أُلقيت هنا وهناك لم تُعط نتائج، وكان تكفي قنبلة واحدة على مجلس النواب لكي تحرض أرباب العمل على العمالِ. ولايُدهشني أن «فايان» لم يفعل الا ما أُمر بفعله. .

كانت هذه هي الضربة القاضية. ومن ناحية أخرى، كانت كاترين تسعل، وكانت دارةُ «بيرك» تنتظرها. والحقيقة أنها عزمت على ذلك منذ عدة أيام. وأعلمت رفاق شارع «كلافيه» أنها ستغادر باريس . احتجوا، لطفاً منهم. ومع ذلك أحست أن تلك المشاعر طيبة، من أسوأ نوع بحسب ذوقها، كالاعتراف بالجميل؛ الحق أنهم كانوا يكنّون الودّ لها، ألم تكن تهب وقتها كله للإضراب؟ لكن ما أبعد الفرق بين هذا وبين الاعتراف بالجميل! كانت تحمل أفكاراً خاطئة هذه الشابةُ.

ولمَ ينبغي لهم أن يعترفوا بالجميل لأي كان، لمجرد أن بورجوازية صغيرة لم تكن مع الشرطة وأرباب العمل ضدّهم. أليس هذا طبيعياً تماما؟ بل لو أنها سألت فكتور عن ذلك، فلعله كان سيذكّرها بتحويل «باكو».

سعدت السيدة سيمونيدزيه بأن تعود ابنتُها الى «بيرك» صحتها، ثم

إن ذلك سيخلصها من قصة الإضراب كلها: إذ ممّا يعرّض هيلين لشبهة ان تكون لها أخت كهذه، مع موقع زوجها. وأخيراً فقد تعوّدت الأمُ ان تعيش وحيدةً في شارع «بليز ديغوت».

بينما كانت كاترين تصرّ ثيابها، تخاصمت مع أمها. وكان موضوع الخصام ايضاً «بونو». ردّدت السيدةُ «سيمونيدزيه» ما قرأته في صحيفة «الصباح» أو ماكانت تقوله «هيلين». كيف أمكن لها أن تكون كذلك مع ماكان لها من أفكار قديماً؟

- «يابنتي، ستتغيّرين مثلي، فعندما نكون شباباً نحبّ العنف. . »

- «ليس الموضوع هو العنف، أو بالأحرى بلى: لكنه العنف الذي يمارسه من يملكون كلّ شيء على من لايملكون شيئاً!

كانت السيدةُ «سيمونيدزيه» تعرف ذلك كله. ولم تكن الأوساط الفوضوية كما تراها ابنتُها: ففيها الكثير الكثير من الشرطة.

- دعينا ، طيّب. . هل ستتكلم امها مثل فكتور؟ عيّرتها كاترين «بفايان»: «نعم، لعل هذا يزعجك. لكنني أنا أتذكر. كنتُ طفلةً كنتُ شبيهة بلعبة تُلقى على أريكة، لكن كانت لي عينان وأذنان. إني أتذكر، إني أتذكر . . . كانت له ابنةٌ صغيرة تُدعى «سيدوني»، وقد صنع أحذية في افريقيا، وضربه صانعُ الحلوى عندما كان طفلاً. . »

ذكرت أمها بتلك الأمسية التي بكت فيها السيدة «سيمونيدزيه». لكن السيدة «سيمونيدزيه» لم يبدُ عليها أنها احتفظت بأي انفعال من كل تلك القصة. كانت تبحث عن أعواد الثقاب فلا تجدها:

« هل تتذكرين، ياكاتيوشا؟ نعم، لقد اهتممتُ بـ«فايان» هذا. رجلٌ عجيب. لكنه عندما حدّثني عن مشروعه قلتُ في نفسي ان ليس لي الحق في أن أحتفظ بذلك لنفسي».

-كيف؟

كانت كاترين واقفة، ترتجف. عثرت السيدة سيمونيدزيه أخيراً على أعواد الثقاب التي وضعتها كاترين في علبة مع جوارب عتيقة:

- ألا تتذكرّين «دوبري»، لا؟ ذلك الفتى الطويل الأسمر الذي جاء بفايان الى منزلي؟ قلتُ له إن «فايان» ينوي ان يفعل.. لم أكن أعلم بالضبط ماذا كان «دوبري»، ولم أعلم إلا فيما بعد أنه من الشرطة.. وإذن فقبل خمسة أيام او ستة من الاعتداء كانت الشرطة تعلم أنه ستُلقى قنبلة في مجلس النواب. ولم يفعلوا شيئاً ليحولوا دون ذلك. على العكس. لأنهم كانوا يعرفون عنوان «فايان»، والغرفة التي كان يُعدّ فيها قنبلته شارع «دارو»، أنا متأكدة من ذلك.

من المحتمل انه كان يلائمهم ان يُقتل بعضُ النواب.. ائتلاف وزاري.. لا أدري».

في هذا المساء بالذات، عادت كاترين الى دارة «بيزديو» بعيني ميتة.

- ١٠ -

بدأت سنة الف وتسعمئة واثنتي عشرة بداية مشؤومة.

لم يكن «وسنر» مؤمناً بالخرافات، لكنه، عند عودته من عند صديقه «شارل روسيل» في «لوفيسيين»، في الأول من كانون الثاني، وبينما كان يعبر «بوتو»، بغية العودة الى منزله في «بوردي لو» حيث كانت ديان تنتظره، أطاحتْ «المرسيديس» بامرأة عجوز.

أكانت هي المخالفة ام لا؟ لم يستطع «وسنر» بنزاهته ان يقول ذلك. رآها في ضرب «من الاغبرار الرمادي، في آخر الظهيرة، تترك الرصيف وتمرّ امام السيارة مثل دجاجة سوداء ضخمة. كان ذلك كالنتوء ثم سُمع تحت السيارة صوتٌ مؤلم لعظام محطمة.

كان يسير بسرعة، وكان يلزم ثلاثون متراً ليقف. كانت. المصابيح

ملطخّة بالدم. وقد علق بمقدمة الغطاء مزقٌ من مئزر أزرق، وشعرٌ، ونتفٌ من اللحم. كانت العجوز ماتزال حيّةً كانت تنفخ وكأن هجوماً فاجأها في نومها. حُطّم حوضها وكُسرت جمجمتُها. وفجأة استعادت قوة الصراخ اللابشرية. تجمّع عمالٌ وربات ُبيوت مهدّدين. كان رجالُ الشرطة يحرّررون محضراً وقد أظهروا الاحترام عندما علموا مع مَنْ علاقتُهم. ومع ذلك أخذ الخنادق يضيق و، كان يمكن للأمور ان تسوء. وإذا بالعجوز تنقذ كل شيء. لقد ماتت.

ولم تمت ببساطة، كالطير المدهوس الذي يغمر ريشه الطريق ثم يُدق عنقُه الهزيل من مرّة. لا، بل ماتت ميتةً شنيعةً، درامية، غير متوقّعة.

ففي غمرة ذلك كله لم تُرخ حقيبة للمؤن من نسيج الكتان المدهون بالأسود مع نثارات صفراء، وفيها رغيف خبز. ظلت كتلة الجسم المنهارة في وحل الشارع العريض، العاجزة عن النهوض المصابة في الصدر، قابعةً هنا تحت التنانير الفقيرة التي تشمّرت عن فخدي عجوز جديرتين بالرثاء، متغضنتين، ملطختين بالدم والتراب، وراء جوربين من القطن البيج. كان وجهها يتحرك برفق على الأرض، وكانت للتأوهات الصادرة عن كل مافيها اشتدادات مفاجئة تتجلى في الصياح الذي جعل قرابة مئة ممّن تجمعوا حولها يرتعشون.

وعلى الفور انتابت قميصها الفضفاض الرثّ حركةٌ غير مفهومة، وتوصلت المرأة العجوز الى لملمة جسدها المحطم. وشوهد لأول مرة وجُهها الأدرد. فتحت عينيها الفارغتين وتمتمت بشيء. لم يتسنّ لأحد ان يسندها. لقد نهضت ولوّحت قبضتها بالحقيبة نحو السماء وسُمعت وهي تصرخ: الرغيف وانهار كلُ شيء في الدم والوحل مثل قصر من الورق.

كان الارتباك عظيماً بحيث نسي الناسُ الداهسين. وفرّقهم أحد الشرطة الذي حصل الآن على المعلومات الضرورية.

في ٣ كـانون الثـاني قـتل قطّاعُ الطرق الذين في السـيـارة صـاحب دخل وخادمته، في «تييه». انبعث الذعرُ من الفوضوية على «البورصة».

كلا، لم تكن حسنةً بدايةُ سنة الف وتسعمئة واثنتي عشرة. مثلا سقوط وزارة «كايو» ما الرأي فيها؟ بطبيعة الحال، وفعلاً لم يك وارداً ان يُعاد النظرُ في الاتفاق الفرنسي الألماني الذي صادق عليه البرلمان. ولقد سمح مجلس الشيوخ لنفسه وعلى غير عادته ان يصرف الرجل الذي تنازل عن رقعة من الكونغو لغيوم، وهذا كل شيء. ولم يكن مجلس الشيوخ يتصور بدقة الجرأة من الناحية النظرية. رجعيٌ قدّم مسائل النفوذ على المصالح الحقيقية. على الأقل، كانت هذه وجهة نظر «وسنر» الذي كان يرى مع ذلك بسرور الوضعَ الذي اتّضح في مراكش. ان جماعته و «كيسنيل» والآخرين، سوف يستطيعون ان يمضوا الى الأمام فيما عزموا عليه. فقد عرفت اراضي الدار البيضاء والرباط ارتفاعاً كبيراً في القيمة. ثم إن هناك مناجم الفوسفات..

بالفعل استراح الناسُ لسقوط «كايو» وضمّت وزارة «بوانكاريه» عدداً مقبولاً من أعضاء الحكومة السابقة: لكوتز، ستيغ، وهذا هو الجوهريّ. وإذن لاخطر من جهة مراكش. لن يسمحوا بانتهاج سياسة مناقضة لمشاريع تهمّهم في الحقيقة لم تكن مغامرة مجلس الشيوخ بهذا الحدّ من الغباء: لقد ضُحي بـ«كايو» وهو غير شعبي بين المواطنين، وأعطوا مكانه واحداً من «اللورين» هو «بوانكاريه»[1] واستمرت الأعمالُ. وهذا هو الشيء الأساسي، طبعاً ان ذلك يستتبع سياسة النفوذ في مواجهة المانيا، وهي سياسة كان الرأي العام يتطلّبها. ومن أجل ذلك، كان من الواجب زيادة موازنة الحرب، وقد تكلم «وسنر» في آخر مجلس لإدارة «الشركة العقارية في الدار البيضاء» مع أمين سر أحد الوزراء، وهو شاب ذكي، يتعذر تذكرّ اسمه، عن ترتيب هام جداً: ستقدّم مصانع «وسنر» لشركة النقل المشترك

(١) بوانكاريه: رئيس الجمهورية الفرنسية في الحرب العالمية الأولى.

سيارات نقلٍ يمكن تحويلها بسرعة في حالة الحرب، من أجل نقل الجند. وقد وضع وسنر حالاً هذا الاقتراح موضع الدراسة.

لا لأن «وسنر» تعب كثيراً من «ديان»، لكنه طالما أولع بالماخور. كانت ديان عنده مثل جواد السباق الذي يرضي غرورك. كانا يمارسان الحب معاً بفرح. كان الميكانيكي القديم شديد الاعتزاز بقوته. كان رجلاً عظيم الطاقة، أوتي موهبة عجيبة في ضرب أرقام قياسية. فمصنعه الذي كان يذهب اليه كل يوم، ومئة عمل تجاري يديره، والائتلافات العالمية، كل ذلك كان يترك له مع ذلك الفراغ لمعاشرة عشيقة لايهملها، ولأن يقضي في الوقت نفسه ليالي طوالاً مع الأصدقاء في مقرّات شتى لايأنف فيها من إثبات مزاياه.

كان «شارل روسيل» خياط السيدات، من جهته، موافقاً على بادرة مجلس الشيوخ. لكن ذلك لأن السيّدة «كايو» لا ترتدي ثيابها من عنده. ولعلها ذهبت الى «بوريه» وهو العدو اللدود لروسيل. ألم يكن بيت «روسيل» في شارع السلام قد بلغ جيله الثالث من خياطي السيدات، وكلهم شارل خلفاً عن سلف. وكان «وسنر» يمازحه بـ«بواريه» قائلا: «ياعزيزي، انه ينتزع منك جميع النساء الأنيقات. . » فيزمّ «روسيل» شفتيه، ويداعب لحيته الجميلة التي خالطها الشيب. كانوا في «شابانيه». طلب وسنر، حبّاً بالمكايدة، الغرفة الفارسية، بسبب الدُرجة الفارسية عند «بواريه». تناولوا عشاءهم في وقت متأخر لدى «برونييه». وغير ممكن بعد ذلك الذهاب الى المسرح. وكان على ركبتي «وسنر» نساء.

أجاب روسيل: «كل ذلك قضية. . إن «بواريه» الصغير هذا شديد الثقة بنفسه. وهو لايملك أدنى ذوق. فعندما يراد الباسُ الارستقراطية. . لابد من الاطلاع. لقد ذهبتُ اليه: فبدءاً من أسفل الدرج أشخاصٌ بالقميص الداخلي. . ».

احدى السيدات كانت تلامسه برفق فقطعت ملامستها لتشارك في الحديث: «أراهن أنك إنما تتحدّث عن شارع «بابيون» يا حبيبي»، لقد انتصر «روسيل»:

«أرأيت! ماذا كنتُ أقول! عندما يُراد إلباس نُاس من.. فلابدّ من بيتٍ وضعهُ.. ولا بيت كبيت للـ...

كان التعبير المفضّل لدى خياط السيدات ينتهي. بتلمّظ خفيف جدا للسان خلف الأسنان.

استأنفت تلك المرأة المستهترة كلامها بحكمة وهي تهز القطع الذهبية التي وضعتها لتظهر بمظهر الفارسية: «إن صاحبك «بوارييه» ليس بيته ماخوراً بل ملتقى للنساء المتزوجات. هذا شيء مستنكر! ألا تكفيكم أردافُنا؟» ورفعت قميصها الداخلي البنفسجي المطرّز بدنتيلا صفراء.

كان هاهنا شريكٌ ثالث هو «وليامز» مدير «الجمهوري الصغير» المشهور بأخلاقه الدنيئة، الذي زعموا انه قتل عشيقته، وهي ممثّلة مرمرقة. كان أكثر ارتباطاً بوسنر منه بروسيل. مع أن امرأته الحالية زبونة لخياط السيدات. لكن هؤلاء الثلاثة كانوا يعبثون في هذا المساء كالفتيان.

قال ويليامز: «أنا أؤيد بعمق «بوانكاريه». هذا رجلٌ صالحٌ لخدمة ثلاث سنوات، وبغير هذه السنوات الثلاث فإن فرنسا هالكة. وصاحبك «بواريه» يريد ان يكون «ميونيخياً»(1) ونحن نريد درجةً فرنسية. أن ترتدي نساؤنا ثيابهن وكأنهن في بيوتهن. لا أدري ان كان كلامي مفهوماً.

تهلّل روسيل: «وليامز، كلامك من ذهب. يجب ان تظل الباريسية هي الباريسية. ان لها أناقة.. ولا يمكنها أن تفقدها. انظر الى القرن الثامن عشر: هناك تجد فرنسا، فرنسا. كان شارل روسيل يملك مجموعة قيمة من القرن الثامن عشر. كل مايمكن ان يحلم به المرءُ من «غروز» من «ناتييه» من «فراغونار» في لوحاتهم العفيفة. لأن خياط السيدات كان يحب القرن

الثامن عشر، على ألا يكون مسرفاً في بذاءته. قال وسنر: «اذن بوانكاريه، عندك، هو القرن الثامن عشر؟ اني أتساءل: عند مَنْ تصنع امرأته ثيابها. استطيع أن أقول لك إنها أقرب الى التأنق.. وهي لاتصنع ثيابها عندك، كما أرجو؟

هنا أرسل «ويليامز» بعض الدعابات التي دعت اليها المناسبة. لم يكن يجد كثيراً من السلوى في الثرثرة هكذا في الماخور، مع أناس يقدّر حقّاً صحبتهم النافعة لأعماله. راودته فكرةٌ وهي ان يجول جولةً في شارع «بروفانس»، حيث دلّوه على مستأجرة، ملائمة تماماً لذوقه. وهذا ما أسرّ به لروسيل الذي استاء قليلاً، لأن سمعة وليامز واضحة، وأن خياط السيدات لايحب ان يرى ذلك.

تنهّدت إحدى النساء اللواتي كنّ يرقصن على الحاكي فيما بينهن وقالت ساخرة: «طيّب، نحن لم نشرب بعد الشمبانيا التي تريد أن تهرب منها!» كانت هؤلاء النساء الراقصات السبع أو الثمان اللواتي استُبقين، واللواتي نبهتهن معلمتهن عن منزلة ضيوفهن قد تهيأن ليلعبن لعبتهن. فعرضن عدتهن الخارجة من ترسانة الدار، والتي لم تكن أكثر فارسية من أي شيء آخر. إحداهن وهي حمراء قصيرة، ألهبت «وسنر» فهتف: «لا بأس بالسنوات الثلاث! أما أنا فإني آخذ الحمراء لنصف ساعة!» همستْ هذه المحظيّةُ: «سوف ترى، اني أعرف طريقة جديدة: جعلتُ شارع «اوردنر»...

ـ ١١ ـ

بالطبع، عادت الثقة مع الوزارة الجديدة، لكن قصة اولئك اللصوص بسيارتهم جنّنت البلاد. والحق ان صرخات المعارضة في ظل هذه العاصفة، لم تجد أي صدى في الجمهور.

كانت «الجمهوري الصغير» من أنصار «بوانكاريه» حتماً، وكانت تتميزّ بعناوينها الضخمة عن العصابة المأساوية كما كان يقال. كان وليامز موالياً كليّاً، وكان هو الذي يعطي قبل غيره أسماء الفوضويين المشبوهين. وكانت وزارة الداخلية مسرورة جداً جداً. كان لابدّ ان يكون لذلك انعكاسه على نجاح العمل الذي كان وليامز يقامر عليه بإحكام: كازينو «فلورفيل». كان المقصود ان يعمل على إفلاس «دينار»، تروفيي، الخ.

كان ينبغي أن يفد الى «فلورفيل» كلُّ ماتملكه باريس من أناقة، في هذا الموسم. وليس ذلك ممكناً دون دعم الأمن العام، مهما يكن وقعُ ذلك غريباً عند الإفصاح عنه. ولذلك فإن العثور على العناوين في مثل هذه القضية التي بعثت بها السماءُ يساوي وزنه ذهباً. كان التنافسُ الشديدُ يحفز محررّي «الجمهوري الصغير». وكانت الأفكار تخضع لرقابة صاحبها. كان ينبغي لهؤلاء المحررين طبعاً ان ينتقدوا الشرطة دون الإسراف في الهجوم عليها. .

وذلك بغية تحمية الرأي العام، وإبراز قيمة الاكتشافات. سوف يتيح ذلك تطهيراً طفيفاً في بالأوساط الفوضوية. بل لقد لمحّوا الى أن الأفكار التخريبية منتشرة بين سائقي السيارات المضربين. مَنْ يدري؟ ومضوا في بحثهم الى أبعد من ذلك. . فمن التخريب الى الاستئناف الفردي، المسافةُ قصيرة.

أمضى «وسنر» عقداً للإعلان مع «الجمهوري الصغير»، وخصّص صفحات كاملة فيها للسيارة ذات الصمامين التي سيُخرجها في هذا الربيع. وعمل على إعداد مواقف بديعة لهذا الموسم في «فلورفيل». ووعدت السيدة الجميلة «برونيل» بالمجيء في الأسبوع العظيم، وذلك يعني ان وسنر بذاته سيحضر الى الكازينو. ثم إن صديقه كيسنيل في مجلس ادارة هذه الصحيفة.

وكان «جوزيف كيسنيل» البروتستانتي لايحب «وليامز» شخصياً

كانت سمعة ذلك الشخص تغيظه، وكانت جديرة بأن تصرفه من الصحيفة. لكن وليامز كان مرغوباً فيه في واشنطن وكان رجال البترول هناك يثقون به ثقة عظيمة. بل إن «ديكلاسيه» حذّر بلباقة «جوزيف كينسيل» أن من الأفضل الا يلحّ على ذلك، حرصاً على علاقتنا مع البيت الأبيض إذا كان للوطنية دخلٌ في ذلك فإن رذالاته، في نهاية الأمر، لاتخصّ غيره.

ومن ناحية أخرى فإن اتحاد شركات السيارات ما عليه إلا أن يغتبط بالجمهوري الصغير. أليست مصالح الاتحاد فيها هي مصالح «روكفلر» نفسها. لقد شنّ وليامز حملةً بارعة جداً، كثيفة جداً ليزيل الثقة بالإضراب وقادته. كان ينبغي أن يكون الجمهور نصيراً له. بل ان كل مابين السائقين من عناصر شريفة وعاملة حقاً، يمكن أن يتأثر بالدعاية المتقنة. بالطبع لن يتأثر بها المغامرون، بل أرباب الأسر، والشباب الرصينون الذين لايبالون بالسياسة ولايفكّرون إلا في جمع القليل الصالح من الوفر.

مع ذلك كله، كانت سياسة «الجمهوري الصغير» حتى مع مظهرها الوطني المتزمت، تحسن أن تغدو مرنة. كانت تهاجم الألمان، لكنها كانت تغضّ من صوتها، عند اللزوم، عن بعض المسائل. كانت هذه الصحيفة من أكثر الصحف اعتدالا في قصة الكونغو. كان لابدّ من ذلك لكي لايُفسخ عقدُ «ديسكونتو جيسيلشانت» الذي عُقد في برلين، وهو عملٌ ممتاز حمله «جورس دي هوتين».

كان «جورس» مرتبطاً بوليامز ارتباطاً شديداً، وقد أدى جورس له خدمات لاتُثمن، بفضل علاقاته مع «ليبين» عندما وقعت لصديقة مدير الصحيفة تلك الحادثة الرهيبة والمؤسفة التي لم يمتنع الناسُ فيها عن اتهام «وليامز» بالقتل. ودون معلومات خاصة، . لأن ذلك كان سيئاً. الحاصل ان وليامز كان يقبضُ. وكذلك امرُ الصحافة: ففيها مايؤخذ وفيها مايُترك. لكن

المهم هو إدارة الشرطة. وهنا ساندة «هوتين» مساندة رائعة. وبالطبع، لم يكن «جورس دي هوتين» ملزماً، باعتباره هولندياً، بالدقة الصارمة في علاقاته مع ألمانيا، مثل «وليامز». ولذلك كان وسيطاً نافعاً وموفقاً.

وفوق ذلك كان يُعلم وليامز بما كان يجري في إدارة الشرطة، عن رغبات مدير الشرطة. كان ذلك ثميناً ولاسيما انه ليس من المريح التعرف على الشرطة كل يوم. الوزارات تتغيّر، لكن الشرطة باقية، أليس كذلك.. هنا تكمن الصعوبة. إن العاملين على تنفيذ سياسة مايصبحون هم العاملين على تنفيذ السياسة التي تليها، وهم مرتبطون مع ذلك برؤسائهم السابقين. وأخيراً فليس سراً على أحد ان هناك، على سبيل الإجمال، اتجاهين في ملاك الشرطة كما هي الحال في ملاك الحكومة. وكلا الاتجاهين يعكس كليهما، لكن الأمور في الشرطة ربما اتخذت طابعاً أكثر مباشرة، أكثر شخصيةً، وعلى نحو ما أكثر فظاظة، وذلك شيء طبيعي.

كان «هوتين» وهو متشكّك، يُجيد الكلام على ذلك إجادة عظيمة. وكان وليامز يصطحبه معه الى السباق، وعلى يخته. ومع هذا، كان الهولندي متحفّظاً جداً في مسألة النساء، ورومانسياً: كانت السيدة

«دي هوتين» كثيرة الأسفار، كان يعلم بصورة غامضة ان «لجورس» علاقة ما، لكنه كان يخفيها، وكان وليامز يجد في ذلك حساسية مرهفة جداً، ومصاريع خضراء، وكوخاً وقلبا، الحاصل انه كان يمزح في هذا الأمر كثيراً لكن ذلك كان يبرّد قلب هذا الرجل، بعد اختصاصيّيه الذين هم من صنف معيّن. مثلاً «غيشار» و «جوان» مدير الأمن ونائبه لم يكونا على وفاق.

كان ذلك معروفاً جداً. لكن الامَ استند ذلك؟ كان الجميع يتحدثون عن ذلك وكأنها قصة بين ناس لايتفاهمون. ولابد من العلم مع ذلك أن أحدهما أدى خدمته مع كليمنصو، والآخر مع «كايو». على الأقل كان هذا

هو تفسير «جورس». أفلم يكن على رأس فرنسا، تذبذبٌ بين منهجين. منهج لعله فظّ، لكن فيه حماسةً واندفاعاً. وإن لم يكن منهج اليمين، لأنه كان مطبّقاً على يد ذلك الكوموني العتيق «كليمنصو»: عدم الإذعان أبداً أمام المانيا، الاعتماد على انكلترا: هذا بالنسبة االى الخارج أما في الداخل فاليدُ الحديدية، يدُ «أول شرطي في فرنسا». وبالطبع، عندما تُطلق النار على العمال عدة مرات، فإن ذلك يؤدي الى تمرّدات في اليسار. وفي النهاية كان لابد من تسليم السلطة الى إيادٍ أخرى.

المنهج الآخر كان قائماً على المصالحة كليّاً. مع المانيا مثلما هو مع النقابات والاشتراكيين. وفي هذا المنهج يُرخى العنان ويُسمح قليلا بالإضرابات. ويُشدّ الزمامُ من الداخل، بفضل العلاقات الحسنة مع القادة. لقد أُحرق، شكلاً، بعضُ العديمي المهارة، من جواسيس كليمنصو، الذين لم يعودوا صالحين للخدمة في الحركة العمالية، وأُدخلت فيها شرطةٌ سياسية جادةٌ كلّ الجد: لا من المحرّضين الصغار، لكن من الرجال المرموقين الذين لم يكونوا من الشرطة ـ بحصر المعنى ـ بل مجرّد أناس يمكن التحدّث اليهم.

إن وزارة «بوانكاريه»، . المؤلفة من شخصيات تنتمي الى الجماعات المتعارضة، اقتصرت على نوع من التسوية بين الطريقتين، بين مجموعتين كبيرتين من المصالح. ولذلك كان «كليمنصو» يهاجم بوانكاريه، وهو عدوّ قديم له، مع أن سقوط «كايو» ومنهجه هو الذي حمل الى السلطة ابن اللورين[1] بصوته الثاقب الحاد.

كل هذا كان يُرى بوضوح. أما في الشرطة...

في الشرطة كما في غيرها كانت المعركة بين المصالح الكبرى تقود العالم. كان «جورس دي هوتين» يضرب على ذلك مثلاً بحالته الخاصة: ألم يكن في آخر تشرين الثاني، غرضاً لمناورة بوليسية، مع أنه كان مقبولاً جداً

(١) بوانكاريه من اللورين... المترجم

في إدارة الشرطة. لقد حاولوا إقحامه في قصة سخيفة بصدد انتحار معتوهين كان على معرفة بهما. غلطة مفتش مفرط الحماسة: لامجال للشك في ذلك. كانت حلقة في الخصام بين الشرطتين. كان هوتين مشبوهاً - خطأً أم صواباً - لدى تلك الفئة من الشرطة التي تدعم بفاعلية مصالح الراديكالي الكبير وسياسته. مع أنه لم يكن يُضمر شخصياً أي حقد على «كايو» (وكان ويليامز يعلم ذلك أكثر من أي شخص آخر، وهو الذي كان خصماً عنيداً لرئيس الوزارة السابق). لقد كانوا على مشارف المعركة البرلمانية التي ستنشب حول الاتفاق الفرنسي الألماني. كانت نعمةً ان يُلقى الاضطراب في المعسكر المعادي، مع تعريض كلا المعسكرين للشبهة. .

«ثم ان سرّ القضية، ياعزيز وليامز، هو أني قمت، على نحو مقبول، بالوساطة في مبيعات منابع البترول النيير لاندي، وبهذه الصفة شددتُ إزر وطني في المعركة التي شنّها اصدقاؤنا الامريكيون في هولاندا للسيطرة على السوق العالمية. وأنت تعلم أن ان الجماعة المزاحمة من مموّلي «دوتشي بانك» في برلين، حيث ان لي ايضاً أصدقاء، لن تغفر لي ذلك. يا الهي، لاينبغي ان نهوّل في شيء، لكن أليس غريباً ان نرى جزءاً من الشرطة الفرنسية تتعهد مصالح المموّلين الألمان وتتعصّب لها؟ أنا، بالطبع، أعيش في فرنسا، وأفضلُ أصدقائي في هذه البلاد، وقد تصرّفتُ دائماً بالطبع، أحسن تصرّف إزاء مصالح الوطن الذي اخترتُه. . » ان كليمنصو هو الذي أنقذه من ورطته.

عرض «هوتين» بكثير من الترف تفاصيل عن شخصيات الشرطة، والانقسامات الداخلية. هنا أيضاً كان هناك انصارٌ للمنهج الفظ، تطهير البلاد بالنسبة الى الفوضويين واللصوص والمتشدّقين على حدّ سواء. ثم هناك الذين يريدون الاستفادة من الإضرابات والجرائم الخ، لغايات سياسية، دون أن ينخدعوا بالأوهام عمّا يمكن ان يُقمع، تاركين جزءاً لكي لايفقدوا الكلّ، لكن مستخدمين كلّ حريق.

وهكذا قضية «بونو»، «كاروي»، «غازنييه» وشركاؤه. ذهب

بعضهم الى أنه يجب القضاء عليها بتدابير كلّية، واستعمال العنف الى أقصى حدوده، دون التوقف كثيراً عند النقاش حول المسؤوليات التي ألقتها تصريحات عديدة، هكذا بما فيه الكفاية، على عشرات، ومئات ربما من الأفراد.

بدلاً من ذلك، كانت إدارة الشرطة تماطل. بل كانت تُتهم بأنها تعلم أكثر مما تُظهر، وأنها تسمح للعصابة بمتابعة أفعالها لتردع عن الحكومة ضربات كليمنصو. أما «جورس دي هوتين» فكان يقول أن في ذلك مبالغة للأشياء. كان هناك شيء من ذلك، لكن بين هذا وبين. .

كان شيئاً غير عادي حقاً أن إدارة الشرطة قد اطلعت بسرعة على أسماء أولك اللصوص: كاروي، ميتج، غارنييه. كانت «الجمهوري الصغير» تكيل المديح لـ«غيشار»، لكن الجمهور الذي أخذ يعزو كل جريمة الى العصابة وجد أن الشرطة لاتتصرف تصرفاً صريحاً. وحينئذ كان لابد «للجمهوري الصغير» أن تدسّ بعض الانتقادات. . كان ينبغي التصميم على شيء: كان الطابع الفوضوي في القضية جلياً في آخر كانون الثاني، أُوقف محرّرو صحيفة «الفوضى» في مقرّها في باريس، شارع «فروسار».

لم يضع ذلك حداً للاغتيالات. وأصبح وضع السيد «غيشار» حرجاً جداً. وكان هناك صحفٌ تسرف في مدح نائبه «جوان» الرجل الشجاع وليس بالمخادع، الخ. . وتلك شعبية مزعجة للتراتب والانضباط، . وكانت لها أسسٌ أخرى غير الشجاعة: ذلك أن الجمهور المتحفّز، الذي عبّأته الصحافة أخذ يُطالب باستعمال القوة.

- ١٢ -

بدأ «وليامز» في صحيفته نشر ذكريات الصيد للكونت «ديفرو».
انتشرت على جدران باريس اعلانات هائلة ملصقاتها مزخرفة بزهر الزنبق.

كان المقصود مقاومة أثر ترويج صحيفة يومية منافسة لرواية ميشيل زيفاكو. كانت «الجمهوري الصغير» تستغل السخط الذي أثاره في قلوب الأمهات إعلانٌ مسرف الجرأة علّقه خصمها في طول البلاد وعرضها، وفيه يُرى «ايزابو دي بافيير» فريسة لنوبة هستيريا وهو عار تقريباً في كنيسة من طراز الحيّ اللاتيني. كان «وليامز» يعارض هذه التجاوزات بجاذبية معاونه الملوكي الكونت «ديفرو» أحد رواد التأثير الفرنسي في العالم، بالرغم من كل شيء، بالرغم من الجمهورية. الوطن أولاً!

والواقع ان هذا الترتيب قد دبّره خياط السيدات روسيل، الذي كانت السيدة «لوبيز» صديقة الكونت تختار ثيابها من عنده، وكان تسديد حسابها متأخراً جداً. كان يعرف وليامز، أليس كذلك؟ حينئذ سوّيت الأمور على أفضل وجه.

لابد من القول أن الكونت «ديفرو» ألف طرازاً من الحياة لا يمكن لأحد ان يحياه اليوم الا بموارد فوق موارده بكثير. ولاشك انه لم يكن ليدفع ثمن سيارته «لورين دييتريش»، لانه كان يجعل من هذه العلامة متعهّدة البلاط. وأشياء أخرى من هذا النمط. ولم تكن السيدة «لوبيز» تكلّف كل هذا المقدار. الشيء الأفظع كان القمار «الباكارا».

من لويس الرابع عشر كان القمار هو سبب خسارة امراء بيت فرنسا. وبديهي انه منذ مجيء العهد الصناعي قلما تشبه وسائلُ تعويض الأضرار الواقعة على الأميرات بواسطة «الروليت» وألعاب الحظ، وتحسين أعراق الخيل، أساليب «غاستون دورليان» التقليدية. لم يعد ممكنا ان تُحمل آنية المنزل الذهبية أو الفضية الى دار سك النقود عندما تسوء الأحوال، لكن يمكن التخلص من الورطة بإطارات «دنلوب»، بالكونياك الذي تُجوّدُ شقرتهُ، والشواطىء التي تروّج لها جماعة من المموّلين.

بيد أن شتاء ١٩١١ - ١٩١٢ كان قاسياً قسوةً خاصة على الكونت «ديفرو» لقد خسر في «مونت كارلو» خسارةً، أيّ خسارة. وبدا أن المساعدات التي يتلقاها من «كي دروسي»[1] لدوره كداعية للفكرة الفرنسية في العالم غير كافية أبداً. بل إن الوزارة رفضت، بأدبٍ جمّ طبعاً، وبحزمٍ، السلفُ الجديدة التي التمسها سموّه الملكي. وهكذا اضطرّ الكونت ان يلجأ مرة أخرى الى المرابين.

كان على وفاق ممتاز مع جورج برونيل، وهو رجل طريفٌ جداً، سوقيّ جدا، ولطيف جداً، اتصل به بواسطة امرأةٍ جميلة جداً، ممثّلة في مسارح المنوّعات، وكانت صديقة له. كان برونيل هذا مرتبطاً بجميع ممثّلات باريس، وكان مؤكداً أنهن لن يقبضن شيئاً من المال الذي كان يُترك بين يديه. . وكانت هذه كذلك مفلسةً. وكانت تؤمّل دوراً في مسرحية «هنري باتاي» الجديدة التي طُرحت على التجربة المسرحية، وهي تروي قصة فتاة مصابة بالسل أزادت ان تعيش حياة مستهترة حين علمت أنه لا أمل في شفائها، لكن الأمور لم تسر على مايُرام. . كان المبلغ هذه المرة، جسيماً، وقد زعم «برونيل» انه لايستطيع ان يكمل المبلغ بنفسه، وقد وصل الكونت «ديفرو» بصديق له يملك المال.

كان هذا الرجل كاتباً في محكمة «السين وواز» يعيش في قرية صغيرة من عشرة آلاف نفس، مع أصص من إبرة الراعي، وابنة أخ تهتم بمنزله. كان عمر السيد «ميبلا» خمسين عاماً، وبه مرض في المعدة (حرقة) وله القليل من الشعر الذي يأبى ان يبيض. . وكان يبدو بربطة عنقه البيضاء مثل تمثال للاستقامة بالسترة الرسمية. لكنه لايُقرض المال إطلاقاً لأمراء من دم ملكي. انه يريد أن يكون قاضي صلح، وهو يطمح بوسام جوقة الشرف.

(١) مقرّ رئاسة الوزارة الفرنسية. . . المترجم

«عزيزي برونيل» ماحيلتي في ذلك أنا؟ لستُ الملك، ولست قادراً على شيء في جمهوريتك. . » كان الكونت «ديفرو» مخطئاً.

يستطيع سموه إذا وافق بالفعل، ان يؤدّي خدمةً عظيمة لشخصية من أرفع شخصيات الجمهورية، وهي شخصية لن تلتمس ذلك منه بالطبع. ومثل هذه الأشياء لن تنسى.

وكانت ستجري في «كورسيكا» وفي كل البلاد، انتخابات لمجلس الشيوخ في أوائل ١٩١٢. وبضع كلمات من سموّه تُلقى في الحديث، قادرة على انتزاع كثير من الأصوات من المرشَح المحافظ الذي كانت تخيفه البطاقةُ الراديكالية. .

قام سموُّه إذن بزيارة في قلب الشتاء الى كورسيكا حيث كان السيد «بوغليزي كونتي»، رجل اليمين، يرشح نفسه دون أي حظ في النجاح، وحيث خُدع مرشحّو اليسار من قبل مرشح لجنة «الفورج» راديكالي هو السيد «بول دومر»، أحد أذكى الرجال الذين حملتهم الأرض، كما يؤكد السيد «برونيل». وكان من المؤسف ان يُستبعد من الحياة السياسية، مثلُ هذا الدماغ، بسبب حادثة انتخابية سابقة مزعجة. انه بحاجة الى مقعد، حيث شئت لكن مقعد في الجنوب.

عيُن السيد «ميبلا» قاضي صلح في الشاطىء اللازوردي، منذ شباط وصارت له أشجار نخيل بدلاً من إبرة الراعي.

أصبحت ابنةُ اخيه التي كانت تسعل عظيمة الاعتراف بجميل سموّه الملكي؛ قصّت صورته من «الجمهوري الصغير» ووضعتها في الإطار الأسود المذهب لمرآتها. وارتبط أولاد السيدة «لوبيز» بصداقة مع برونيل الصغير. كما أن سموه جنى من ناحية أخرى، منافع أخرى من هذه القضية: فقد جرى كلامٌ لمصلحته في «كي دورسي»، وبما أن الوزارة سقطت في إثر

انتخابات مجلس الشيوخ، بعد صدمة عنيفة من كليمنصو، التمس من سموّه بتواضع ان يقبل بمهمةٍ في انكلترا. فهناك صعوباتٌ على الحكومة الديموقراطية ان تعرف كيف تحلّها، لكنها تتطلب استخدام شخصيات قادرة على ان تكلّم الملوك نداً لندّ.

وكما قالت إحدى صحف الصباح: ان كورسيكا، اذ تنتخب السيد «بول دومر»، تريد أن تبرهن مرةً أخرى أن كلمة «جول فيري» البليغة ماتزال صحيحة، وأنه لإمكان في فرنسا «للطرد، ابن للمدينة القديمة الغاضب»[1] كان الكونت «ديفرو» يعيد قراءة هذه الجملة بشيء من الدهشة. كان يذلّ دائماً عندما لايفهم: بيد أنه كان معذوراً هذه المرة.

لاشك ان السيد «بول دومر» كان سيدهش كثيراً لو أخبره أحدهم بالدور الذي لعبه في انتخابه لا أحد أعضاء الأسرة المالكة فحسب بل وايضاً كاتبُ محكمة في «السين وواز»، كدهشته عندما تلقى بعد واحد وعشرين عاماً رصاصةً قاتلة في معرض للكتب. كان واحداً من محترفي السياسة الذين يترأسون ببراعة شركة الكهرباء العامة، والمصرف الفرنسي، والشركة البلجيكية لورشات نيكولاييف، الخ في ساعات فراغهم، والذين يكتبون كتباً ترمي الى خلق انطباعات عميقة. كان عاكفاً على وضع اللمسات الأخيرة لكتاب عن عدانة الحديد. كتب يقول: «يبدو واضحاً ان صناعة الحديد قامت:اؤلاً على شواطىء البحر الأسود حيث مايزال يوجد أحد أعظم مناجم القارة». . كانت هذه تحيّة لمنجم «دونيتز» الذي طمع فيه على إثر ذلك طمعاً قوياً زملاؤه في جمعية «الفوزج» حتى انهم أرسلوا جيوشاً لتستولي عليه باسم حاملي سندات الريع الروسي، والذي تسلحت منهم يدُ القاتل فيما بعد أملاً ببعثة جديدة من أجل احتلاله.

(١) كان حكم الشعب في «أثينا» قادراً على طرد المواطن الذي يُخشى طموحه لمدة عشر سنوات. المترجم

لكن حياة «بول دومر» وموته يظلان خارج هذه القصة. لاشك ان اؤلئك السادة من «ترينياك» و «انزان»، و «كريزو»، و «هوميلكور»، ومن اقطاعات أخرى كانوا يرغبون رغبةً عظيمة في أن يروا مرةً أخرى «بول دومير» عضواً في مجلس الشيوخ. ولم يكن لدى «وسنر» مايرفضه لهم. ولقد بلّغ كثيراً من الأصدقاء كلمةً من جانبه، ومنهم «برونيل» الرجل ذو الخيال الخصب. واستخدمت وسائلُ كثيرة أشدّ فعالية من كلام صاحب السمو. كل ذلك كان يجد ترجمته بأوضح بيان في التأكيد بأن لامكان في فرنسا للطرد، «ابن المدينة القديمة الغاضب»، وبالفعل فإن المدينة القديمة لم تكن تعرف محاسن جمعية «الفورج».

في كانون الثاني إنما التقى «وسنر» شخصية من هذا التكتّل اهتمت اهتماماً خاصاً بانتخابات كورسيكا لمجلس الشيوخ.

بعد حديث شاركت فيها ديان وعيناها الجميلتان مشاركة فعّالة، افضى بهم ذلك الحديث الى الاغتباط بالحكومة الجديدة. واستفاض وسنر في الكلام، وكان يُعتبر جدّ محبذ لكايو. وظهر «ميلران» وهو اشتراكي قديم على كل حال، الرجل الذي يحتاجون اليه في الحرب. وفي الوقت الذي ابرزت فيه عدةُ حوادث فرنسية ايطالية، كالسفن المستولى عليها، الى أي حد كان السلم موقتاً، أمّن وزير حربنا الأمن الفرنسي: أصلح الأركان (أنت تعرف، هذا الجنرال جوفر؟ وماقيمته؟ يبدو انه جمهوري) وصرّح لصحيفة «الصباح»: «سأبقي فرنسا، بأي ثمن، في الصف الأولْ من الملاحة الجوية.».

دخل وسنر منذ فترة قريبة في مجلس إدارة بيت كبير لبناء الطيارات ولم تصعد «ديان» طائرة قط. سوف يُدبِّر الأمر.

لكن الحـديث تحـوّل الى مـوضـوع مـقلقٍ جـداً: اضـراب سـيـارات الأجـرة المستمر. قال وسنر:

- «ليس لي في ذلك سوى مصالح غير مباشرة الى أقصى حد، لكني أفكر حـقـاً في السـائقين البـائسين الذين لابد أن يكون ذلك رهيبـاً بالنسبة اليهم.. وفوق هذا فالتجارة مشلولة في باريس. وأسوأ مايقع ذلك فيما يتعلق بالبترول. فالمدينة تفقد كلّ يوم مبالغ ضخمة من الرسوم. قد تقول، حول مبيع البترول، ان ذلك لايُحدث من الناحية العمالية فرقاً كبيراً. لكن ذلك يقع بالضبط في السـاعة التي تدور فيها معركةٌ ربما كانت حاسمة! فأنت تعلم أن «روكلفر» الذي هو صديق كبير لفرنسا يقاتل رجال البترول الألمان. والمسألة كلها تكمن في معرفة ما إذا كانت السوق الألمانية التي يشرف عليها أصدقاؤنا الامريكيون وبالتالي نحن، ستُفلت منا أم لا. وإذا كانت الحكومة الألمانية تقرر الإبقاء على امتياز الدولة الذي صوّت عليه الريخستاغ في العام الفائت فقد فشلنا. وذلك بانتصار جماعة «الدوتش بانك» على جماعة روكفلر. وبديهي اننا نحسب ان ضرورة التسلح ستجعل توظيف رأس المال الألماني في شؤون البترول مستحيلاً. وانه لذو وزن عظيم أن توجد في فرنسا حكومةٌ قوية، حازمة، تطّور تسليح بلادنا فتجعل من المتعذر ان يُخلد «غيوم» الثاني لأحلامه الامبراطورية.

نعم، كان «لوسنر» قديماً علاقات ممتازة مع الامبراطوار. لكنه كان مجنوناً: مراكش، الألزاس واللورين، البترول.. «فلم لايطلب نساءنا؟» وأشار الى ديان.

«روكفلر»، ياصديقي العزيز، لايمكننا من جهة اخرى، ان نكفّ عن الاهتمام به. بصراحة أرأيت مافعله قبل فترة قريبة؟ ٥٥٠٠٠ فرنك أُرسلت

الى فرنسا ليُشترى في «دول» على ما أعتقد، المنزل الذي ولُد فيه باستور! هذا بكل بساطة رائع، ياعزيزي! لقد تأثر بوانكاريه حتى اغرورقت عيناه بالدموع. وإذن، فكيف ندع إضراباً يستمر وهو كالسهم في ظهر هذا الصديق العظيم لفرنسا؟ كنتُ مع المصالحة. لقد اقترح نوابُ السين التحكيم بين اتحاد الشركات والمضربين، في نحو أول العام. وكان بودّي، أنا أن أتكلم مع «فيانيست» ممثلهم، وهو لايبدو شخصاً سيئاً. لكن اتحاد الشركات قرّر شيئاً آخر.

قال انه لايجوز الكلام مع مخرّبين. كان هناك بعض السيارات المخرّبة أو المحروقة. وأرى ان الاتحاد شديد التعلق بهذا الجانب من المسألة.

هتف محدّثه هو يضحك:

– عجباً، أنت لاتخسر شيئاً في هذا التخريب! على العكس– اما هم فعليهم ان يشتروا منك سيارات أخرى!

إن عودة بعض المندوبين الانتخابيين من كورسيكا وضع المحسنين القدامى للسيد «دومر»، القدوات الحسنة الذين أبَوا ان يفتك الطردُ في كورسيكا كما فتك في أثينا، وضعهم وجهاً لوجه أمام الوعود التي قُطعت لناسٍ من أجاكسيو ومن أمكنة أخرى. ولذلك رُئي أن من البراعة بمكان أن يُقترح على اتحاد الشركات بواسطة «وسنر» تعيين مجموعة من الشباب الذين لايحلمون الا بباريس. فتيانٌ موثوقون تماماً، ولم تلوثهم الدعاية المتطرّفة، النقابيةُ.

وافق وسنر، مع أفكاره الاشتراكية، ان لهؤلاء الشباب، في نهاية الأمر، الحقّ في العمل، مثلك ومثلي على حد سواء. ثم لابد من الانتهاء من هذا الإضراب. تلك مصلحة الجميع، مصلحة السائقين في المكانة الأولى.

«سأبلغ رئيس اتحاد الشركات كلمةً حول ذلك. بيت باستور! ومع ذلك فلست أعرف بادرة أجمل ولا أنقى ولا أكثر تجرّداً.

- ١٣ -

في صباح الأول من شباط ١٩١٢ كانت خطوط الصحف العريضةُ تفيض رعباً. لقد تبلبل الناسُ وهم يمضون الى عملهم في الفجر الذي لم ينبلج تماماً، بتلك العناوين الضخمة المروّعة التي تخلط بين ثلاث قصص. أمين صندوق هوجم في باريس شارع «ميسلي» في وضح النهار، وهو مزوّد بـ ١٥٠٠٠٠ فرنك؛ في «مونروج» مديرةُ دكان نُهبت تحت تهديد المسدس من قبل ثلاثة شبان؛ لكن هناك بخاصة قصة قطار كان فيه فوضويون مع أن كلتا العمليتين لاتبدوان مرتبطتين ارتباطاً مباشراً بعصابة «بونو».

العملية الأخيرة فتحت جميعُ الصحف صدرها لها: في «اورليان» فوجىء لصوصٌ في مكتب المحطة، فجرحوا نائب الرئيس وأحد أعضاء الفريق، وقفزوا الى قطار باريس الذي كان مسافراً، وفي «ايتامب»، بينما كان القطار يُفتش، أقدم مسافرٌ مشبوه أُنزل من القطار على قتل نفسه بطلقة مسدّس. ما المأساة التي كانت في حياة هذا البائس، ما الذي كان يخشاه؟ لم يكلّف أحدٌ نفسه معرفة ذلك. على ان الثابت انه لاعلاقة له بمأساة اورليان، وإنما كان خرّاط معادن، وفي جيبه سبعة فرنكات ونصف، وصورة امرأة وولدين، أما اللصوص فقد تركوا القطار وهو سائر، وبينما لحق بهما عريفٌ ودركي على الطريق، في مكان ما، في عرض الحقول، قتلوا العريف برصاصة في قلبه، وهرع الدركي بأقصى سرعته ليعود بالجند. استنفرت المنطقةُ كلها وعُبّىء رجالُ الدرك ورجال الجيش. وحوصر القتلةُ في المستنقعات قبل حلول الظلام، كانوا اثنين مختبئين بين القصب وهم يناوشون بإطلاق النار. وعندما أوشكا ان يُقبض عليهما، أدار أحدهما

مسدّسه على نفسه مات وهو يصيح: «عاشت الفوضوية» وانهزم الآخر. لكنه أُدرِك في محطة «ايتريشي» وقتله الجمهور.

في شوارع «ليفالوا» لم تكن مع ذلك هذه المأساة ولا عمليتا «مونروج» وشارع «ميسلي» هي التي تفسّر هذا الحشد الصباحي. فبين أبواب باريس وساحة «كولانج» كان آلاف سائقي السيارات ينتظرون تحت الرذاذ. كانت خطوات الدارعين تدوي على البلاط. لقد أُعلن استئنافُ العمل عند الساعة التاسعة في شركة «اتوبلاس» ومن ٢٥٠٠ سيارة لهذه الشركة ستخرج الف سيارة على ماقيل. امتلأت الشوارع منذ السادسة والنصف. وكانت سترات السائقين الزرقاء تضطرب عند زوايا الشوارع، وفي الدكاكين. وفي ساحة «كولانج» كانت مفرزة من الدارعين تطأ الأرضَ بشدة.

خلاصة القول ان رغبة اتحاد الشركات في مظاهرة ترمي الى تحطيم الإضراب دفعه الى المبالغة في تقدير قواه. أم كانت رغبته رغبةً في خلق الحوادث؟ والذي جرى أنه في الساعة التاسعة توافر ملاك ست وثلاثين سيارة: وُضع في الحقيقة رجلان في كل سيارة، بسبب الخطر. ثم إن بين هؤلاء الاثنين والسبعين الذين لايعلم إلا الله كيف جُمعوا، مَنْ كانوا يعرقلون السير وهم مُضربون لايقومون بأي عمل. ولم يمكن التوصل الى تنظيم الخروج الا في نحو التاسعة والنصف في كل سيارة سائقان، يرافقهما شرطي على دراجته والجميع تحت حماية الدارعين.

تركتْ ساحةُ «كولانج» المعاديةُ العرضَ يبلغ مُستقرّه. لكن سائق السيارة الرابعة هناك في الشارع وهو شاب كورسيكي سُلّم قبل قليل إجازة السواقة، قام بحركة مفاجئة ودخل في السيارة الثالثة امامه بصورة صاخبة. انفجر التصفيق في نوافذ المنازل: تقدير محترفين. ثم إن نوعاً من الضحك، ضحك الجماهير المهدّد والعريض، أثار منافذ الساحة وذلك عندما ارتمت

السيارةُ السابعة، كورسيكي ايضاً! على الشرطي المرافق بدراجته. فارتدّ بدراجته ودار على العجلة الخلفية - السيرك الآن. . ظلت جياد الدارعين تدوس روثها، في ساحة «كولانج».

دلف الموكبُ الى الشوارع كيفما اتفق له. وفي زاوية شارعي «جيد» و «فارزيلو»، بينما كانت السيارة الأولى تصل إليها، برزت فجأة جماعةٌ من مكمنها. نحو اثني عشر مضرباً. اوه! لم يطل بهم الأمرُ: ففي طرفة عين كان سائقاً السيارة منقوعين في الوحل الأسود، وقد أُلقيا من مقعدهما وقُلبت سيارتهما مثل خنفساء ضخمة، عجلاتها على جنبها، بليدة. أحدث ذلك جلبةً. صرخات من حولهم، استحسان. وكان يُرى من متاهة الشوارع جمهور غفير من الأهالي تتحرك قبضاتُهم وحدها، ومن خلف السيارة المقلوب صفٌ متذبذب يقوده سائقون مجلوبون لهذه المناسبة، وقد وقف الصف بلا حراك، مع اصطدامات وأجنحة مبعوجة. ورمى الشرطة راكبو الدراجات بأنفسهم جانباً ليتفادوا الصدمات الخلفية لهذه الأفعى الخرقاء، ذات الحلقات المطرّقة تطريقاً سيئاً. وفي زمنٍ لايكاد يُذكر انقلبت خمس سيارات وتحطم زجاجها وتمزّق غطاؤها، وسال وقودها واحترق. حينئذ لمع سيفٌ وأمر بالغارة، في ساحة «كولانج» فاندفع الدارعون في شارع «جيد»، تعرقلهم السياراتُ ويعرقلهم المتظاهرون والدرك والشرطة ذوو الدراجات، . حيث انقلبت سيارتان جديدتان.

هكذا نُقل «باشرو» الى المركز مشقوق الرأس، ومنه الى مستودع الشرطة حيث رفض إرساله الى المشفى الخاص.

ان حوادث «ليفالوا» وعملية «اورليان»، وعملية «مونروج» ولاسيما عملية شارع «ميسلي» التي أثارت ذعراً حقيقياً في عالم المال بعد خمسة أسابيع من شارع «اوردنر»، كانت موضوعاً لجلسة مجلس الوزراء. ارتجف الناس في البيوت البرجوازية، وقد عبّر جوزيف كيسنيل بصوت عالٍ عن

رأيه: لم يمض سوى القليل من الوقت على وجود «كزافييه غيشار» في الأمن، ولم يمكنه بعد إحكام قبضته على باريس، أما مرؤوسه «جوان» فكان عاجزاً. كان ذلك لدى «وسنر» حيث تمّ اجتماع مصغّر غير رسمي، اجتماع حميم تقريباً بين رجال اتحاد الشركات هؤلاء. وبما ان الشرطة عاجزةٌ عن حماية السائقين الذين يريدون العمل، في وجه الفوضى المتعاظمة، فمن الواجب أن يُعطى هؤلاء البائسون الذين لايجوز ان نرسلهم هكذا الى الموت، أن يُعطوا سلاحاً.

أحد مديري مرآب شركة مركبات الأجرة شاركهم الرأي: بل لابد من أن نوصيهم ألا ينتظروا حتى يُقتلوا.

أن يطلقوا النار أولاً حتى ينتهي السادةُ القتلةُ! احتجّ «وسنر» قليلاً. لكنه كان منفعلاً جداً بقصة «اورليان». لم يبق في أيامنا أمنٌ. رقّ قلبه لخراط المعدن، ضحيّة غلط محزن وقال: سبعة فرنكات ونصف في جيبه، لاشك انه عاطل عن العمل.. لو جاءنا لأعطيناه عملاً.

في نقابة الحوذيين السائقين، استقبل المواطنُ «فيانسيت» الصحفيين. لقد أمكنه ان يلاحظ الأثر المؤسف الذي تركته أحداثُ الصباح في الجمهور. يوشك إضرابه ان يغرق في اللاشعبيّة. وقد يشرع الناسُ في الخلط بين السائقين والفوضويين. كان المواطن «فيانسيت» يستنكر كلّ عنف. وكان متأسفاً بصدقٍ على ماجرى هنا. لقد صدق ظنّ «وسنر» فيه: انه رجل يمكن الحديث معه. كان بشعره الذي يتشعّث طوال الوقت، وشاربه الضخم، ومتانة رجل الحانة، يمثل هيئة ابن الشعب الجسمانية ومعه يمكن النجاح في سياسة الجمهورية الثالثة اذا ما توافر الذكاء. صرّح للصحافة: «أنا قلقٌ وسوف آسف اذا حدثت مشاغبات جديدة. ولسوء الحظ لا أستطيع ان أضمن اعصاب ستة آلاف رفيق ألجئوا الى البطالة منذ أكثر من شهرين..»

كان يروح ويجيء في الغرفة، بكل مسؤوليته المتصببة عرقاً على

جبينه، في المقرّ الصغير المدفّأ بإحكام جفف عرقه وقال: «الإضراب انه ضرورةٌ رهيبة».

بذل وسعه في لجنة الإضراب المركزية ليتجنب عودة حوادث كحوادث الصباح، كانت الأكثرية ضده لكنه ناشدها لترجع عن موقفها. كفانا ما لقينا من هذه الطرائق الفوضوية، في وقت الفوضويةُ فيه هي الشائعة. وهل يريد السائقون الشرفاء ان يتضامنوا مع القتلة الذين طوردوا بالقرب من «ايتامب»؟ مرّ اليوم التالي في المفاوضات من مكتب « ستيغ » وزير الداخلية الى « بورصة العمل » في مقر اتحاد الشركات، ولم تكن الحكومة أقلّ قلقاً من المواطن «فيانيست». رفض أرباب العمل البحث، وعادوا الى تنظيم طلعات السيارات. وحرية العمل إذن؟

الحق أن «فيانسيت» شرح ذلك للمضربين، إن عدد الصُفر كان مع ذلك ضئيلاً وماذا نخسر لو تركناهم يخرجون؟ كان شيئاً تافهاً.

الأحرى بنا ان نشعرهم بالقوة الهادئة التي تتمالك نفسها. كانت الغلبةُ لهذا الرأي.

ما إن عملت إدارة الشرطة بذلك حتى سمحت لاتحاد الشركات بالتظاهر في صبام اليوم التالي، بما أن هؤلاء السادة يتمسكون بذلك. في صباح الثالث من الشهر إذن خرجت ٤٩ سيارة في ساحة «كولانج» و ٥٥ في مرآب شارع «واغرام» وحوالي ستين في «شارون» لكن الذي أُجلس على المقعد هذه المرة، ليس سائقاً ثانياً، بل حارساً بلدياً بالبزة الرسمية ومعه بندقيته. وهذا بناء علي طلب «جوزف كينسيل».

استولى على المضربين سخطٌ عارم، . لكن بعضهم ايضاً بيّن كم كان «فيانسيت» حَكيماً في هذه الظروف. كانت ستقع مذبحةٌ غير مجدية ولاسيما أن جميع هذة الطلعات تمّت تحت اشراف الدارعين.

كان «باشرو» في زنزانته يهْذي ويتقلّب . كان عطشان.

في ٥ شباط وجد «وسنر» دقيقة من السرور، وهو يفتح صحيفته، ذلك ان برقية من «بكين كانت تُعْلن ان امبراطورة الصين وافقت على تأسيس الجمهورية الصينية. وعلى شرف هذا الحادث اصطحب صانعُ السيارات «ديان» الى «مارجيري» حيث تناول الغداء مع الشمبانيا: «تصوّري، يا صديقتي العزيزة، الصين... امبراطوية مترامية الأطراف، أكثر البلدان تخلفاً في العالم، وها إن مبادىء ٨٩ تشقّ طريقها عابرةً السور الكبير. الامبراطوية نفسها توافق على الجمهورية!».

أيّ منظور للعالم بأسره! ولفرنسا الديموقراطية بادىء ذي بدء.، إن تلك المناطق الواسعة المفتوحة للتقدم.. سوف يُقام في كل مكان فيها الهاتفُ السلكي واللاسلكي وجميعُ حسنات الحضارة، وسيحارب الزهري والأفيون (مع ا ذلك سيكون صعباً مع الانكليز)، وستكون هناك سيارات جتى في أعماق صحراء «غوبي..».

قالت ديان: «تحمّست، ياعزيزتي، ولم تأتك الطلبات بعد..».

في هذه الأثناء استمرّ الإضرابُ تماماً، وكانت النزهات اليومية تكلف غالياً إذ كان لابد من دفع أجرة الحارس البلدي. تحركوا في مقرّ اتحاد الشركات. هتفوا للصحف. لم تكن الصحفُ صارمة. كفّ «وليامز» عن حملته. ماهذا؟

كان السيد «بيكو» المفوّض في حيّ «سان ميري» يتأهب للذهاب كي يلعب لعبته بالورق، عندما أُنبىء أن ثمة رجلين يسألان عنه. طيّب! كانا السائقين «شاردير» و «بورديري»، من شركة «السيارات والمركبات»، وكانا يسيران بسيارتهما. أقلاّ سائحين، رجلاً وامرأة. شخصين مرموقين. وفي مستوى شارع «اوبري لي بوشيه» في جادّة «سيباستوبول» ألقى شاب يركب دراجة ثلاثية قمقماً من «الفتريول» باتجاههما. لا، لم يُصابا.

دُهش السيدُ المفوّضُ. لكن كيف عرفا إذن أنه من الفتريول؟ حُطم

زجاجٌ . بالفتريول؟ لا ، بالقمقم . وتلطّخ ركّابُ السيارة الأربعة الزبونان والسائقان. قال السيد المفوّض : «مهلاً . اوه! السائقان بالطبع لم يصبهما شيءٌ يُرى من الفتريول ولا السائح ايضاً . أما السيدة فقد تلوّثت ، مع شديد الأسف ، وتبلّل فستانها واحترق الجانبُ الأيمنُ كله من وجهها» .

سألهما المفوّض :

وأين تلك السيدة؟

لسوء الحظ لايستطيعان ان يُفيداه بشيء عنها : فما أن وقفت السيارة حتى انسلّ الزبونان ، منزعجين جداً ، وروفضا ان يُعطيا اسميهما وعنوانهما . شخصان مرقومان . لم يشاءا ان يتورّطا في حدث تافه . قال المفوّض :

- «ومع ذلك ، فإذا كانت السيدة قد حُرقتْ حروقاً شديدة فنيغي ان تذهب الى المشفى ، أو الى الصيدلي على الأقل ، أما العقابيل ، فإن التأمين . .

لعل الزوجين لم يفكّرا في ذلك . أو أنها امرأة تزوجت صاحبها وهي شابة ، جميلة جداً قبل الفتريول على كل حال .

نشرت جميعُ الصحف هذه القصة ، ومع أن الشاب ، راكب الدراجة قد اختفى تماماً ، فقد وُصف فيها بأنه نقابيٌ شرس .

ا لحق أن إضراب السيارات قد كان من آثاره بخاصة تكاثرٌ رهيب في حوادث السير في باريس . كان هناك موتى . كان السائقون الذين لاتجربة لهم والذين شغّلهم اتحادُ الشركات سبباً للفواجع . وكان المضربون يتذرْعون بهذه الحجة . وهو ، على حدّ زعم وسنر ، غير صحيح تماماً من جهتهم . لأن لهم مسؤوليتهم في ذلك ايضاً .

السبت ، العاشر من شباط ، امتاز بثلاث وقائع في مجلس الشيوخ . حدثت مبارزة كلامية تتطاير شرراً بين كليمنصو وبوانكاريه ، صدّق رئيس

المجلس في نهايتها الاتفاق الألماني الفرنسي على يد مجلس الشيوخ بـ ٢١٢ صوتاً ضد ٤٢ .

في المساء جرى أول طواف عسكري في باريس مع موسيقا فوج المشاة ١٠٢ . وهذا الطواف كأنما كان يلطّف في قلب الفرنسيين أثر تصويت بعد الظهر . وعندما خرجت السيدة «لوبيز» في نحو الساعة الحادية عشرة ، على قدميها ، وكانت عند أصدقائها وسيارتُهما في التصليح ، صادفت الموكب الذي كان يتبعه شبانٌ متحمّسون يصيحون : عاشت فرنسا ! وهم يمدّون أذرعهم الى السماء . لقد أحبّت السيدة «لوبيز» العسكريين دائماً وبدت لها الموسيقا مُثملةً . فسارت على خطا الجنود الصغار . وجرّوها هي وغيرها كما يقود عازفُ الناي الفئران . صعدوا حديقة «مونسو» الى «مونمارتر» . ودهشت السيدة ان تجد نفسها في شارع «باريس» عندما اثار رجلٌ ، غريب التصرّف ، عاملٌ ربما كان أجنبياً ، هياج المتظاهرين لانه لم يحسر عن رأسه أمام العلم . ظل في مكانه كمن تبلّد ، على حافة الرصيف ، وقبّعته المربّعة على رأسه . انتزعها الجمهور منه وقضى عليه ، ذلك الضعيف . لعله فوضوي . او اشتراكي .

كيف تعود السيدة «لوبيز» الى «نويي»؟ لم تتعوّد الميترو ، ومع هذا الإضراب . . لحسن الحظ ، مرت سيارةُ أجرة فاستقلّتها . في نحو منتصف الليل ، وصلت الى مفوضية بلدية «نويي» وهي أشد ماتكون بلبلةً . ففي زاوية منعزلة من حديقة «نويي» توقفت السيارةُ . فتح السائقُ الباب وانتزع من السيدة «لوبيز» حقيبة يدها حيث وضعت بضع مئات من الفرنكات وساعتها الماسيّة ، وعقد اللؤلؤ الذي كان في عنقها ، ولحسن الحظ أنه غير السلسلة الكبيرة التي قلما تضعها . ولحسن الحظ أنه غير السلسلة الكبيرة التي قلما تضعها ، لكنه عقدٌ يبلغ ثمنه نحو خمسين ألفاً .

تحفّظت الصحافة جداً على هذا الحادث . وبالطبع لم تكن السيدة «لوبيز» حريصة على إذاعة الخبر بسبب الكونت «ديفرو» . لكن اتحاد

الشركات اتصل هاتفياً. بجميع الصحف. بل إنه أرسل الى السيدة «لوبيز» ممثلاً، رجلاً مرموقاً، قدم لها شيكاً من قبل هؤلاء السادة. أحسّ هؤلاء السادة أنهم مسؤولون عن رجالهم، وكانوا يأملون ان يكفّ الناس عن الكلام على هذه القضية المؤسفة. قد وجدت السيدةُ «لوبيز» ذلك لبقاً جداً من جانب اتحاد الشركات. وقدّر ذلك الكونتُ «ديفرو» الذي كان يعرف «وسنر».

من جهة أخرى، انصرف همُّ الناس نهار الأحد الى شيء آخر. فقد سار في الشارع مئة وخمسون ألف عامل خلف نعش «ايرلونت» وهو جندي حُمل جثمانُه من افريقيا حيث قُتل ظلماً كما تزعم الصحافةُ الاشتراكية. ويبقى أن اثنين وعشرين شرطياً جرحوا في باريس هذا اليوم. وكذلك بعض المتظاهرين. لكن الأمر ليس واحداً. وقد شدّد اتحادُ الشركات في تقرير لوزير الداخلية على وجود الجموع من المضربين في الجنازة: هذه هي حقيقة هؤلاء الناس الذين برهنا لهم على ضعفٍ مجرم. هل كانت الحكومة تجد كافياً ان تُسيِّر الدوريات في «ليفالوا»، قلعةَ السائقين، وأن تفرّق هناك، بين الحين والحين، التجمّعات في الحانات والدكاكين.

وقد اشتكى تجارُ «ليفالوا» من ذلك فيمن اشتكى: تلك عراقيل في وجه حرية التجارة وحرية العمل.

— ١٤ —

رأت باريس أيضاً، في يوم السبت ١٧ شباط، طوافاً عسكرياً أكثر تألقاً من الطواف الأول، وأكثر تنظيماً. ليس في باريس، والحمدُ لله، المناهضون للروح العسكرية وحدهم.

افتُتح في يوم الثلاثاء التالي، في ليون، مؤتمرُ الحزب الاشتراكي. كان لبّ المناقشات فيه موضوع الساعة بالذات الذي سوّغه اضراب

السيارات: العنف الفوضوي أثناء الإضرابات. ومنذ حركة عمال السكة الحديدية كان النقاش مفتوحاً. كان في قلب الحزب أناس لايشجبون «بريان» إلا شكلاً، لكنهم كانوا يفكرون أن وزير الداخلية عندما قمع حركة هؤلاء العمال فهو لم يفعل إلا ماينبغي ان يفعله كل رئيس حكومة في وجه مثل هذه التجاوزات.

ان مطاردة الثعالب والتخريب اللذين امتدحهما الفوضويون النقابيون «المامزيل سيزاي» والمواطن «براوننغ»[1] كما كان يقول «غستاف هيرفي»، كل ذلك كان غير شعبي البتّة بين «العامّة». فقد وفق الحزب الراديكالي، في تور، ضد هذه الطرائق. وفي ٢ كانون الأول طعن عليها المواطنُ «شيسكيير» النائب الاشتراكي، وسط الانفعال العام للجمعية الوطنية حتى على صفوف اليمين. ودعم «كومبير موريل» «شيسكيير» وفي مؤتمر ليون هوجما بعنف. فدافعا عن نفسيهما مستعيدين بتألق حججهما البرلمانية. قال أحدهما: الإضراب سلاحٌ ذو حدين، وهو يجرح المضربين اكثر مما يجرح ربّ العمل.

مضى حتى هذا اليوم نحو تسعين يوماً ومايزال السائقون يقاومون اتحاد الشركات.

قال المواطن «شيسكيير» من على المنبر»؛ «يجب اقتلاع الجيل الفوضوي... قلتُ انه لاينبغي ان نجعل العنف منهجاً. وأعربتُ عن مدى الاحتقار الذي يبعثه فيّ الحذاء المحدّد وآلة التطريق. قلتُ ذلك في البرلمان وأقوله هنا. وأنا أكن للمضربين كرهاً بلغ من شدته أني لا أجد الكلمات الكافية لفضحه».

أحدث ذلك جلبة عظيمة لكن من المندوبين مَنْ قال: ان ذلك صحيح في نهاية المطاف، وأننا نصيح على رجال الشرطة الذين يضربون الناس في

(١) سيزاي: المقراض، وبراوننغ: المسدس.

مفوّضيات الشرطة ما الذي كان يفعله المضربون مع الصفُر غير ذلك؟ ألم يكن من الأفضل استخدام الإقناع.

دافع «كومبير موريل» بكثير من القوة عن خبطته البرلمانية التي ألقاها في٢ كانون الأول، وطلب من المؤتمر مندداً بالمناورة ضد «شكسبير» وضدّه ان يدين التخريب ومطاردة الثعالب. هل يملك المؤتمر الشجاعة ليفعل ذلك، ليدافع عن الموقف الاشتراكي؟ على كل حال، صفّق المؤتمر «لكومبير موريل».

لكن تدخّل حينئذ جوريس العظيم ومرّ صوتهُ الآخاذ بالجمعية، فكأن المناخ قد تغيرّ. لا لأنه دافع عن الأعمال الفردية، عن طرائق «هيرفيه» لكنه أظهر للمندوبين خطر عريضة «مؤيدة لكومبير موريل». فذلك اعلان الحرب من الحزب الاشتراكي على الاتحاد العام للعمل، والقطيعة مع الجماهير العمالية. وفي اليوم التالي برأ المؤتمر «شكسبير» و «موريل»، لكنه أبى ان يتبعهما. ولم يتأخر الرد على مؤتمر ليون. ففي اليوم الثالث، في نحو الساعة الثالثة والنصف مساء، في مرآب «واغرام»، سُمع انفجارٌ وسط السيارات المصفوفة واشتعلت إحدى السيارات. تمت السيطرة على الحريق لكن داخل هيكل المركبة احترق. وفي الساعة العاشرة تكرّرت الحادثةُ في سيارة أخرى، وفي نحو الثانية صباحاً، جاء دور سيارة ثالثة ورابعة، حينئذ فُتشت جميعُ السيارات، ووُجد في إحداها سلاحٌ لم يُفجر.

حدثت حوادث مشابهة في الأمسية نفسها، في مرآب «شارون» في الشركة، العامة للسيارات، وفي ساحة «كولانج» في المرآب الأول لشركة «اوتوبلاس» الفرنسية. المجموع عشرة انفجارات. وقد خصّت الصّحافة هذه القضية بالعناوين نفسها التي كرّستها لعصابة «بونو»، واعتبرت ذلك اعتداء فوضوياً على اتحاد شركات السيارات. وكان ذلك دون شك من فعل

المضربين. لقد أرادوا ان يحرقوا كل مرآب ولحسن الحظ انه قد حيل دون انتشار الشر.

كانت جميعُ السيارات التي اكتُشفت فيها أسلحةٌ، سيارات سارت وقادها الصفُرُ. وقد أشير في الصحف بسخطٍ الى رفض جوريس استنكار مطاردة الثعالب، وذلك قبل يومين.

بيد أن قائد لواء التحريات «السيد «كور» صرّح للصحف التصريح التالي: «ان المفجرات لم تكن خطرة البتةُ. كانت ترمي فقط الى اشتعال العربات التي وُضعتْ فيها. ويدلّ تركيبها على معرفة من الفاعلين، بالكيمياء. وربما كان المجرمون بين السائقين الذين يُشغّلون كلّ يوم منذ استئناف العمل.

لغة غريبة. احتجّ اتحادُ الشركات. كان واثقاًمن جميع أشخاصه العاملين. فسألت النقابة في رسالةٍ الصحف: حتى السائق الذي سرق عقد اللؤلؤ من السيدة «لوبيز»؟ المؤكد ان للسيد «كور» طريقة غريبة في فهم مهتته، بحيث يعطي المضربين حججاً. رأى «جوزيف كيسنيل» وليامز ،وفي اليوم التالي شرحت «الجمهوري الصغير» القضية كلها.

لقد دلّ التحقيق ان الأسلحة وضعها في السيارات مسافرون تكتنفهم الأسرار. كان هناك روسي أصرّ ألا يستأجر سوى سيارات «الشركة العامة للسيارات». ثم إن سائقاً مضرباً اختفى منذ يومين من منزله في «ليفالوا». ولم تُصرّح الصحيفة بالاسم لكي لاتُزعج الشرطة. وكان هناك ايضاً «الرجل ذو المعطف الرمادي».

في اليوم التالي، تلقى مدير شركة «اوتوبلاس»، في «ليفالوا» إنذاراً في بريده يُنذره بأن ثمة من يريد اشعال النار في مستودعات البنزين. احتلّت الشرطةُ على الفور شارع «الفنون» وشارع «مارجولان» وفُتش جميعُ المارةّ، وأوقف كثيرٌ من الأشخاص الذين لم تكن أوراق اثبات شخصيتهم حسب

الأصـول. وبين الآثار الدالة على المجـرم التي ظهـرت امس أجـمـعت أمـرها «الجمهوري الصغير»: اختارت المضرب الذي اختفى. لايمكن ان يكون غيره الفاعل لهذه الاعتداءات، فابحثوا عمّن تفيده الجريمة.

في يوم السبت ٢٤ شباط نامت باريس متأخرة على نغمـات «سيدي ابراهيم» و«لحن السير اللوريني». كانت الطوافات العسكرية فوزاً حقيقياً.

– ١٥ –

بعد شهـر، خـرج «باشرو» من السـجن. وكـان رأسـه الذي لم يشف تماماً، مؤلماً. كانت تصيبه دوخة. أكد له الطبيب ان ذلك ليس شيئاً، ولعله حقاً ليس شيئاً مهماً. لقد حُكم بالجرم المشهـود فنُقل الى «السانتيه»، ثم الى «فـريزن». لمَ هـذه الرحـلات؟ لا فـائدة البتـة من السـؤال: بيـد أنه إنما تألم حـينئـذ أشـدّ الألم من رأسـه. هذا العـمـلاق الجـريح كـان يتـوجّع كـالطفل الصغير.

عندمـا أصـبح في شـوارع باريس، في ٢٩ شبـاط، اتجهت نظراته الأولى الى السيارات. كـان ثمة سيارات، لكنها كـانت ترفع البطاقة النقابية، مدلّلةً على أنها تدفع جيداً القسط اليومي. هيا، فالإضراب مستمر. أين يذهـب؟ كـيف يعـود الى فندقـه وهو لايستطيع أن يسـدّد أجـرة غـرفـتـه؟ وأغراضُه بقيت فيها.

لم يكن «الباشرو» امرأة ولا أحد يعتني بما خلّفه وراءه.

بيد أنه لم يكن وحده: فهناك الرفاق. «بورصة العمل». فإليها يمضي رأساً الـذين يخرجون من السجن. وهو بالضبط ماكـان يقولـه «ميركورو». كـان النقيـب مهـتـماً بتنظيم الطواف العسكري. كـانت الحكومة تعلّق أهمية عظيمـة على هذه التجوالات بالموسيقا. كـان المقصـود ان تعود الى الجيش هيبتُـه التي عـرّضـهـا للخطر تواطؤ السلطات العـامـة من المناهضين للروح

العسكرية حتى في الجيش نفسه (ضباط ماسونيون لم يكونوا يترددون في دعوة الجنود الى رفض الطاعة، تماماً). وقد عُينت ملاكات خاصة لإعداد البرامج وتنفيذها. كان «ميركورو» يؤدي هذا العمل باهتمام: كان كل سبت يشعر وكأنه أقام هو نفسه احتفالاً. وشرح لهيلين عمّا كانت عليه «بورصة العمل»: ابتكار حديث. معقل الفوضوية واللاوطنية ومقرّ أركان المخربين. «لو تركونا نعمل، لما لزمنا وقت طويل كي نطهر تلك الأوكار من قطّاع الطرق!» كانت إحدى أفكار «ميركورو» أن يمرّر الجند وموسيقاهم كل سبت من شارع «شاتودو» أو على الأقل من جادّة «ماجنتا». «ينبغي ان يسمع قُطّاعُ الطرق موسيقانا! ينبغي أن نعوّد المواطنين هذه الفكرة وهي أن أعداءهم هم هنا!».

في الأحد السابق، في «ليفالوا»، عند زاوية شارع «جيد» وساحة «فيلبيه»، أصاب حجرٌ سيارة يقودها اثنان من الصفُر. كان حولها ناسٌ، لكن السائقين نزلا من مقعدهما وانقضّا على عاملين لا دخلّ لهما في هذه القصّة: كانا بين مدعوّين الى عرس تجمع أصحابه في حانة في شارع جيد، قريبة من المكان. تدخّل أصحاب العرس، ولما أحسّ المهاجمان بأنهما مغلوبان فرّا لكن بعد أن أفرغا مسدّسيهما على الجمهور. وظل طريح الأسفلت شابٌ جُرح في بطنه.

في نهار الاثنين، في اجتماع «بورصة العمل»، أصبح سخطُ المضربين متهدّداً. لقد تسلح الآن الثعالبُ وسرت الأنباء: إن اسم مدير الشركة الذي أمر بتوزيع المسدّسات في مرآبه كان يُلفظ بغضب. طلب أحدهم عنوانه. قلقت مديريةُ النقابة: ان صعوبات الحياة المتزايدة بالنسبة الى المضربين، وبعض الأخذ والردّ بينها وبين السائقين العاملين الذين اضطرت النقابة الى دفع ضريبة الإضراب التي يدفعونها كل يوم الى ستة فرنكات، كل ذلك مهّد لردود الفعل العنيفة. قرأ فيانيست على الجمهور الرسائل المغفلة التي تهدّد بتفجير دار النقابة في شارع «كافيه». ومن المؤكد

ان المعالم التي أخذت بها الصحفُ في عملية قنابل المرائب كان لابدّ من هجرانها واحداً بعد الآخر. فجميع الاستفزازات أخفقت. ماذا يخبىء اليومُ التالي؟

اليوم التالي كان اليومَ الذي تصطحب فيه السيدة «دي ليران» «غي» عبر «التيرن»، ليرى صديقيه «السكريابين»، بعد خروجهما من معهد «كارنو» حوالي المساء.

في هذا اليوم في ساحة «الهافر»، ومن سيارة فيها ثلاثة رجال، انطلقت ثلاث طلقات نارية، فقتلت شرطياً كان يريد ان يحرّر محضراً. ثم إن السيارة أفلتت، كالشهاب عبر باريس، بينما توقف ملاحقوها من الشرطة الذين لم يأخذوا اهبتهم لذلك، بسلسلة من المصادفات المشؤومة: إذ جاءت امرأة ووقعت بغباء تحت عجلات سيارة الملاحقة التي صادرها شرطيان، فانكسر أحدُ أضلاعها لكن «بوتو» وغارنييه، و «رايمون لاسبانس» اختفوا، بعد أن روّعوا في «نويي»، اثناء مرورهم، أرملة النقيب «دي ليران».

اتضح عجز الشرطة بقوة مفرطة كافية لأن تُتخذ قرارات مباشرة:

ولاسيما ان اللصوص هاجموا في الليل مكتب كاتب العدل. ولذلك أُوقف يوم الأربعاء، «بويه» و «ديودونيه» وتعرّف الجابي «غابي» ضحيّة شارع «اوردنر» منصاعاً على المعتدي عليه، في «ديودونيه». ولم يبق سوى تهنئة الشرطة.

ومع ذلك. كان اللصوص يجرون دائماً.

كان التفكيرُ في الأوساط الحاكمة، أن الأحداث الحديثة تتضمّن دروساً ينبغي أن تُستخلص استخلاصاً حسناً. ففي اتحاد شركات السيارات، لقي «جوزيف كيسنيل» موافقة الجميع عندما صرّح بأن جسارة الفوضويين تستلزم تدابير استثنائية في البلاد. وطالب مقرّرُ الموازنة العام في مجلس

باريس البلدي، السيد «دوسيه» الشهير، انشاء «شرطة وقائية» للعاصمة. كتب يقول:

«يجب أن تكون الشرطة وقائية. وأهمُ من ذلك أن رجال الشرطة المكلفين مهمة سرّية وشريفة هي حماية الأمن العام. عليهم أن يعيشوا حياة المجرمين، وعليهم أن يدخلوا جمعيات المنحطين عن طبقتهم، واللصوص، . وأن يشاركوا في فحص «الضربات» المَنوية، وأن يدرسوا مع الذين يدبّرونها حظوظ النجاح والفشل. ولست أجهل أن الأمن الباريسي يملك بعض الشرط الحاذقين البارعين الذين يجتهدون بشيء من الحماسة، في هذه المهمة القاسية التي حدّدتُها آنفاً. لكن. . .».

كان «جورس دي هوتين» يقرأ لمارتا، بصوت عالٍ هذه المقالة، في الصالون الصغير، في الفندق العائلي.

انفجر ضاحكاً:

- «دوسيه» هذا مهرّج! وكأن اعتقالات الأمس مثلاً لاتبرهن تماماً أن الأمن الوقائي موجود! وكثيراً مايُقال هكذا أن للشرطة يداً في الاعتداءات الحديثة، ولافائدة من تكريس الشيء ببطاقة ألا يكفي لواءُ الفوضويين؟ لقد أخذ النقابيون يحتجون على الاستفزازات بلا سبب معقول فلماذا لايؤسّسون في مديرية الشرطة، ماداموا فيها، «قسم الاستفزازيين»، مع لافتة على الباب؟».

قالت مارتا:

- بردتْ قهوتُك، ياصاحبي.

غريبةٌ أيام ٢٩ شباط! فمن الصباح الى المساء هناك ناسٌ ليس في رؤوسهم شيء سوى ندرة أعجوبة العام الكبيس: شيءٌ كأيام العطلة في حياتهم، كالزمن المسروق من الموت. السنة تقفز على رجل واحدة مثل

تلميذ المدرسة. لكن هذا الإحساس لم يكن لدى الجميع. فهناك مصالح تظل جارية حتى في يوم الأحد، أليس كذلك؟ وحوالي الساعة السادسة وأربعين دقيقة مساء، في ٢٩ شباط هذا، جاء الميكانيكي «غودير» والسائق «باتريا»، وكان هذا قد حل في باريس حديثاً منذ يومين، واستقرّ مباشرة وراء مقود السيارة، جاءا يلتمسان أمام محطة الشرق عون شرطيّين «جوونان» و «بيريشو».

ذلك أن المضربين الخارجين من «بورصة العمل» والصاعدين الى «باريس»، وكانوا مئتين تقريباً، رجموهما بالحجارة في شارع «ماجنتا». أما لماذا كان «غودير» و «باتريا» يتسكعان عند مخرج «بورصة العمل» فذلك مالم يهتم به الشرطيان. والحق أنهما لم يصابا بأذى. ويمكن التساؤل لأية غايةٍ قصدا مع الشرطيين في سيارتهما، الى مَفْرق «باربيس» ليكلفوا الشرطيين ايضاً «مورو» و «ديبيار». وبعدها جاء الستةُ كلهم من جادة «باربيس» ليمروا أمام المضربين. وعندما بلغوا مقدّمة الرتل ابطؤوا في السير حتى تعرّف المضربون على «باتريا». هل خاف هذا السائق المبتدىء؟ لقد حرك مقود السيارة حركةً نزقة جداً حتى حصر نفسه بالحافلة الكهربائية. وهنا أحدق به العمالُ وتطايرت في الفضاء جميع أصناف النفايات والوحل المكتّل. انضم الشرطةُ إليه.

كيف جرى ان طلقةً نارية انطلقت أمام مشرب الجعة الكائن في ٢٦، جادة «الشابيل»؟ هذا مالم يثبت قط. لكن الشرطة أطلقوا النار جميعاً في آن واحد، عند هذه الإشارة. وأُخلي الجرحى على أيدي رفاقهم. لابد أن يكون هنا مُستفِزٌ. وكان المضربون سيكتشفونه دون شك بالرغم من الفوضى والمناوشة. لكن الشرطة أوقفت رجلاً. كان هذا عميلاً بثياب برجوازية. يبدو انه مجرّد خطأ.

جاء تحويل الأنظار على شكل سيارة. ثعلبٌ! كان ذلك شبيهاً بمغطس عندما ينصب الماء المتجمع في ثقب التفريغ. ألقي بالرجل أرضاً من مقعده. فأمسك الشرطيُّ «مورو» المضربَ الذي فعل ذلك من عنقه. أهوى حجرُ تبليط على رأس الشرطي فأرخى قبضته. وانهال عليه مطرٌ من الحجارة.

أوقف مصادفةً رجلٌ معصوبُ الرأس؛ كان السائق «باشرو»، العائد الى الجريمة ثانية، الذي خرج من السجن وعاد إليه.

- ١٦ -

كانت كاترين في شتاء «بيرك» تُزجي نقاهةً معنويةً ممزوجةً كلياً بالريح البحرية، والمطر، وبرمل الكثبان.

قلما كانت تبدو مسوّغةً التنبؤاتُ الطبيّة التي أثقلت حياتها أيّما إثقال. هل شفيت؟ على كل حال، بدا المرض كأنه يتّخذ شكلا غافياً، هيّناً. لم يبق في رئتيها سوى ندوب، إذا صدق طبيب «بيرك» الذي استشارته. لكنه كان يضيف على عجل: «ومع ذلك فأنا انصحك ان تستفيدي من إقامتك هنا، لتُمتني أنسجتك..».

كان كلُ شيء يسير سيرةً تغفو وتنام، حتى كره الزوجين «بيزديو»، الذي بدا كأنه يقضي شتاء آمناً في الدارة المشتركة. كانت «ميلاني» تذهب وتجيء محيطةً آنستها بألف رعاية. وقد جاءت ذات يوم بأختها وبزوج أختها العامل المعدّن في «آنزان» اللذين قدما الى «بيرك» في يوم الأحد، وذلك لكي تريهما معلّمتها. كان زوج أختها فتى طويلاً يشبه «فكتور ديهاينين»، مما قرص كاترين في قلبها. وكانت زوجته مثل ميلاني لكن من نمط أكبر، وقد شحبت من بؤس منازل المعدّنين، ومن متاعب الأمومة وكان آخر أطفالها بين ذراعيها. كان شيئاً صغيراً صارخاً، ماتزال يده عاجزة عن الالتفاف تماماً، وكانت تسعى الى التقاط أشعة شمس شباط الضحلة.

هذا الحيوان الصغير، المستبد، اليرقاني، بدرت منه لكاترين أو أمامها ابتسامةٌ من وراء هذا العالم اصابتها في الموضع الذي كانت فيه عزلاء. وضعت المرأةُ الشابةُ اصبعاً خجلةً على تلك الهنة التي لم تصبح بعد قبضة للطفل. وفجأة أخذ يبكي. فاعتذرت الأم وهي تهدهد هذه الرزمة من الأسى التي تعالى صراخُها. جلست وفتحت صدارها، وسكّنت قطعتها المستقبلية هذه بثدي ذابل قبل الثلاثين لكنه اشقر مثل كثبان «بيرك» الرملية، ومفعمٌ بحليب عذب ومُوجع. خطّت يدُ الصغير، بينما كان يجري فيه ايضاً دمُ أمه. أخذ يرضع: توقفت نظرتُه، الواسعة في هذا الرأس الذي لاشعر فيه، على كاترين، دون ان يقطع العمل النهم لفمه.

فكرّت كاترين طويلا في هذا الطفل دون أن تعلم لماذا.

في اليوم الذي أطلق فيه اتحادُ النقابات واتحاد عمال النقل في باريس، نداءً الى التضامن مع سائقي السيارات، نداء يوقظ في قلوب هؤلاء السائقين الأمل بالإضراب العام، عقُد في «بيرك» اجتماعٌ فوضوي ضد الاعتقالات الحديثة في قضية لصوص السيارة: سُجن مُحررا صحيفة «الفوضى» كيلبانشيش و «ريريت ميترجان» في ٣١ كانون الثاني، وأوقف الطابعُ «دي بويه» في ٢٨ شباط، و «ديودونيه» وامرأتان، أحداهما صديقة «ديودونيه»، كانت مناسبة لانتصار الصحافة برمّتها لأنها دُعيتْ «فينوس» الحمراء (وأنت تفهم معنى ذلك!) تحدثت كاترين طويلا مع عامل من عمال الخط الحديدي، سائق في شركة الخط الحديدي من «بيرك - الشاطىء» الى باريس - الشاطىء. مع ذلك فقد كانت تتفاهم تفاهماً أفضل مع الفوضويين منها مع الاشتراكيين. كان تفكر في فكتور بمرارة.

وبما أنها كانت تُقدم على كل شيء، استقلت في اليوم التالي قطار باريس. دون داعٍ. وفي القطار، انصرف اهتمامُها الى الإعلان الهائل المنشور في الصحف لعلاج الدكتور «ماكورا». ان هذا التجسّد الجديد للمخلص سقط على باريس من السماء الأمريكية مع جهازه الاهتزازي الذي

يشفي كل شيء. وفي فندق جادة «هوسمان» حيث كان يقيم الشافي بأبهة الملك الزنجي، مرّت أوجاع العاصمة. وعلى مقاعد الجادة، كان الناجون بأعجوبة يثرثرون. شوهد المشلولون يدخلون ثم يخرجون وهم يرقصون، مكسّرين عكازاتهم على ركبهم، وسط جمهور المتسكعين. لقد عادت «لورد» من جديد مع أبهة العلم ونفوذ بلد ناطحات السحاب واصحاب المليارات.

كان «فكتور ديهاينين» في «بورصة العمل» عندما جاءت كاترين تبحث عنه في شارع «كافيه». بدا لها الانتقال من «شامبريه» الى ساحة الجمهورية في الميترو، أطول من طريق بيرك الى باريس.

كانت معها حقيبة اذ لم تمرّ بشارع «بيليز ديغوف». أعارها فكتور القليل من الانتباه. كانت الأنباء تصل، يحملها المضربون. سأل أحدُهم: ما العمل؟ لأن فرق المضربين في مرآبه لم تلتزم التزاماً جدّياً منذ ثلاثة أيام. وقد رجُمت سيارةٌ في جادة «اورنانو». وفي شارع «سان مور» قُلبت سيارةٌ وضُرب الثعلب: وعندما قُذفت سيارةٌ من مرآب «شارون» عند زاوية شارع «اوغست باربييه»، وشارع «فونتين اوروا» أوقف شرطيٌ مضرباً. وقد خلّصه رفاقُه وأوسعوا الشرطي لطماً. ونزعوا سلاحه بينما كان يطلق النار. وعندما جاء شرطيٌ ثانٍ لقي المصير نفسه. مئةٌ وثمانية أيام من الإضراب.

تناولت كاترين العشاء مع فكتور. في هذا المساء، مع أنه كان مساء سبتٍ. لم يكن الطواف العسكري متوقّعاً لأنه سيُقام في اليوم التالي، في «فنسين» استعراضٌ هائل احتفظت حاميةُ باريس من أجله بالراحة لجنودها وموسيقيّيها. أسهب فكتور في الكلام على هذا الطواف بالموسيقا كل سبت. ومع ذلك فالتعصب القومي أخذ يتصاعد في البلاد، وتكاثرت التظاهرات في ساحة الكونكور أمام تمثال ستراسبورج. وكان هذا القذر «ميلران» يطلب بلا انقطاع اعتمادات جديدة للحرب، إن لم تكن للمدفعية فللطيران. ما الذي كان يُهيّأ؟

كانت كاترين تتأمل فكتور. كان يأكل سلطته فكّرت في ابن أخت «ميلاني» الصغير. ما أقلّ ما نظر اليها هذا الرجلُ. كانت تشعر بالمرارة إذا تكلمت. بيد أنه وضع شوكته، واسقط في الزيت ورقة هندباء، وقال:

- وإذن انتهت تلك الأفكار السوداء؟

ولما رفع عينيه عليها رأى عينيها مغرورقتين بالدمع. غلط، دون شك. لكنه سألها وفي صوته محبّة: إذن الصحة على غير مايُرام؟

قالت:

- اوه! بلى. الصحةُ. . أتدري، يافكتور، أنني مضحكة جداً في هذه الأيام لأنني نظرت الى صبّي، صغير جداً. شيءٌ غريب. أشعر بفراغ فيّ منذ تلك اللحظة. هذا غباء، لكن ماحيلتي في ذلك، إنني أفكر طوال الوقت. .

كان صمتٌ سُمع فيه رنين الصحون. كانا في المطعم الصغير، في جادة «ماجنتا» يأكلان وحدهما، بسبب مساء السبت، عند الصندوق، كان يموء هرٌ على ركبتي السيدة. مشّى الخادم حاكياً باهتاً.

أردف «ديهاينين» الذي طلب جبنة «كامبير»:

-لمَ لاتتزوجين؟

- الزواج!

انطلقت بصوتها المغرّد: فكرة رجل حلوةٌ! أن أتزوج. أن أضع نهايةً، أليس كذلك؟

هزّ فكتور كتفية بلطف:

- تعلمين أنني عندما أذكر الزواج. . لكن ضعي ولداً لأنك ترغبين في ذلك. لامجال للنقاش إذا تمكلت هذه الرغبةُ المرأةَ. وبالمناسبة فإن جانيت حاملٌ.

وصل «الكامبير» ولم تكن هذه الجبنةُ جيدة في الحقيقة

- وإذن فسوف نتزوج. ماذا تريدين، ذلك أبسط بالنسبة الى الصبي. شكليات.

كانت كاترين ضدّ الشكليات. لكن هل تناقش ذلك مع فكتور. ربما ظن ان الغيرة هي التي تدفعها الى مهاجمة الزواج. بيد أنها نطقت بجملتين أو ثلاث شديدة المرارة. طلبت حلوى. سألها «ديهاينين»: هل نشرب القهوة في الخارج».

طافا بالجادّات الكبرى الفارغة في هذه الساعة التي دلف الناسُ فيها الى المسارح. اشتهى فكتور فجأة ان يدخل «باري كيرميس». كان هناك مستخدمون صغار، وعمالٌ شبّان وبنات حول أجهزة للعب بالفلوس، وألعابُ خفّة. وأمام الزنجي[1] كان بحارٌ يُري قوته وقد أحاط به الناسُ. وعند كل لكمة على الصدر الجلدي كانت العينان تضيئان ويعلن الجرسُ فوزه. ، أخذ «ديهاينين» يمزح. قادهما السيرُ الى مكان قرب باريس «سان ديني». على المقاعد الصغيرة لمقهى ضيّق وعميق، اقتطعه ملاّك ماهر في هذه الأرض الغالية الثمن من مدخل بيته. طلب فكتور الذي عرف عادة كاترين: «قهوة مرّة وقشدة». صاح النادل وهو يرفع صينيته: «اثنان وقشدة على حدة». ونظرت كاترين الى قبضة فكتور على الطاولة. كان بوسعه هو أيضاً ا يجعل عيني الزنجي تضيئان.

تحّدثت عن وحدتها. «بيرك» أولا. . ثم إن بيرك لم تكن هي المشكلة. الحياة. هذه الجاذبية التي تحسّ بها إزاء العمّال، ثم مابينها وبينهم مع ذلك من حدود لا يمكنها ان تعبرها، وهي غير مسؤولة عن هذه الحدود. أسرتها ذووها، عالمها، ما علاقتها بجميع هؤلاء الناس؟ سأل النادل الذي قدّم القهوة: ألا تأخذان شيئاً مع القهوة؟ قال فكتور: هات قدحين من الروم. وهزّ رأسه. لقد صدّقها. كان صحيحاً حقاً ماقصّته عليه. ودّت لو تعبر تلك الحدود. ثم إذا بها كما ترى.

(١) زنجي من الجلد طبعاً. . المترجم

«القضيةُ كلها أنك لاتفعلين شيئاًء أعلم، صحتك لكن. وإن يكن. أولا أننا نضجر عندما لانفعل شيئاً. خذيني أنا مثلاً، لولم يكن هناك عملُ الإضراب فلن أستطيع تحمّل الإضراب.

أحست كاترين أيضاً بتزايد مرارتها. قالت: وماهذا الحبُّ للعمل؟ العبدُ المحبُّ لقيده، لعمله! أوضح فكتور: لا، هذا طبيعي، إنه يحب مايعيّشه. وهو لايقبل إطلاقاً أن يكون عاطلاً عن العمل. انهم يقاتلون ليلغوا العمل، بل ليلغوا البطالة. يريدون الا يقتلوا أنفسهم بالعمل، ولا يريدون ان يكفوا عن العمل على أن القضية ليست هنا. لكنها العمل، هي مايفصل كاترين عن العاملين والعاملات. فما دامت لاتقبل قسطها من العمل المشترك لايمكنها الا أن تكون غريبة في عالم يكسب عيشه فيه كل واحد.

قالت كاترين: أن أقبل لعنة العمل..

– دعكِ من هذا! اللعنة! أية لعنة؟ لعنة الله؟ آدم وحواء والحيّة وترّهاتها؟ تلك فكرة مسيحية، هذه فكرة للفقراء، لأن الأغنياء ليسوا ملعونين الى حد كبير.

نعم، كان ينبغي لكاترين ان تعمل، أن تفعل كالآخرين. أو يجب الا تشكو من كونها لا تشعر أنها كالآخرين. ما الذي كانت تقوله كاترين عن استغلال المرأة؟ ليس الإحجام عن العمل هو الوسيلة لتحرّر النساء. فهكذا كنّ تحت رحمة الرجال. تلك فكرة برجوازية. على جميع النساء أن يعملن. ان يكسبن عيشهن بأنفسهن لا أن يكن مرتبطات بالرجال.

– «لست مرتبطةً برجل..».

قالت هذه الجملة ومالبثت ان أسفت عليها. ذلك سهلٌ عليها مع «شيك» باكو الشهري. وأحسّت بخجل أكبر أيضاً من كل مافي هذا التمرّد من اعتراف. وبلغ من كرم فكتور أنه تابع حديثه وكأنها لم تقل شيئاً. في

العالم الذي كان يتصورّه تُنشىء المساواةُ أمام العمل. المساواة الحقيقية بين الرجل والمرأة، وتخلق الدولة الأعمال والمؤسسات التي تحفظ هذه المساواة التي تعرّضها الأمومة للخطر، كما تؤمّن الشيخوخة. وسيتيح دخولُ المرأة الصناعة تخفيض يوم العمل. وقد أخذ فكتور يغفل عن وجود كاترين إزاء ذلك الحلم الرحب أمامه، حيث لايختفي أبداً الشرطُ العمّالي، بل ان الشرط العمالي يغدو فيه شرف الحياة.

افترقا في حوالي الساعة العاشرة، ووجدت كاترين في منزلها السيدة «سيمونيدزيه» في مبذلها، وهي تُبصّر بالورق. كانت هذه المرأة الشابة تنظر بعيني الغريبة الى جدران الشقّة وأثاثها. وقد نزعت قبعتها، وفتحت حقيبتها أمامها، وجلست على حافة أريكة فارسية. تذكرت كاترين فكرةً قديمة في أيام «كلوز» منذ حوالي ثماني سنوات. تمثّلت حينئذ حياتها أمامها. لم تكن لتتصورّ، وملؤها الأسى، من انقلابات فيها سوى الرّحيل والعيش في مكان آخر، سوى مرّ السنين والحلول في شقة جديدة.. لم تغيرّ حتى شقتها.

- ١٧ -

ذهبت «ديان دي نيتنكور» الى فنسين مع «وسنر». كانت ترتدي ثياباً رائعة، ربيعيّة جداً، من الكريب الذي بلون الشمبانيا، المضفور بشريط أسمر. كانت السماء رحيمةً على الجيش الفرنسي. طقس، بديع، يكاد يكون حاراً. كان العرض موفقاً أعظم توفيق وقد اثار الحماسة. كان وسنر مفتوناً. أحدٌ جميل.

في يوم الثلاثاء أوقفت الشرطةُ شخصين جديدين من أنصار «بونو» «رودر يغيز» و «بيلوني»، وعادت كاترين الى «بيرك» وهي تحمل مجموعة من الكتب بعد ان تعبت في ثلاثة أيام من باريس الفارغة بالنسبة اليها، ومن حديث السيدة سيمونيدزيه. وفي الأربعاء، تكاثرت حوادث اضراب السيارات. سياراتٌ مقلوبة، صفرٌ يُعاقبون عند زاوية رصيف «بيرسي»

وجسر «تولبياك»، وشارع «بوادي بولونبي» في «نويي»، وفي «ليفالوا»، أحدُ كورسيكيّي اتحاد الشركات يُنزل من مقعده وتُرى سيارتهُ يقودها مُضربٌ ويذهب بها. وفي المساء، وُجدت السيارةُ تحترق خلف ثكنة للفرسان.

وفي هذه اللحظة نفسها، اجتمع ثمانيةُ آلاف عامل في ميدان «سان بول»، جمعهم اتحادُ النقل، والتزم -بصوت «غنشار» - دعمَ السائقين المضربين «بكل الوسائل، حتى اللاشرعية، لأن الحكومة ضربت المثل في اللاشرعية». ودعا الاجتماعُ الى الإضراب العام لمدة أربع وعشرين ساعة في مصالح النقل.

كانت صعوبات الحياة تتفاقم يوماً بعد يوم على المضربين. كان تولد آمالٌ عظيمة من قرارات كقرارات اجتماع اتحاد النقل. لكن كان من المعلوم جيداً أن تراجعاً في فرق المضربين. وترك الحرية للثعالب، سيكون من شأنه ان ينهار كل شيء.

كان اتحاد الشركات يرفض دائماً مناقشة المندوبين. وكان أصحاب البترول يصرّون على تصفية الإضراب بصرامة. وفي هذه الأثناء كانت الإدانات تنهمر. خمسة عشر يوماً. شهر.. كان ذلك يوجب العناية ببعض النساء والأطفال. فكانت تُنظم وجباتُ الحساء، وتودّع الأموال. ولم تكن النقابة تعطّل أبداً.

يوم السبت ١٦ آذار ١٩١٢ يومٌ تاريخي: ففي هذا اليوم انتُخب مدبرُ الشرطة عضواً في أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية. وقُدّر هذا النبأُ تقديراً كبيراً في العالم العمّالي. وانتهى النهار بأبواق الموسيقا: فها قد مضى خمسة عشر يوماً لم يجر فيها طوافٌ عسكري بسبب «فنسين». ونشرت صحفُ الصباح الطرق التي ستسلكها الطوافات العسكرية. إذ كان هناك ثلاثةٌ عبر باريس: مع موسيقا أفواج المشاة ١٠٢ - ٥ - ٣١.

في ساحة الكونكورد، أمام تمثال ستراسبورج، تظاهرت مجموعةٌ من الطلاب صاحبت الموكب، بحماسة وطنية عظيمة حتى اضطرت الشرطة الى توقيف أحد الطلاب بكل أدب. في مركز الشرطة، وبينما كانت الشرطة تشرع في التحقق من مسكنه، لم يودع السجن هذا الشاب الذي كان ابن قاضٍ، لكنه وضع في مكتب مفوّض الشرطة وكان خالياً في ساعة المساء هذه. وكان يصرخ أمام مفوّضية الشرطة نحو عشرين طالباً معهم نساء: عاشت فرنسا، ويلوّحون بعصيّهم.

لكن الموكب العسكري الذي طاف بالدائرة العشرين كان سبباً لحادث من نمط آخر. ذلك ان الجمهور العمالي الذي تجمع في الشوارع تظاهر بعنف، واستقبل الموكب في شارعي «بيلفيل» و «جوليان لاكروا» بصرخات: عاش «روسيه»! يسقط الجيش! ومن النوافذ هبطت هتافاتُ السخرية. ولما عزفت موسيقا الموكب نشيدَ «المارسييز» انبعث من بين الشوارع النشيدُ الأممي.

ووقعت مشاجرات على طوال المسيرة في الدائرة الى الحد الذي ترك فيه الموكبُ العسكري خطّ السير المقرّر وهرب بكل معنى الكلمة امام الجمهور. وظل الحي كله مستيقظاً الى ساعة متأخرة يتظاهر ويغني انتصاره. أوقفت الشرطة ثلاثة عشر شخصاً جُلدوا.

في اليوم الثالي لهذه الحوادث قررت الحكومة ألاّ تطبع بعد الآن خطّ سير المواكب العسكرية. كان ذلك اعترافاً بمدى الثقة بالأهالي. ، كانوا ينوون ان يبثّوا فيه الوطنية بالمفاجأة. وهي خطة تنجح في بداية الحروب. كان «ميركورو» يرغي ويزيد ضد النقابيين وضد الحكومة التي لم تأمر مباشرة باغلاق «بورصة العمل»، ولم تحتلّ مقرّات صحيفة «الإنسانية» و «المعركة النقابية» ، و «الحرب الاجتماعية».

دفعت أحداث «بيلفيل» في الحقيقة، الى التفكير. ففي اجتماع

«شركة مراكش العقارية» طعن «كيسنيل» أثناء كلامه مع أحد أعضاء الحكومة، على ضعف «بوانكاريه». بيد أن بوانكاريه لم يكن يستحق النقد. ويكفي أن نقرأ الصحف، كما نبّه «جورس دي هوتين»، لنرى ان خطأً جديداً أخذ يُوسّعُ فيها: فمنذ ١٥ آذار كانت الصحف كأنما تسعى الى نشر الذعر ومع أنه لم يقع أي جرم جديد يمكن أن يُعزى الى «بونو» وأصحابه، إلا أن وسواس اللصوص في سيارتهم ضُخّم فجأة مرات في الصحافة. وما من حادث إلا ربُط بهذه العملية، وكانت الشرطةُ بالرغم من اعتقالاتها المتعددّة، تُهاجَم بعنف لأنها لم تضع يدها على المجرمين الأساسيين.

وكفّ الناسُ عن قولهم: «اللصوص»، أو عصابة بونو، وإنما أخذوا يقولون: «هم»! وفي الوقت نفسه تكاثرت طلباتُ تطهير التنظيمات العمالية، والأوساط الفوضوية والمناهضة للروح العسكرية؛ وطلُب تقويةُ الشرطة. وانضافت الى هموم المواطنين بواعث أخرى للقلق. ذلك أن حركة عمال المناجم في انكلترا التي انطلقت نحو أول آذار، أدّت الى اضراب في المانيا، في ١٠ آذار، أخذ في الامتداد. وفي فرنسا، في حوض «آنزان»، وبعد كثير من المماطلات وبرغم كبح النقابة قرّر عمال المناجم الإضراب في ١٧. وتوسّع إضرابُ «آنزان» حتى بعد استئناف العمل في المانيا. وفي انكلترا، في ٢٠، اوقف «توم مان» لتحريضه على الفوضى، ومن آنزان انتقل الإضراب في ٢١ الى شركة «آنيش». وأخذ الناس يتحدثون عن إضراب في بوهيميا وبلجيكا. وغدا هذا النوع من العدوى الدولية مُهدِّداً حقاً.

كانت كاترين في «بيرك» تسمع الأصداء القريبة الآتية من «آنزان» و «آنيش». أُلقي في السجن زوجُ أخت ميلاني، أما امرأته التي ضُربت بعقب البندقية على ثديها فقد أصابتها حمّى عنيفة وفسد حليبها. واضطربت أصابع الطفل ذات، صباح، ومات. وفي هذا اليوم جاء «جوهو» ليكلم «دينان». في اليوم التالي استأنف العمالُ العمل.

في ليلة ٢٢ – ٢٣ آذار، هوجم «غنشار» أمين سر اتحاد النقل، على يد مجموعة من الصُفر، وجُرح. ففي اتحاد الشركات تخوفوا كثيراً من إضراب عمّال النقل التضامني الذي وعد به هؤلاء العمال في ميدان «سان بول». واتهمت الصحافةُ العمالية صراحة رجال اتحاد الشركات، رجال جوزيف كيسنيل، لوران، جيراميك سيد، ليو، بأنهم دبّروا الهجوم على أمين سر النقل.

كان «وسنر» ساخطاً. كانت جرأة عمال المناجم لاتُصدق حقاً وينبغي التخلّص منها حتماً. استُنجد بالشرطة لحماية السائقين، استُنجد بالحرس وأُجلسوا على المعقد. ومع ذلك ظلّت السيارات تُقلب وتشتعل. وهُدّد الآن قادةُ اتحاد الشركات. بمن يستنجدون لحماية حياتهم، أيكون ذلك بلا فائدة؟

ووبّخ «جوزيف كيسنيل» بالهاتف وزارة الداخلية توبيخاً يُحسب حسابُه في حياة الشرطة. بيد أن الصديقين أخذا يتخاصمان في الشرطة: في ٢٣ آذار دخل نائبُ قائد الأمن، «جوان» على «ليبين» وقدّم استقالته. ولم ينخدع أحدٌ بذريعة الصحة: إذا كان معلوماً ان مناقشات دارت وتقابل فيها «جوان» و «غيشار». انفرد جوان ساعتين بالمحافظ: ولم يكن ذلك الانفراد لهواً وعبثاً.

بعد الساعة الثامنة مساء بقليل، قالت جانيت لفكتور، وكانت ترفع أواني المائدة في المسكن الصغير الذي كانا يسكنانه في «ليفالوا»: «إذا لم نذهب هذا المساء الى السينما لنرى «ريغادان»، فسوف تقع مصيبة!» نظر إليها «ديهاينين» بدهشة. تغنّجت واحمرّت احمراراً شديداً. «فهمتَ، ذلك أقوى مني، وأنا أفكرّ فيه طوال الوقت. لعل ذلك من وضعي. لكن إذا لم توافقني على رغبتي، ألا ترى أن الصبي عندما يجيء سوف «يشبه «ريغادان»؟

نزلا إذن، بما أن الوقت كان مبكّراً قليلا، توقّفا في مقهى «بارير». هنا كانت جماعةٌ من السائقين، تعاونية «اتو ايرو» تعقد اجتماعاً في صدر

المقهى. صافح فكتور بعض معارفه، جلس هو وجانيت على حدة، قرب زجاج الواجهة. تحدثا. عبثاً كانا يتحدثان عن الإضراب، فقد كان يعودان أبداً الى الموضوع نفسه: الصغير. كم ستتغيّر حياتهما! نظر كلٌ منهما الى الآخر وهما يضحكان. كان فكتور ممسكاً بيد «جانيت». قالت: «غريبٌ، انا متعبة قليلاً».

قلق فكتور: يمكننا ان نعود. لا، لا: وريغادان!

كانت جانيت تشرب قهوتها، عندما انطلق عياران ناريان، في الخارج فثقبا الزجاج، وتحطم الكأس على الطاولة قبالة بكتور.

- ١٨ -

ما الذي جرى؟ كانت الشوارع خاليةً تقريباً. ومن جميع الجهات، من المقاهي ومن البيوت هُرع الجمهورُ، كان أربعة من الصفر قد تركوا ساحة كولانج واتجهوا الى مرآب «بودان» من الشركة الفرنسية. كان في الليل سباقٌ. ها إن الصفر يريدون ان يقتلونا في بيوتنا! خرج فكتور تاركاً جانيت في الداخل. لكنها نهضت وهي قلقة وتبعته. عبثاً حاول أن يصرفها. يمكن ان تكون عياراتٌ نارية أخرى سُمعت صرخةٌ: «آيودا»! كانوا كورسيكيين.

كانت الفوضى عظيمة. أين اختفى الناسُ؟ كان ثلاثة سائقين يتناقشون قرب فيكتور. كان يعرف أحدهم، بيدم يُدعى «بيدوم».

« اهتم بامرأتي، سأرى.. »

قال «بيدوم» لا، بل سأذهب أنا بنفسي».

اتجه «بيدوم» نحو مرآب «بودان» عندما نصحه الناسُ الذين يركضون ان يتقي إطلاق النار. فقد كان في الليل رشقاتٌ. ومن مرآب كولانج، خرجت جماعةٌ من كورسيكيي اتحاد الشركات استجابة لدعوة رفاقهم، ومسدساتهم بأيديهم، وهم يطلقون النار. رآهم بيدوم ينعطفون في شارع «كورمي».

في هذه اللحظة، صفرت رصاصةٌ. برز شرطيٌ مذهولٌ، وارتمى الى الخلف. صرخ بيدوم: «مامعنى هذا؟» وأجاب بيدوم: «الرجال الذين يطلقون النار مختبئون في شارع «كورمي». تقدّما كلاهما حتى زاوية الشارع.

كان هناك رجالٌ يمرّون بعضهم وراء بعض، ملتصقين بالجدار في جانب من الشارع، كان أولهم شخصاً حليقاً، شاباً، أميل الى القصر، في بذلة زرقاء، وقبّعة رمادية، صاح: «لا تتقدّما وإلا أطلقت النار».

انفجر عيارٌ ناري، وانهار «بيدوم» عند قدمي الشرطي. انحنى هذا فوقه، بينما توارى الناس في شارع كورمي حتى إن الذين طلعوا فجأة ظنوا أن بيدوم قُتل على يد الشرطي.

كان شارع «ليفالوا» يغلي. بالرغم من الرذاذ الذي حوّل الشوارع الضيقة الى نوع من حمّام البخار البارد، اذ ان جميع الأهالي خرجوا. أمس، جُرح «غنشار»، واليوم سائقٌ من «ليفالوا» هل مات؟ لم يشأ أحدٌ ان يصدّق. أكان الشرطي هو الذي قتله أم الصُفر؟ الكورسيكيون! كان هناك نبرةٌ من البغض الرهيب ضدّ هؤلاء الناس. وكانوا يتحدثّون عنهم وكأنهم أعداء وطنيون. ومن كورسيكا يأتي قسمٌ وافرٌ من الشرطة. لم يذهب فكتور وجانيت لرؤية «ريغادان». أحسّت جانيت بآلام في بطنها. فعادا الى البيت.

في اليوم التالي، تقدّم النائب الاشتراكي «ويلم» الى مكتب البرلمان. بمذكّرة يطلب فيها من الحكومة ان تستأنف المفاوضات مع اتحاد الشركات. كان الانفعال الذي بعثه القتلُ في شارع «ليفالوا» عظيماً. لم يفعل الفوضويون، ذلك، هذه المرة. خيف في اتحاد الشركات من أصداء هذه القضّية. وفي اليوم نفسه، انتشرت بين الجمهور الأزمةُ الداخلية في الشرطة. وقد كفّ مديرُ الأمن نفسه «غيشار» من التستّر عليها أكثر من ذلك، فصرّح للصحفيين:

«منذ وصولي الى الأمن، أخفقت قضيتان: قضية شارع «ميسلي»، وقضية شارع «اوردنر». لايكفي، لكي يكون المرء معاوناً للرئيس، أن يظهر كشرطي جيد، -وهي صفة يتمتع بها السيد «جوان» - بل ينبغي ايضاً ان يكون موظفاً جيداً، أي إن يحترم اوامر رئيسه، وموظفاً منضبطاً كما يليق بالمرؤوس. ينبغي له، فضلا عن ذلك، ان يعرف كيف يقود الناس. ولا أنكر أن معاوني، السيد جوان هو الذي تولى قضية شارع «اوردنر» من مبتدئها الى منتهاها وهذه شهادة في مصلحته. إن السبب الرسمي، أو على الأقل، الذريعة التي تذرّع بها معاوني، هي حالته الصحية، غير أن هناك أشياء أخرى لا أستطيع ان أعرضها عليكم. أنا رئيس الأمن وسأبقى كذلك. وأنا أفهم ان يطيعني مرؤوسيّ في الأقسام».

في هذه اللحظة الحرجة، وقع عمل باهرٌ جديد ودام من عصابة «بونو». أعطى حكومة «بوانكاريه» فرصةً للتدخل. ففي حوالي الساعة الثامنة من صباح اليوم الثالث لمقتل «بيدوم» وفي غابة «سينار»، هوجمت سيارةٌ، فقتل سائقُها، وجُرح واستولى ستة رجال على السيارة وتواروا عن الأنظار. وفي الساعة العاشرة. كانوا في «شانتيّي». دخل أربعةٌ منهم وكالة الشركة العامة، وقتلوا فيها مستخدماً، وجرحوا اثنين، وهرب الرابع، حملوا محتوى الصناديق، وعادوا الى السيارة تحت حماية أحدهم الذي ظلّ في الخارج حاملاً بندقيته. لم يجرؤ الفضوليون أن يتدخلوا. ويصعد الرجل ذو البندقية الى السيارة. فينتزعها منه أحدٌ رفاقه ويطلق النار على الجمهور. وتمضي السيارة.

في البرلمان يستجوب «فرانكلان بويون» الحكومة. لسنا محميّن، ما الذي يجري بين «جوان» و«غيشار». لايمكن لهذه الحالة من الفوضى ان تستمر. أطلب الوعد القاطع بإعادة النظام الى مديرية الشرطة منذ الغد.

ويجيب الوزيرُ «سينغ»، . وهو يعد بكل مايُطلب منه. وهو يعد بما جعل الصحف تطالب به منذ أسابيع: «الشرطةُ سوف تُعزّز». في هذه

الدقيقة التي شعر فيها المجلس بسريان رعشة الملكية في خطر، طالب وزير الداخلية بالاعتمادات. زيادة ميزانية الشرطة، ذلك هو الحل الذي يُزيل الخلاف بين قادة شرطته. نال الوزيرُ ثقة المجلس.

وعلى الفور، ذُلّل خلاف جوان - غيشار، وكأنما ذُلّل بسحر ساحرٍ. وطمأنت صحفُ المساء الرأي العام.

لم يطلع الجمهورُ على لبّ هذا الخلاف، ولن يطلع عليه، لكنه ذُلل، وذلك هو الشيء الأساسي.

بيد أن مقتل «بيدوم» ظلّ نقطةً سوداء في هذا المغناة الرقيقة. وقد أُعلم اتحادُ الشركات، في أحاديث الأروقة، ان من غير المرغوب فيه، في هذه اللحظة ان تتجدّد مثل هذه الأحداث. كان لابد من التساهل مع السائقين. وتذكرّ السيد «ليبين» جنازة «ايرنول»، ولم تمض أيام على ذلك، مع مئات آلاف الشغيلة. كان لايريد إطلاقاً تشييعاً آخر من هذا النوع في باريس، وما العمل بما أن الجثمان في بيت الموتى؟ ومنع المأتم أسوأ ايضا.

في الجلسة أجاب «ستيغ» وزيرُ الداخلية «ويلم»: «قدّرت الحكومةُ ان عليها أن تقوم بدور الموفّق، وأن عليها أن تتقدّم عند الحاجة باعتبارها حكَما». لقد ترك السائقين أربعة أشهر في اضرابهم قبل أن يتكلم بهذه اللغة. وأضاف: «وقد أُعطيتْ التعليمات محافظ السين لكي يعرض على اتحاد الشركات طلب التحكيم الذي تقدّم به إليه السائقون المضربون. فأجاب اتحادُ الشركات أن ليس بوسعه قبول اقتراح التحكيم. ولا تستطيع الحكومة ان تتصرّف الا بالإقناع». لكن الحكومة تقبل بمشروع القرار وسوف تتدخل إذا طلب اليها المجلسُ ذلك. فطلب اليها المجلسُ ذلك.

في هذه الأثناء، أمر «ليبين» بإخراج جثمان «بيدوم» من بيت الموتى وينقله الى «ليفالوا». وذلك يعني الإقلال من أهمية الجنازة. وفي اليوم نفسه صوّتت الجمعيةُ على الاعتمادات الإضافية للشرطة. وصوّت النوابُ

الاشتراكيون. ماعدا «فايان» وحده، مع الاعتمادات لهذه الحكومة التي لايمكن ان تتصرّف مع أرباب العمل إلا بالإقناع.

في ٢٨، يوم دفن «بيدوم» تجمّع ٢٥٠٠٠ عامل في شوارع «ليفالوا». كان فكتور شاحباً أشدّ الشحوب، ينظر من نافذة غرفته الى الموكب وأعلامه الحمراء. ولم يستطع ان يترك «جانيت» التي لزمت الفراش في ذلك المساء، بعد حوادث مقهى «بارير» وكانت محمومةً تتألم في سريرها. كان بحر القبعات العمالي، تسدّه البيوتُ، على مدى النظر. وفي وسط هذا البحر كانت عربةُ الموتى تتقدّم مثقلةً بأكاليل الليلك الأبيض. كانت جانيت تتأوه.

نساءُ المضربين مشين معاً، في الموكب، وقد حمل صفّهن الأول إكليلاً ضخماً معصوباً بشريط أحمر مثل دم القتيل. لبسن أجمل ثيابهن تكريماً للميت، ووضعن على رؤوسهن قبّعات كبيرة بريشٍ، عالية وفخمة، كما كانت الدرجة تقريباً آنذاك. وكانت فساتينهن الداكنة، السوداء أو الزرقاء طويلة وواسعة من الأسفل. واللواتي كنّ يحملن الإكليل كن يشمرّن بيدٍ ليمشين براحتهن. كن يرتدين سترات طويلة. أو معاطف مسوّاة على قد جذوعهن. كثيراتٌ كن يبكين. شاهد فكتور خلف النعش ممثّلي النقابة والحزب الاشتراكي. كان «فايان» هاهنا. وهو الذي لم يوافق على منح الشرطة المال. و «فيانسيت» بقبة قاسية وربطة عنق بيضاء، و «غنشار» الضخم الذي أبلّ من جرحه الحديث العهد، برباط عنق عريض غطّى قميصه كله.

«فكتور!».

التفت: على السرير، دفعت جانيت المتمدّدة الغطاء عنها. وعلى الفرش المفتوح. والوسائد المعلوكة، كانت تنظر هاهنا بأسف، على فخذيها المتباعدتين، الى خليط من حطامٍ دامٍ يسيل. احتاج فكتور الى لحظة كي

يفهم. ثم دنا من السرير، وكأنه اراد ان يقتنع، ورفع القميص، ورأى الدم خارجاً. فأخذ يبكي.

في اليوم التالي، رفض اتحادُ الشركات تحكيم الحكومة بلسان السيد «سيد دي ليو» وهو يتكلم الى أحد محرّري «الوقت». «الإقناع» لم يصل الى نتيجته.

- ١٩ -

خشي السيد «مارسيل هابير» عضو المجلس البلدي في باريس ان تظل الوعود المعسولة التي وعد بها السيد «ستيغ» وعوداً معسولة فلا تُعزّز الشرطة. وفي دار البلدية صارح بذلك السيد «ليبين» فطمأنه. سوف تُعزّز الشرطة. وقد حصل على المال.

في أثناء ذلك، كان لابد من استحقاق الثقة العامة. ففي ٢٥ وقع اعتداء «شانتيي». وفي ٢٩، بعد أربعة أيام، تلقّى المفوض «لوميني» برقية تُعلمه اين يعثر على أحد اللصوص الذين شاركوا في عملية «الشركة العامة». هذه السرعة المدهشة تتوافق وضرورات السياسة توافقاً مسرف الجودة حتى أمكن التعجب حقاً منها. جاءت تحمل دليلا آخر على أن أعمال العصابة قد سمحت بها الشرطة في الواقع؛ كان لدى هؤلاء المتمرّدين الذين يقامرون برؤوسهم شيء من البطولة، لكن كان في ظلهم «ليبين» و «غيشار» اللذان كانا يربحان في اللعبة.

كانت كاترين تتنزه في «بيرك» حائرة. أغلقت بابها في وجه القلة التي كانت تعرفها. وألقى بها موتُ ابن أخت ميلاني في ضرب من السُعار. كان أمامها أولادٌ يلعبون فغاظها ذلك. وشاهدت شاباً بمعطف رمادي وقبعة فارس السباق يجرجر حقيبة وسفطاً وكأنما يبحث عن طريقه. أين رأته من قبل؟ نوعٌ من ذكرى الضاحية والأزهار الربيعية.. وفجأة شاهدها هو أيضا، وانتابه شيء من التردّد، كان يعرفها بالطبع. اتجهت اليه غريزياً.

تبسم في ضرب من الضيق. كان صبيّاً تقريباً، في ثياب جدّ فقيرة. وفي اللحظة التي تحادثا فيها عرفته: كان هو الذي أمسك بيدها، في روما نفيل، عند جماعة «الفوضى» قال:

- أنا غير مخطىء، أنت التي أصابك وجعٌ في تلك السنة..

أجابت «نعم» برأسها. ودّت لو تأخذ منه سفطه الثقيل عليه. كان صبياً جديراً بالرثاء انهكه المرض. رفض، وقال على الفور:

- تعلمين، الأفضل ان أنبّهك سلفاً: ليس مفيداً ان نُرى معاً. فأنا مُلاحق..

-لنَمْضِ الى بيتي.

تردّد. أيذهب؟ ثم هل أدركتْ ماقاله لها. خَفَضَ صوته: «بسبب عملية شانتيي».

ماذا يضير كاترين من ذلك؟ بلغا إذن دارة «بيزديو». كانت «ميلاني» خارجة مرة أخرى. وهكذا ألفت كاترين نفسها تستقبل تحت سقفها الرجل ذا الغدّارة، «سودي» الرهيب نفسه، ذلك الولد الحزين الذي لايعرف أين يحطّ سفطه البالغ الثقل، قبل ان يبدأ البحث عن الصديق الذي ينبغي أن يذهب إليه. «نعم، كنتُ أحسّ أنني مراقب في باريس. فبعد حادثه ذلك اليوم، لم يقع شيء محدّد لكنني كنت أصادف دائماً الوجوه نفسها. فثارت اعصابي، وأبرقتُ حينئذ لعامل في سكة «باراي» صاحب صُرِف من الخدمة أثناء اضراب ١٩١٠ وهو موثوق ولن يُسلم رفيقاً. وصلتُ..

كان عندها معلّبات. أكلا. سألته عن أخبار صحيفة «الفوضى». كان يتحدّث بطريقة ساخرة قليلا. ما أكثر الذين كانوا في السجن! والأغرب أنهم أناس لايدّلهم في الأمر. كان يحمل إعجاباً لاتحفّظ فيه للآخرين، للحقيقيين، مَنْ هؤلاء، كم كانوا، متكتما في ذلك. لكنه كان مع ذلك فخوراً بأنه أدّى قسطه في «شانتيي». ماذا سيحلّ به؟ أوه! أن يُنسى فقط.. وهو يملك القليل من المال وسينتقل الى بلجيكا. وعلى كل حال، إذا قُبض

عليه فليست الخسارةُ كبيرة. حطامٌ لاخير فيه. ولن يعيش طويلاً. قالت كاترين:

-«كلام! لقد حكم علي الأطباء بالموت، ثم لم أمت».

- «أنا، إن حكم عليّ. .».

انتهت الجملةُ بحركة شفرة المقصلة. طرف «سودي» بعينه ومزح. كان هذا الولد يتفاخر قليلاً. بعد أن أكلا تحدّثا عن الماضي، عن «ليبرتاد» عن ألف شيء وشيء. عن الحب بدأ ذلك كما يبدأ دائماً، بقصص عن التربية الجنسية، تكلّف الشك. ثم روى «سودي» قصته الخاصة. الحبّ، لقد جرّبه. عاشا سنتين معاً. تركته وتعهّرت. وتمر سنةٌ ويصادفها كانت مرتّبةً، مخضبةً، مدهشة. هي هي دائماً ومع ذلك مختلفة. احتفظ بها لعدّة أيام. توارت، وأصيب هو بالزهري. الحب. .

قُرع البابُ. من عساه يأتي في هذه الساعة؟ وضعت كاترين بسرعةٍ «سودي» وسفطه وحقيبته في الغرفة الخلفيّة. فتحت الباب. خلف مفوّض «بيرك»، شرطي بلباسٍ مدني، يسهل التعرّف عليه. وهذا الشهم «بيزديو».

شوهد، رجلٌ يدخل. . طيّب بما أننا نبحث عن أحدهم فستكون الآنسة «سيمونيدزيه» لطيفة جداً. لا. كانت تجيب بجفاف، كانت في بيتها، ولاحقّ لهم. دفعها المدني بكتفه. لا فائدة من المقاومة. نظرا في الغرفة، واتجها فوراً الى الصدر، الى حيث كان.

أحست كاترين بوضوح ان عليها ان تقول شيئاً: «يا سادتي، هذه التصرّفات شائنة وأرجوكم ان تُروني الإذن بالتفتيش».

حرك السيد «بيزديو» قبضته وهو يتمتم بشيء. كان هو طبعاً الذي دعا الشرطة. لكن الشرطي كان قد فتح الباب الذي في الصدر: كانت الغرفة فارغة. لقد انسلّ «سودي من النافذة المفتوحة. انسحب الشرطيان مع

الاعتذارات وهما غير مقتنعين. كان «بيزديو» يدمدم: «قلتُ لك. سيدي المفوّض. . ».

في صباح اليوم التالي، عند مخرج البيت الخشبي الساحلي الصغير لعامل السكة الحديدية «باراي» وقع الرجلُ ذو الغدّارة في فخ: جوان نفسه قام بالعملية مع المفوّض الخاص «اسكاند». أُوقف في المحطة. أضيفت الى اضبارة «سيمونيدزيه» (كاترين) مذكّرة جديدة. لكن لم يكن ممكناً اقحامها في القضية. إذ صرّح سودي انه ذهب مباشرة من المحطة الى بيت عامل السكة الحديدية.

لم يكد يلاحظ أحدٌ في صحف اليوم التالي، يجنب تفاصيل التوقيف المثير، المقطع الذي يُعلن انتحار الملازم «بيير دي سابران».

في مساء اليوم الذي أُوقف فيه «سودي»، جرى الطواف العسكري بشكل رائع. لم يُنشر خطُّ سير الموكب، تبعاً للأوامر الأخيرة. ومرّ في نحو الساعة التاسعة أمام «بورصة العمل». كان يراد منه التظاهر بالقوة. وكان هناك شرطة وفيرة العدد بالثياب المدنية. وعندما دوّى نشيد «المارسييز»، صرخ أحدهم بشيء لم يُسمع مباشرةً. تظاهر الموكبُ ضد «بورصة العمل»، وتطايرت الأحجار على النوافذ. ولوّحت العصيّ، وهُزّت القبضات. كان هناك القليل من الناس. قضي تماماً على عاملين كانا على عتبة الباب، بعد أن أوسعهما ضرباً الوطنيون الهائجون. وقّع نغمُ السير اللوريني هذه المأثرة العسكرية على صرخات: عاش بوانكاريه! عاشت فرنسا!

كان هذا هو الثأر «لبيلفيل». وانتصر النقيبُ «ميركورو». بيد أن أخت زوجته في «بيرك» كانت تتابع حياةً هادئة بالرغم من «بيزديو» الذي كان يدمدم في طريقه، والذي كانت امرأته تجرّب جميع أنواع المضايقات المنزلية لكاترين. كانت «ميلاني» تُزبد: «الآنسة مسرفة الطيبة. أنا التي. . ».

كانت قضية شارع «اوفيمون» (كما كانت تُدعي قصةُ موت الشاب

سابران) موضوعاً أثيراً لدى الصحافة، وحملت نوعاً من الإلهاءالسياسي، الذي ستتمكّن الحكومة من استخدامه.

في مطلع نيسان، اعلم فكتور كاترين بكلمة «إجهاض جانيت» وكانت كلمةً حزينة جداً، ممزوجة بالحديث عن الإضراب، وعن موت «بيدوم»، وعن مناورات اتحاد الشركات. فكّرت كاترين في «جوديت رومانيه» التي ماتت لأنها لم تُرد ولداً لها. وكم استقبحت عمل هذه البائسة، عندما تندّمت «جوديت» بعد الإجهاض أنها لم تحتفظ بالصبي. بيد أنها بالنسبة الى فكتور.. أي بالنسبة الى جانيت، أحست بشعور مختلف تماماً، بالأسف الذي لانهاية له. كيف كانت ستكون هيئةُ هذا الصغير؟ لا ريب أن كثيراً من الأشياء تغيّرت في رأسها. أحست فجأة أنها أنانية، في عزلتها. إن حولها الكثير من المصائب والكوارث. انضاف لى ذلك الإعلان في الصحف عن انتحار أخت «سودي» في «ايتامب». ولا علاقة لهذا الانتحار بالرجل ذي الغدّارة». قصتها محزنة وبسيطة، إذ عارض أبواها زواجها فانتحرت قرب سرير صاحبها هكذا، بطلقة مسدّس، الحب.. عادت الى أذنيها نبرةُ «سودي» الصغير الرهيب والساخرة. العالم آلةٌ دامية يتمزّق فيها الناس كالأصابع المنتزعة.

مرة أخرى، تركت كاترين «بيرك» الى باريس. جاءت لتضع نفسها ثانية في خدمة المضربين، شارع «كافيه». لقد تغير جوُّ الإضراب كثيراً منذ أيام كانون الأول. بيد أنه كان هناك تعبٌ ويأس. لم تنطلق اضراباتُ التضامن الموعودة. وأخذ المالُ يتناقص.

وكان ربيع باريس رطباً وبارداً. بدت في الاجتماعات علاماتُ الإعياء. لم يتوصلوا الى شيء البتة. فلم تستطع الحكومة ان تجعل أرباب العمل يتنازلون، وإذن!

في المقابل، احرز «اريستيد بريان» وزير العدل، فوزاً في الجلسة وهو يجيب « العمل الفرنسي» عن قضية «سابران».

في أمسية ١٣ نيسان هجمت سيّارةٌ خارجة من شارع «كافيه» في اللحظة التي كان العمال يخرجون فيها من الاجتماع، على المضربين، وانطلقت منها عدةُ عيارات نارية لم تصب أحداً. زعمت الصحفُ انها عصابة «بونو». والحقّ ان هذا مجّرد افتراض: والرأي الذي ساد بين المضربين انه هجوم جديد من جنس هجوم آذار الذي أودى بحياة «بيدوم». وبالفعل فإن هذا الحادث لم يذكر قط فيما بعد أثناء محاكمة العصابة. لابدّ ان يكون الأمن عالماً علماً دقيقاً بصفة سائقي هذه السيارة في شارع «كافيه».

ان غرق «التيتانيك»(١) الذي اطلع عليه الناس من صحف يوم ١٦ طرد منها تقريباً جميع هموم القراء الأخرى، وكأنه أغنية عاطفية مُسكرة. وغدت ترتيلة: «أقرب إليك يا الله!» الترتيلة الشائعة في باريس، ومثّلت النشراتُ المصوّرة الباخرة وهي تغرق بينما ظلت الاوركسترا تعزف هذه الشكاة المذهلة. وعندها نسيت فرنسا «بيدوم»، و «بييردي سابران»، وقصصاً أخرى مكدّرة.

في ١٨ نيسان في بورصة العمل، ووسط القلق العام، أبّن «فيانسيت» الإضراب:

لقد انتهى الإضراب. لاريب اننا نستطيع مدّ النضال. ليس في المرور اليوم سيارةٌ واحدة أكثر من الأمس. لكن ارتدادات من نمط آخر حدثت: ان عدداً لايُستهان به من السائقين كفّوا عن دفع مايترتب عليهم لصندوق الإضراب الذي أصبح الآن فارغاً. لماذا ندفع الى الشقاء، الأفاضل بيننا، . بتأييد نضال دون نتيجة مباشرة؟ لماذا نخاطر بمستقبل نقابة صلبة اليوم كما كانت صلبة بالأمس، ونلقي بها الى هزيمة تامة ونهائية.

---

(١) غرقت التيتانيك في آذار ١٩١٢ وكان عليها أكثر من ١٥٠٠ راكب. المترجم

هذه اللغة الإنسانية جداً، الرقيقة جداً، أصابت قلوب صحف كثيرة. كان هذا هو بعينه، «فيانسيت» الذي اعتُبر طوال فترة الإضراب رجلاً رصيناً والذي كانت تصريحاته دائماً بحيث أمكن ألا يُعدّ متضامناً مع أعمال المضربين الذميمة. وكان «وسنر» يكرّر على «جوزيف كيسنيل» لقد كنتُ أقول لكم أننا نستطيع الكلام مع هذا الرجل!».

على أن من غير الممكن الحصول على السكينة: انتهى الإضراب، لكن «وسنر» يحمل الآن همّ قضية «سابران». هذا الغبي برونيل! وديان التي لم تكن صحتها على مايُرام..

ألفت كاترين نفسها حرةً وفارغة. فهذه الأيام القليلة التي قضتها في خدمة المضربين خلّصتها من عبء ثقيل. ولم يعد فكتور الذي هُزِم، كما كان لها من قبل، كانت تتخلّص منه. وقد نجحت في عقد صداقة وطيدة مع جانيت. في ١٩ كانت السيارات تسير في باريس. دام الإضراب مئة وأربعة وأربعين يوماً. حملت الصحيفةُ نبأ ثورة «فاس». انتفض المغاربة. لكن ما استوقف كاترين التي كانت تقرأ الصحيفة وهي تنتظر هيلين أختها في شارع «بليز ديغوف»، البرقية التالية من وكالة «رويتر».

«بطرسبرج، ١٨ نيسان. بناءً على برقية من «ايركوتسك»، فإن القلاقل التي تسود منذ بعض الوقت في مغاسل الذهب لشركة «لينا» أصبحت خطيرة. وأطلق الجنودُ الذين دعوا لإعادة النظام، النار على العمال، فقُتل منهم مئةٌ وسبعة عمال وجُرح ثمانون. ويبدو ان الحادث وقع في الساعة السادسة من مساء امس اذ ان جماعة من المضربين طلبوا عبثاً إطلاق سراح عدد من رفاقهم زحفوا على منجم «فيوديسيا». سدّ الجند الطريق وأحاطوا بالمتظاهرين الذين رموا بعض الحجارة: فأطلق الجند حينئذ عدة رشقات».

صاحت هيلين وهي تُسارع الى الغرفة: اعذريني، كاتيوشا، على

تأخري، اضطُررتُ أن أذهب هذا الصباح الى كنسية شارع «دارو» في خدمة «للقيصر!».

- ٢٠ -

وفي اليوم التالي إنما أقيم العشاء الذي التقت فيه كاترين الملازم ديغوف فاليز: وفي صباح اليوم الذي تلا هذا اليوم خرجا معاً الى غابة «بولونيي». وفي اليوم الثالث اصبحت كاترين عشيقة هذا الضابط الشاب.

هذه الفتاة المجنونة والمتحمّسة التي ارتمت بشغف بين أيدي الرجال، مرّت بسنتين من العفة. كان ذلك فظيعاً بالنسبة اليها، ولايكاد يكون مفهوماً. انها تحلم الآن وهي جالسة على سرير السفر، عارية قرب حبيبها النائم؛ انها تضاجع ضابطاً، بصورة جد طبيعية. كان ذلك يُشيع فيها الاضطراب والغضب. أهي عاهرة يتداولها الجنود؟ كان هذا مجرّد ولد أشقر، استولى عليه الإعجاب، ما إن تنظر اليه حتى تصعد الحياةُ الى وجهه. فتى جميل. الذين امروا بإطلاق النار في مناجم «لينا» ربما كانو في جمال «فرنان». إذ كان يُدعى «فرنان».

أكانت تتبع مصيراً، هي التي كانت في أول الأمر «لجان تيبيو»؟ كانت ماتزال تفكر، في هذا السرير، وهي تحسّ قريباً منها بساق هذا المجهول بالأمس، في فكتور. كان فكتور على الخصوص، فكتور البعيد المنال هو الذي جعلها منذ كلمات الحب الأولى تستسلم لهذا الفارس الشاب الذي دُهش كلّ الدهشة من هذا النصر السريع. كلمات الحب... الحب.. آه! ان كلمة «حب» تلونّت، على طول الحياة، إذ مرّت من بين شفتي «سودي» الصغير، هذا الصبي الرقيق المصاب بالزهري والسل، والذي سيُقتل في فجر ذات يوم.

قالت بصوت عال: «الحب!» وتأمّلت فرنان.

كتفا الرجل الفتيتين والقويتين كانتا خارجتين من الغطاء، وكان الرأس المائل جانبا، غارقاً في الوسادة وفمه نصف مفتوح. كان ينام كما ينام الجميع. رأت كاترين في نومه نوم «ريجيس» و «بول جونغنز»، و «ديفيز» وكثيرين غيره. لقد جعلها هذا الرجل تصرخ، كالآخرين، لكنه لم يستطع ان يبتعث حنانها.

لم يستيقظ عندما نهضت. لقد ضاجعها فأحسن. كان ينام. ارتدت ثيابها وتوقفت كاللصة. في الأسفل نظر إليها الخادم باستغراب. في المساء نفسه، مضت الى «بيرك». ولم تردّ على رسائل الملازم «ديغوت فاليز».

ومن «بيرك» شهدت «كاترين» مرور نهاية نيسان الدامية التي غرق فيها «بونو». فبعد «سودي» ومنذ أول الشهر تكاثرت الاعتقالات: «كاروي» الذي وشي به رفيقٌ مرتشٍ، «كاليمان» وشت به المرأة لكن عند ذاك، وأثناء التفتيش في «ايفري» صُرِع نائبُ ريس الشرطة «جوان» الذي وجد نفسه وجها لوجه مع «بونو» برصاصتي مسدّس. وهكذا انتهت تلك الخصومةُ التي مزّقت الشرطة. وضيّقت الخناق شبكةُ الوشايات بسرعة فائقة حتى لقد ظُنّ ان هناك جملة من الخيانات المفاجئة، إن لم نسلّم بأن هؤلاء الأبطال الذين ضُللوا قد لوحقوا خطوة خطوةً على طول مغامرتهم العظيمة والرهيبة، لاحقهم رجالٌ من هذه الشرطة الذين كانوا يتظاهرون بأنهم يفتشون عنهم.

من الذي جاء بـ «جوان» في ٢٤ نيسان الى البائع بالمفرق «كوزي» حيث التقى الموت؟ كان مسرف الاستقامة، ولم يستعلم الاستعلام الكافي. لقد أُرسل الى بيت من «ايفري» فمن فرنسا كلها إنما حام الشكُ على هذا البيت حول وجود مستندات سرقة «تيبه»، التي تعود الى ٣ كانون الثاني. ومن فرنسا كلها، ها إن هذا البيت هو الذي اختاره «بونو» ليختبىء لكن ألم

يتلقّ «جوان» من رئيسه درساً عاماً. إنه موظف منضبط وهو يذهب الى حيث يُرسل وهناك لقي الموت.

هكذا صُفّي إرث حكومة «كايو» في الشرطة. ويتولّى «كزافييه غيشار» بيده القضية. في بضعة أيام سينتهي من «بونو»، وهو ليس شرطياً صالحاً فحسب لكنه موظف صالح ايضا، بحسب تعبيره. وفي ٢٩ نيسان دوّت صيحة الهجوم في «شوازي ليروا». يجب الآن إبادة «بونو»، وهو لايستطيع ان يخدم غايات شرطة موحّدة. معروفةٌ القصةُ المخجلة لذلك الاقتحام الذي قامت به سريّتان من الحرس الجمهوري، وقوى ضخمة من الشرطة والدرك تحت إشراف «ليبين» و «ليسكوفيه» نفسه، الذي ستناقش حوله من جديد بعد اثنتين وعشرين سنة، أسرار القضاء والشرطة الفرنسية غداة أيام شباط. أكثر من الف رجل يكفون لقتل رجل واحد. ورجل واحد يكفي لأن يُظهر بصورة باهرة دناءة هذه الشرطة الفرنسية في جبنها، هذه الشرطة القوية جداً عندما يُراد التزوير، ودسُّ مسدّس في جيب عامل يوقف، والدفع الى الجريمة أو الاغتيال للذين لايعلمون، إزاء المصرفيين والصناعيين والمحرّضين، إن كان ذلك خيراً أم شراً؛ إن رجلاً واحداً يكفي لأن يُلطّخ بدمه ونخاعه، حُماة نظام سوف يتمجد بعد سنتين بملايين الجثث(١).

مع «بونو» تُحتضر في فرنسا، الفوضويةُ. ومايسقط مع «بونو» هو هذا المفهوم نفسه الذي كان يدفع «ليبرتاد» الى انكار تقسيم الناس الى طبقات والى أن يطلب الغاء المصرفي ومراقب الميترو في آن احد.

كان الهدوء النسبي في الأيام الأولى من أيار فترة كابوس على كاترين. معركة بمعركة، كانت تقارن بين الهزيمتين: إضراب السيارات، ومأساة «شوازي ليروا». كل رومانسية شبابها اتجهت لتهلّل ايضاً لسقوط

(١) في الحرب العالمية الأولى. المترجم

الجبابرة، للملحمة الخاطفة التي أضاءت عالماً طوال خمسة أشهر إضاءة تنطق بالشؤم. لكن هذه المغامرة بكل شيء ولعبة الخاسر هو الرابح، والرهان على الوجه والقفا، تعارضها المئةُ والأربعة والأربعون يوماً من نضال السائقين. لم يعد بوسعها ان تُضمر ذلك الاحتقار للمهمات اليومية الصغيرة، وذلك الاحتقار للنقابات وللاشتراكية، الاحتقار الذي شعرت به قديماً مع فوقيّة من يستغني عن ذلك ومن يأكل في النهاية كل يوم. لقد رأت عن قرب ذلك الشكل الآخر من البطولة. قالت رسالة من فكتور تلقّتها في منتصف ايار: «أخذنا الآن نجنّد العمال للنقابة. عملتُ اجتماعاً لمرآب..» أين جبابرة اليوم؟ بينما كانت تقرأ هذه الكلمة البسيطة جداً، بانفعال لم تدرك هي نفسها أساسه، بدأ في «نوجان سورمارن» حصارُ المنزل الذي التجأ اليه «فاليه» و «غارنييه». استخدم الرشاش هذه المرة. تجاوز ذلك بفظاعته «شوازي ليروا». ومن باريس، وفد بالسيارة، ناسٌ راقون، لهم علاقاتهم في المحافظة وداخل الصحافة، احفاد رجال فرساي هُرعوا ليتعلّموا درساً في الحرب الأهلية، كما كانوا قبل شهرين في «فنسين» وكما سيذهبون في ١٤ تموز الى «لونشان» ليتعلموا درساً في الوطنية. في نظر هؤلاء الناس الذين هجروا المسرح من أجل عرض أكثر واقعية - ينبغي الا ننخدع - اللصوص هم على الخصوص عمّالٌ عُصاة. وليس من أجل قليل يُعلّم الملاكون كلابهم ان تعضّ جميع الرجال ذوي العمرات. مات «غازييه» و «فاليه» إذن عند الساعة الثالثة صباحاً.

في «بيرك» أصبح السيد «بيزديو» لايُطاق. إن اشتراك الدارتين بفاصل جعل الأشياء أكثر إزعاجاً. ففي ذات يوم في مطلع حزيران، كانت كاترين في حديقتها التي لايفصلها عن حديقة «بيزديو» سوى سياج من البقس؛ ومن حديقته المسيّجة احتدم الرجل غضباً عند مرأى مستأجرته. لابدّ من القول أن الشلل العام كان ينتظر هذا المدير للقمار المتقاعد والمحترم.

ولعل ذلك كان ندماً كاوياً لأنه ارتبط بالسيدة «بيزديو» التي جعلته يكره بعنف شديد جميع الجميلات. والذي جرى انه بعد تبادل مبتذل لبعض الخواطر، ملاحظة من طرفه ردّت عليها الآنسة «سيمونيدزيه» بصوتها المتعالي والمغرّد، أخذ يصرخ:

«عاهرة! عاهرة! عاهرة!».

ليست الأخلاق الحسنة ماتتألق به كاترين، لكن ضع نفسك مكانها. كان في يدها عصا لأنها كانت مزمعةً على النزهة، وكان «بيزديو» خلف السياج، يُعنى بالحديقة. لم تتردّد: اخترقت شجر المضاض كالموجة، ومضت الى صاحبها وكسرت عصاها على وجهه.

استغلّت شرطة «بيرك» التي لم تنس يوم مجيء «سودي» الى الدارة، هذه المناسبة الرائعة لتتخلص من شخصٍ مشبوه لم تمسك عليه شيئاً أكيداً. لم يُستخدم العنفُ على هذا السيد الممتاز «بيزديو» فحسب بل كان هناك تحطيمٌ للسياج أيضاً. كانت كاترين روسيّة الجنسية فطُردت مع منع الإقامة لسنتين.

مضت الى لندن، حيث أقامت في فندق «سوهو» الصغير وظلّت فيه حتى الشتاء. كانت حياةُ العالم تجري دموية، فوضوية، كعهدها دائماً، لكن الأحداث في بلدٍ غريب تماماً عنها كان لها لون آخر. وكان في طريق معترضة من «توتنهام كورت رود» فندقٌ له مطعمه يتناول العشاء فيه أناسٌ من علية القوم وفنانون. ضربٌ من حويض مائي دولي مع نخلات وأُصص فضّية. قادتها اليه ابنةُ عم السيدة «باكستون»، وتردّدت عليه كثيراً بعد ذلك كاترين مع رسّام كلّمها في الطريق لأنه حسبها فرنسية.

كان «غاري ليتون» جميلاً جداً على طريقة «كامبردج». كانت رياضته التجديف. وقد ربح المباراة السنوية على التايمز. تعانقا في السينما. وجاء الصيف، فدعا كاترين الى قضاء العطل الأسبوعية لدى أصدقاء له في

الريف. غدا «غاري» بالنسبة الى كاترين حلاً مريحاً لمشكلتها. كانت تنظر الى فتاها الجميل الكثير الغباء وتفكرّ: الحب..

كُرِّستْ هذه الفترةُ من حياتها للقراءة. كانت تقرأ بينما كان «غاري» يرسم أو يجدّف. وكانت تقضي اياما طولاً في المكتبات تقرأ فيها تاريخ الحركة العمالية. وعندما كانت تحدث فكتور في باريس أحسّت بجهلها. فثمة كثيرٌ من الأشياء يعرفها العمالُ ويلمحّون اليها لأن ذلك يمسّ تاريخ طبقتهم. ويجهلها غيرهم ممّن لم يحصلوا على غير تربية البرجوازية.

ان لندن ملأى بالذكريات، لاذكريات تاريخ ملوكها الدامي فحسب، ولاتاريخ أعيادها فحسب، بل وأيضاً حيوات الذين اختبؤوا فيها. وهذه الذكريات التي لايستعيدها أحدٌ كانت تنتظر كاترين هناك بسحر أقوى من ضباب لندن. لندن هي مدينة اللاجئين السياسيين. ان أشباحهم في «كوفنت غاردن»، في الإيست اند» المليء بالأغنيات العاطفية كان لها عندها التماع المخمل المتموّج كل من كان يهرب من باريس ومن «تيير» كان يدور هاهنا في نظرها. فتشت عن آثار «لورا» الصغيرة التي ماتت في الشتاء الماضي. هكذا استمعت الى صوت «ماركس».

هناك كتبٌ تختتم عالماً. إنها نقطة نهائية. ونحن نتركها وننصرف الى مكان آخر أبعد منها، أي مكان! وهناك كتبٌ أخرى هي أبواب بلادنا الخاصة. لماذا كان «١٨ بروميز ولويس بونابرت» على الخصوص، هو الذي لعب هذا لدور بالنسبة الى كاترين؟ ينبغي أن نعلم الى أين كانت تذهب أفكارها في غرفة «سوهو» الصغيرة حيث كانت توقظ منذ الثامنة ليُحمل اليها الماءُ الساخن.

في لندن هذه التي جاءت إليها فتاةٌ روسية مثلها، في زمن الكومونة، تحمل رسالة الثائرين الى ماركس، فتاةٌ جميلة أهلها أغنياء هناك، عند القياصرة، في لندن هذه بدأت كاترين تشكّ جدياً في الفوضوية. كل تاريخ

السنة الماضية أخذ أخيراً يتلخّص أمام عينيها. وبواسطة جيورجيين منفيين عقدت صداقة مع اشتراكيين انكليز، وصادفت روساً من الحزب العمالي الاشتراكي. وفي ايلول بينما كان «غاري» منصرفاً الى ايرلندا حيث عمته المورُثه، ذهبت كاترين الى زيارة البلد الأسود في منطقة بلاد الغال المنجمية، فرأت رجالاً خشنين ونساء لم يدر بخلدها ان مثلهن موجود. لامست قاع البؤس. وكان انهاك الإضراب الأخير بادياً هناك كالمرض على وجوه الأطفال. في هذه المناطق التي لاتُقْتَطع، كلّ عام فيها، من العمل المنجمي الجنوني، أرباحُ الشركات فقط، بل الملايين لمالكي الأراضي، ومنهم عددٌ من أعضاء الأسرة المالكة، كانت الوفياتُ هائلةً وهي ماتزال كذلك. نزلت كاترين الى الآبار مع رؤساء نقابات العمال. وتابعت حملةَ اجتماعات. هنا، عثرت، أكثر من أي وقت آخر على الدرس الأولي، درس «كلوز». في كل مكان كانت البروليتاريا على صورة ذلك الولد الكبير الذي رأته يسقط قتيلاً.

بيد أن أصداء جرحى البلقان وموتاه كانت تترامى في اوروبا كلها. فمن حرب الى حرب، أخذت النار التي بدت أنها خمدت للحظات، تنبعث وكأنتها عطشٌ لاينطفىء. أصيب العالمُ بهجمات مفاجئة من الطفح الجلدي في كل مكان: نوبةٌ قاسية من الحمّى، ثم يتوضع ذلك كله، ولم يكن المرض هذه المرة هو التيفوس الفظيع الذي يخشاه الناس. جاء «جورس دي هوتين» أثناء مروره على لندن من أجل أعمال له، ليرى الآنسة «سيمونيدزيه».

لم تكن لتشتهي الخروج معه، إذ كانت تُبطن أفكاراً عنه وعن علاقاته مع «ليبين» لكن لاقيمة لذلك. فهي في انكلترا! ثم إنها تعبت من غاري لكن لا بأس من أمسية معه.

كان «جورس» يعرف المطعم الصغير قرب «توتنهام كورت رود» وكان يعدّه منتهى الجودة، ولم يكن يرغب في تناول العشاء في مكان آخر. ولم يكادا يجلسان الى مائدتهما حتى امتدت إليهما الأيدي من مائدة مجاورة. كانا فرنسيين اثنين من أصدقاء «جورس».

احترق «برونيل» في باريس لكنه لم يكن كذلك بالنسبة الى زبنه القدامى الذين عرفوه مرابياً والذين لم تزدهم الفضيحة علماً به. وكان الكونت «ديفرو» يقول: «أفكاري واسعة، أنا، وإني لأتناول عشائي مع صانع أحذيتي». والواقع انه قد كُلّف مهمةً في انكلترا فاغتبط بلقاء برونيل الذي يسرّ له مادياً مغامرة كان حريصاً عليها. فلندن باهظة الكلفة! ثم يجب ان نرى كيف يعيش الانكليز. وكذلك بدا «برونيل» وكأن له مهمة ما في لندن. وقد غيّر اسمه. فهو يُسمى الآن «برونيلي». والواقع أن هذا هو اسمه الحقيقي. إنه من «نيس».

كان العشاء في آخر الأمر مضجراً جداً لأن هؤلاء السادة تحدّثوا بلا توقف عن البورصة والبترول وأسعار أسهم «شيل»، وأعمال «مانتاشيف» الخ. وكان قلقهم في مسألة الحرب الوشيكة الوقوع كقلق «كيرهاردي» و «توم مان».

طلب «برونيلي» من الآنسة «سيمونيدزيه» السماح بالمجيء لتقديم تحياته. وقد كان طبعاً شخصية مريبة، غير جديرة بالاحترام. لكنه كان لطيف المزاج ويمكن أن تستبدله كاترين «بغاري»، ثم إنه لم يكن يحترم شيئاً. وكانت به وقاحة ترضي غالباً أفكار هذه المرأة الشابة. خرجا عدة مرات معاً في تشرين الأول وتشرين الثاني. كانا يتلقيان في مقهى «رويال» ويتناولان العشاء في «ليسيستر سكوار»، ويذهبان الى مسرح المنوّعات وحتى الى

حانات «مونمارتر» الزائف الذي يغلق أبوابه مبكراً. كانا يتحدثان عن السياسة، وكان «برونيلي» يقول: آنه يعبد الاشتراكية بالشمبانيا.

كانت كاترين تحتقره، وكانت طلعاتها تتناقض تناقضاً غريباً مع اهتماماتها ومخالطاتها المعتادة، لكن كان فيها ضربٌ من الحاجة، من التناقض. فهي لم تتحرر من الأشياء التي أحبتها أمها وأحبها أبوها، مالك آبار «باكو». كانت تلوم نفسها أحيانا على وجودها هنا بثوب مكشوف الظهر، مع هذا اللص بالبدلة الرسمية في مقصورة في بيكاديلي. كانت تتخيل جنوب لندن، وراء التايمز، حيث كانت في النهار ذاته. لكن ماحيلتُها؟ كانت تحب الترف وتكرهه في آن معاً. كانت تحب ان تنسى شقاءها في بعض الأمسيات. ولم تكن اشتراكيةً واضحة الملامح بعد.

ثم إنها كانت ترتمي علي أي شيء لتصرف نفسها عن فكرة عميقة لاتعترف بها لنفسها.

لم يكن ثمة فرق كبير في نهاية الأمر بين ماتحمله من هوى للمطالعة وجنون هذه الأمسيات. كان كل شيء لديها سواء، الآن بعد أن لم يبق شيء يقرّبها من فكتور.

بيد أن غريزة غامضة جعلتها تصرف «برونيلي» الذي كان يغازلها. وكان متهالكاً عليها من جهة أخرى. وكانت تقول في نفسها أحياناً، ولمَ لا؟ لكن كان لها «غاري ليتون». فحماها من ذلك الخطأ، لأنها كانت تعاشره معاشرة كافية ليس غير. كان على «برونيلي» أن يسافر الى سويسرا في منتصف تشرين الثاني. كان يردد أبداً على كاترين أنها يجب ان تأتي معه، لأنها ستكون في «بال» حيث سينعقد في ذلك الوقت بالذات مؤتمر الاشتراكيين الدولي.

لم يسؤ هذا الاحتمال كاترين لكنها لم تكن تودّ الذهاب الى «بال» مع «برونيلي».

أخذ برونيلي، ذات مساء، ولعله ثمل قليلاً، يتحدث عَرَضاً عن زوجته القديمة. وتملكته عاطفية مفاجئة عنيفة وعميقة وإذن فلم يكن كل شيء سيئاً تماماً عند هذا الرجل؟ واكتشفت كاترين «برونيلي» الجديد بفضول كبير جدا. لقد سمعت الناس يتحدّثون عن «ديان» حتى لقد دافعت عنها قديماً، كما نذكر، ضد «ديغوت فاليز»، ثم هاهي ذي تلك الشخصية تستنير على نحوٍ فريد. ما أسخف حبّ برونيلي! لكن هذا الرجل الغريب والوقح الذي رضي أن يقتسم «ديان» مع وسنر» لم يكن ليشفى من هذا الانفصال النهائي عن هذه المرأة التي هي أقوى منه في الأعمال التجارية. وهي في مصر، في هذه الساعة.

هذا الضعف الذي اكتشفته أقامت بين جورج وكاترين علاقة غير منتظرة.

وفي أثناء ذلك وردت رسالةٌ من فكتور فأثارت في كاترين حنيناً منقطع النظير. وتزايد الحديثُ عن الحرب. وأخذ حلفاء الأمس يتذابحون الآن في البلقان. كان ذلك سخيفاً لكن عندما تكون الحرب مدار الأمر فإن كاترين تفكّر تفكيراً قاهراً في «فكتور». لقد كان «غاري ليتون» مفرط البلاهة حقاً.

عندما أوشك «برونيلي» على السفر، أعلنت له كاترين فجأة: «أتدري؟ سوف أصحبك، ولكن الى باريس فقط. سوف أبقى فيها يومين فقط، وسوف أعود الى هنا..» ظنّ لحظة أنه سيُدرك هدفه منها، فصدّته

بلطف، لكن بحزم. «لا، ياصاحبي، ارفع يديك!» قال: «أتدرين ان هذه أول مرة في حياتي يقع لي ذلك» - ما الذي وقع لك. أيها الشاب الساذج! - أن أُزجر هكذا - حسناً، سيكون في هذا ه عبرة لك. . ».

وصلا الى باريس منتصف تشرين الثاني. استأجرت كاترين غرفة في فندق قرب ساحة النجمة، باسم «كيتي سيمون». لن تحدث لها أية مشكلة لمدة يومين. أرسلت كلمة لفكتور. لن ترى أسرته. وفد عليها «برونيلي» على حين غرّة. كان مرحاً جداً جسوراً في مغازلته. لم تخطر لها سوى فكرة واحدة: أن ينصرف. لكنه أبى ان يبرح وكانت تلك ملابسة أزعجتها. فتظاهرت بأنها لم تفهم مزحاته الشديدة الفظاظة. وبدأت أعصابه تثور. لقد اعتمد على آخر دقيقة لينال هذه الصغيرة فما بها حتى تتأبى عليه؟ وبعد ذلك تعود هي الى لندن، ويسافر هو.

فجأة نفد صبره وأمسك بها بين ذراعيه من الخلف، وأغرق فمه المشورب في عنقها. انتفضت ودفعته بعنف. كانت هائجةً «اخرج من هنا، اخرج من هنا، ياكلب!» تقدّم ولم يصدّق هذا الغضب العاتي. فتلقى يدها في عرض وجهه. قال وقد صحا من سكرته:

آه! إن كان الأمر كذلك، يا ابنتي!».

تناول قبعته ومعطفه وخرج.

في المساء ذاته، حضر مفتشُ الشرطة الى بيت الآنسة سيمون، ورجاها ان تتبعه. نامت كاترين في سجن الشرطة وفي اليوم التالي كانت في «سان لازار»،

وقعت ملاحظةٌ صغيرة في الصحف بين يدي «جان تيبيبو». جاء

«جان» الى «سان لازار» وحصل على الإذن بالكلام مع السجينة. لم يتقابلا منذ عدة سنوات. كانت أول كلمة لضابط الأركان اللامع هو عرضه مرة أخرى على كاترين الممنوعة من الإقامة والتي عطّلت قرار المنع، أن تصبح زوجة المقدّم «تيبو». نظرت إليه بشيء من الانفعال. لقد طعن في السن، ولاضير عليه في ان يعرض عليها ذلك. قالت له: «لا، ياصاحبي، أبداً».

حصل المقدّمُ على إطلاق سبيل كاترين فأُبعدت الى بلجيكا. ولم تر «فكتور».

* * *

خاتمة

كلارا

- ١ -

سجّل عام ١٩١٢ نجاحات باهرة بالنسبة الى الاشتراكية الدولية. ففي الربيع، جعلت الانتخابات الألمانية الحزب الاشتراكي الديموقراطي أعظم حزب في الريخستاغ. وجلس الاشتراكي «شيدمان» في المقعد الرئاسي للجمعية الوطنية.

في «بال» حيث سيُعقد المؤتمر الدولي ضد الحرب كان المجلس المنطقي الأكبر في أيدي الاشتراكيين. لم يكونوا سوى ٥٠ من ١٨٠، لكن المقاعد الثمانين الأخرى كانت موزّعة بين الليبراليين، والراديكاليين والكاثوليكيين وكان هؤلاء متكتلين معهم.

كان فيها إذ ذاك ١٣٠٠٠٠ نفس، بينهم بحسب الجداول الضريبية ١٩٠ مليونيراً. كان يُصنع فيها الفولاذ والمواد الملوّنة. والورق، والجعة فضلا عن الصناعات الكهربائية. ودعا المجلس الأكبر مندوبي الأحزاب الاشتراكية من جميع البلدان، وأعار الأسقف كاتدرائيته للمؤتمر. وهكذا عبّر عن نفسه هذا التحالف بين الصليب والاشتراكية، وهو تحالف كان القاعدة البرلمانية لنظام الـ ١٩٠ مليونيراً في «بال» على الرين.

ومن جينيف وصل «برونيلي». وقد نصحه السيد «سوفبون»، مرشده كما كان يقول - ان ينزل في فندق «الملوك الثلاثة». كان ذلك في ٢٣ تشرين الثاني. كان الضباب يمتدّ على الرين زغباً. وتحت هذا الغطاء الرمادي كانت تُسمع مياهُ النهر وكأنها الآنية المحطمة. ومن فوق كان الضباب يتمزّق من الشمس فيتذرّر ذلك على الضفة الأخرى للرين وكأنه خليط من الفضة والذهب. وهكذا كانت تُرى واجهات المنازل بارزة وأحياناً حتى هيكلها.

مساكن «بال» القديمة، بنوافذها المضاعفة، مع مصاريعها الخضراء وقرميد سطوحها المسمّرة من جراء مرور الزمن.

في فندق «الملوك الثلاثة» علم «برونيلي» من سجلّ الفندق أن السيد «سوفبون» كان حسن الاطلاع: كان هاهنا «كاميلينا»، و «فايان»، و «جوريس»، و «كومبير موريل»، و «دوبروي». كان «برونيلي» يصفر صفيراً خفيفاً وهو يفكر بشيء من السخرية أن جميع الحرف صالحة. كان يحمل متاعاً رائعاً، متاعاً جديراً بأن يجعل أياً كان حتى ولو كان اشتراكياً، يتلفّت. وكان يرتدي ثياباً انكليزية. لم يكن الفندق سيّء المظهر، لكن «برونيلي» أخذ يحسّ بباريس تخطر على فكره وكأنها الهوى، باريس التي كان أحد أسيادها قبل أن يفقد مكانه فيها. كان يفكر فيها وهو عاقدٌ العزم على امتلاكها من جديد. هنا، حقاً، كانت تبدأ بالنسبة إليه، مهنته الجديدة وأمله الجدي، وسيعود ذات يوم الى باريس كالمنتصر. سيكون له نصيبه في السلطة، وسيأتي جميع هؤلاء الأغبياء، هؤلاء المنافقين الذين أداروا له ظهورهم اليوم ليلعقوا له حذاءه من جديد.

خرج الى المدينة، بعد شيء من التزيّن. كانت في الشوارع مواكب. وكان المكان الذي سيفتتح فيه المؤتمر مغطّى بالطنافس، والأعلام الحمراء مع كتابات بكل اللغات. وكان المرءُ يلتقي في الشوارع، الفرق الموسيقية، والجوقات. جاء الى المدينة، فضلاً عن المندوبين، جمهورٌ غفير من فلاحي الأرياف المجاورة، ومن عمال سويسرا بأسرها. كان كل هؤلاء الناس سيتسكعون عبر المدينة وهم رافعو رؤوسهم وشاردون، وكأنهم في جولة هائلة من جولات «كوك». وفوق كل شيء في الضباب، كانت تدوّي أجراسُ الكاتدرائية. ثقيلٌ ذلك اللحن، ثقيل، ثقيل، ثقيل. كانت الرنّات

الخفيضة تحوّم في الهواء وكأنها القلق. بدت كأنما تكذّب مظهر العيد في المدينة. كانت تنادي المنقذين نحو حريقٍ بعيد.

أفلم تعبّىء حكومةُ النمسا - المجر جيشها في وجه بلاد الصرب المنتصرة؟ ان نزاعاً نمساوياً صربياً سيؤدي الى تدخل روسيا. كانت النواقيس تتحدّث الى النجوم عن ذلك. ناقوس «بال» ليس فرحاً: انه صوتُ النذير الذي دوّى منذ العصر الوسيط ليعلن عن كثير من الأخطار والحروب. صوت يتناقض مع الشعل الحمراء على المباني العامة. صوت اليأس والذعر كأنما يقول لـ «برونيلي»: سيكون هناك أبداً حروب!

لم يكن جورج شديد التعلق بالخرافة، ولاشديد العاطفية لكنه كان، كما يقول عن نفسه، حسن العشرة. كان ابن تجّار صغار في حيّ من «نيس» وقد احتفظ من اصوله بملكة التحنّن إزاء الميلودرامات. كان في «بال» التي أخذت تستعدّ للاحتفال مزيجٌ غريبٌ من الماضي والمستقبل، من الواقع والأسطورة تملّكه فجأة. لم يكن يضمر في أعماقه، سوى الاحتقار لهذه التظاهرات السلمية التي كان يعدّها «ديكوراً». الحرب والسلم، ألم يكن يعلم أين يتقرّران، هو صديق «وسنر» الحميم، الدائن برهن الحيازة، لكثير من الوزراء والألوية؟ ان الطاولة الخضراء لمجالس الإدارة أقلُ رومانسيةً من هذا السراب الخادع القوطي في مفصل من أشد المفاصل إصابة بداء المفاصل في أوروبا العجوز. بيد أن لحن النواقيس الحزين الذي وجده جميعُ الناس طبيعياً كان يوقظ في قلب زوج ديان انفعالا، يكاد يكون انسانياً.

دخل الكاتدرائية. كان هذا المبنى يبدو كالحصن. أو على الأقل، كذلك بدا لبرونيلي هذا اليوم مع ذلك الضباب. وقد حملته على الضحك الهازىء تلك المشابهة بين الفن العسكري والفن الديني للزمان الماضي. وخطر له أن الاشتراكيين جاؤوا ليلتجئوا في هذا المكان كما كان يلتجىء

البرجوازيون قديماً وهم يهربون أمام الأسياد الإقطاعيين. وأخذ يفكر في أسياد اليوم، أسياد الفولاذ والفحم والبترول. أما هو فكان يتخيّل نفسه في بذلة صغيرة مضحكة من القرن الخامس عشر.

كان موقع الجوقة في الكاتدرائية مزيّناً كلياً بالأعلام والرايات الحمراء. فغلب في نظره الجانبُ الهزلي على مافي الإخراج من كلوح. لم يكن «برونيلي» مؤمناً، إذا ذُكر الإيمان. ولم تكن الكنائس تفرض هيبتها عليه، بل إنها كانت تثير دائماً فيه نوعاً من المرح الخالي من الاحترام كأنه أمام مشعوذ أخرق اكتشف الناس جميع حيله. كانت بساطة الوسائل بدءاً من تصفية النور بالحواجز الزجاجية حتى أعالي القبب، كان ذلك يحمله على هز كتفيه. وفوق كل شيء لامعقولية حضور الأعلام في هذه المرة. الأعلام نفسها التي هي أعلام معارك الشوارع، أعلام العمال المتمردين، والكومونيين، وقتلة الكهنة.. هزىء برونيلي من هذه المهزلة المسرفة الضخامة. فهؤلاء الكهنة مع ذلك.. شاهد فجأة وقبعته في يده جوريس يتنزه في ممرّ جانبي.

في المساء نفسه كتب برونيلي الى «سوفبون».

«.. سوف أتدبّر أمري إذن، عند الخروج من الكاتدرائية، حتى لايغيب «جوريس» عن نظري. كنتُ هنا، غير بعيد عنه، أجيل الفكر كيف أستطيع ان أتحدث معه، عندما خدمتني المصادفة، فحالفني الحظ، وكان السيد «جوريس» مشغولاً جداً بالنظر الى المنازل القديمة دون الاهتمام بالصعود الى الرصيف - بأن أكون على مقربة منه حين كادت عربة مارةٌ ترميه أرضاً، فأمسكته من ذراعه وجررته الى الخلف. شكرني فسلّمت عليه باسمه. كنتُ فرنسياً، وتعارفنا، وفوق ذلك فقد كنا نُقيم في الفندق نفسه. قدمتُ نفسي بصفتي مليونيراً غريب الأطوار. وكسبت شيئاً من ثقته لكوني

لم أخجل من الغنى، وأنا أكلمه. قلتُ له انني آت من مراكش حيث تركوني أنتقل دون حذر بسبب ثروتي، ورسمت له لوحةً مخيفة عما يجرى هناك. اهتم بذلك وقال لي انه سوف يستفهم مني عن ذلك بتفصيل أكبر، أو إذا شئتُ أن أعطيه بعض المذكرات. ولم أكن أجد مشقة لأخترع قصصاً عن الوحشية الفرنسية في مراكش. كان يكفيني ان أردد ما رواه مساعدُ «ليوتي» العسكري، منذ بضع أسابيع فقط، دون تزيين. وأنت تعلم أنني نفسٌ حسّاسة.

وذهبنا معاً، الخطيبُ الشعبيّ وأنا لمشاهدة أعمال من الرسم الفني. ففي «بال كنوزٌ فنّية. من جهتي أفضل «بول شاباس» على هؤلاء الرسامين القدماء، لكن «جوريس» في الواقع، حملني على الإعجاب بأي شيء لفرط بلاغته.

«وعدني بأن يدبّر لي مكاناً في المؤتمر، مع الصحفيين، فشكرته بحرارة على ذلك. وقادنا ذلك بالطبع الى الكلام على أخطار الحرب.

في الحقيقة، لايؤمن «جوريس» بإمكان الحرب، على مابدا لي. أي إنه يؤمن بإمكان الحرب، لكنه مقتنع بشدة أن عمال جميع البلدان سيحولون دونها. إنه يثق ثقة عظمى بالعمال الألمان ويقول إن هذا هو الشيء الرئيسي، لأنه يؤمن ان المسألة الجوهرية هي المسألة الفرنسية الألمانية، وأن الفرنسيين لن يبدؤوا الهجوم أبداً. ويبدو له الخطرُ آتياً من الطغمة العسكرية الألمانية. وحدّثني طويلاً وبكثير من الحماسة، عن مظاهرة وقعت في ضواحي برلين، في «تريبتو» ان لم تخنّي الذاكرة، في أيلول من السنة الفائتة. فقد جاء مئات آلاف العمال يحتجونّ على أحداث «اغادير» وعلى احتمال حرب أساسها المطامح الألمانية في مراكش. وفي اليوم التالي. ألقى القيصر خطبة تشهد على تراجعه. ويؤكد جوريس أن هذا هو الذي أنقذ السلام هذه المرة، لاموقف الحكومة الفرنسية الحازم ولا الخطبة المؤثرة لرئيسنا في «تولون».

يبـدو لي بالفـعل ان في مظاهرات من هذا النوع تكمن الكلمـةُ الفـصلُ للمشاريع الاشتراكية في حالة الاستنفار. ثم إن السيد «جوريس» حدثني عن تطلعاته حول إعادة تنظيم الجيش. وينبغي لي أن أقول. إن هذه التطلعات مهما تكن ظاهرة التناقض، إلا أنها لم تبد لي لاجنونيةً ولا مستحيلة، بل ولا خالية من الروح الوطنية».

وسجل «برونيلي» في عرض الرسالة عدة أحاديث قيلت في قاعة طعام فندق «الملوك الثلاثة»، وخلص الى: «ولسوف توافق على ان ذلك لايأس به كبداية. إذ انني حادثتُ من المحاولة الأولى، الممثل الرئيسي في تلك الملهاة وهو الذي أنزلني في مقدمة المسرح. وفيما عدا ذلك فإن الجهاز الصغير ممتاز. لقد أجريت به بعض التجارب وأظن أنني سأحصل على جميع الصور التي ترغب فيها. أما بين الألمان فإني استطعت الاقتراب لحظةً من امرأة تُعتبر أخطر العناصر الموجودة هنا. وهي تُدعى «زتكين» ولستُ متأكداً من كتابة الاسم: «سوف أتحقّق..».

- ٢ -

«كلارا زتكين» في «بال» تجاوزت الخمسين. إن حياتها الطويلة، إن تاريخها الطويل الذي تركته خلفها ليس شيئاً بجنب التاريخ الذي ينفتح لمستقبلها.

ليست جميلة لكن بها شيئاً قوياً يتجاوز المرأة. كانت أقرب الى القصر لكنها تدهش في عرض القسمات. مايزال شعرها أشقر من نوع ذلك الشعر الثقيل الذي لايمكن ان يثبته لا المشط ولا الدبابيس. وهيكل الوجه بارز الملامح، قوي. لايمكن للمرء إلا أن ينظر إليها في الجمهور. إنها ترتدي ثيابها بكثير من الإهمال، لكن الذي يسترعي الانتباه ويشدّ اليها صداراتها المخطّطة أو الفرو الذي لم يُركّز على كتفيها. الغريبُ فيها هو عيناها.

لقد شاهد مؤلفُ هذا الكتاب بعد عشرين عاماً كلارا زتكين وهي تموت تقريباً. كانت ماتزال إذ ذاك، في موسكو وقد أنهكها المرضُ والسنُّ، ونحلت ولم تستطع ان تستردَّ أنفاسها في نهاية الجمل التي بدت كلٌّ واحدة آتيةً كالسهم من ذلك الماضي الحيِّ الذي تجسّده، كانت ماتزال إذ ذاك تملك هاتين العينين الشديدتي الاتساع والبديعتين، عيني ألمانيا العاملة بأسرها، العينين الزرقاوين والحركتين كالمياه العميقة التي تعرضها التيارات. كان في ذلك شيء من البحار المتألقة، ومن السلف الاسطوري، من «الرين» الألماني العميق.

في الليلة التي سبقت مؤتمر «بال»، وفي فندق «الملوك الثالثة» حمّض جاسوس في غرفته، بحماسة المبتدئين، صورةٍ لكلارازتكين توصل الى التقاطها بعد الظهر في الشارع. إنه ينحني على الحوض، وهو مهتم اهتماماً فظيعاً، لأن هذه الصورة هي أول صورة يلتقطها بالجهاز الصغير الذي سلّمه إياه السيد «سوفبون» في جنيف، وأخفاه في أكرة عصاه. الصورة السلبيّة صغيرة، لكنها واضحة، ومن السهل تكبيرها، ينحني الرجلُ على الحوض، ويرى صورة كلارازتكين تظهر، وهي صورة سوف تُثبت في إضبارة الشرطة، في المكتب الثاني من وزارة الحرب حيث يُهيّأ سراً الردّ على هذا المؤتمر الذي سيُعقد في اليوم الثاتلي، في وضح النهار.

هذا الجاسوس رجلٌ وقح، لكن جدّته في المهنة جعلته، دون شك، عصبياً. ذلك أن هذا الرجل المتعود على أجمل نساء باريس، أخذ فجأة يحلم أمام تلك النظرة الغريبة التي فاجأها كاللص، ناسياً أن الصورة التي أمامه هي صورة عجوز. لم يلاحظ الفم الجرماني النحيف بزاويتيه الهابطتين، فم «غوته» و «هيغل»، لا، لم ير سوى نظرة «كلارا»، سوى عينيها الصافيتين.

ماذا قرأ فيهما؟ سجون سنوات الحرب ام تلك الساعة الباهرة التي برزت فيها تلك العجوز، في غمرة مؤتمر «تور» في ١٩٢١ بالرغم من كل الشرطة الفرنسية، وحملت إليه ذلك الكلام الناري الذي منه وُلد الحزبُ الشيوعي الفرنسي؟ لعله نظر الى تلك العدوة ليس غير، وكأنها امرأة أخرى، تحدوه فكرةٌ هي أن ينقش ملامحها في الذاكرة. إنه رجلٌ يرى أن في السناء اللواتي يهتممن بالسياسة شيئاً مضحكاً، لكنه نسي ذلك للحظة قبل حين.

في هذه الدقيقة ذاتها، في غرفة فندق في «بروكسل»، أفرغت كاترين سيمونيدزيه متاعها. فتحت وهي جالسةٌ وسط حقائبها، علبةً طلعت منها صورٌ خاطفة مصغرة، هي بعض ذكريات تجرجرها معها منْ حياتها. ما أشدّ غرابة ذلك كله الآن! صورة مقدّمة من «هنري باتاي»، جماعة مع ريجيس في «فيرفلاي»، بريجيت وميركورو.. صورة «غاري» التي مزّقتها. وتذكرت نزلاتٍ أخرى في الفندق مع أمها قديماً، في الفنادق الفخمة، وهي طفل. صورة «غريغوري» خارجة قبل غيرها. ولأول مرة خطر لها أنها لاتملك صورة لفكتور.. بين جميع صور العالم وبين عينيها، تعترض صُورٌ جديدة، تلك التي احتفظت بها من السجن. السقوط الإنساني كله والعظمة الإنسانية كها. رأت في «سان لازار» عاهرات وعاملات. كل شيء أفظع قليلاً ممّا نتصورّ: لكن بقي في قلبها يقينٌ. إنها تعلم الآن ماقدر النساء. وهي تعلم اذا اعتبرت كل شيء، أن هناك نوعين من النساء. لقد خرجت من الطفيلية ومن العهر. انفتح لها عالمُ العمل. كان محقّاً فكتور.

كان محقاً، فكتور، لكني لم أعد أستطيع الكلام على كاترين. ما أشدّ اقترابها من النور، كاترين المتردّدة، المتأرجحة. نحن مع ذلك في أواخر عام ١٩١٢، وأمثال كاترين سيمونيدزيه في هذه الإنسانية الموجودة لاتملك

إلا ان تجعلنا نستشف الأشباح عبر شاشة. لقد تجاوزت كلارازتكين الخمسين، وأنا أتخذها مثلا، لكن كل شيء يردّني إليها.

قد يُقال ان المؤلف يشرد، وأن الأوان قد آن لينُهي بمثل قرع الطبول كتاباً مما يثير الأسى فيه، أن نرى فجأة وعلى نحو متأخر جداً انبعاث هذه الصورة لتلك المرأة، وهي صورة كان يمكن ان تكون المركز، ولايمكن ان تلعب دور شخص ثانوي. قد يُقال ان المؤلف يشرد، والمؤلف لا يقول عكس ذلك. إن العالم، أيها القارىء مبنيّ بناء سيئاً برأيي مثل كتابي برأيك. نعم يجب ان يعاد صنع هذا وذاك بحيث تكون البطلة «كلارا» لا «ديان»، ولاكاترين. وإذا كنتُ أمنحك مذاق ذلك، وطيفاً من الإدارة، فبإمكانك تمزيق هذا الكتاب باحتقار، ولا أهمية لذلك عندي!

لكن في هذه الأثناء، سأحدثك، إن طاب لي، بلا انتهاء عن عيني كلارا.. ماذا؟ أظننت أنني قلت كلّ شيءٍ عنهما؟ عن هاتين العينين اللتين ستطوفان ذات يوم، من أعلى منبر الريخستاغ الرئاسي، عشية الإعصار الهتلري ذاتها، ستطوفان بتؤدة على جميع المقاعد الزاخرة بالأعداء مقدّرة العمل الضخم الذي ينبغي ان يُبذل.. حينذاك أعلنت تلك المقاتلة القديمة بصوتها الهادىء عن المجيء القادم للسوفيتات الألمانية.. أتظن انني أستنفدُ الكلام على هاتين العينين بتشبيهين أو ثلاثة؟ حين يكون الكلام حقاً عن عيني هذه المرأة العجوز، عن عيون جميع نساء الغد، شباب عيون الغد! قبل أن أستنفد صور السماء والاستعارات البحرية، قبل أن استمد من الهوى ومن الضياء كل مايمكن ان أستخدمه لأعطيك فكرةً ضئيلة عما يمكن أن يُقال عن ذلك الفجر الذي ينفتح على القرن العشرين مثل نوافذ في الجهل وفي الظلمة، ينبغي أن تسلّم، أيها القارىء، لكنني أشفق على صبرك، ثم ان

هناك حاجة كبيرة ايضاً الى قوتك، أنت لتحويل العالم. الى قوتك أنت ايضا.

- ٣ -

في ٢٤ تشرين الثاني في الساعة العاشرة صباحاً في «بورغو تيلهال» افتُتح المؤتمر، افتتحه البلجيكي «انسيل» الذي حلّ في الرئاسة محلّ «فاندير فيلز» المريض. وساعده بلجيكيان «كاميل هويسمان» و «فورنيمون»، ولم يكن «بابلو ايغليسياس» قد وصل للافتتاح. وفي المنصة جلس «بيبيل»، فايان، كوتسكي، ادلر، جوريس، كيرهاردي، برانتنغ، روزا لكسمبورج، بيرنير ستوفر، غروليش، ساكاسوف. عزفت جوقةُ بال الاشتراكية غنائية. أجاب الدعوة خمسمئة مندوب.

كانت الخطبة الأولى للاشتراكي «ورشليجر» من «بال»، الذي تكلّم باسم فرع الحزب المحلّي وباسم الحكومة. لقد حمل تأكيداً مُطمئناً على نحو فريد: ليست البروليتاريا وحدها في عزمها على شنّ النضال ضد الحرب: «بعض العناصر المستنيرة من البرجوازية تنضم الى ذلك النضال من أعماق قلبها، وهذا هو السبب الذي من أجله استطعنا ان نحصل هنا، حتى للتظاهرة السلمية، على الكاتدرائية، وأن رسالة من حكومة بال بأسرها سيُقرأ عمّا قليل..».

في الخارج كان ناقوس الكاتدرائية الخفيض يفسّر بصوته الآتي من أعماق الزمن تفاؤل «ورشليجر». ومن جميع أطراف المدينة، كان لاينفك يفد ناسٌ مبرقشون، وفودٌ تحمل أعلاماً ملفوفة، وهم يتساءلون. وكان الرذاذ الخفيف يدفع الناس الى هزّ رؤوسهم. انه لأمرٌ مؤسفٌ... لكن ماذا يُنتظر من مثل هذا الفصل؟ كانت البيوت تفرغ، والفلاحون يدخلون المدينة.

وامتلأت المشاربُ، وأخذ الجميع ينزلون نحو الثكنات. واحتشد جمهور حوالي مبنى المؤتمر. خرج المندوبون نحو الظهر منه وسط فضول مزحوم. بينما كان صوتُ الكاتدرائية يغدو أشد علواً وإلحاحاً ولا نهائية. وعبثاً يفكر المرءُ ان الكاتدرائية منضوية الى المؤتمر. وأن كلمة السلام سوف تدوّي في هذه الكاتدرائية، ذلك ان نواقيسها اتّخذت نبرة نذير الحرب على نحو لافكاك منه. نواقيسها تدق دقة الحرب، الخطر. لم تستطع ان تتخلى عن دورها الذي مضت عليه قرون. كانت تئن أنيناً متثاقلا وكأنها في زمن شارل المتهوّر. ألم يكن التهديد آتياً ايضا من قبل الامبراطورية المقدّسة؟ كان كاللحن الذي لايتوافق مع كلمات الأغنية. كانت الشوارع تعجّ بالبدلات الريفية، والسراويل القصيرة، والقمصان الجديدة، والقلانس الخضراء. وكانت تُجرب النايات ُفي الأفنية.

أخذ الموكب يتكوّن قرب الثكنة.

تحرك في نحو الساعة الثانية.

كان الجمهور يحيط بتلك الحية ذات الثلاثين ألف رأس. جاء أناس من «باد» ومن الألزاس واللورين. كان الموكب كثيفاً وقد لُزّت الأكتاف بالأكتاف. كانت البيارق والرايات في كل مكان. امتزجت بحمرة الأعلام روضةٌ من الألوان والزينات والبدلات.

عزفت اثنتا عشرة جوقة ألحاناً كان يطرد بعضها بعضاً من لحن رُعاة البقر الى النشيد الدولي. بينا طغى قرعُ النواقس.

تقدّم على رأس الموكب مئةٌ من راكبي الدراجات من الحزب الاشتراكي يمهّدون الطريق. كانوا يسيرون ببطء عسير قد يجعل أحدهم فجأة غير قادر على تمالك نفسه فينحرف جانباً. انفتحت الشوارع أمام هذه

الكوكبة السلمية. ثم أتت بعد ذلك شبيبةُ «بال» الاشتراكية. هنا تبدأ الأنشودةُ.

كانوا مئات من الشباب باللباس الوطني - تصوّروا «غيوم تيل» وهو في العشرين سائراً في جمهور من أشباهه، القبعة الصغيرة، والقميص ذي الكمين الواسعين، والحمالة الخضراء، والركبة العارية الخارجة من السروال، والقوس على الجنب. كانوا يتقدّمون في ظل الأجراس العتيقة، وكأنهم التقدمة الأولى لاله الحرب. إن أبطال الاوبرا هؤلاء بدوا كأنهم يسيرون تحت رمي السد المدفعي. كانوا يتقدمون تحت صوت المزامير الثاقب، وهم يعزفون وينطّون، بالرغم من تشرين الثاني المشؤوم. هذا العرس القروي لم يبد عليه أنه يسمع قرع النواقيس المأتمي الذي استقر فوق المدينة سيّداً لانزاع عليه.

خلف موكب أشباه «غيوم تيل» جاءت الفتيات، وهن يرتدين البياض، مع فساتين على الطراز المسرف القدم، مازجات بذلك العصور والأساطير. بعضهن على أقدامهن، والأخريات على العربات. كن يضعن شارات «سلمية» مع حمائم، ومع باقات، وأدوات من الكرتون. كانت شعورهن كلهن تقريباً مشعثّة.

وكان الأولاد بلباسهم الأبيض وجلابيبهم القصيرة يحركون سعفاً كُتب عليه بحروف مذهبة أن تجفيف الدموع أعظم مجداً من سفك سيول من الدم. وخلف هذه الجماعة بالذات كان يمشي، لا المسيح داخلاً القدس، بل «جوريس» و «كوتسكي»، بثيابهما الداكنة. وسار المندوبون وسط الأعلام. كان ثمة كمية كبيرة من الأعلام التي لم يكن معظمها مجرد رايات حمراء، لكنها كانت تحمل شعارات نقابية تعود بالعرض الى قلب العصر الوسيط.

وعلى عربة كأنما زُينت لمعركة الزهور، عربة كلها من زهور بيضاء،

ملكةُ السلام، تحيط بها وصيفاتُها وهي تنفخ في بوق فضي. وهكذا فقد كان الموكب يقترب من الأوبرا والكرنفال. لكن رنين الأجراس بدا كأنه يرد رداً مفجعاً على هذه الخفة البشرية، على هذا النقص الغريب في الجدّ، حيث برزت وجوهٌ رصينة لزعماء الاشتراكية الديموقداطية.

تتالت الجماعات القومية، يفصلها فاصلٌ واضح، وهي تغني. الألمان فالمجريون فالكرواتيون فالفرنسيون فالبلجيكيون فالانكليز فالروس. لم تكن الأناشيد واحدةً: كان لكل بلد نشيده. ولم يكن الفرنسيون يعرفون سوى النشيد الدولي. كانت الوحدة في ذلك كله - وكان التنافر فيها مخيفاً في بعض الأحيان- قائمة في نهاية المطاف على رنين الأجراس التي جنّت. وكان أربعة عمال يحملون وسط الموكب كتاباً ضخماً نقشت عليه الكلمتان التاليتان: ألقوا السلاح!

عندما بلغ الموكبُ الكاتدرائية، شوهدت الأعلام تتجه لتتلاقى عند البوّابة الكبرى. فبدت كأنما تشكل وردةً حمراء هائلة يتلقّفها فمُ مارد. اكتسح السيلُ البشري الكاتدرائية وملأها حتى آخر زاوية فيها. وأكثر من ذلك استقرّ في الخارج من استطاع أن يستقر، نحو عشرين الف شخص، توزعوا حول الكاتدرائية ولاسيما على السطح الذي يشرف على الرين، في اجتماعات كبيرة أربعة، تلكم فيها «فايان»، بين غيره من المتكلمين. اتسعت الكاتدرائية لعشرة آلاف اشتراكي وأطلقت بعضُ النداءات المشبوبة. وبعد ذلك صمتت النواقيس فجأة، وكان ذلك شبيهاً ببيت فيه محتضرٌ، بينما نُشر القشُ على الرصيف.

لقد أخذت النواقيس تُصغي الى الخطباء.

ستروي كتبُ التاريخ ذات يوم الخطب النبيلة والأفكار العظيمة التي دوّت في مؤتمر «بال» . ليست هذه هي مهمتنا ولا مطمحنا. وعندما يُعرَض «بلوكر» رئيس حكومة «بال» الاشتراكي، وهو ينحني أمام الديانة المسيحية، مثل عدد لايستهان به من الخطباء الأخرين الذين لم تكد نفوسهم تعود الى سكينتها بعد كلامهم تحت قبة كاتدرائية، وعندما يُعرض «ببيل»(١) العجوز وهو يشكر الأسقف ويؤكد ان المسيح لو عاد لانضمّ الى الاشتراكيين لا الى المسيحيين؛ وعندما تُنقل مع ذلك كلمات «ببيل» وهو يؤكد من جهة أخرى أن الذين يقولون «على الأرض السلام لذوي النيات الحسنة!» سيكون فرحهم أعظم عندما يعتلون المنبر ليدفعوا الشعب الى الحرب القاتلة، الى إبادة البشرية والى تدمير كل شيء" وعندما يعرض «غروليتش» و «كيرهاردي» وهما يريان في الانتصارات الانتخابية للاشتراكية ضمانةً للسلام"، وجميع الآخرين. . و «هاس» كرجل أحسّ بخطئه فتخبّط في حديثه عن النواقيس والبلقان؛ و «آدلر» يستلهم الانجيل؛ عندما نقتطف من كل خطبة خميرتها الثورية الغارقة في الجمل، المناداة بجميع الوسائل ضد الحرب لدى «فايان»، والمناداة بالعمل الشرعي او الثوري لدى «جوريس»، فلن يكون سماعنا لذلك سماعاً لذلك القلب الكبير الذي خفق ذلك اليوم في «بال».

لعل في هذا العرض لأشباه «غيوم يتل» وللائكة السلام من المضحك أكثر مما فيه من الفعالية. ولعل طابع التهريج غلب على الطابع المأساوي. ولعلنا لانستطيع إلا ان نشاهد اليوم، في هذا العرض لرهبان رسميين، سوى

---

(١) توفي «ببيل» سنة ١٩١٣ وكان عمره في المؤتمر ٧٢ عاماً ومن أشهر كتبه «المرأة والاشتراكية». المترجم

وجوه الخونة الذين سيسلمون بعد ثمانية عشر شهراً سادة الحرب البروليتاريين الاوروبيين. ربما كان ذلك حقاً.

ومع ذلك ففي هذا الاحتفال الذي يرتفع منه نفحُ البخور والعفونة المنبىء بمذابح «مازورتلند» و «فردان»، لستُ أضحك من حركة الأطفال الذين ينثرون الورود. ماذا سيحل ذات يوم برؤساء الجوقات الفتيان هؤلاء في ١٩١٢؟ ستتعلم أيديهم كيف تحمل السلاح وسيلقون ذات يوم وروداً قاتلة، وقنابل بهذه الأيدي نفسها.

لستُ أضحك من هذه الجموع الغفيرة المتجمعة في «بال»، من ذلك الأمل العظيم الذي خاب. ليس كل هؤلاء الناس خونة. إن بينهم أيضاً رجالاً وُسموا بأصبع من دم. إني أرمي ببصري على هذا السطح الذي يشرف على الرين وحيث يتكلم في هذه الدقيقة «بريسنسيه» وأنا أرى فيه آلاف وآلاف الرجال الشباب الأحياء. ان جسدهم دافىءٌ نابض بالحياة. الدم يجري الى وجناتهم. حركاتهم سهلة سهولة الأجسام التي تعمل. نساؤهم معهم، وخطيباتهم، وأولادهم. حركاتهم غير متوقعة، وهم يلمسون بمرح جيرانهم، وتتقد عيونهم، وتحطّ بهدوء على شفاه، وعلى صدور. ان لهم رغبات الرجال، فهم جياع، عطاش. إنهم يشعرون بالارتخاء عندما ترفع فتاة ذراعها العارية. وهم يتبعون بأبصارهم وبثقة حركات الخطيب والارتعاشات الحمراء للأعلام. هذا الجمع الهائل جاء الى هذا المكان وكأنه يجيء لاحتفال إني أخاف ان أنظر الى قدرهم في وجهه.

انه لشيء مروّع مثل قطار الضاحية نهار الأحد لو علمنا الى أية كارثة تمضي مثلا هذه المجموعة من فلاّحي «بادن».

كان من «بادن» ذلك الصبي من قرعة الـ ١٩ قرب «اولشي لافيل»، وبالتأكيد في ٢آب ١٩١٨. قد غمرت المدافعُ الفرنسية الهضبة بالغازات

السامة الجديدة التي كنا نجهل آثارها، وعندما وصل إلينا ذلك الفتى الذي بلغ التاسعة عشرة تائهاً معمياً، قاذفاً بيديه الى الأمام، وكنا نحن في مأمن ما انحدر من الطريق، رأيت في وجهه شيئاً غير طبيعي. تردّد لحظة، ثم رفع راحته اليسرى الى وجهه، كمن وجعه رأسه، وضغط على وجهه بأصابعه، وعندما نزلت يده كانت تمسك بشيء مدمّى لا سبيل الى تسميته: أنفه. فكرّوا ملياً بما صار اليه وجهه.

لم أنسَ تماماً منذ ذلك الزمن رائحة الغنغرينا التي ليست هي نفسها على جيفة الحيوان وجيفة الإنسان. وأنا أحسّها أحياناً في الحلم. فيوقظني ذلك. وأنا في سريري. وليس بجنبي جثّة فأبتسم في الليل ابتسامة تعبر عن البلادة والراحة. دعكَ، ربما عاد ذلك ذات يوم، لكننا لم نصل الى ذلك اليوم بعد.

كنا في «بال»، لاريب في ذلك.

نحن، لن يوقفنا شي: لن يشقّ علينا أن نرسم طريقنا عبر الجمهور حتى في الكاتدرائية التي ضاقت بمن فيها. تصّوروا كم من هذه الأذرع والسيقان التي يجب ابعادها لنمرّ، ستسقط من هذه الأجسام القوية في السنوات الآتية. نحن نعبر اجتماعاً من المشوهين ومن الجثث. جوريس يتكلم في الكاتدرائية.

آه! ان مراقب المكتب الثاني، الذي يفتخر بأنه خدع امس الخطيب الكبير، يصمت الآن ويصيخ السمع، إذ لم يعد واثقاً بصحة العمل الذي عمله. إن جوريس، مع ماشئت من العيوب والأخطاء، في هذه الدقيقة التي يحمله فيها الكلام الى ماوراء عقله البرجوازي، والتي يحسّ فيها بخفقان ذلك القلب العمالي الذي يعبّر عنه بعد كل شيء، إن جوريس يجسد حقاً النضال ضدّ الحرب، والكلمات التي يلقيها اليوم ستدوّي حتى في أعماق

صالة المطالعة من مدرسة «ستانيسلاس» حيث سيلتقط المعلمُ «فيلان»[1] صداها بحقده، كما أن هذه الكلمات ستوقظ في رأس رجل المكتب الثاني، في «بال» فكرة القتل وكأنها ضرورة.

لم يحدث قط، في هذه الكنيسة، التي جمع فيها قديماً زعماء المسيحية في الساعات الخطرة مجمعاً دينياً، كأن مؤتمر اليوم نسخته الحديثة العجيبة، لم يقع قط في هذه الكنيسة التي سجدت فيها خلال قرون برجوازيةٌ متكبرة وميّالة الى الفنون، لم يحدث قط، في هذه الكنيسة، أن دوّى مثلُ هذا الصوت العظيم، وأن أصاب حبّات القلوب مثلُ هذا الشعر العظيم.

تكلّم جوريس عن أجراس «بال»: «... الأجراس التي يُناشد غناؤها الضمير الشامل..» وعادت أجراس «بال» ترنّ في صوته، . كلّ مادقّته هذه الأجراس في حياتها كأجراس، يعود الآن الى الرنين تحت هذه القباب مع فخامة جوريس الصادحة، تعود مع السحر الذي يعرف كيف يمنحه الكلمات، سحر أجراس كلماته. إنها جماع آلام البشرية التي حاولت الديانات باطلاً ان تتحاشاها. إنها أمل الثورة، الثورة التي تتصاعد عبر الخطبة التي تحتدم. مرقص الكلمات كرة الأصوات. الأفكار مثل الأغاني في كاتدرائية «بال». إن الكتابة التي نقشها «شيلر» هذا الشاعر العظيم على الجرس الرمزي لأشهر قصيدة له، يستعيدها «جوريس على« نحوٍ مسرحي: «أنادي الأحياء، وأبكي الموتى، وأحطمّ الصواعق!».

نحن على بعد اصبعين من الهاوية، والذي سيُقتل أولاً يصرخ بهذه الجملة السحرية. الأحياء والموتى يصغون إليه وقوفاً، متراصين في صدر الكنيسة ومصلاّها. جناح الكنيسة يُدهش حتى أعلى أقواسها الغوطية من الكلمات التي تفجرّ بلاط الشارع. وترتعش الجوقة التي تغمرها أعلامٌ بلون الدم: «أنادي الأحياء، وأبكي الموتى، وأحطّم الصواعق».

(١) فيلان هو قاتل الاشتراكي «جوريس» سنة ١٩١٤ . المترجم

عبر سماء أوربا كلها، وهناك في أمريكا البعيدة، تتجمع سحبٌ معتمة، مثقلة بكهرباء الحروب. وتراها الشعوب تتراكم لكن ظلها يحجب في الوقت نفسه، أصلها. إن أمثال «سونر»، و «روكلفر» و «وندل»، و «فنلاي»، و «كروب»، و«بوتيلوف» و «مورغان»، و «جوزيف كيسنيل»، يتحركون في عالم علوي، مغلق عن الجماهير، وفيه يتحدّد مصير الجماهير. ففيه تسّجل أرقام على ألواح سوداء. وتمرّ أشرطة صغيرة مثقوبة في أجهزة آلية. ، الحرب الحرب تُهيّأ، إنهاهنا. «أنادي الأحياء، وأبكي الموتى، وأحطّم الصواعق!».

واأسفاه! أخفقت محاولةُ تحاشيها. لن تُحطّم الصواعق. الأحياء.. لكن مَنْ الذي يستطيع أن يزدان في هذه الساعة بذلك الاسم العجيب؟ عندما يكون كل شيء موقتاً الى هذا الحد، وعندما يُصنع لك الميتُ من الحيّ وكأنه أتفه الأشياء. قال جوريس: «يجب ان تتذكر الحكومات، عندما تتصدّى لخطر الحرب، كم سيكون سهلاً على الشعوب ان تقوم بحساب بسيط يثبت ان ثورتهم الخاصة بهم تكلّفهم تضحيات أقل من حربهم للآخرين.

وصمت. هل ستنهار الكاتدرائية من جرّاء الهتافات وصيحات التهليل؟ إن انتصار «جوريس» انتصار دام. ولن يغفر له أبداً أسيادُ الحرب والسلم. ونحن الذين صفّقنا له صوّتنا على قرار موته.

— ٥ —

لم ينقل عددُ صحيفة «الإنسانية» الذي عرض مؤتمر بال، جملةً واحدة من خطبة أُلقيت هناك. بل لقد أُهمل ذكرُكون هذه الخطبة قد أُلقيت. ولم يُشر في الصحيفة الى حضور الخطيب الذي ألقاها. وبحسب«

انسانية» الغد، كان مستحيلاً ان يخطر على البال حضور المناضلة الألمانية «كلارا زتكين» التي تكلمت باسم جيمع النساء الاشتراكيات.

«إذا كنا، نحن الأمهات سنُلهم أبناءنا أعمق الكره للحرب، إذا كنا سنزرع فيهم منذ مطلع صباهم الشعور بالإخاء الاشتراكي، إذن سيأتي الزمنُ الذي لن يكون فيه، في ساعة الخطر الأشد إحراجاً من سلطة على الأرض، قادرة على انتزاع هذا المثل الأعلى من قلوبهم. وحينئذ سيفكرون قبل كل شيء، إبّان الخطر وأرهب النزاعات، في واجبهم، واجب الإنسان والبروليتاري.

«إذا ثرنا نحن النساء والأمهات، ضدّ المذابح فذلك لايعني أننا عاجزات، بسبب أنانيتنا وضعفنا، عن التضحيات العظيمة من أجل أغراض عظيمة، من أجل مثلٍ أعلى؛ لقد مررنا بمدرسة الحياة القاسية في المجتمع الرأسمالي، وفي هذه المدرسة غدونا مقاتلات..

ولذلك بوسعنا ان نواجه معركتنا الخاصة بنا وأن نموت إذا دعت الحاجة الى ذلك في سبيل قضية الحرية..».

إنها تتكلم. إنها تتكلم لا كامرأة منفردة، كامرأة وعتْ لذاتها حقيقة كبيرة، كامرأة زوّدتها بالمعرفة وبمواهب الرجال ظروفٌ استثنائية، كامرأة عبقرية وُلدت في مختبر بشري. بل إنها تتكلم، على العكس كامرأة من أجل سائر النساء، لتعبّر عما تفكّر فيه جميعُ النساء، نساء طبقة. إنها تتكلم كامرأة تكوّن فكرها في شروط الاضطهاد، وسط طبقتها المضطهدة.

انها ليست استثناء. وما تقوله يستمدّ قيمته من أن آلاف وملايين النساء يقلنه معها. لقد تكوّنت مثلهن، لا في دعة الدراسة والغنى، بل في معارك البؤس والاستغلال. إنها بكل بساطة، والى أعلى درجة من الكمال، نموذج المرأة الجديد الذي لاصله له بتلك اللعبة التي جعل منها

الاستعباد والبغاء والفراغ أساس الأغاني والقصائد عبر جميع المجتمعات الإنسانية حتى بومنا هنا.

انها امرأة الغد، أو بالأحرى، ولسنا نخشى ان نقول: إنها امرأة اليوم. المساوية للرجل. التي إليها يتجه هذا الكتاب، التي فيها تحلّ المشكلة الاجتماعية للمرأة وتُتجاوز. معها وبكل بساطة لن تُطرح هذه المشكلة. المشكلة الاجتماعية للمرأة، معها، لن تُطرح على نحو مختلف عن مشكلة الرجل. لقد هتفتْ: «لأن انتصار الاشتراكية الآتي يُعدُّ بالذات في النضال ضد الحرب، إنما ندعم، نحن النساء، ذلك النضال. إن الدول القومية، لنا للعمال اكثر منا، لايمكنها ان تغدو وطناً حقيقياً. علينا نحن أن نخلق هذا الوطن في المجتمع الاشتراكي الذي يضمن وحده شروط التحرّر الإنساني الكامل».

الآن، وهنا تبدأ الأنشودة الجديدة. وهنا تنتهي رواية الفروسية. هنا ولأول مرة في العالم يُخلق مكانٌ للحب الحقيقي، الحب الذي لم يُدنّسه تسلسلُ الرجل والمرأة، وقصةُ الفساتين والقبلات الدنيئةُ، وتسلّط مال الرجل على المرأة والمرأة على الرجل.

لقد ولُدتْ امرأةُ العصور الحديثة، وهي التي أغنيّها. وهي التي سأغنّيها.

* * *

الفهرس

القسم الأول : ديـان	٥
القسم الثاني : كاتريـن	٩٣
القسم الثالث : فكتـور	٢٢٥
خـــاتمـــة : كـــلارا	٣٥١

ط١ ٣٠٠٠/١٢/١٩٩٧

طبع في مطابع وزارة الثقافة

دمشق ١٩٩٧

سعر النسخة داخل القطر

٣٠٠ ل.س

في الأقطار العربية ما يعادل

٦٠٠ ل.س

To: www.al-mostafa.com